مِن قضايا الفِكر الإسلامي

في مواجهة التغريب واستلاب الهوية

الدكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
الجزيرة للنشر والتوزيع
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف - ت: ٥١٢٠٨٤٧

الفهرس

الفصل السادس: الماسونية

الفصل السابع: البهائية

الفصل الثامن: مشاريع الإصلاح

****

مِن قضايا الفكر الإسلامي

في مواجهة التغريب واستلاب الهوية

الدكتور
محمد السيد الجليند
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر
☎ ٢٥١٢٠٨٤٧

مِن قضايا الفِكر الإسلامي

في مواجهة التغريب واستلاب الهوية

الدكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

☎ ٢٥١٢٠٨٤٧

رقم الإيداع : ٢٣٧٥٥ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي : 6 - 200 - 315 - 977

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد العلمين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم آمين.

هذه قراءة تاريخية موجزة عن المذاهب الفكرية المعاصرة وما أحاط بها من ملابسات وظروف ثقافية واجتماعية وسياسية كانت هي الأسباب والدوافع وراء ظهور هذه التيارات الفكرية، وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات والمفاهيم التى حملت فى مفرداتها المضمون العقائدى والحضارى لهذه التيارات، ثم وفدت إلينا هذه المصطلحات وهى محملة بهذه المضامين الغربية العقائدية التى مثلت الثورة والتمرد على كل ما هو دينى وتراثى لأسباب خاصة فى بيئة خاصة ولظرف تاريخى خاص، وحاول البعض أن يقحم هذه المصطلحات بنفس المضامين على واقعنا الثقافى والعقائدى وإن يطبق على واقعنا الثقافى والعقائدى ما طبقته أوربا على واقعها فى العصور الوسطى، وقد اخترنا أمثلة معينة من هذه التيارات لأن لها دعاة وأقلامًا تدافع عنها فى عالمنا العربى تحت مسميات زائفة، مثل حرية الفكر، التقدمية، التنوير، وهى كلها أسماء تحمل فى مضمونها ما هو حسن مقبول وما هو زائف مرفوض. ولقد صاحب نقل هذه المفاهيم إلى لغتنا العربية أمران على جانب كبير من الأهمية ساعدا على قبول هذه المفاهيم عند البعض دون أن يميز فيها بين ما هو حق فيقبله وما هو زائف فيرفضه.

الأمر الأول: تسرب الروح الانهزامية إلى نفوس قطاع كبير من المثقفين نتيجة الواقع المتردى الذى يعيشه الشرق، وتتابع الهزائم وتنوعها فى كثير من المواقع التى تمثل المواجهة مع الآخر وذلك على امتداد القرنين الأخيرين وربما قوى من الإحساس بهذه الروح الانهزامية المواجهات العسكرية مع الغرب عامة ومع إسرائيل ومن هم وراءها بصفة خاصة، وذلك التفاوت الشنيع بين الموقفين، الموقف العربى

الذى يعتـمد على الآخر فى كل شىء ولا ينتج لنفسه أى شىء ابتـداء من رغيف الخبز.

أما الأمر الثانى: الأكثر أهمية هو ذلك الارتباط الذهنى الزائف بين تفوق الغرب علمياً وموقفه من الدين والتدين فى العصور الوسطى، فلقد حاول البعض أن يربط بين الاثنين ربط الأسباب بالمسببات وأحل كلمـة الدين فى ثقافتنا محل الكنيسة فى ثقافة الغـرب وبنى على ذلك رأيه فى أن تخلص أوربا من الدين ومن سطوته كان سبباً فى تقدمها علمياً وحضارياً، وتبنىَ مجموعة من دعاة التنوير فى عالمنا العربى هذه الأكذوبة وروجوا لها وسخروا لها كثيراً من وسائل الإعلام والتبس الأمر على الشباب وبات من الضرورى تصحيح هذه المفاهيم وبيان ما فِيها من لبس وتضليل. يجب الحذر منه، وما فيها من حق يجب تقبله وأن ننبه إليه.

ونسى هؤلاء وأولئك أن التـقدم العلمى له أسبـابه وللنهضة الحـضارية أسبـابها كذلـك، وأن إقحـام الدين الإسلامى فى هذه المعـركة خـديعة كـبرى خطط لـها الاستشراق والاستعمار معا لاستلاب الهوية الإسلامية المناهضة للاستعمار وخيوطه العنكبوتية فى المنطقة.

وليست هذه الدراسة إلا دعوة للانفتاح على الغـرب لكن بعقلية ناقدة فاحصة تميز بين ما ينفع فنقبله ونشكرهم عليه، ومـا لا ينفع بل يكون ضرره أكثر من نفعه فنرفضه ونحذر منه وهذا مـا يدعونا إليه رصيدنا الثقـافى فإن الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها كان أحقَّ بها.

والله من وراء القصـد، وندعوه سبـحانه أن يجعل عـملنا هذا خالصا لوجـهه الكريم وأن ينفع به المسلمين آمين.

المؤلف

الفصل الأول

[١]

الاستشراق والتبشير

الاستشراق والمستشرقون

ما هو الاستشراق؟:

أطلق لفظ الاستشراق على تلك المحاولة التى قام ويقوم بها بعض مفكرى الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامى وحضارته وحضارته وثقافة الشرق وعلومه.

كما أطلق لفظ مستشرق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع فى أصل وضعه إلى مفكرى الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفى العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التى كان يطلق عليها فى الماضى العالم الشرقى، أو دول الشرق.

والذى يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط فقط أو المنطقة العربية بالذات، ذلك أن متابعة جهود المستشرقين خارج المنطقة العربية عمل فوق الطاقة الشخصية وليس ذلك داخلاً فى خطتنا من هذه الدراسة ولا يمثل ذلك هدفًا لنا الآن، كما أن دراسات المستشرقين المتعلقة بشعوب العالم الإسلامى من غير العرب كالهند وباكستان وأندونيسيا ودول شرق وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، كانت فى معظم أحوالها تسير على نفس المنهج وبنفس الطريقة التى كانوا يسلكونها فى منطقة العالم العربى، وكان الهدف من محاولات المستشرقين وجهودهم فى الدراسات التى قاموا بها فى هذه المناطق كلها هو تطويق المد الإسلامى والعمل على انحساره ووقف نموه المطرد بين أبناء هذه الشعوب المتباعدة وإن كانت أعمالهم تبدو فى معظم أحوالها فى ثوب علمى أو أكاديمى، فإن ذلك ينبغى ألا يحجب عن أعيننا نواياهم الخفية التى صرح بها معظمهم فى المؤلفات والمؤتمرات العلمية التى كانت تعقد بين الحين والحين لهذا الغرض.

أ- النشأة والتاريخ:

علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية:

يربط كثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وذلك الفشل الذريع الذى منيت به أوربا فى الحروب الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبى، ذلك أن الحملات الصليبية لم تحقق للغرب طموحاته ولم تسعفه بالسيطرة على الشعوب العربية واستخلاص بيت المقدس من أيدى المسلمين، ومن الجدير بالذكر أن الحملات الصليبية المتكررة على العالم الإسلامى قد رفعت الصليب شعاراً لهذه الحرب لتعلن للعالم الأوربى أنها حرب دينية مقدسة من ناحية أسبابها ودوافعها، ومن ناحية غايتها وأهدافها، وما دامت هذه الحملات لم تحقق الهدف الذى قامت من أجله فلا بد من البحث عن بديل آخر، ولا بد من التفكير عن وسيلة أخرى -ربما كانت طويلة الأجل- تحقق لهم هدفهم من السيطرة على شعوب المنطقة وإخضاع العالم الإسلامى لنفوذهم الثقافى والحضارى ثم السياسى والاقتصادى وكان الاستشراق هو ذلك البديل المتاح فى حينها، ليحقق أحلام الغرب وأهدافه.

وإذا كان فكرة السيطرة على العالم الإسلامى تمثل الهدف والغاية، من نشأة الاستشراق فإن ذلك لا يمنع أن يتجاوز الاستشراق هذا الهدف فى مسيرته التاريخية إلى أهداف أخرى علمية أو حضارية أو ثقافية، لكن الذى أود أن ألفت النظر إليه أن الهدف الأسمى للاستشراق لم يغب عن ذهن المستشرقين لحظة واحدة، بل كان هو المحور والأساس الذى دارت حوله معظم دراسات المستشرقين التى قاموا بها حول الشرق وعلومه، وقد تختلف درجة وضوح هذا الهدف ووسيلة التعبير عنه من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل من المستشرقين، إلا أن ذلك لم يكن سببه غياب الهدف عن ذهن هذا المستشرق أو ذاك، وإنما كان سببه يرجع إلى حظ المستشرق نفسه من الثقافة العربية ودرجة إتقانه لها، وذكائه فى أسلوب التعبير عن غايته وهدفه، تصريحًا أو تلميحًا.

ولقد تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامى والغرب بعد الحروب الصليبية فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمى المكانة الأولى فى دراسة نفسية

الشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل للمواجهة وكان ذلك بديلاً عن المواجهة بالسلاح والقوة العسكرية.

ولقد فرض هذا الأسلوب الجديد فى المواجهة العكوف على دراسة أحوال الشرق؛ لغته ودينه، حضارته وتاريخه، فلسفته وعلومه، عقيدته وأصولها، وأن توضع المناهج الدراسية المناسبة لاستكشاف عوامل هذه القوة الصلبة التى تكسرت عليها تلك الحملات الصليبية المتكررة، ومحاولة فهمها وتحليلها تحليلاً نفسيًا لمواجهتها بأسلوب يختلف تمامًا عن المواجهة العسكرية.

ولما كان القائمون على أمر الحروب الصليبية والمحركون لها هم رجال الكنيسة وسدنتها، فإن ذلك جعل رجال الكنيسة فى طليعة المهتمين بأمر الشرق ودراسة أحواله، ومن هنا فإن طليعة المستشرقين كانوا فى معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحى[1].

بداية الاستشراق وأسبابه:

١- لا نستطيع الجزم بتحديد من هو أول شخص نبتت فى ذهنه فكرة الاستشراق وغزو الشرق من الداخل، إلا أن معظم المحققين لهذه المسألة يكادون يجمعون على أن بداية هذه الحركة نشأت فى نهاية القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر بفرنسا، وأن الراهب الفرنسى (جربر دى أولياك ٩٣٨-١٠٠٣م) كان من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق، حيث رحل من فرنسا إلى أسبانيا مهد الحضارة الإسلامية فى وقته، فتعلم فيها اللغة العربية ووقف على علوم العرب فى الرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة، كما قرأ بعض العلوم الدينية حتى قيل إنه كان أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وخاصة فى الرياضيات والفلك، ثم ارتحل إلى روما حيث اشتهر من بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها، وانتخب حبرًا أعظم باسم سلفستر الثانى (٩٩٩-١٠٠٣م) وكان بذلك أول بابا فرنسى، واستطاع من خلال منصبه الجديد أن ينشئ مدرستين لتدريس اللغة العربية وعلومها، وكانت الأولى فى روما مقر البابوية، والثانية فى وطنه الأصلى «دايمس»، ثم أنشأ بعد

---

(١) الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار: د/ محمد البهى صـ ٤٢٩.

ذلك مدرسة ثالثة تسمى مدرسة «شارتر» وقام هذا الراهب الفرنسى بترجمة بعض الكتب العربية فى الرياضة والفلك، وإليه يرجع الفضل فى انتشار الأعداد العربية فى أوروبا التى كانت ينقصها رقم الصفر، ولم تكن تعرفه حتى نقله إليها (جرير دى أولياك) من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية[١].

٢- ثم جاء بعده (قسطنطين الأفريقى ١٠٨٧)، (بطرس المحترم ١٠٩٢- ١١٥٦م) و(أرجو دى سانتلا ١١٠٧م) ثم (جيرارد كريمون ١١١٤- ١١٨٧م) ثم تتابع رواد هذه الحركة وتكاثرت أعدادهم واختلفت جنسياتهم بحيث شملت معظم دول أوربا وأمريكا فى العصر الحديث، وكان هؤلاء إذا عادوا إلى بلادهم عملوا على نشر علوم العرب بين أبناء وطنهم إلى أن تطور الأمر بعد ذلك حيث أنشأت الحكومات الأوربية فى جامعاتها أقسامًا مستقلة لتدريس اللغة العربية وعلوم الشرق.

٣- ثم أخذت بعد ذلك حركة الاستشراق تنمو فى اطراد مستمر حتى سنة ١٣١١- ١٣١٢م، حيث عقد مؤتمر فينا الكنسى وكان من أهم قراراته إنشاء كرسى للغة العبرية والعربية فى معظم جامعات أوربا، فتأسس كرسى اللغة العربية فى روما على نفقة الفاتيكان، وفى باريس على نفقة ملك فرنسا، وفى إكسفورد على نفقة ملك انجلترا، ويعتبر كثير من المؤرخين لحركة الاستشراق أن هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنية بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفة خاصة.

ب- الدوافع والأهداف:

مما لا ريب فيه أن الحروب الصليبية قد تركت آثارها السيئة على نفسية الغرب، لكنها فى الوقت نفسه قد فتحت أعين الغرب على الشرق وما فيه من علوم ومعارف وحضارة، ولقد واكب ذلك ما شهدته أوربا من حركة (الإصلاح الدينى) وموقف الكنيسة من العلم والعلماء، ولقد فرضت هذه الظروف الجديدة على الكنيسة أن تعيد ترتيب أوراقها، وأن تعيد النظر فى المفاهيم الدينية التى تتعامل بها

(١) انظر (المستشرقون) لنجيب العقيقى ١/ ١١٠ وبعدها.

مع العلماء، بحيث تعيد تأويل هذه المفاهيم بما لا يتعارض مع العلم، وترتب على هذه النزعة الإصلاحية أن أحس الغرب بحاجته إلى التعرف على المزيد من علوم الشرق وثقافته، ومن هذه المواقف وغيرها كانت الدوافع والأهداف وراء حركة الاستشراق، ونستطيع أن نوجز أهم هذه الدوافع فيما يلى:

١- أسباب دينية:

لا يمكن إرجاع ظاهرة الاستشراق إلى عامل واحد فقط وذلك نظرًا لاتساع نشاطه وتعدد أهدافه، ولكن الذى لا أشك فيه هو سيطرة السبب الدينى على سائر أسبابه الأخرى، وفى هذه الدراسة الموجزة من النصوص ما يدل بيقين على صدق ما نقول من سيطرة السبب الدينى وهيمنته على الأسباب الأخرى، ولقد سلك المستشرقون وسائل شتى لتحقيق هذا الهدف الدينى، لكن كان أخطرها بلا شك التركيز على إثارة القضايا الخلافية فى الفكر الإسلامى والعمل على إحياء الآراء الشاذة للفرق المغالية ليشغل المسلمون أنفسهم بها عن التفكير فى عظائم الأمور، فعمدوا إلى إثارة الخلافات المذهبية والصوفية، كما ركزوا فى دراساتهم على إحياء ألوان معينة من التراث الصوفى للغلاة من الصوفية فتخصص الكثير منهم فى تراث ابن عربى وابن سبعين والحلاج وذى النون المصرى، وحاول بعضهم إحياء الخصومات التاريخية بين المعتزلة والأشاعرة أو بين المعتزلة والسلف.

أ- وهذا الهدف قد أعلنه المستشرقون قديمًا وحديثًا ولم يجدوا فى ذلك حرجًا ولا عيبًا، ولكن الحرج والعيب من وجهة نظرنا أن يتشكك بعض الباحثين من المسلمين فى صدق الهدف ويشككوا فيه، ولقد صرح «هانوتو» بعد أن احتلت فرنسا الجزائر بما يلى: لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية» وكانت هذه العبارة عنوانًا لمقال كبير نشر مترجمًا باللغة العربية فى جريدة المؤيد المصرية ونقل أطرافًا منه -المرحوم الدكتور د. محمد البهى- فى كتابه عن «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار»، ومما جاء فيه: إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشرًا فى الآفاق، فهو الدين الوحيد الذى أمكن انتحال الناس له زمرًا وأفواجًا، وهو الدين الوحيد الذى تفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه.. إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت

الأركان فى أوربا عينها. . لقد صارت فرنسا فى كل مكان فى صلة مع الإسلام، بل صارت فى صدر الإسلام وكبده. . ليس الإسلام فى داخلنا فقط بل هو خارج عنا أيضًا، قريب منا فى مراكش. . قريب منا فى طرابلس الغرب. . قريب منا فى مصر. . وهو شائع ومنتشر فى آسيا. . ولا يزال الهلال (الإسلامى) ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية ومن جهة أخرى ببلدة فاس فى المغرب الأقصى معانقًا بذلك الغرب كله.

ويقول هانوتو: إن هذا الدين قائم فى الآستانة حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين. ثم يعلن «هانوتو» صراحة أنه لا بد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التى تجمع بين المسلمين شرقًا وغربًا على سطح المعمورة فتجعل منهم أمة واحدة، وهى رابطة الدين، لابد من العمل على إضعاف هذه الروح السائدة التى تحرك المسلمين من سباتهم. . إنهم متى اقتربوا من الكعبة، من البيت الحرام. . من ماء زمزم المقدس، من الحجر الأسود. . وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على ترك بلادهم فى أقصى مدن العالم للفوز بجوار الخالق فى بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى قلوبهم. . إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة بأن تجعل المسلم فى شرق الأرض يهب لنصرة المسلم فى غربها فهى عامل مؤرق لفرنسا فى المستعمرات التى تخضع لها[1].

ومن هنا فإن العمل على إضعاف هذه الرابطة بين المسلمين كانت ولا تزال تمثل غاية وهدفًا لنشاط المستشرقين؛ وما كتبه «هانوتو» صرح به غيره. لقد كتب «كيمون» المستشرق الفرنسى فى كتابه بثولوجيا الإسلام عن المسلمين وعن رسولهم ﷺ بمثل ما صرح به «هانوتو» وزيادة، حيث وصف الرسول ووصف الإسلام بصفات يخجل القلم عن تسطيرها.

ب- إذا أضفنا إلى ذلك أن أول من اشتغل بعلوم الشرق بحثًا ودراسة كان راهبًا وقسيسًا ثم بابا لروما فيما بعد، كما أن معظم المشتغلين بعلوم الشرق قديمًا

(١) راجع فى هذه الأسباب: الفكر الإسلامى د. محمد البهى ص٢٤-٢٥ وانظر أيضًا ص٤٣٠.

وحديثًا، معظمهم من رجال الكهنوت المسيحى واليهودى، ولا يمكن أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية، بل إنهم كانوا مدفوعين إلى هذا اللون من الدراسة بدافع الانتصار لدينهم، إن هذه النوايا التى عبرت عنها نصوص أصحابها -وغيرها كثير- تجعلنا نثق فى صدق سيطرة السبب الدينى وهيمنته على الأسباب الأخرى، ومن هنا فقد تنوعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين وتعددت اهتماماتهم بالإسلام وحضارته، فمن دارس للعقيدة وأصولها، وللفقه وأصوله وللتاريخ وحضارته، وللقرآن وعلومه، وللحديث ورجاله، واللغة وآدابها، والرسول وغزواته وعلاقته بأهل الكتاب فى المدينة واتبعوا فى ذلك منهجًا نفسيًا ركزوا خلاله على سر قوة المسلم ونقاط الضعف فى العالم الإسلامى، ليسلبوا المسلم سر قوته ليصبح بعد ذلك لقمة سهلة التناول فى أيديهم، يشكلون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية، وحسب مكرهم السياسى والمذهبى، ولقد أفصح بعضهم عن هذا الهدف فى بعض المؤتمرات بقوله: «. . لا نريد أن نرسل إلى الشرق جنودًا مسلحين وإنما نريد لهم رسلاً مبشرين بالنصرانية».

وهذه الأهداف التبشيرية كانت واضحة تمامًا فى كتابات المستشرقين قديمًا وحديثًا مما مهد الطريق لحملات التبشير فى العصر الحديث، حيث التقت أهداف الاستشراق والتبشير فى العمل على بذر الشكوك حول عقيدة المسلم ورسوله، ليخرجوا المسلم عن دينه إن استطاعوا، فإذا عجزوا عن تحقيق هذا الهدف فلا أقل من أن يتركوه بلا دين ولا عقيدة كما صرح بذلك «زويمر» وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

٢- أسباب استعمارية:

لم يكن استيلاء صلاح الدين الأيوبى على بيت المقدس بالأمر الذى ينساه الغرب، بل إن الأمل فى السيطرة عليه وتخليصه من أيدى المسلمين، ظل حلمًا وأملاً بالنسبة للصليبيين، ولذلك فإن الحملات الصليبية تكررت كثيرًا على بيت المقدس لتحقيق هذا الهدف، وكان من الوسائل التى سلكها الغرب لتحقيق هدفهم

الاضطرابات السياسية والانقلابات العسكرية، وكثيراً ما كانت تتغير المناهج الدراسية والبرامج الثقافية فى كثير من البلاد استجابة لمصالح الغرب وتلبية لرغبة هؤلاء العملاء فى البلاد الإسلامية، خاصة إذا عرفنا أن هذه الشخصيات كانت تتولى مناصب قيادية فى أجهزة الحكم فى بلادهم وبالذات فى المجالات الثقافية والإعلامية والتربوية، وهذا لم تسلم منه بلد إسلامى تقريبًا ولا يغيب عن الذهن ما فعله كرومر ودانلوب فى المنطقة العربية فى مطلع القرن العشرين.

٥- أسباب علمية:

وقد نجد عدداً قليلاً من المستشرقين طلبوا علوم الشرق والتعرف على حضارته طلبًا للمعرفة وحباً فيها، وهذا عدد قليل إذا قيس بأعداد المستشرقين الآخرين، وهذا النوع من المستشرقين يتميز بالروح العلمية النزيهة، والدقة فى الأحكام العلمية والإنصاف فيها، ولا نعدم أن نجد بينهم من شهد للحضارة العربية بدورها الرائد فى الحضارة الأوربية المعاصرة وخاصة فى العلوم الرياضية والتجريبية، وكثير منهم كتب مؤلفاته وبحوثه حول شخصيات إسلامية كانت رائدة فى مجالات العلم المتعددة، ونجد بين هؤلاء من وصل به بحثه النزيه وروحه العلمية إلى اكتشاف الحقيقة فآمن بها وأعلنها، وقد يصل به الأمر فى نهاية المطاف إلى أن يعلن إسلامه، ويعلم المتخصصون فى هذا اللون من الدراسات أن هناك عدداً غير قليل من المستشرقين يتمتعون بهذه الروح العلمية النزيهة، وقد تحولوا بعد إسلامهم إلى جنود مدافعين عن الإسلام وقضاياه، وعن العالم الإسلامى ومشكلاته، غير أن هناك أموراً يشترك فيها جميع المستشرقين بما فيهم هذا النمط الأخير، فهم جميعًا قد يقعون فى أخطاء علمية بسبب جهلهم بأساليب اللغة العربية وطرائق التعبير فيها، ويرتبون على فهمهم الخاطئ نتائج وأحكامًا خاطئة تبتعد بهم كثيراً عن منطق الصواب والإنصاف، وقد يكون الفارق بين هذا النمط الأخير وغيرهم هو توفر حسن النية عند النمط الأخير الذى تميز بالإنصاف والنزاهة وتوفر سوء القصد وعدم النزاهة عند غيرهم[١].

---

(١) راجع التبشير والاستعمار: مصطفى الخالدى وعمر فروخ ص٣٤-٣٩، الفكر الإسلامى د. البهى ص٤٢٩-٤٣٠.

موقف المستشرقين من الفكر الإسلامى

اهتمامهم بالشرق الإسلامى:

تنوعت اهتمامات المستشرقين بالإسلام وتعددت اتجاهاتهم، بحيث شملت كل فروع الثقافة الإسلامية تقريبًا، وأسسوا مدارس وأقسامًا فى الجامعات الأوربية تخصصت فى هذه الدراسات الشرقية، واستقدموا لها بعض أبناء العالم الإسلامى ليتعلموا بها عن طريق المنح الدراسية وعن طريق التبادل الثقافى بين الجامعات، وحصل كثير من أبناء العالم الإسلامى على درجاتهم العلمية من هذه الجامعات الأوربية، ومن جهة أخرى فقد عملت بعض الدول الأوربية على إنشاء جامعات ومدارس فى كثير من البلاد الإسلامية تعمل تحت إشرافها العلمى وخططها الدراسية، ولا تكاد تخلو بلد إسلامى من هذا النوع من المؤسسات التعليمية التى تخضع فى تمويلها ومناهجها العلمية لدول أوربا وفى معظم الأحوال فإن هذه المدارس، وخريجيها يكون ولاؤهم الثقافى والحضارى والسياسى لهذه الدول التى تلقوا تعليمهم تحت إشرافها.

ومن الجهود التى قام بها المستشرقون. أنهم قاموا بوضع الموسوعات العلمية الإسلامية مثل دوائر المعارف المختلفة مثل دائرة المعارف الإسلامية، والقاموس الإسلامى، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، إلا أن هذه الأعمال قد أدت خدمات جليلة للباحثين ووفرت كثيراً من الجهد والوقت للدارسين، والأخطاء التى وقعت فى هذه الدوائر المعرفية قد انتقلت منها إلى كثير من أعمال الدارسين وقبلوها على أنها قضايا مسلمة وشاعت هذه الأخطاء بين المهتمين بالدراسات الإسلامية من العرب وغيرهم..

كذلك امتدت نشاطات المستشرقين فى مجال الدراسات العربية والإسلامية فعقدوا المؤتمرات والندوات وألقوا المحاضرات فى الجامعات العربية والإسلامية، فضلاً عن تأليف الكتب والاشتغال بتحقيق التراث العربى والإسلامى فى مجالات

كثيرة، كما تسللوا إلى المجامع اللغوية فى كثير من البلاد، فأصبح بعضهم أعضاء عاملين بمجمع اللغة العربية بمصر، وفى سوريا، وفى بغداد، والمغرب وتونس، ولا تكاد تخلو جامعة أوربية الآن من قسم متخصص فى الدراسات الشرقية والإسلامية، وكانت أكثر دول أوروبا اهتمامًا بهذه القضية هى فرنسا، فأنشأت بها أقدم مدرسة للدراسات العربية منذ القرن الثانى عشر فى «دايمس» بأمر البابا سلفستر، ثم مدرسة شارتر سنة ١١١٧م، وأنشأ البابا هرنوريوس معهدًا للغات الشرقية سنة ١٢٨٥م كما أنشئ أخيرًا كرسى للغات الشرقية والدراسات الإسلامية كثيرة من فرنسا لهذا الغرض، ثم أنشأت فرنسا معاهد كثيرة فى البلاد الإسلامية التى احتلتها، فأنشأت المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بمصر فى المنيرة سنة ١٨٨٠م، وأنشأت كلية بورجاد فى تونس سنة ١٨٤١م، ثم تحولت إلى جامعة للآداب العربية، وأنشأت مدرسة الآداب بالجزائر سنة ١٨٨١م، ثم تحولت إلى جامعة سنة ١٩٠٩م، وكذلك أنشأت فى المغرب معهدًا للدراسات المغربية بالرباط سنة ١٩٣١م ولها فى دمشق المعهد الفرنسى سنة ١٩٢٢م، وكذلك المعهد الفرنسى بطهران الذى أنشئ سنة ١٩٤٨م.

ولقد أخذت معظم دول أوربا تحذو حذو فرنسا فى الاهتمام بالدراسات الاستشراقية فأنشأت أقسامًا ومعاهد ومدارس مختلفة للدراسات الشرقية كما هو الحال فى جامعة إيطاليا، وإنجلترا، وأسبانيا، والبرتغال، والنمسا، وهولندا، وألمانيا، وبولونيا، والدانمارك، والسويد، والمجر وروسيا وأمريكا.. إلخ وبعض هذه الدول قد أسست فى كثير من البلدان التى تقع تحت نفوذها معاهد أو كليات تابعة لهم، كما فعلت أمريكا فى بيروت ومصر وتركيا وغيرها، حيث أنشأت بكل منها جامعة مستقلة تسمى الجامعة الأمريكية يتسرب من خلال نشاطها الثقافى مبادؤها وأهدافها إلى الجامعات والمؤسسات التربوية فى هذه الشعوب[1].

ولقد اختلفت مواقف المستشرقين من الفكر الإسلامى وقضاياه تبعًا لاختلاف أديانهم أو مذاهبهم الفكرية والسياسية، لأننا نجد بين صفوف المستشرقين اليهودى الحاقد على الإسلام وأهله، والمسيحى الراهب المبشر بدينه، والشيوعى الملحد الذى

(١) راجع (المستشرقون) نجيب العقيقى ١/ ١١٠، ١٣٨، ٤٠٥.

لا دين له، ولابد أن تختلف مواقف هؤلاء جميعًا تبعًا لانتمائهم الفكرى والعقائدى، فمنهم من يتهم الإسلام بأنه دين فرضه محمد وأتباعه بقوة السيف والحروب.

وفيهم من من ينكر نبوة محمد ويرى أن ما جاء به من تعاليم قرآنية أخذها عن أحبار اليهود وكهنة النصارى.

ومن المستشرقين من يتهم إله المسلمين بأنه متعالٍ جبار بينما إله النصارى عطوف ودود متواضع ظهر للناس فى صورة واحد منهم وهو عيسى ابن مريم، ولا يكاد يخلو كتاب استشراقى يتصل بالإسلام ونبيه إلا وهو يقطر سمًا وحقدًا على الإسلام والمسلمين، ويفصح بعض المستشرقين عن هذا الحقد المعلن فى تعليق صريح له، على الحملات الصليبية فيقول: وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن وعلى ما تضمنه من قوانين الأخلاق الساذجة.

وقد يطول بنا المقال لو أردنا التفصيل فى موقف المستشرقين من الفكر الإسلامى وعلمائه، ولكننا سوف نقصر دراستنا هنا على نقاط محددة أراها أكثر مناسبة للمقام حسب المساحة المحددة لنا فى هذا الكتاب.

موقفهم من النبى والقرآن الكريم:

يرتبط موقف المستشرقين من القرآن الكريم بموقفهم من نبوة محمد ﷺ، لأنهم يقفون من النبى موقف الإنكار المطلق، وقد ينكر بعضهم أصل النبوة أساسًا ولا يعترف بها إطلاقًا، لأى من أنبياء الله ورسله، وهذا الإنكار يترتب عليه القول بأن محمدًا ليس نبيًا وبالتالى فإن القرآن حسب زعمهم لا يكون وحيًا من السماء، وإنما هو من عند محمد ومن وضعه هو، وليس كتابًا إلهيًا ولا وحيًا سماويًا.

ومعلوم أن الإيمان بالنبى والنبوة أصل من أصول الاعتقاد التى لا تقبل الشك، يؤمن بها كل مسلم إيمانًا جازمًا كإيمانه بالله وهى المفتاح الحقيقى لتقبل كل ما جاء به الوحى والإيمان به.

والنبوة فى جوهريًا إنباء الله عبدًا من عباده بشرع مًّا فإن أمره بتبليغ هذا الشرع إلى الناس كان رسولاً نبيًا، وإن لم يأمره بالتبليغ كان نبيًا فقط، والنبوة فى جوهرها اصطفاء ووهب وعطاء من الله، وليست كسبًا ولا اجتهادًا كما يرى بعض الفلاسفة. وما بلغته الرسل إلى الناس من شرائع وعبادات ليس من عند أنفسها، وإنما هى وحى من الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد وغيره من الرسل ليكونوا من المنذرين به فنزل القرآن بالعربية، والإنجيل بالسريانية والتوراة بالعبرية، تحقيقا لمعنى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] وهذا الوحى ليس فيضًا من العقل الفعال كما تدعى الفلاسفة، وليس إلهامًا ولا إبداعًا لعبقرية محمد كما يقول بعض المستشرقين، وإنما هو وحى من الله على قلب الرسل بواسطة ملك الوحى جبريل عليه السلام فهو من عند الله بلفظه ومعناه.

والمستشرقون يرون القضية عكس ذلك تمامًا، فهم أولاً لا يؤمنون بنبوة محمد ولا يعترفون بها:

١- فهو عند البعض أحد عباقرة العالم العشرة.

٢- وعند البعض الأخر أحد الأبطال العظماء.

٣- وعند آخرين ناقل ذكى من كتب الأولين.

٤- أو معلِّم من رهبان النصارى قد أجاد فى تعلمه عنهم.

٥- أو أحد المشعوذين وطلاب الرياسة والزعامة.. هكذا يقولون فى حق نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام، وإذا أرادوا شيئًا من الإنصاف قالوا إنه جاء ليدعو إلى الاشتراكية وليس إلى عقيدة دينية جديدة.

أ- يقول هوبرت جريمى «مستشرق ألمانى» فى كتابه: «محمد»[1] لم يكن محمد فى بادئ الأمر يبشر بدين جديد بل إنما كان يدعو إلى الاشتراكية ثم يقول: فالإسلام فى صورته الأولى لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه.. بل هو محاولة للإصلاح الاجتماعى تهدف إلى تغيير الأوضاع

(١) ص ٥٦٥، ٥٩٢، ١٤١، ٣.

الفاسدة، وعلى الأخص إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء والفقراء، لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين، وهو يستخدم فكرة الحساب فى اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى وتأييد دعوته.

ب- بينما يرى المستشرق الإنجليزى «جب» فى كتابه: «المذهب المحمدى» أن محمدًا ككل شخصية مبدعة قد تأثرت بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقًا جديدًا بين الأفكار والعقائد السائدة فى زمانه، والدائرة فى المكان الذى نشأ فيه.. ومحمد نجح لأنه كان واحدًا من المكيين، ومعارضة المكيين له لم تكن من أجل تمسكهم بالقديم، أو بسبب عدم رغبتهم فى الإيمان وإنما كانت لسبب سياسى أو اقتصادى، فالمستشرق «جب» يفسر موقفه من نبوة محمد ﷺ فيرى أن الظروف المكية هى التى جعلت منه زعيمًا سياسيًا وأعطته الفرصة لكى يظهر فى وسط قومه المكيين بهذه الصورة وأن يلتف حوله فقراء مكة طلبًا للإنصاف من الأغنياء، وإنما كانت لسبب سياسى أو اقتصادى.

جـ- وهناك نمط آخر من المستشرقين يرون أن محمدًا ﷺ قد حلت به حالة نفسية أدت به إلى نوع من التأمل الذاتى فى السماء وما فيها من نجوم، وساعد على تألق هذا النوع من التأمل جو مكة وما تتركه من رهبة فى القلوب، خاصة إذا خلى الإنسان وعالمها الطبيعى الموحش من الجبال وما حولها، وما تثيره فى النفوس من حالات الهلع والتأمل الذاتى.

وعلى مثل هذا النحو من الفهم، عن الرسول ﷺ. كان موقف المستشرقين من النبى فهم ينكرون رسالته جملة وتفصيلاً. وهذا بالطبع سوف ينسحب على موقفهم من القرآن الكريم ومن مصدره الإلهى.

يقول غوستاف لوبون: ويجب اعتبار محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسى الديانات ولا تعجب لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات، ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول.. وقادوا البشرية.

ولقد وضع هذا المستشرق كتابه عن «حضارة العرب وصرح فيه بآراء وأفكار تدل على جهله بالوحى والنبوة وطبيعة الحضارة الإسلامية، وبطبيعة الحياة الخاصة للرسل فهو يتهمه بالشهوانية فى حياته الزوجية، ويرتب على هذا الاتهام مجموعة من الأحكام التى تدل على جهله بخصوصيات الرسول ويجعل القرآن دليلاً على عبقرية الرسول وإبداعه أو يضعه فى مكانة أدنى من كتب الهندوس الدينية، ويرى أنه كتاب مؤقت بعصره لا يحقق حاجات الناس فى عصور لاحقة بل يجعله السبب فى تخلف المسلمين.

د- أما جولدتسيهر فقد وضع كتابه عن «مذاهب التفسير الإسلامى» ونسب فيه المعرفة التى تلقاها محمد عن مصدرين، هى اليهودية والمسيحية إذ يقول: فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التى تأثر بها تأثرًا عميقًا، والتى رآها جديرة بأن توقظ فى بنى وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التى أخذها عن تلك العناصر الأجنبية، كانت فى وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة فى اتجاه يريده الله؛ ولقد تأثر بهذه الأفكار تأثرًا عميقًا، وأدركها بإيحاء التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيًا إلهيًا.

هـ- ويسير فى نفس الاتجاه «بلاشير» ف كتابه: «معضلة محمد» حيث يرى أن التشابه الواقع بين قصص القرآن وقصص التوراة والإنجيل كان سببًا فى القول بأن محمدًا أخذ القرآن عن هذين المصدرين.

و- أما نيكلسون فقد ركز اهتمامه على دراسة التصوف الإسلامى ليثبت به أن محمدًا ، أخذ القرآن عن مصادر متعددة، لكن أهمها هى المسيحية، ويتهم القرآن بالتناقض والتضارب الذى لم يستطع أهل مكة اكتشاف ما فيه من تناقض لسذاجتهم وعدم قدرتهم، يقول نيكلسون: والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه من معالجة كبار المعضلات، وهو نفسه -محمد- لم يكن على علم بهذه المعضلات، كما لم تكن حجر عثرة فى سبيل صحابته، الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله، كما يتهم الرسول فى هذا الكتاب -الصوفية فى الإسلام- بأنه حرف النصرانية وأساء فهمها.

(١) راجع الفكر الإسلامى ص ٤٣- ٥٢.

هذه هى نظرة المستشرقين للقرآن من ناحية مصدره، فالقرآن عندهم ليس إلهيًا ولا ربانيا، وإنما هو بشرى من صنع محمد، وإن ما جاء فيه من قصص توافق ما جاء فى التوراة والإنجيل فإنه قد أخذها عن هذين المصدرين بتحريف وإساءة فهمها.

ومعلوم لدى كل مسلم أن الإيمان بالقرآن وأنه كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود أصل من أصول الاعتقاد، ولا ريب فى ذلك لدى كل مسلم، وأنه بلفظه ومعناه من الله، نزل به الروح الأمين على قلب النبى حسب الحوادث وما تحتاجه من حلول لما أشكل فيها.

مناقشة هذه الآراء:

ومن يقرأ نصوص المستشرقين وأقوالهم عن القرآن، ودعوى أنه بشرى المصدر، ويقارن بين هذ الاتهامات وما حكاه القرآن الكريم عن مشركى مكة قديمًا، وعن موقفهم من الرسول والقرآن لا يجد شيئًا جديدًا عند المستشرقين، فإن رأيهم ودعاواهم فى القرآن قد سبق إليها مشركو مكة وأهل الكتاب فى المدينة، ولقد حرص النصارى على نشر هذه الاتهامات وتكرارها من جيل إلى جيل لدرجة أن بعضهم قد أفردها بمؤلفات مستقلة، كما فعل يوحنا الدمشقى وبولص الأنطاكى فى رسالته عن النصرانية والإسلام.

وقديمًا قال المشركون عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥].

وقالوا عنه: ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥].

وقالوا عن الرسول: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقالوا له: لست مرسلاً.. وقالوا غير ذلك الكثير عن القرآن وعن الرسول مما حكاه القرآن عنهم، فلا غرابة -إذن- أن تترد هذه الاتهامات على ألسنة أحفادهم فكل جيل من المستشرقين والمبشرين بالنصرانية ومن دار فى فلكهم من أبناء ملتنا.

وكذلك الذين اتهموا الرسول ﷺ، بأنه عبقرى أو أحد العظماء العشرة فى العالم، أو أنه طالب رياسة وزعامة، أو مصلح اجتماعى. . أو. . . أو. . إلخ، لا نجد لديهم جديدًا عما حكاه القرآن عن أهل الكتاب بالمدينة أو مشركى مكة، ولا يتسع المقام هنا لتفصيل القول فى ذلك ولكن نودُّ الإشارة إلى أمور:

أولاً: لقد قال المشركون عنه: إنه مُعلم، وشاعر، وساحر، وأن القرآن إفك افتراه، ولعل مجيء القرآن مشتملاً على هذه الاتهامات -ذاكرًا لها- أكبر دليل على أن القرآن الكريم ليس من عند محمد ولا من بنات أفكاره.

فإن من له صلة بالقرآن وتلاوته يدرك تمامًا سقوط هذه الدعاوى الظالمة ويعلم يقينًا أن القرآن كان أمينًا فى عرض هذه الاتهامات على ألسنة المشركين وأمينًا فى الاحتفاظ بها تتلى ضمن آياته، ويتعبد بها المسلم كما يتعبد بتلاوة غيرها من الآيات. ليكون القرآن نفسه حاملاً معه أدلة نفى هذه الاتهامات الكاذبة، وحاملاً معه دلائل مصدره الإلهى، فإن من له حظ من العقل والحكمة يعلم تمامًا أن هذا القرآن لو كان من عند محمد لجاء خاليًا تمامًا من ذكر هذه الاتهامات الموجهة إليه، ولكان أولى به أن يأتى بشهادات تأييده وصدقه، بدلاً من ذكر الاتهامات التى وجهها المشركون إليه فى أول عهدهم بالدعوة، إن تسجيل القرآن لهذه الاتهامات يدل على أمرين مهمين جداً فى شأن الدعوة الإسلامية.

الأمر الأول: دلالته على صدق النبى وأمانته فى النقل عن ربه، لأنه ليس من صالح أصحاب الرسالات أن ينقلوا إلينا هذه الاتهامات التى تحمل معنى التكذيب والافتراء، بل كان الأولى بهم لو لم يكونوا رسلا صادقين أن يخفوا ذلك تمامًا عن الأتباع، ولجاءوا بدلاً منها بشهادات تأييد وتصديق، كما يحدث فى عهدنا هذا فى كثير من المناسبات ولكنهم الرسل، وحاشا لواحد منهم أن يكون غير ذلك فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

أما الأمر الثانى: فهو دلالة هذا النص القرآنى على ألوهية مصدره ودلالته على أنه من عند الله وليس من قول البشر، فمن له صلة بالقرآن يعلم تمامًا أن ذلك هو حق اليقين.

ثانيًا: إن القرآن يشتمل على كثير من مواقف اللوم والعتاب لرسول الله ﷺ، وذلك فى أمور كان يتصرف فيها الرسول من واقع بشريته الخالصة، فكان ينزل القرآن معاتبًا للرسول على ما فعل، حدث ذلك فى موقفه مع ابن أم مكتوم، حين انصرف عنه الرسول إلى الحديث مع غيره فنزل قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [عبس: ١- ٤].

وحدث ذلك فى شأن أسرى بدر، حين أوشك الرسول أن يأخذ الفدية من الأسرى ويطلق سراحهم، فنزل الوحى مخالفًا لرأى الرسول ومعاتبًا له بقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⑥⑦ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وجاء مثل ذلك فى سورة الكهف حين اهتم الرسول ببعض وجهاء مكة أملاً فى إسلامهم وأعرض عن بعض أتباعه فنزل قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وحدث نظير ذلك فى مواقف عديدة ذكرها القرآن الكريم حين قالت قريش للرسول أقبل على بعض أمرنا ونحن نقبل على بعض أمرك، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ⑦③ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ⑦④ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣: ٧٥].

ونظائر ذلك فى القرآن كثير يتلوها المسلم ويتعبد بها كما يتعبد بتلاوة الأوامر والنواهى، فهل يكون ذلك اللوم وذلك العتاب من عند محمد؟. . أليس من الأولى لو كان القرآن من عند محمد كما زعموا أن يكون خاليًا من مثل ذلك اللوم الموجه إلى شخصه، وهل يكون القرآن من عند محمد ويكون مشتملاً على مثل قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥] إن القرآن

نفسه قد احتوى على ألوهية مصدره كجزء ذاتى فيه وليس خارجًا عنه من ذلك مثلاً:

١- ما أشرنا إليه آنفًا وهو إشارته لمواقف العتاب لرسول الله ﷺ وفى الأمور التى كاد يتصرف فيها بمقتضى بشريته، والتى ذكرنا أمثلة منها.

٢- إشارته إلى مواقف المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لألوهية مصدره ودعواهم أنه من عند محمد تارة أو أنه قد اتخذه من أهل الكتاب أو.. أو.. إلخ.

٣- إشارته إلى اتهام المشركين لمحمد بأنه (ساحر أو شاعر أو معلم أو مجنون) إذ لو كان من عند محمد لما جاء مشتملاً على هذه الاتهامات، وكان أولى به أن يأتى بشهادا تؤيد صدقه.

وينبغى أن نعلم أن القرآن الكريم عندما ذكر هذه الإشارات لم يذكرها إلا مقرونة بدليل إبطالها وبيان فسادها، فأحيانًا يذكر الفرية ثم يتبعها بقوله: إن يتبعون إلا الظن، لينفى أن يكون معهم دليل على كذبه كما فى قوله: هاتوا برهانكم. وقوله إن عندكم من سلطان بهذا.. إلخ، ليبين أن كلامهم متهافت فى ميزان المنطق لافتقاده دليل صدقه. وأحيانًا يذكر الفرية ثم يتبعها بالقضية الجازمة بأن القرآن من عند الله. كما فى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] وأحيانًا ينفى عنهم صفة العلم أصلاً بمستوياته المختلفة كما فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١] ولعل القرآن كان يلفت نظر المسلمين إلى جنس هذه الافتراءات وأن أدعياءها لا يملكون دليلاً على صحة دعواهم وإن هى إلا ظنون وأوهام أنبتتها بذور الحقد والكراهية لهذا الدين ولنبيه.

ثالثًا: ومن معجزات القرآن الكبرى أنه صالح لكل زمان ومكان وأن أدلته وبراهينه التى تحدى بها كفار مكة وأهل الكتاب فى المدينة هى بعينها لا تزال مصدرًا للتحدى لكبار المستشرقين ومن سار فى فلكهم، ذلك أن أهل الكتاب بالمدينة وقبلهم مشركو مكة لما قالوا إن القرآن من عند محمد وأنه إفك افتراء، تحداهم القرآن على لسان الرسول بحجة سهلة وميسورة لكل عربى، فقال لهم: إذا

كنتم عربًا ومحمد مثلكم وقد أتى بهذا القرآن من عند نفسه، فأتوا بآية من مثله، أو بسورة، أو بعشر سور مثله مفتريات، وهذه حجة فى غاية الإقناع والإفحام فى نفس الوقت، إنها ملزمة للخصم فهو إما أن يأتى بمثل القرآن إن كان بشريًا تصديقًا لدعواه، أو يسلم بأنه من عند الله فيؤمن به. فإذا أصر على موقفه بعد ذلك فإنه بذلك يكون خارجًا عن مجال الحوار العلمى إلى مجال العناد والاستكبار، وهذا هو شأن المشركين قديمًا والمستشرقين حديثًا، كما قال القرآن حاكيًا عنهم، ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ومن تمام نعم الله على عباده ومن كمال حجته على خلقه، أن آيات النبوة وبراهين رسالته الخاتمة معلومة لكل الخلق، وفى استطاعتهم العلم بها، وقد يكون عند بعضهم من دلائل نبوته ما لا يوجد عند البعض الآخر، أن القرآن يظهر لكل قوم من الآيات والدلائل النفسية والأفقية ما يتبين به أن القرآن حق، وإذا ظهرت هذه الدلائل ووضحت وأعرض الإنسان عنها أو أعرض عن النظر الحق الموجب للعلم بها، كان موقفه عنادًا واستكبارًا، وكان فى شقاق مع الله ورسوله.

ثالثًا: والله تعالى قد شهد للقرآن بنفسه تارة وبملائكته تارة. وبآياته البينات تارة؛ وأخبر عن هذا القرآن بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقد أخبر الرسول بذلك فى أول أمر الدعوة فى مكة، وإخبار الرسول هذا وبهذا النفى العام الشامل للإنس والجن فيه آيات لنبوته. لأن مثل هذا الخبر، لا يقدم عليه من يريد من الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق أن الأمر كذلك فى نفسه، ولو كان عنده شك فى ذلك لجاز أن يظهر كذبه فى هذا الخبر، ويفسد عليه قصده، وهذا لا يقدم عليه حكيم ولا عاقل.

رابعًا: ولم يثبت أن واحدًا من العرب عارض القرآن، والذى حاول ذلك منهم أتى بأشياء فضحت أمره بين قومه، ومعلوم أن توفر الدواعى المعارضة للقرآن كانت موجودة لدى المشركين، ولما عجزوا عن معارضته مع توفر الدواعى عندهم، ومع الحرص الشديد على محاربته وإبطاله بكل وسيلة ممكنة،

دل ذلك على العجز المطلق، وهذا فى حد ذاته برهان تام على صدق القرآن، وصدق أنه آية على نبوة محمد ﷺ، وهذه آية ظاهرة وباقية إلى يوم القيامة، وليس القصد هنا الحديث عن إعجاز القرآن، فإن ذلك له مجال آخر، ولكن الذى أود الإشارة إليه أن دلائل ألوهية المصدر القرآنى متنوعة ومتعددة وكلها من أوجه إعجاز القرآن وكل وجه منها دليل على صدق النبى، وفى نفس الوقت دليل على أن القرآن من عند الله، ولما قصَّ القرآن علينا موقف مشركى مكة ودعواهم الكاذبة فى أن القرآن من عند محمد قال لهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ⑬ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤]، وقال سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦] أى كفاك يا محمد أن الله وملائكته يشهدون بما أنزل إليه ثم أعاد التحدى فى المدينة مع أهل الكتاب بعد الهجرة. فقال فى سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] فدلت الآية على أمرين الأول: قوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، وينبغى أن تعترفوا بذلك وتؤمنوا به.

الثانى: قوله تعالى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ولن تفيد تأبيد النفى فى المستقبل، فثبت بالخبر أن البشر لن يأتوا بمثله فيما يستقبل من الزمن، فكان القرآن بذلك قد أخبر بعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو تعاون على ذلك أهل الأرض قاطبة.

وكان الكفار فى مكة من أحرص الناس على إبطاله ومعارضته، مجتهدين فى ذلك بكل الوسائل، تارة يسألون أهل الكتاب عن أمور غيبية ليسألوا عنها محمدًا ليظهروا بذلك عجزه، كما سألوهم عن الروح وقصة يوسف وأهل الكهف، وذى القرنين، وحاولوا أن يعجزوا الرسول فى ذلك.

وتارة يجتمعون المرة بعد المرة ليتفقوا على أمر يسألون عنه محمدًا بقصد إعجازه، فكان ينزل القرآن بالإجابة الشافية لأمراضهم، فإذا كان هذا شأنهم معه، حرص تام على المعارضة المرة تلو المرة، ولو كانوا قادرين عليها لفعلوها، لأنه إذا وجدت الدواعى التامة وامتنعت الصوارف وكانت القدرة حاصلة، وجب وجود المطلوب، وهذا شأننا مع المستشرقين الآن، وهذا التحدى من أبلغ المواقف القرآنية التى يتحدى بها أهل الأرض قديمًا وحديثًا، وكل من ادعى بشرية القرآن. فعليه أن يأتى بمثله آية، أو سورة، أو عشر سور فإن لم يستطع أحد أن يفعل ذلك فعلى أن يؤمن به، ومعلوم لدى أهل العلم بالقرآن وعلومه أن أوجه الإعجاز القرآنى من جهة معانيه، وأخباره عن الغيوب الماضى منها والمستقبل أكثر وأكثر من جهة إعجازه اللفظى، ولكن أردنا بذلك أن نضع بين يدى القارئ نماذج منها على وجه التمثيل فقط وليس وعلى وجه الاستقصا، أو الحصر، لأنه من ذا الذى يستطيع حصر أوجه إعجاز القرآن، ومن أراد تفصيل القول فى ذلك فليراجع كتب علوم القرآن، كالإتقان فى علوم القرآن للسيوطى أو دقائق التفسير لابن تيمية خاصة الجزء الأول منه (مقدمة فى إعجاز القرآن).

خامسًا: ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الذين تأملوا القرآن بعين الإنصاف من المستشرقين لم يلبثوا أن أعلنوا إسلامهم واعتناقهم للإسلام دينًا وللقرآن دستورًا، وأعلنوا ندمهم الشديد على ماضى أيامهم التى قضوها على الكفر والعناد، يقول موريس بوكاى الطبيب الفرنسى الذى أسلم وألف كتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» لقد أثارت دهشتى هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن، والتى كانت مطابقة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة. ولقد درست هذه النصوص بروح متحررة تمامًا من كل حكم سابق وبموضوعية تامة، بيد أنى لا أنكر تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى، حيث لم تكن الأغلبية تتحدث عن الإسلام، وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن هذا الدين أسسه رجل، وبالتالى فهو ليس بدين سماوى فلا قيمة له عند الله، وكان يمكن أن أظل محتفظًا بالكثير من هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهى شديدة الانتشار، ولما تحدثت مع بعض المستنيرين من غير المتخصصين، عرفت أنى كنت جاهلاً قبل أن تعطى لى صورة

صحيحة تختلف عن تلك التى تلقيتها فى الغرب عن الإسلام، وكان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه آية آية. . وانتهيت إلى دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ومطابقتها للمفاهيم التى نمتلكها اليوم، والتى لم يكن لمحمد ولا لأى إنسان فى عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة. . وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية فادحة، فإننا لا نجد فى القرآن أى خطأ. . وقد دفعنى ذلك إلى أن أتساءل لو كان مؤلف القرآن إنسانًا بشرًا، فكيف استطاع فى القرن السابع المسيحى أن يكتب ما اتضح اليوم أنه يتفق مع العلم الحديث، ففى مجال القضايا التى تخضع للملاحظة، مثل تطور الجنين يمكن مقابلة مختلف المراحل الموصوفة فى القرآن مع معطيات علم الأجنة «الحديث».

هذه شهادة مستشرق هداه الله للإسلام، لأنه بحث عن الإسلام، وفى الإسلام، بمنهج علمى متحرر من العصبية، بروح متجردة إلا من البحث عن الحقيقة، وصدق الله العظيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

حول الفكر الإسلامى وأصالته:

ولقد أثار المستشرقون شبهات أخرى كثيرة حول الإسلام ورسوله، وحول العقيدة والوحى، وحول الفلسفة الإسلامية وأصالتها، والتصوف وأصوله، وحول السنة وعلومها.

أ- فالمستشرق «شاخت» وضع كتابة «فى أصول الشريعة المحمدية» ولعله أشهر كتاب له، جعله طعنًا فى كتب السنة الصحيحة ومسانيدها، وقال إن الأحاديث الفقهية وغيرها ظهرت فى القرن الثالث الهجرى، وأن الفقه ومسائله لم يظهر فى عصر محمد ولا فى عصر الصحابة، وإنما ظهر بعد هذا الجيل، واستدل بذلك على كذب الأحاديث النبوية، ومع ما فى هذه الدعوى من مغالطات وأكاذيب تاريخية، فإن هذا المستشرق لم يكلف نفسه عناء البحث ليعرف أن أقوال الرسول وأفعاله كانت تقوم بين جيل الصحابة مقام كتب الفقه بين الأجيال المتأخرة فضلاً عن أن أحاديث الفقه كغيرها من الأحاديث الأخرى رواها المحدثون بسندها المتصل عن رسول الله ﷺ، وللمحدثين فى ذلك منهج فى التوثيق أفاد منه إلى حد كبير

علماء المناهج المعاصرون، ووصفوه بالدقة والموضوعية وقوة الضبط وسلامة النقل وسار على نفس المنهج فى التشكيك فى كتب السنة آخرون أمثال «منتوجمرى واط» المستشرق الإنجليزى، و«مارجليوث»، و«جولد تسهير» وغيرهم، والأدلة التى يذكرها الواحد منهم على صحة دعواه تجدها مكررة عند غيره كأنهم قد تواصوا بذلك فيما بينهم وتوارثوها جيلاً بعد جيل.

ب- أما فى مجال الفلسفة الإسلامية فقد تواطأ كثير من المستشرقين على أكذوبة أن العقل العربى ليس من طبيعته التفلسف، أو حب الفلسفة، لأنه ساذج بطبعه يميل إلى الأخذ بالجزئيات، ولا يعرف التعامل مع القضايا العامة أو الكلية، صرح بذلك «رينان» فى كتابه عن اللغات السامية، و«ديبور» فى تاريخه للفلسفة الإسلامية، و«بينز» فى كتابه عن «مذهب الذرة عند المسلمين».

يقول ديبور فى مقدمة كتابه عن تاريخ الفلسفة الإسلامية: لم يكن للعقل السامى قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات فى الفلسفة غير الأحاجى والأمثال والحكم، وكان هذا التفكير يقوم على نظرات فى الإنسان ومصيره. وإذا عرض للعقل السامى ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة لا تدرك مداها.

جـ- ونفس الفكرة صرح بها رينان قبل ديبور، ولا شك أن هذا الحكم خاطئ من أساسه لأنه مبنى على فكرة مسبقة، وهى تفوق الجنس الآرى على الجنس السامى، فالفلسفة الإسلامية ما دامت تنتمى إلى جنس سامى فهى ليست بأصيلة، ولا تشتمل على عناصر جديدة لأن الأصالة والجدة من خصائص الجنس الآرى فقط كما يزعمون، وقد يكون هذا الحكم مدعاة إلى طرح سؤال مهم، وهو إذا كانت هذه الفلسفة ليست أصيلة ولا جديدة وخالية من عنصر الابتكار، فلماذا شغلتم أنفسكم بها إلى هذا الحد الكبير. .؟ وإجابة ديبور على ذلك تطلعنا على قضية أهم وأخطر، حين تقرأ قوله فإن هذا البحث له شأن عظيم إذ يتيح لنا فرصة لمقارنة المدنية الإسلامية بغيرها من المدنيات، والفلسفة ظاهرة فريدة، نشأت فى بلاد اليونان فى ظروف غير خاضعة لنشأة المدنيات، ولا يمكن تعليلها بأسباب خارجة عنها، أن ذلك يرينا أول محاولة للتغذى بثمرات الفكر اليونانى مغذيًا أبعد مدى وأوسع حرية مما كان عليه الأمر فى نشأة العقائد» إن تتبع أفكار اليونان

وامتزاجها فى مدنية الشرق الكثيرة العناصر لكثير الفائدة عند ديبور لأنه يجعل ذلك بداية التمدن الحقيقى فى بلاد الشرق، وديبور لم يبحث الفلسفة الإسلامية بهدف بيان أصالتها أو مكانتها فى مسيرة الحياة الفكرية للإنسانية ككل، ولم يكن تأريخه لها لذاتها ولا حبًا فيها، ولا حتى بوصفها واسطة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الأوربية الحديثة كما يزعم البعض -لا- لم يكن هذا هدفًا مقصودًا لديبور ولا لغيره ممن أرخو لفلسفة الإسلامية أو كتبوا عنها، مثل هنرى كوربان، وماسينيون، إن ما يهتم به المستشرقون من وراء ذلك التأريخ هو العمل على تكملة وإتمام تاريخ ذلك النهر الفكرى فى أوربا، ذلك النهر الذى بدأه فلاسفة اليونان، وما زال عطاؤه متدفقًا إلى يومنا هذا فى أوربا، فإذا انحرف مسار ذلك النهر عن طريقه الطبيعى، وخرج إلى جنس آخر غير آرى كالجنس العربى مثلاً، فإنما ليأخذ بيد شعوبه إلى مسار المدنية والحضارة، ثم ما يلبث أن تعود مياهه إلى مجراها الطبيعى بأوربا، فدراسة الفلسفة الإسلامية عند المستشرقين يقصدون من ورائها إلى أمور محددة تتصل بحياتهم الفكرية.

ذلك أن دراسة الفلسفة الإسلامية تمكنهم أولاً من تتبع دخول أفكار اليونان وتأثيرها فى مدنية الشرق، وهذا يعنى عندهم مواصلة التأثير والعطاء للفلسفة اليونانية، وهى من نتاج الجنس الآرى الأوربى.

ودراستها تمكنهم ثانيًا من مقارنة المدنية الإسلامية بالمدنية اليونانية مقارنة توضح لهم بجلاء، أن الفلسفة لم تظهر فى المدنية الإسلامية من داخلها وإنما وفدت إليها عندما احتكت بالجنس الآرى، وهذا فى حد ذاته يكون برهانًا لهم على أن الفلسفة اليونانية ظاهرة فريدة خاصة بالجنس الآرى فقط، ولم تظهر خارجه، وبالتالى فهى لا تدين لأية حضارة أخرى سابقة عليها.

٣- ودراستها تمكنهم -ثالثًا- من التعرف على أول محاولة للتأثر بثمرات العقل اليونانى من جهة، ومن الوصول إلى أن هذه الفلسفة ارتبطت بها أول نهضة عربية لبيان فضل الفلسفة (الآرية) على الجنس العربى.

إن هذه الأمور الثلاثة أصبحت مؤكدة لدى دارس الفلسفة الإسلامية من المستشرقين ليؤكدوا بذلك أمرين:

١- فوقية الجنس الآرى على ماعداه من أجناس أخرى.

٢- الإلحاح على فكرة المركزية الأوربية بالنسبة للعالم، فكرًا وثقافة وحضارة ومدنية، وهذا ما يهدف إليه ديبور وغيره من المستشرقين، إنهم -إذن- لم يدرسوا الفلسفة الإسلامية لذاتها، وإنما لاستكمال فهمهم للفلسفة اليونانية وللفكر الأوربى بصفة عامة والقصد من ذلك هو محاولة إقناع العالم بأوربة الفكر الإنسانى كله والقول بأوربة الحضارة الإنسانية بصفة عامة. فعل ذلك «بيتز» فى كتابه مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهند ولقد ظهر هذا الكتاب فى الثلاثينيات من القرن العشرين وهو يحمل العنوان السابق الذى يدل لأول نظرة على مقصده ومضمونه، ويدور الكتاب فى معظم فقراته على سلب العقلية العربية كل خصائص الأصالة والابتكار لينسبها إما إلى الهند مرة، وإما إلى اليونان فى معظم الأحوال، فهو مرة يرجع أصول مقالات المتكلمين فى الجوهر الفرد إلى أصول هندية، ومرات يرجع أصول رأى الرازى فى نفس المشكلة إلى آراء أفلاطون وديمقريطس، وقد يتساءل المرء ولماذا الإصرار على إرجاع كل مصادر القول بالذرة عند علماء الكلام إلى أصل هندى، والجواب أن الهنود ليسوا جنسًا ساميًا، أما العرب فهم ساميون لا يصلحون للابتكار، ومعنى هذا أن المستشرقين يقبلون أن يكون للهند مذهب مستقل فى الجوهر الفرد، ولا يرضون ذلك للعرب، وهل تستطيع أن تجد لهذا التحكم من تبرير عقلى سوى التعصب لفكرتهم عن تفوق العقل الآرى على بقية الأجناس، ولخطورة هذه الدعوى أود أن أخصها بشىء من الرد التفصيلى عن أصالة الفكر الإسلامى واستقلاله عن الفلسفة اليونانية.

مناقشة هذه الدعاوى:

الفكر الإسلامى بين الأصالة والتقليد:

إن حياة الأمم وتقدمها رهن بقيمة تراثها وأصالته، فإن الأمة التى لا تراث لها لا ماضى لها ولا تاريخ لها تعتز به، والشعوب التى تعيش بلا تاريخ ليست إلا كتلاً بشرية لا قيمة لها فى ميزان الأمم، والتاريخ فى جوهره ليس إلا تسجيلاً أمينًا للجهود البشرية المتطورة والمتطلعة نحو الكمال، والأمة العربية أشد الأمم فى هذه

الأونة من التاريخ احتياجًا إلى الدفاع عن تراثها وماضيها، ذلك أن الهجمات عليه قوية ومتوالية ومحكمة، ولم نقرأ فى تاريخ الإنسانية كلها أن ثقافة هوجمت بمثل العنف والشراسة اللذين هوجمت بهما الثقافة العربية والإسلامية بصفة خاصة، فمنذ أن فتح الاستعمار أعينه على منطقة الشرق العربى لم تكد تنقطع حملات التشكيك والتشهير بالفكر الإسلامى ورجاله، ذلك أن الثقافة العربية بخصائصها وروحها القوية كانت سياجًا قويًا وحصنًا أمينًا ضد الغزوات الفكرية التى تعرضت لها هذه المنطقة على مر التاريخ، ولما حل الاستعمار الحديث بهذه المنطقة مع ما تميز به من أساليب استعمارية امتازت بذكائها ودهائها استطاع أن يدخل على المسلم المعاصر ويلبس عليه الأمور من ناحية التشكيك فى أصالة ما لديه من تراث وقيم.

ولقد بدأت هذه الحملات المسعورة على الفكر الإسلامى إبان القرن التاسع عشر حيث أشيع فى تحامق وتعصب أن تعاليم الإسلام تتنافى مع النظر العقلى الحر، وأنها لم تأخذ بيد العلم، ولم تنهض بالفلسفة العقلية، ولم تنتج الثقافة الإسلامية إلا انحلالاً موغلاً واستبدادًا ليس له نهاية. وكان من أخطر هذه الدعاوى قضية المفاضلة بين الأجناس، ولقد ظهرت هذه القضية فى القرن التاسع عشر على يد الفيلسوف الفرنسى رينان فى كتابه «تاريخ اللغات السامية» الذى صرح فيه بأن الجنس السامى أقل ذكاء ومرتبة من الجنس الآرى، وأخذت هذه المفاضلة عند رينان تضفى على العرب أوصافًا لم يقم عليها دليل من بحث أو دراسة.

وكذلك الأمر بالنسبة لديبور فإنه لا يمل من تكرار هذه الدعوى القائلة بأن الفلسفة الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة للفلسفة اليونانية بعد أن امتزجت بآراء الأفلاطونية المحدثة وليس للعرب فى ذلك فضل يذكر سوى أن نقلوا علوم اليونان وفلسفتهم إلى العصر الوسيط بأوروبا المسيحية.

ونستطيع أن نلخص الدعاوى التى قال بها هذان المستشرقان حول هذه القضية فى أمور محددة:

١- إن العقلية الآرية أفضل من العقلية السامية.

٢- إن العقلية العربية تنزع بطبعها إلى رؤية الأشياء متباعدة فهى تدرك الجزئيات ولا تدرك الأمور الكلية.

٣- إن الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكرارا مشوهًا لآراء أفلاطون وأرسطو.

٤- إن العقلية العربية عاجزة عن الابتكار وليس لها فى عالم الفكر من فضل يستحق أن يذكر.

وقد يكون الأمر سهلاً ومقبولاً لو أن هذه الاتهامات كانت قاصرة على المستشرقين وحدهم، إلا أن بعض الدارسين قد أخذ هذه الدعاوى وآمن بها واعتبرها غير قابلة للنقاش أو الرفض.

ولقد تردد صدى هذه الدعاوى فى كثير من المؤلفات الحديثة وعلى صفحات الصحف اليومية والأسبوعية، وهذا فى حد ذاته يعتبر هدفًا مقصودًا لحملات التشكيك الموجهة ضد الثقافة الإسلامية وتراثها، ونود أن تنبه هنا إلى حقيقة مهمة جداً.

إننا لو فتشنا نحن فى الثقافة الغربية وتاريخها وحاولنا أن ننقدها بنفس المقاييس التى تناول بها المستشرقون علماءنا وأسلافنا لما نجا منهم مفكر واحد. وهذا أرسطو أعظم فلاسفة اليونان والغرب وقع فى كثير من الأخطاء التى كانت أوروبا تدين بها على أنها مسلمات بديهية حتى اكتشف خطأه فى القرن الخامس عشر، فلقد رفض أرسطو المذهب القائل بأن أصل الوجود هو الذرة وأخذ بنظرية العناصر الأربعة القائلة بأن أصل الأشياء هو الماء والهواء والنار والتراب، وهذه النظرية قد رفضها مفكرو اليونان قبل أرسطو لظهور فسادها وقال أرسطو بأن الجسمين المختلفى الثقل إذا سقطا من شاهق فإن سرعتهما فى السقوط تتناسب مع ثقلهم تناسبًا رأسيًا، ومعنى ذلك أننا إذا ألقينا من شاهق حجرين وزن أحدهما كيلو جرام ووزن الآخر نصف الكيلو، فإن الحجر الأول يصل إلى الأرض فى نصف المدة التى يستغرقها الحجر الثانى، وهذا قد ثبت بطلانه كما هو معروف فى علوم الطبيعة والرياضيات من قانون الثقل النوعى ومقاومة الماء والهواء للأجسام.

وهذا لا يعيب أرسطو، كما لا يعيب بعض مفكرى الإسلام إذا وقعوا فى أخطاء، فإذا أخذ المستشرقون على العرب أخطاء ومآخذ فهذا شيء لم تخل منه أمة من الأمم حتى تخلو منه الأمة العربية، وأما إذا كانت مآخذ المستشرقين على

الثقافة العربية بهدف إنكار أصالتها وسلب فضلها على مسار الحضارة الإنسانية، فمن واجبنا أن نكشف النقاب عن جهود علمائنا وعن فضل الثقافة العربية على النهضة الحديثة، وسوف تكون هذه الدعاوى التى وجهها المستشرقون إلى الثقافة العربية هى مدخلنا إلى توضيح ما للفكر الإسلامى من أصالة وما له من دور هام فى حمل لواء الحضارة الإنسانية فى وقت كانت أوروبا منغمسة فى جهالة القرون الوسطى مكبلة بقيود التقليد الأعمى للحضارات السابقة.

الرد على «رينان»:

أولاً: أما عن قول رينان بأن العقلية العربية أقل شأنًا من العقلية الآرية فهذه دعوى تفتقر إلى الدليل البرهانى، ولا يملك رينان فى دعواه هذه إلا التعصب للجنس والثقافة، وما أشبه هذه الدعوى بأكذوبة إسرائيل فى وقتنا الحاضر بأنهم شعب الله المختار الذى يجب أن يسود العالم، ولعل هذه الدعوى الأخيرة امتداد لسابقتها، وما أسهل على المرء أن يرسل الدعاوى العامة على علاتها بلا دليل لكى ينفس بها عن رغبة ملحة أو هوى مكبوت، والمنهج العلمى الصحيح يرفض تمامًا أمثال هذه الدعاوى، ومن الخطأ الفاحش أن يظن رينان أن الفلسفة الإسلامية وليدة الفكر العربى وحده، أو العقلية العربية وحدها. فلقد أسهم فيها مفكرون من شعوب أخرى مختلفة الجنس واللون من فرس وهنود وأتراك وسوريين ومصريين وبربر وأندلسيين.

ثانيًا: الإسلام قد حث أبناءه على المعرفة وطلب العلم ولم يقف فى وجه طالب العلم أيًا كان هذا العلم -عكس دعوى رينان- بل إن الإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقال لأبنائه اطلبوا العلم ولو بالصين، وكلمة العلم ينبغى أن تفهم هنا بمعناه العام المطلق الذى يشمل العلم الدينى والدنيوى معًا، وليس كما يدعيه بعض الباحثين بأن الإسلام لا يعرف العلم، إلا بالمعنى الدينى فقط، ولو كان المراد بالعلم هنا معناه العلم الدينى فقط، لما حثهم الرسول على الترحال فى طلبه إلى الصين فى الوقت الذى كان هو موجوداً بين أظهرهم وهو مصدر كل علم دينى للمسلمين.

ثالثًا: وإذا كان الجزء الأول من دعوى رينان يدل على تعصبه لجنسه فإن الجزء الأخير من هذه الدعاوى يدل على جهله بروح الإسلام وموقفه من العلم والنظر والتأمل الفكرى المنزه عن الهوى والغرض إلا لطلبه الحق، فما كان الإسلام -وكتابه المقدس يدعو إلى التأمل فى آفاق السموات والأرض- ليضيق الخناق على أبنائه ويمنعهم من النظر والتأمل فى هذا الكون وما فيه من آيات.

رابعًا: على أن رينان قد تناقض مع نفسه فى موقفه من الفكر الإسلامى، فهو حين ينكر الفلسفة الإسلامية ويجحد أصالتها فى كتابه تاريخ اللغات السامية يعود فى كتابه عن ابن رشد ومذهبه فيقرر أن هناك فلسفة إسلامية مستقلة يجب أن نتلمسها فى مظانها الخاصة بها. وأن العرب قد عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة بهم، وإن الحركة الفلسفة الحقيقية فى الإسلام ينبغى أن تتلمس فى مذاهب المتكلمين، وهذا الموقف المضطرب إن دل على شىء فإنما يدل على أن أحكام رينان على الفلسفة الإسلامية ليست مؤسسة على النظرة العلمية النزيهة، ولا على معرفة تامة بالفلسفة الإسلامية وتراثها.

خامسًا: وأما اتهام رينان وديبور للتفكير العربى، بأنه يهتم بالجزئيات المتباعدة فذلك شىء ينبغى أن يحمد للعرب كما قال بذلك استاذنا المرحوم محمود قاسم، لأن المنهج العلمى الحديث يقوم أساسًا على خطوات محددة، أولى هذه الخطوات هى ما يسمى بمرحلة البحث، وفيها يقوم الباحث بجمع الملاحظات والتجارب فى العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء، وجمع الملاحظات ليس إلا ملاحظة الأشياء الجزئية المتباعدة، ثم يحاول الباحث أن يربط بين هذه الملاحظات الفردية بما يتخيله من علاقات ومناسبات تجمع بين المتباعد منها، وبهذا وحده يمكن للباحث أن يفسر الظواهر والوقائع التجريبية، فكيف بعد ذلك اتهامًا وهو ركيزة من ركائز العلم التجريبى فى القرن العشرين.

أخطاء ديبور:

وحين نناقش ديبور فى دعواه أن الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكراراً لآراء أرسطو وأفلاطون بصورة مشوهة سوف نجد أن هذا الحكم فيه إجحاف بدور العرب

وتجريد لهم من عبقريتهم التى أضافوها إلى الفلسفة اليونانية، وينبغى ألا ننكر أثر الفلسفة اليونانية على فلاسفة الإسلام وخاصة التقليديين منهم أمثال الفارابى وابن سينا. فلا شك أن الفلاسفة المسلمين قد أخذوا عن أرسطو بعض آرائه كما تأثروا بآراء أفلاطون أيضًا، ولكن السؤال الآن هو: مَنْ مِنَ المفكرين لم يتأثر بمن سبقوه، وهذا حق مشروع لجميع الأجيال وليس هناك خلق من العدم كما يظن البعض، وفلسفة اليونان فى جوهرها ليست إلا نتاجًا لعباقرة سبقوا أفلاطون وأرسطو. وينبغى أن نتلمس مصادرها لدى قدماء المصريين وفلسفة الصين والفرس، وإذا كانت الفلسفة اليونانية مدينة بالفضل لما سبقها من آراء وأفكار، فلماذا يحرم الفلاسفة المسلمين من التأثر بمن سبقهم أيضًا؟ وينبغى أن نشير هنا إلى أن تأثر هؤلاء بآراء أفلاطون وأرسطو لم يبلغ حد الإذعان والسيطرة لكل ما قالوه، بل نقضوا بعضها أحيانًا ونقدوا بعضها أحيانًا أخرى، فإن ابن سينا قد نقد أفلاطون واعترض عليه فى رأيه حول طبيعة النفس وجوهرها، كما أن ابن رشد قد رد كثيرًا من أقوال أرسطو فى المنطق وطبيعة النفس، وألف ابن تيمية كتابًا مستقلاً عن نقض منطق أرسطو بين فيه تهافت هذا المنطق عن تحصيل الجديد من العلوم، ولا شك أن نقل العرب هذه العلوم إلى أوروبا كان فاتحة لعصر النهضة الحديثة وهذا فى حد ذاته مجهود كان لابد منه لبعث روح الحضارة التى كانت قد ماتت فى أوروبا، ولقد تصدى للرد على هذه الدعاوى فى القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الأفغانى فى كتابه (الرد على الدهريين) ونشر هذه الرد فى مجلة العروة الوثقى، كما رد عليها أيضًا الإمام محمد عبده فى مجلة المنار، وحين تجددت هذه الدعاوى بعد الحرب العالمية الأولى كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة فى الإسلام ناقش فيه هذه الأقوال مناقشة مستفيضة كما تناولها أيضًا كل من الأستاذين الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فى كتابه العظيم فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، والدكتور محمود قاسم فى كتابه نظرية المعرفة عند ابن رشد.

وأما قول ديبور بأن العقل العربى لم يبتكر شيئًا فى مجال الفكر يستحق التسجيل فيكفى لإبطال ذلك أن نورد هنا بعض الأمثلة من مختلف العلوم التى كان للعرب فضل السبق إليها والابتكار فيها، ولن يكون اختيارنا لهذه الأمثلة

اختيارًا عشوائيًا وإنما سنورد أمثلة من العلوم التجريبية التى هى بحق مقياس النهضة الأوربية فى عصرنا الحاضر.

١ - فى العلوم الرياضية:

إن تاريخ الرياضيات المعاصرة يدين بالفضل إلى حد كبير لتراث العرب وما خلفوه من مؤلفات فى هذا العلم ظلت حبيسة المكتبات والمتاحف وفى بطون المخطوطات إلى وقت قريب، وللأسف الشديد فقد اهتم غير المسلمين وغير العرب بهذا التراث ونفضوا عنه غبار الزمن وفتحوا له صدورهم وعقولهم وأنشأوا لإحيائه المؤسسات والمراكز البحثية ورصدوا لطباعته ونشره الميزانيات الضخمة، بل إن العرب والمسلمين لم يعرفوا قيمة هذا التراث إلا بعد أن وقف الغرب على نشره وتحقيقه الجهود الكبيرة، ولعل من أكبر المهتمين بإبراز دور العرب فى النهضة العلمية فى أوروبا «جورج سارتون» فى كتابه «تاريخ العلم»، و«ل ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة»، كما أفرد العالم الإيطالى «أولدو ميلى Oido Mieli مجلدًا خاصًا لبيان فضل العرب فى الرياضيات وكذلك ينبغى ألا تنكر فضل «يوسكوفيتش» فى كتابه «تاريخ الرياضيات» حيث عقد فصلاً خاصًا أسماه الرياضيات العربية.

ولقد اطلع العرب على علوم الأمم الأخرى حيث امتزجت الحضارة الإسلامية بالحضارات المجاورة للأمم الأخرى فى الهند وفارس وصارت بغداد بوتقة انصهرت فيها هذه الحضارات فى مدرستى الكوفة، والبصرة، وفى بغداد العاصمة التى تأسست فيها مدرسة رياضية كبيرة تمت فيها ترجمة رياضيات «أرشميدس» و«بطليموس»، وانتقلت إليها نظريات «فيثاغورث»، فى الهندسة.

ولم يقف جهد العقل العربى فى الرياضيات على مجرد الاختراع فقط بل تعدى ذلك إلى الاختراع والابتكار:

أ- الأعداد:

وقف العرب على نظام الأعداد والترقيم للأمم المجاورة واستحسنوا فيها الأرقام الهندية فأخذوا بها وطوروها ونظموا أشكالها حيث لم تكن موحدة بالشكل الذى

نعرفه الآن فوحدها العرب وهذبوها وتفرع عنها نوعان من الأرقام عرف أحدهما بالأرقام الهندية وهى التى يستعملها أكثر شعوب العالم العربى الآن. كما عرفت الثانية بالأرقام الغبارية أو الأرقام «الفاسية» نسبة إلى فاس بالمغرب واشتهرت هذه الأرقام الأخيرة ببلاد المغرب والأندلس ولازالت تستعمل بها حتى الآن، وهى التى تعرف فى أوروبا بالأرقام فى سلسلة مضاعفات العشرة والمئة والألف. ومن الجدير بالذكر أن كلمة صفر عربية وهى ترجمة للكلمة السنسكريتية sumga وتعنى الفراغ وأول تمثيل للصفر على شكل نقطة ظهر على قرطاس يرجع تاريخه إلى عام ٨٧٣م[(١)]، والصفر لم يكتشف فى الهند إلا فى القرن الثامن الميلادى ونقله العرب، عنهم وبدأوا العمل به قبل أن يتقدم الهنود فى استعماله ومن العجيب حقًا أن أول كتاب ألف بالعربية وظهر فيه الصفر مرسومًا نقطة كما ترسمه اليوم ظهر سنة ٢٧٤هـ الموافق ٨٧٤م بينما أول نقش هندى ظهر فيه الصفر يرجع تاريخه إلى سنة ٨٧٦م أى بعد استعمال العرب الصفر فى كتبهم بعامين[(٢)].

ولا شك أن العالم عرف الأرقام العددية والصفر الهندى عن طريق العرب وليس عن طريق الهنود ولاتزال هذه الأرقام تحمل اسمها العربى إلى اليوم فى أوروبا، وكذلك الصفر فإنه فى الإنجليزية صيفر (Cipher) وفى الألمانية تسيفر (Ziffer) وفى الفرنسية شيفر (Chiffer) وفى الإيطالية شيفرا (Cifra) وبواسطة الصفر أمكن تحديد مراتب الأعداد وقيمتها حسب موضع الصفر منها يمينًا أو يسارًا، والعرب لم يفهموا الصفر على أنه عدم كما يفهم الناس ذلك خطأ ولا كما فهمه الأوربيون أول أمرهم حين سموه (Nol) ويعنون به العدم، بل إن الصفر قيمة مّا يطرأ بسببها تبدل أساسى على الأعداد المأخوذة معه حسب موضعه فيها.

ب- ولقد استطاع غياث الدين الكاشى فى أول القرن التاسع الهجرى أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها بصورة أدق مما نعرفه عليها اليوم[(٣)].

(١) إسهام علماء الإسلام فى الرياضيات، عبد الله طحطاح، عالم الفكر، المجلد الحادى عشر، العدد الأول. ص٢٨٦.

(٢) نشرة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٦٨م.

(٣) المنطق الحديث، د. قاسم ٣٣.

جـ- وأول من ألف فى الجبر هو المفكر العربى «الخوارزمى» صاحب كتاب حساب الجبر والمقابلة، واستطاع أن يحل معادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، واستطاع عمر الخيام المتوفى ٥١٧هـ حل المعادلات من الدرجة الرابعة وهذا أرقى ما وصل إليه علماء الرياضيات فى عصرنا الحاضر.

د- كما سبق العرب إلى اكتشاف النظرية القائلة بأن مجموع عددين مكعبين لا يكون عددًا مكعبًا وهذا هو أساس النظرية التى اشتهر بها الرياضى الفرنسى «بيير» المتوفى سنة ١٦٦٥م، وفضل العرب على علم التفاضل والتكامل لا ينكره أحد.

٢- فى العلوم الطبيعية:

اهتم العرب بهذه العلوم فى فترة مبكرة من التاريخ، فلقد اشتغل خالد بن يزيد الملقب بحكيم آل مروان بعلم الكيمياء فى القرن الأول للهجرة وانتدب لذلك جماعة من مدرسة الإسكندرية بمصر سنة ٦٨٣م، وأمر أحدهم وهو اصطفن الإسكندرى بنقل كتب الكيمياء إلى العربية حتى يقف العرب على حقيقتها، ولعل هذه أول ترجمة حدثت فى الإسلام، ثم جاء جابر بن حيان فبلغ فى ذلك شأنًا عظيمًا، على أن مجهودات البيرونى وابن الهيثم والكندى فى هذه العلوم لا يجهلها أحد من المشتغلين بها، ويكفى أن كتاب «المناظر فى البصريات» لابن الهيثم فى قوانين الضوء يعد جزءًا من العلم الحديث إلى اليوم خاصة إذا علمنا أن كتب ابن الهيثم ترجمت إلى اللاتينية فى زمن متقدم على النهضة الحديثة، ولقد أفاد منه روجر بيكون سنة ١٢٩٢ وجون بكام سنة ١٢٩١هـ ومما يدعو إلى الدهشة حقًا أن عالمًا متقدمًا كابن الهيثم قد راودته فكرة بناء السد العالى للانتفاع بنيل مصر قبل تنفيذ هذه الفكرة بما يزيد على الألف عام.

ومن الذى يستطيع أن ينكر فضل العرب فى الطب بعد أن ذاعت شهرة الأطباء العرب فى أوروبا كلها عبر العصور الوسطى، فلقد عرف العرب الطب والتشريح وعلوم الصيدلة فى وقت مبكر من التاريخ ابتداء من الكندى والرازى وعلى بن العباس، كما ظهرت المؤلفات الطبية فى الفكر العربى، أما كتاب القانون لابن سينا فأشهر من أن يشار إليه، فلقد اعتبرته الجامعات الأوربية أهم مرجع فى الطب فى

العصور الوسطى، فكان يدرس فى مدارسها وجامعاتها على حد سواء، ولقد ترجمه إلى اللاتينية (جيزار الكريمونى المتوفى سنة ١١٨٧م) فى طليطلة، ولم تكد طبعته اللاتينية تظهر فى حوالى سنة ١٤٧٣م حتى لقى الكتاب شهرة كبيرة فنقل إلى اللهجات المحلية، وأول من اعترف بالقانون كمرجع أساسى فى الطب هى جامعة بولونا فى القرن الثالث عشر للميلاد، حيث أنشئت كلية العلوم فى تلك الجامعة سنة ١٢٦٠م ومنذ ذلك التاريخ بدأ قانون ابن سينا يغزو جامعات أوروبا وإنجلترا واسكتلاندا وأصبح هذا الكتاب يمثل نصف المقررات الطبية فى أواخر القرن الخامس عشر.

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أن مؤلفه قد عرض فيه الكثير من الأمراض ووصف علاجها مع ملاحظات مبتكرة فى تشخيص نوع المرض ووصف العلاج له، ومن ابتكارات ابن سينا فى هذا الكتاب تعرضه لخصائص العدوى فى أمراض الرئة والأمراض التناسلية والاضطرابات العصبية والنفسية عن طريق تحليلاته النفسية التى يعد مذهبه فيها منهجًا قائمًا بذاته.

٣- فى مناهج العلوم:

لعل من أحدث الدراسات التى يعنى بها الآن، هو دراسة المناهج للعلوم المختلفة وتطبيقاتها، وإذا كان المختصون بدراسة مناهج البحث فى العلوم يولون أهمية كبرى لما يجدونه من تحديد دقيق لهذه المناهج لدى مفكرى أوروبا المحدثين فمن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أصول لهذه المناهج فى تاريخ الفكر الإسلامى حتى ينسبوا الفضل إلى أهله، ولقد قام المرحوم الدكتور محمود قاسم بإلقاء بحث هام عن دور العرب فى تحديد مناهج العلوم الإنسانية كشف فيه زيف ما يدعيه المستشرقون من أن العرب ليس لهم فضل يذكر فى هذا المجال.

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفاصيل ما قام به العرب من دور هام فى تحديد مناهج العلوم، لأن هذه المناهج كانت مطبقة فعلاً فى العلوم العربية والإسلامية فالإمام الشافعى قد عرف القياس والاستقراء وطبقهما فى مذهبه الفقهى، وكذا علماء الفقه والأصول واللغة فضلاً عما قام به علماء الحديث فى هذا المجال،

ويكفى أن نشير هنا إلى نموذجين مختلفين من مفكرى الإسلام كابن تيمية وابن خلدون لنرى أن عناصر المنهج العلمى الحديث كانت واضحة لديهما تمام الوضوح.

أولاً: أما ابن تيمية فإنه يعكس فى تراثه كله العقلية المنهجية بوضوح كامل، رغم تشدده مع خصومه من الفلاسفة وعلماء الكلام والمتصوفة، ولقد هاجم الغزالى والرازى فى كثير من كتبه، لكنه كان يعتمد فى موقفه من هؤلاء وأولئك على الاستقراء الكامل لرأى مخالفيه فى المشاكل الفلسفية المتعددة، فيجمع العناصر الفرعية لآرائهم كل على حدة ثم يربط بينها ويستنتج منها الحلول والأحكام التى يصدرها على هؤلاء، ويشير المرحوم الدكتور قاسم فى بحثه المشار إليه إلى أن هذا المنهج الذى طبقه ابن تيمية قد هداه إلى اكتشاف أوجه النقص فى المنهج اليونانى وفى منطق أرسطو بالذات، ووضع لكشف أخطاء المنطق الأرسطى كتابين هما «نقض المنطق، والرد على المنطقيين»، وكشف ابن تيمية فى هذين الكتابين عن قواعد منهجية كبرى وجدناها مطبقة لدى مفكرى أوروبا فى القرن السابع عشر فمثلاً نقض ابن تيمية الفكرة التى سادت فى أوروبا عصوراً طويلة وهى القائلة بأن منطق أرسطو هو الأداة أو المنهج العلمى الذى يجب تحصيله كشرط ضرورى لكسب المعرفة فى مختلف فروع الدراسة، ويقول ابن تيمية «إن الحاذقين فى العلوم الطبيعية والطبية لم يستعينوا بالمنطق وأبو الطب أبقراط له كلام مقبول من جميع الأطباء وقد وجدنا مصداق قوله بالتجارب ومع ذلك لم يستعن بشىء من هذه الصناعة (المنطق).

كذلك فطن ابن تيمية إلى أن منطق أرسطو ليس فى الحقيقة إلا تحصيل حاصل بمعنى أنه لا يضيف جديدًا من المعارف إلى من يأخذ، به وأحسن ما يقدمه المنطق أنه يستخدم فى عرض المعلومات التى تكون قد اكتسبناها بخبرتنا السابقة.

ويقرر ابن تيمية أن علماء الطب والحساب والنحو وأهل العلوم المختلفة لا يستعينون فى مؤلفاتهم بالحدود المنطقية، وأن القياس المنطقى الذى وضعه وحدوده لا يعلم بمجرده شيئًا من العلوم الكلية الثابتة فى الخارج، وينتهى ابن تيمية إلى تقرير حقيقة منطق أرسطو حين يقول «أما بعد فإنى كنت دائمًا أعلم أن المنطق

اليوناني لا يحتاج إلى الذكي ولا ينتفع به الغبي، ولكني كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيته من صدق الكثير منها، ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه.

وإذا تركنا موقف ابن تيمية من منطق أرسطو لنرى ما يقول ديكارت في القرن السابع عشر عن هذا المنطق لم نجد لديه أكثر مما قال ابن تيمية قبل ذلك بثلاثة قرون، لقد قال ديكارت إن القياس يستخدم بالأحرى لكي يفسر المرء للآخرين الأشياء التي يعلمونها بدلاً من أن يكشف لهم عن تلك التي يجهلونها، ولذلك فمن واجب المفكرين أن يقلعوا عن استخدام القياس على النحو الذي كان يفعله أتباع أرسطو حتى القرن السابع عشر وأوجست كونت كان يردد في القرن الماضي ما قاله ابن تيمية عن منطق أرسطو أما في القرن الثالث عشر الذي كانت علوم العرب تغزو فيه أوربا فإننا نجد روجر بيكون يدعو معاصريه ألا يصبوا لعناتهم على الرياضة والملاحظات والتجارب بدعوى أنها علوم عربية وإسلامية، بل عليهم أن يفسحوا المجال لها إيمانًا منه بأن ذلك هو الطريق إلى منهج جديد وروجر بيكون هذا هو الذي لقبه رينان بأنه الأمير الحقيقي للفكر الأوربي في القرن الثالث عشر[1].

ثانيًا: أما ابن خلدون فبالإضافة إلى أنه أول من أسس علم الاجتماع على منهج علمي سليم قائم على استقراء أحوال البلاد وظروفها الطبيعية فإنه قد اهتدى إلى أن هناك نوعين من الاستقراء أحدهما فطري والآخر علمي. وهذه الفكرة وجدناها عند كلود بارنارد في القرن التاسع عشر وشرح كل من هذين المفكرين لهذين النوعين من الاستقراء يكاد يكون واحدًا. فرغم اختلاف الاستقراء الفطري عن الاستقراء العلمي في الدرجة إلا أن كلا منهما طريق صحيح لكسب المعلومات الجديدة التي لا يمكن الوصول إليها عن طريق القياس اليوناني، وابن خلدون يشرح الاستقراء الفطري بأنه عبارة عن المعاني التي يستخدمها المرء في التطبيق العملي دون أن يشعر بها لأنها من المعاني التي اكتسبها عن طريق الخبرة الزمنية، وهذه المعاني لا تبعد عن الشعور ولا يلتفت إليها المرء ليتعمق فيها، يقول

(١) عبقرية العرب: عمر فرج. ص٦٤.

ابن خلدون «بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد، لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريبًا من الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها.

وفي هذا النص نجد أن خطوات المنهج الاستقرائي الفطري محددة وواضحة حيث يجمع المرء الوقائع الجزئية عن طريق التجارب اليومية ثم يضع فروضًا تكاد تكون غير شعورية ثم يتحقق من صدقها أو كذبها بالواقع.

وما سماه ابن خلدون بالاستقراء الفطري هو ما أطلق عليه كلود بارتارد بالخبرة العملية غير الشعورية التي يكتسبها المرء بمباشرة الأشياء ومع ذلك، فمن الضروري أن تكون هذه المعرفة المكتسبة بهذا الطريق مصحوبة بتفكير تجريبي غامض يتم بطريقة غير شعورية يقوم بها الإنسان دون أن يدري، وفرق ابن خلدون بين الاستقراء الفطري والعلمي، فإن الاستقراء العلمي يتم بطريقة شعورية للوصول إلى غاية محددة، وذلك بأن ينتقل الباحث بطريقة مقصودة من دراسة الأمثلة الجزئية حتى يصل إلى القاعدة العامة.

هذه بعض النماذج التي ذخر الفكر العربي بالكثير منها في وقت كانت أوروبا تقف فيه من هذا التراث موقف التلميذ المتلقي، ولا أدل على ذلك مما كتب في دائرة المعارف البريطانية[1].

لا يستطيع أحد أن ينكر ما اتصف به التفكير الغربي في العصور الوسطى من البعد التام عن العلم وعن النقد. إن وجود شخص واحد مثل روجر بيكون في عصر ما لا يبرئ ذلك العصر من تهمة الجهل «ولقد أبدى بيكون إعجابه في أكثر من موقف من الرجل الذي يريد أن يبحث في الفلسفة دون أن يعرف اللغة العربية[2]، وهذا يعتبر اعترافًا صريحًا من روجر بيكون بقيمة الزاد الحضاري الذي أمكن أن تقدمه هذه اللغة في تراثها، ولا يخفى أن هذا المفكر نفسه قد أفاد من هذه اللغة وتراثها بحيث اعتبره الأوربيون أبًا للفكر الحديث.

****

(١) ج ١٧/ ٤١٠ ط ١١.
(٢) انظر فروخ ١١٥ Addison. 46

بين الاستشراق والاستعمار

يعتبر الاستشراق من أهم الوسائل التى مهدت للاستعمار العسكرى وغزو الشرق ثقافيًا وعسكريًا، والاستعمار الحديث يعتمد على المستشرقين بصورة فعالة فى دراسة نفسية الشعوب، وعاداتها، وتقاليدها، وأفضل الوسائل للسيطرة عليها بأقل قدر ممكن من التكاليف، والذى يتابع أحداث القرن التاسع عشر والقرن العشرين (وهما أكثر القرون فى النشاط الاستعمارى) يعلم مدى الصلة القوية بين الاستعمار والاستشراق، ومن هنا فإننا نجد فى كثير من سفارات الدول الاستعمارية مستشرقين عاملين بها، ويقع على عاتق هؤلاء المستشرقين مهمة الاتصال بالعقول المفكرة فى البلاد التى يريدون السيطرة عليها ثقافيًا أو عسكريًا وكذلك التصال بكبار العاملين فى المناصب القيادية فى مجالات الثقافة والإعلام والتعليم العام والجامعى، ولا تنقصهم الوسائل المناسبة فى محاولة احتواء هذه الشخصيات عن طريق الصداقة أو المشاركة فى أعمال ثقافية أو تقديم الخبرة لهم، أو . . أو . . إلخ، وعن طريق هذه الشخصيات يستطيعون تنفيذ خططهم فى غزو البلاد فكريًا ثم عسكريًا إذا اقتضى الأمر، وقد استطاع الاستعمار الحديث أن يغزو معظم البلاد الإسلامية فكريًا وثقافيًا عن هذا الطريق، كما استطاع أن ينفذ خططه فى السيطرة على عقول كثير من المفكرين فى بلادهم ليكونوا هم الأداة لتنفيذ برامج الاستعمار فى هذه البلاد.

وبلغ الأمر فى ذلك مبلغًا خطيرًا، حتى إن كثيرًا من المشتغلين بالثقافة جعلوا أنفسهم بمثابة وكلاء عن المستشرقين فى توزيع أفكارهم والدعوة إلى تبنى آرائهم فى الفكر الإسلامى وقضاياه، فهذا مندوب عن ماركس والشيوعية، وذاك مندوب عن الوضعية والوضعيين، وثالثهم مندوب الوجودية والوجوديين، وآخر يدعو إلى القول بتأنيس الإله أو تأليه الإنسان . . إلخ وامتلأت المؤسسات الثقافية فى مصر والشام وشمال أفريقيا بوكلاء معتمدين لتوزيع الفكر الاستشراقى على المؤسسات العربية، وشحن الوجدان العربى بمفاهيمهم تحت مقولات مضللة كالتنوير والتقدمية والنهضوية . . إلخ.

ولقد عمد هؤلاء إلى إثارة الفتنة حول بعض القضايا الخلافية فى الفكر الإسلامى وعملوا على إحياء الخلافات حولها.

فلقد آثاروا فتنة كبيرة حول ما أسموه بقضايا المرأة فى الإسلام، مثل قضية الطلاق، وتعدد الزوجات والعصمة. وتعدد زوجات الرسول . . . إلخ، ونقلوا إلى العالم الإسلامى مشكلات دخيلة لا وجود لها أصلاً فى الإسلام وإنما هى موجودة فى الغرب بحكم ثقافته وديانته، وشغل المسلمون أنفسهم بهذه المشكلات، وبالبحث عن حلول لها، وكان هذا مجالاً واسعًا للفرقة والتعصب والتحزب للرأى ضد الرأى الآخر ومازال المسلمون يكتوون بنار هذه الفُرقة إلى الآن.

وكان من الآثار الخطيرة التى ترتبت على إثارة هذه القضايا أن فريقًا كبيرًا من المثقفين العرب قد انقادوا وراء هذه الضجة وأخذ البعض يتولى نيابة عن المستشرقين – إثارة هذه الفتن بين صفوف المسلمين، ويتبنى آراءهم ويدعو إلى الأخذ بأفكارهم، وبدلاً من أن يكون الخلاف دائرًا بين المسلمين كوحدة متماسكة والمستشرقين كجبهة مضادة انتقلت المعركة إلى أرض المسلمين بأنفسهم لتفرق صفوفهم وتمزق وحدتهم، فأصبحوا جبهات متعارضة بين مؤيد ومعارض، بين رافض للفكر الاستشراقى وموقفه من الإسلام، ومؤيد ومبرر له تحت دعوى التنوير والتقدمية، وهذه الفُرقة فى الصف الإسلامى هى فى حد ذاتها تمثل هدفًا وغاية سعى المستعمر لتحقيقها خلال جهود المستشرقين فى ذلك، وكان شغل المسلمين بعضهم بعضًا حول هذه الخلافات التافهة واستنفاد وقتهم وجهدهم فى ذلك وانشغالهم عن قضايا مستقبل أمتهم الذى يعبث غيرهم به كان ذلك كله تحقيقًا لأهداف سعى المستشرقون من ورائها إلى السيطرة على عقول نخبة كبيرة من المشتغلين بالثقافة العربية فى بلادنا، واستطاعوا من خلال السيطرة على هذه العقول أن ينفضوا سمومهم فى حاضر الثقافة العربية بالتشويه أحيانًا وبالتشكيك أحيانًا أخرى، وسوف أعرض بإيجاز شديد لبعض النماذج الفكرية التى تبنت هذا الفكر الاستشراقى ودعت إليه.

١ – ففى مطلع هذا القرن نادى سلامه موسى بوجوب التخلص من الغيبيات حتى نستطيع أن ننهض كما نهضت أوروبا ». . أى النظر إلى هذه الدنيا كأنها

الغاية التى ليس وراءها غاية تُخدم، وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمت بأى صلة إلى الغيبيات، إن علينا أن نعتمد على أنفسنا فى تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها وألا نزهد فيها إيثارًا عليها للعالم الثانى كما هى النظرة الغيبية. . والنهضة الأوروبية التى أخرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى لا تعنى شيئًا آخر غير ذلك»[١].

ثم يصرح فى موضع آخر بضرورة التخلص من العقائد الدينية والاعتماد كليّا على العقل. «. . إذ ليس فى الكون كله ما يعتمد عليه سوى العقل، وليس للإنسان خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه أن يطمع فى تحقيق سعادته فيه. . وأن الانحطاط لم يعن فى القرون الوسطى. وهو لا يعنى الآن فى الشرق أو الغرب سوى قصر الذهن البشرى على خدمة ما وراء الطبيعة ونشدان السعادة والهناءة فى غير هذه الأرض»[٢].

ولا يألو سلامة موسى جهدًا فى تكرار القول بوجوب محاكاة الحضارة الأوروبية حتى نحيا حياة كريمة «إذا لا يمكن لأمة أن تحيا إذا خالفتها. . ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوروبية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون»[٣].

٢- وكتب قاسم أمين قبل ذلك كتابه عن تحرير المرأة أثار فيه مشكلات لا وجود لها إلا فى ذهن المستشرقين ونادى فيه بوجوب أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة فى أوروبا وفرنسا بالذات شبرًا بشبر، وأن ترفع صوتها رافضة قضية تعدد الزوجات، وحقها فى الطلاق. . . إلخ.

٣- أما على عبد الرازق، فألف كتابه عن «الإسلام وأصول الحكم» ليعلن فيه أن الإسلام دين لا دولة. عقيدة لا شريعة، وحى لا دستور، وليس فى الإسلام نظام لسياسة الدولة[٤] والكتاب من أوله إلى آخره يعرض الآراء التى استقاها

(١) سلامة موسى، ما هى النهضة، ص١٥ بتصرف.

(٢) نفس المرجع، ص١٦.

(٣) نفس المرجع، ص ٩٠.

(٤) راجع الإسلام وأصول الحكم، على عبد الرازق، ط. القاهرة، سنة ١٩٥٢م.

المؤلف من كتابات المستشرقين عن الدين دون أن يدركوا الفوارق الأساسية بين مفهوم كلمة الدين المسيحى كما عاشوه فى أوروبا والدين الإسلامى كما هو فى الكتاب والسنة، وقد آثار هذا الكتاب ضجة كبيرة بين علماء الأزهر الشريف، حيث قرر الأزهر منع تداول الكتاب وعدم طباعته، وفصل صاحبه من سلك القضاء الذى كان يعمل به. .

٤- كما سار على نفس النهج طه حسين في كتابه عن «الشعر الجاهلى» الذى حاول فيه أن يطبق مقاييس منهج ديكارت فى الشك على نصوص القرآن الكريم، وطبقًا لهذه المقاييس النقدية فإنه لا يكون هناك شىء مقدس فوق النقد ومن خلال تطبيقه لهذا المنهج النقدى، قال بأن قصة إسماعيل الذبيح الذى ينتمى إليه العرب، قصة خيالية حيث «كانت قريش مستعدة لقبول هذه الأسطورة وأمر هذه القصة واضح قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وقبلتها مكة لسبب دينى وسياسى.

كما صرح بما هو أخطر من ذلك حيث يقول: ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديدًا كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه، ولا آمن به بعضهم، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر»[١].

كما صرح طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» بضرورة محاكاة الغرب فننام كما ينامون. . ونأكل كما يأكلون، ونتكلم بلغتهم كما يتكلمون. وهذا ما نادى به سلامة موسى وغيره. . وهذه قضية كبيرة لا تحتاج فى مقامنا هذا إلى تفصيل ولكن أردت من ذكر هذه النماذج أن أضعها أمام القراء حتى لا نخدع أنفسنا بشعارات زائفة تحت شعار التنوير والتقدمية.

وهناك نماذج أخرى كثيرة لم يكن لديها قدر كاف من المعرفة الدقيقة بالثقافة الإسلامية وخصائصها لأنهم بدأوا حياتهم على موائد الغرب الثقافية واكتفى بعضهم بأن يكتب -ساخرًا- عن تطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ الحدود فى السارق والزانى وشارب الخمر، ويقول على سبيل السخرية: من الذى يتولى قطع يد السارق الجزار أم رئيس الجمهورية. وحاولوا من خلال مراكزهم الاجتماعية فى

(١) راجع فى الشعر الجاهلى لطه حسين، ص ١٨ - ٣٠.

وسائل الإعلام أن يكتبوا المسرحيات والمسلسلات التلفزيونية التى تسخر من رجل الدين ورجال اللغة العربية وتنال منهم كرموز للفكر الإسلامى والقائمين على حراسته، وكم من مسرحيات أو مسلسلات كتبها أصحابها لهذا الغرض وكان أثرها فى نفسية المجتمع أشد وأعظم من وقع الحسام على الرقاب، وترتب على ذلك أن تغيرت نظرة المجتمع إلى معلم الدين ومعلم اللغة العربية وتراجعت مكانة كل منهما عن الصدارة الاجتماعية ليحل محلها الرجل (المودرنيزم) الذى صنعه الاستشراق على عينه وتعتهده وكلاء الاستشراق فى بلدان بالمناصب القيادية المؤثرة فى توجيه الرأى العام فى المجتمع ليقول للناس: ما أريكم فى وسائل إعلامكم إلا ما أرى.

ولقد كان للبلاد الإسلامية نصيب موفور فى هذا الشأن، وكانت الوسائل الاستعمارية التى نادى بها الاستشراق فى العالم تهدف كلها إلى إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب، وتعمل على بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد ليسهل بعد ذلك السيطرة عليها، كما روج المستشرقون كذلك لبعض القضايا التى كان لها أخطر النتائج فى ازدياد عوامل الفرقة بين صفوف المسلمين، فمن ذلك مثلاً:

١- العمل على إحلال العاميات محل اللغة الفصحى في مصر وغيرها بدعوى أن الفصحى ليست قادرة على مسايرة الكشوف العلمية المتطورة، وكان أول من نادى بها فى مصر المستشرق الألمانى (ولهلم سبيتا) وكان يعمل مديرًا لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ووضع كتابه (قواعد اللغة العربية العامية فى مصر) سنة ١٨٨٠م مجد فيه اللغة القبطية فى مصر، ودعا دول العالم العربى إلى الأخذ بالعاميات بدلاً من الفصحى، ولا يخفى ما فى هذه الدعوى من الخطر على الإسلام ولغة القرآن.

ثم تابع نفس القضية (اللورد دوفرين) فى تقرير وضعه سنة ١٨٨٢م أعلن فيه أن العامية هى سبيل النهوض والتقدم فى مصر، وجاء بعده المستشرق الألمانى (كارل فولرس) مدير دار الكتب المصرية بعد «ولهلم» فوضع كتابه (اللهجة العامية الحديثة) دعا فيه إلى هجر الفصحى وحث العرب على استخدام الحروف اللاتينية بدلاً من العربية، ثم تتبع القضية فى مصر سلامة موسى فى مطلع هذا القرن،

ومازلنا نسمع صداها إلى الآن ونقرأ ذلك فى كتابات بعض المشتغلين بالشؤون الثقافية والتربوية.

٣- **أما القضية الثانية**: تتلخص فى تلك المحاولة التى يقوم بها المستشرقون ومن تأثر بهم، حيث يقولون إن سبب تأخر الشرق الإسلامى ماديًا وعلميًا يرجع إلى تمسكهم بالدين الإسلامى وتعاليمه، ولا مناص للشعوب الإسلامية إذا أرادوا أن يتغلبوا على هذا التخلف الحضارى إلا أن يتخلصوا من تعاليم دينهم أولاً، وأن ينحوا الإسلام بعيدًا عن شؤون حياتهم اليومية، ليكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه وشعائره إذا أراد ذلك فى بيته أو فى المسجد وكفى، ويقارن هؤلاء بين تقدم الغرب وتأخر الشرق، ويطرحون على الشباب هذه المقارنة الظالمة ليبينوا فيها أن تقدم الغرب كان سببه هو التخلص من الدين عمومًا، والتمسك بمنطق العلم فقط، وليس أمام الشرق إلا أن يسلك مسلك الغرب فى ذلك لأنه النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر، وهذه القضية من أخطر القضايا المطروحة الآن فى الساحة الثقافية وهى بؤرة الحوار أو الصراع بين العلمانيين والإسلاميين.

ولقد جند المستشرقون كثيرًا من حملة الأقلام وسخروهم للترويج لهذه الأكذوبة فى البلاد الإسلامية، وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية -للأسف الشديد- بعض المحترفين للكتابة من المسلمين نيابة عن الاستعمار، فعل ذلك بعض حملة الأقلام فى مصر، والشام، والعراق، وتونس، والجزائر، والمغرب، كما شغلت الدعوة لهذه القضية كثيرًا من وقت أجهزة الإعلام صحافة وإذاعة وتلفازًا، وعقدت من أجلها الندوات، وأقيمت المؤتمرات والمناظرات، ووصل الأمر بها أن تسللت إلى بعض قاعات الدرس الجامعى تحت ستار التنوير، والمعاصرة، واستغل بعضهم الوضع المتردى للمسلمين ليفهم الشباب أن سبب هزائمهم المتكررة، هو التمسك بالإسلام، وتناسى هؤلاء أن للنصر أسبابه وللنهضة أسبابها، وأن للهزيمة أسبابها، . وللتأخر أسبابه كذلك، وأن إقحام الدين فى ذلك تضليل وافتراء، ولا يحتاج الأمر فى توضيح هذه الأسباب إلى عناء كبير.

لماذا لم يقارنوا بين نظم الحكم فى الغرب ونظيرها فى الشرق؟!

لماذا لم يقارنوا بين ما يتمتع به الغرب من حرية وديمقراطية وكرامة إنسانية وتحقيق للعدالة والمساواة أمام القانون، وما هو واقع فى الشرق من استبداد فى الحكم لا نظير له فى أى بلد فى العالم..؟!

إن أسباب التقدم تكمن فى احترام هذه الأسباب وضرورة الأخذ بها واحترام العلماء الذين أفنوا أعمارهم فى الكشف عنها والتنبيه إليها، ولقد نبه ابن خلدون إلى ذلك قديمًا كما نبه إليه المفكرون حديثًا وأن السنن الكونية لا تتخلف آثارها إذا ما وجدت الأسباب سواء تعلق ذلك بالأفراد أم تعلق بالجماعات والأمم، فللنصر أسبابه وللهزائم أسبابها؛ كما أن لقيام الحضارات أسبابها ولانهيار الحضارات أسبابها، وتلك سنن الله فى كونه لا فرق فيها بين أمة مسلمة وأخرى كافرة.

والقضية كلها تتمثل عندى فى أسئلة محددة:

١- هل حقيقة أن أوروبا قد نفضت يدها من قضايا الدين فلم تعبأ به؟

٢- وهل حقيقة أن رفضها للدين كان سببًا فى تقدمها؟

٣- وهل حقيقة أن سبب تأخر الشرق العربى يرجع إلى تمسكه بالإسلام وأخذه به؟

٤- قبل الإجابة على هذه الأسئلة أجد هناك سؤالاً لابد من طرحه: هل الإسلام يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم العلمى والحضارى؟

وفى رأيى أن وضع القضية كلها فى هذا الشكل يكون أكثر تحديدًا وموضوعية بدلاً من التلاعب بالألفاظ بوضعها فى غير موضعها الحقيقى، وبهذا التحديد نستطيع أن نضع النقاط فوق الحروف.

ولعل الإجابة على السؤال الأخير تعطينا المفتاح الحقيقى للإجابة على الأسئلة السابقة، فإن الأخذ بالمفاهيم الدينية الصحيحة لا يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم، لأن العلاقة بينهما ليست علاقة تضاد أو تناقض حتى نظن أو نتوهم أن التمسك بالدين الصحيح سبب تأخر أهله، وإنما هى علاقة اشتمال وتداخل أو ما يسمى في عرف المناطقة بعلاقة العموم والخصوص المطلق، فكل ما هو دين صحيح لابد وبالضرورة أن يكون فيه تقدم للبشرية وأمن وأمان لها وكلمة «صحيح» هنا

مقصودة بذاتها، حتى لا يعد من الدين ما ليس منه، وحتى لا يرتكب باسم الدين ما لا يمت إليه بسبب، كما أن التقدم الذى ينشده الدين لأهله ليس هو تقدم الأشياء المادية فى ذاتها فتكون الحضارة الناتجة عن هذا اللون من التقدم حضارة مادية أو هى حضارة شيئية لا تعنى بصانع الأشياء قدر عنايتها بالأشياء فى ذاتها، ذلك أن هذا اللون من التحضر يوجه كل اهتمامه إلى الوسائل فيجعلها غايات فى ذاتها ويهمل الغايات الحقيقية التى يجب أن يتوجه لخدمتها كما ينبع منها كل ألوان التقدم والتحضر.

والأديان كلها خلاف ذلك تمامًا، فهى تجعل الإنسان غاية فى ذاته لكل تقدم مقصود وما عدا الإنسان في هذا العالم يعتبر وسيلة له. ومن هنا نجد الأديان كلها قد وجهت عنايتها إلى الإنسان باعتباره غاية مقصودة، فى الوقت نفسه لم تطلب من الإنسان أن يهمل الوسائل باعتبارها مرآة وجوده وعنوان تحضره، وهذا هو الفرق الدقيق بين موقف الأديان من معنى التحضر وموقف أولئك الرافضين للدين بدعوى أنه يعوق التقدم، فإن أولئك يهتمون بتقدم الأشياء فى ذاتها على حساب التقدم الإنسانى، فإن تقدم الإنسان فى ذاته شىء وتقدم الأشياء المحيطة به شىء آخر. وهم بذلك يهتمون بالوسائل على حساب الغاية، وهذا عكس الموقف الدينى الذى يهتم بالغاية فى ذاتها ولا يهمل الوسائل.

ولعل بوادر الإفلاس لبعض الحضارات المادية قد بدت واضحة فى معظم دول أوروبا، حيث ظهرت حركات التمرد التى تعبر عن روح الشباب الثائر على كل شىء أمامه لأنه لم يجد فيه ما يبعث روح الأمن والأمان اللذين هما غاية الإنسان وأمله فى حياته.

وأوروبا لم تتقدم لأنها أهملت الدين أو نفضت يدها منه كما يزعم هؤلاء، بل تقدمت أوروبا لأنها أخذت بأسباب التقدم وملكت ناصيته من تحقيق العدل والمساواة والأخذ بمنطق العلم والمنهج العلمى، كما أن الشرق لم يتخلف بسبب تمسكه بالدين أو أخذه بمفاهيمه، وإنما يرجع تأخر الشرق لأنه أهمل الأخذ بأسباب التقدم فلم يكن للعلم مكان فى حياته ولا للمنهج العلمى أثر ولم يحقق العدل والمساواة بين أبنائه ولم يرفع قيمة العلم ولم يسع إليها، وهذا قانون إلهى عام فى

جميع الأمم ينطبق على الأمة الإسلامية كما ينطبق على الأمم الكافرة، فمن يأخذ بالأسباب يصل ضرورة إلى النتائج إذا توافرت العوامل المساعدة، ومن يهمل الأسباب لا يمنى نفسه بالوصول إلى نتائج، فالدين مفترَى عليه فى هذه المقارنة، وينبغى أن نتلمس أسباب تقدم الغرب وتأخر الشرق بعيدًا كل البعد عن هذه الأكذوبة المقصودة.

أوروبا والمسيحية:

وإذا ألقينا نظرية سريعة على حقيقة موقف أوروبا من الدين، فإننا نجد ما يدعو إلى الدهشة والعجب، لأن موقف حكومات أوروبا يختلف تمامًا عما يشاع عنها فى منطقة الشرق والعالم الإسلامى بصفة خاصة، ولم نجد فى العالم الإسلامى كله -وهو الهدف المقصود من هذه الحملة- حكومة تخطط وتعد البرامج لتنفيذ خططها لنشر دينها وحمايته مثلما عملت حكومات أخرى فى أوروبا.

وسوف أضع أمام القارئ بعض المواقف لبعض دول أوروبا من هذه القضية ليعرف مدى ما وصل إليه دعاة هذه الأكذوبة من تضليل وتزييف فى دعواهم أن أوروبا نفضت يدها من الأديان عمومًا.

أولاً: لا يشك معاصر فى تقدم الشعب الإنجليزى ولا فى تحضره، ورغم ذلك فإنه على المستوى الحكومى من أكثر الشعوب الأوروبية حفاظًا على دينه ومعتقداته، ولقد أثير فى الثلاثينيات من هذا القرن خلاف كبير حول قضية استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح وروحه، وهذه مسألة معروفة فى الدين المسيحى، فاليمينيون يرون أنه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز إلى جسد المسيح وينقلب الخمر إلى دمه بناء على أن المسيح قد قال فى العشاء السرى لحوارييه أن هذا الخبز جسدى وإن هذه الخمر دمى وقدم لهم الخبز والخمر معًا، فالكاثوليك والمحافظون يقولون إنه كلما قدس الكاهن على الخبز والخمر ودعا بالدعاء الذي قاله المسيح ينقلب الخبز إلى جسده والخمر إلى دمه، وأما الوسط واليساريون فيرون أن هذه الاستحالة غير معقولة لأنها مخالفة للعلم، والخبز لا يكون جسدًا للمسيح ولا الخمر دمًا به بالمعنى الحقيقى، وأنه يقدس كل يوم ألوف

الكهنة، ولا نرى هذا التحول حقيقة، ولا يكون كلام المسيح فى ذلك إلا رمزًا بحيث إذا قدس الكاهن يتذكر الناس جسد المسيح ودمه، واحتدم الخلاف بين اليسار واليمين حول هذه المشكلة فى إنجلترا واستدل اليسار بما فى كتاب الصلاة الذى يمثل عقيدة الكنيسة الانكليكانية، وفى هذا الكتاب ما يدل على أن كلام المسيح ليس إلا رمزًا فقط وليس حقيقة، واعترض اليمين على النص المقدس وطلبوا تعديله أو حذفه من كتاب الصلاة، ولا يجوز تعديل أو حذف أى نص من كتاب الصلاة إلا بعد الرجوع إلى مجلس العموم البريطانى، ومن هنا دخلت هذه المشكلة إلى مجلس العموم ومجلس اللوردات، وشكلت الحكومة البريطانية لذلك مجلسًا مؤلفًا من كبار المطارنة لحسم هذه المشكلة، ولكن هذا المجلس المؤلف قد انقسم على نفسه ولم يتفق على رأى موحد إلا بعد نقاش طويل حيث استقر رأيهم أخيرًا على أن هذه الاستحالة حقيقية وطلب المجلس تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بهذه النقطة، وعند ذلك عرضت الحكومة هذه القضية على مجلس اللوردات وبعد مناقشات عنيفة قرر المجلس تنفيذ قرار الأباطرة الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربرى أكبر أساقفة إنجلترا، ولما كان لابد لتعديل كتاب الصلاة من موافقة مجلس العموم دخلت إليه القضية مرة أخرى، ووقف وزير الداخلية البريطانى معترضًا على قرار التعديل فى الكتاب المقدس، فكتاب الصلاة هو دستور كنيسة إنجلترا ولا يمكن تعديل شىء منه إلا بعد رأى الأمة بأسرها، وعند التصويت على هذه القضية كانت الأكثرية رافضة لقرار التعديل فى كتاب الصلاة.

فهذه مسألة دينية صرفة كانت محور هذه المناقشات الطويلة فى مجلس الشيوخ والنواب فى أعظم دول أوروبا وأعلاها كعبة فى المدينة والتحضر، فهل كانت إنجلترا رافضة للدين حين شغلت نفسها بهذه المشكلة؟

ثانيًا: لقد وضعت بلجيكا فى برنامج حكومتها الرسمى العمل على تنصير زنوج مستعمراتها فى الكونغو، وتم لها ما أرادت فأصبح أكثر من نصف سكان الكونغو يدينون بالمسيحية بعد أن كانوا يعيشون حياة البداوة وذلك بجهد المبشرين بالمسيحية الذين أوفدتهم بلجيكا لتنفيذ برامجها هناك.

ثالثًا: نجد إيطاليا بعد أن غلب عليها حكم الفاشية أعادت إلى المدارس الحكومية التعليم الدينى الخاص الكاثوليكى وأقامت الصلبان فى المدارس، وعدلت قوانين البلاد تعديلاً موافقًا لمبادئ الكنيسة، وأعلنت أنها دولة مسيحية كاثولكية وأرسلت القساوسة والمبشرين إلى مستعمراتها، وزادت على غيرها من دول الاستعمار المسيحى أنها أخذت أطفال المسلمين قهرًا من حجور أمهاتهم فى ليبيا لكى تنصرهم على الكاثوليكية فى إيطاليا نفسها، ولم تعبأ بما فى ذلك من الاعتداء على أقدس حرية بشرية وهى حرية العقيدة وهذا شىء قد سجله التاريخ وهو خير شاهد على ذلك.

وجميع الدول البروتستانتية فى أوروبا تعلن كلها أنها دول مسيحية، وأن ثقافتها إنجيلية، وكثيرًا ما أعلنت هذه الدول فى برامج حكوماتها أمام المجالس النيابية أنها ملتزمة بالثقافة الإنجيلية وتعاليمها، ولا يخفى على من يقرأ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب أن وزير معارف هولندا افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب صرح فيه بأن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة، وإنما لنشر الدين المسيحى» كما صرح «شترزمان» وزير خارجية ألمانيا فى كثير من خطبه أمام «الريخستاج» أن ثقافة ألمانيا قائمة على الدين المسيحى، وفى فبراير سنة ١٩٣٣ قدم هتلر رئيس الحزب القومى الاشتراكى الألمانى -عندما تولى رئاسة الوزارة- برنامجًا لوزارته صدق عليه جميع وزراء ألمانيا المشتركين فى الوزارة، بدأه هتلر بقوله «إن أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الألمانية هو العمل لأجل الوحدة الروحية وإحياء العقيدة النصرانية فى الأمة والتقاليد الجيدة الماضية» وهناك كتاب يسمى «الأديان فى ألمانيا» ينبغى أن يقرأه أولئك الذين يتزعمون عن جهل - دعوى فصل الدين عن الدولة ليعلموا ما للدين من قوة فى ألمانيا وكيف يقترن التعليم الدينى بالتعليم المدنى فى مدارسها.

والمصلح المسيحى كلفين كان أساس برنامجه الإصلاحى هو «أن الدولة المسيحية رأسها هو الله» ولأجل أن يكون الإنسان تابعًا لهذه الدولة ينبغى له عدم الحيدة عن خطة الإنجيل، والمواظبة على إقامة الشعائر المسيحية ويتناول القربان أربع مرات فى العام، ذلك أن الاشتراك فى المائدة الإلهية هو عبادة الله رأس الدولة المسيحية، واليسوع المسيح رأس الكنيسة، فهاتان السلطتان الدنيوية والروحية باتحادهما معًا من

شأنهما تنفيذ إرادة البارى رأس الدولة فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص إن لزم. كما أن السلطة الروحية لها حق الوعظ والتحليل والتحرى، وكلا نوعى الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبنى على الكتاب المقدس، والملك الذى لا ينشر مجد الله فليس بالذى يقيم مملكة وإنما يقيم لصوصية، وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رجال الدين ويوطد بالتعاون معهم نظام دولته لا النظام المدنى فقط، بل الدينى أيضًا».

وفرنسا قد اتفقت مع الفاتيكان على تحديد نوع العلاقة بين الدولة والكنيسة، وبمقتضى هذه العلاقة أعلنت فرنسا أنها حامية المسيحية فى الشرق ولا سيما المذهب الكاثوليكى، ومن يقرأ تاريخ الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا يعلم حقيقة موقف فرنسا من الدين المسيحى وجهودها الدائبة لنشره، ولا يخفى على أحد أيضًا ما فعله الكردينال «لافيجرى» والآباء اليسوعيون في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر «فلقد تحولت مساجد كثيرة إلى كنائس علقت فيها الصلبان وتحول الكثير من البربر إلى كاثوليك بفعل الآباء، وتعمدت فرنسا إلغاء الشريعة الإسلامية فى الجزائر على يد المسيو (لوسيان سان) الذى دعا إلي عقد مؤتمر دينى كبير للكاثوليك نتج عنه حظر التجول للفقهاء المسلمين فى البلاد.. ومنع حفظة القرآن الكريم ومشايخ الطرق الصوفية، كما منع زعماء البربر من إرسال أبنائهم إلى العواصم لحفظ القرآن أو تعلم العقيدة الإسلامية وذاكرة التاريخ لا تنسى شيئًا من ذلك، ولا أريد أن أستطرد فى ذكر العديد من النماذج الأوروبية التى يحلو للبعض أن يقارن الشرق بها، ولكن أصبح من المؤكد الآن أن الذى دعت إليه فرنسا فى الجزائر والمغرب هو بعينه ما يدعو إليه هؤلاء العلمانيون من إبطال العمل بالقانون الإسلامى وفصل أمور السياسة عن أمور الدين، وما أردت بذكر هذه الأمثلة إلا أن أضع أمام حكومات العالم الإسلامى وأمام القارئ حقيقة الموقف ليعلم الكل كم يخدعه هؤلاء المضللون فى زعمهم بأن أوروبا قد نفضت يدها من قضايا الدني وأنها لا تعنى بالمسيحية فى شىء وأن النشاط الدينى لا يبارح الكنيسة.

وأول من نادى بهذه الضلالة وروج بها فى الشرق هو مصطفى كمال أتاتورك رئيس تركيا، وكان وراء ذلك جهد كبير وجهاد مستمر من الاستعمار الذى غذى

هذه الأكذوبة وعمل على شيوعها فى هذه المنطقة لكى يمكن لنفسه من خيراتها، وكانت الخلافة العثمانية تمثل فى نظر الاستعمار حجر عثرة يجب التخلص منها، وذلك لا يمكن إلا بالتخلص من العقيدة الإسلامية نفسها باقتلاعها من نفوس أصحابها بوسيلة أو بأخرى وفى سبيل ذلك أشاعوا كذبًا وبهتانًا أن الدين ضد المدنية والتحضر، وأن تأخر الشرق يرجع إلى تمسكه بالدين و . . . و . . . إلخ هذه الأكاذيب والأضاليل التى أستأجروا للترويج لها أقلامًا ورجالاً مازلنا نسمع صوتهم إلى اليوم، وإذا كان أتاتورك قد سلخ تركيا عن العقيدة الإسلامية بقانون وبرنامج وضعت خطواته فى أندية أوروبا، فإن الشعب التركى لم يلبث أن عاد وسريعًا إلى العمل على بناء ما تهدم وتعمير ما خرب، وأصبح يجتذب إليه أنظار العالم الإسلامى كله فيعقد المؤتمرات الدولية باسم الإسلام ويكون الأحزاب الإسلامية التى وجدت لها مكانًا فى السلطة السياسية، وأصبح ما فعله أتاتورك بتركيا عملاً سجله التاريخ فى كتبه ولم يؤثر فى عقيدة المسلم التركى فى واقع الأمر، والقضية كلها أصبحت قضية تاريخية لا واقع لها[1].

****

---

(١) انظر البحث القيم: مائة مشروع لإسقاط الخلافة العثمانية لشكيب أرسلان ضمن كتاب: حاضر العالم الإسلامى تأليف لوثروب استودارد الأمريكى تعريب عجاج نويهض.

تبشير أم تنصير

من الأفضل أن نسمى الأشياء بأسمائها الصحيحة، ولذلك فإننا نرى أن استعمال كلمة التنصير هى أكثر دلالة على المطلوب من كلمة التبشير التى استعملها بعض الكتاب للتعبير بها عن ذلك الجهد الذى يبذله المتخصصون من النصارى فى بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين وغيرهم بهدف تنصيرهم وتحويلهم من الإسلام إلى النصرانية واتباع تعاليم الإنجيل بدلاً من القرآن والولاء للكنيسة بدلاً من المسجد.

وقد يكون مفيدًا للدارسين لهذه القضية أن يعلموا أن سياسة التنصير والعمل على بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين ليست جديدة وإنها ليست وليدة هذا العصر، بل هى قديمة قدم الإسلام نفسه، ويمتد تاريخها إلى عصر النبوة ثم عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا.

وأقدم وثيقة سجلت لنا تاريخ الحوار المسيحى الإسلامى هو القرآن الكريم وما جاء فيه من آيات سجلت لنا ما كان يدور بين الرسول وأهل الكتاب فى المدينة المنورة، وهذا الحوار كان يشتد أحيانًا ليأخذ شكل الصراع الذى يذهب إلى مستوى الكيد والتدبير لقتل الرسول ﷺ وكان يهدأ فى بعض الأحيان فيأخذ شكل الحوار العقلانى، ولقد سجلت لنا سورتان كريمتان من سور القرآن الكريم ما كان يجرى من حوار بين الرسول وأهل الكتاب وهما: (سورة آل عمران وسورة المائدة) والذى يتدبر آيات الحوار الواردة فى هاتين السورتين يقف على حقيقة هذا الصراع وحقيقة القضايا العقدية التى كانت تمثل موضوع هذا الحوار، وكيف فضح القرآن سرائر النصارى حين بدلوا وحرفوا ما أنزل الله على عيسى النبى وبين أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، استمرت موضوعات هذه القضية موضوع الحوار الدينى خلال عصور الإسلام، المتوالية تصدى لها علماء الإسلام عبر هذه القرون العديدة فوضع الجاحظ رسالته فى الرد على النصارى، وكتب القاضى عبد الجبار كتابه فى دلائل النبوة ونبه كل منهما على أساليب النصارى ومنهجهم فى بث الدعاوى الإنجيلية بين المسلمين.

كما تصدى لنفس القضية ابن حزم فى كتابه العظيم «الفِصَل» والشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» وعلى الطبرى فى رسالته الرد على النصارى وابن تيمية فى الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم فى كتابه «هداية الحيارى فى الرد على النصارى» وكذلك القرافى فى كتابه الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاجرة والقرطبى فى كتابه الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام.. وكثير من الرسائل التى لا تكاد تحصى فى هذا الغرض.

وفى العصور المتأخرة، كتب -رحمة الله بن خليل الرحمن العثمانى الكيرانوى- كتابه «إظهار الحق» الذى يعتبر من أهم الكتب الحديثة التى عرضت لهذه القضية بأسلوب رصين ومنهج علمى رائع أفاد من كتب السابقين. وأخذت هذه القضية تحتل مكانًا بارزًا فى اهتمامات المفكرين المعاصرين وفى الأقسام الأكاديمية للفلسفة الإسلامية والعقيدة فى الجامعات العربية والإسلامية، ولعلها تمثل الآن أهم قضايا الحوار القائم بين المسيحية والإسلام فى المؤتمرات المتعددة التى احتلت بؤرة الصراع القائم بين أهل الديانتين عبر التاريخ وتحولت لغة الصراع إلى لون جديد من الحوار كمظهر جديد من مظاهر العلاقة بينهما.

وسوف نجعل هذه الدراسة ترتكز فى مقدماتها ونتائجها على نصوص المبشرين أو القائمين على سياسة التنصير أنفسهم وكذلك على التوصيات التى يوصون بها فى مؤتمراتهم المتعددة ليكون كلامهم شاهدًا لنا بما نريده من دراسة هذه القضية من حيث الغاية والهدف من جانب وليكون فى نفس الوقت ردًا عمليًا على الذين يرددون كلامهم ويتشيعون لمنهجهم تحت ستار المدنية والحضارة وما إلى ذلك من مسمياتهم الكثيرة التى يتسترون خلفها لبث أفكارهم بين المسلمين من جانب آخر.

ولقد نشطت المؤسسات التنصيرية فى العالم الإسلامى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين مما لفت أنظار المفكرين المسلمين أن يتنبهوا لخطورة هذه القضية وسوء عاقبتها مما دعا البعض إلى رصد هذه المؤسسات وتتبع تاريخ هذا النشاط التنصيرى فى القرنين الأخيرين.

وتكاد تتفق معظم المؤلفات الحديثة على أن أول من مارس هذه المهمة فى العالم الإسلامى الحديث هو «ريمون لول ١٢٩٩-١٣٠٠» المفكر الأسبانى الذى استطاع

أن يحصل على إذن الملك يعقوب صاحب أرغونة ليقوم بمهمة التبشير فى مساجد برشلونة بين صفوف المسلمين محتميًا بالسلطة المسيحية فى أسبانيا[1]. وذلك بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى تحقيق أحلام الغرب وعودة بيت المقدس إلى السلطة الكنسية وانتزاعه من أيدى المسلمين.

وكان قبل ذلك قد تأسس فى سوريا وبلاد الشام جماعة (الإخوة الكرملية) أسسها أحد الصليبيين ٥٥٢هـ سنة ١١٥٧م وأطلق عليها اسم جبل الكرمل.

وفى أوائل القرن الثالث عسر تأسست مدرسة الآباء الفرنسيسكان والدومنيكان، وأنشأت كل منهما لنفسها فروعها المختلفة فى أنحاء سوريا وبيروت.

وفى أعقاب الحروب الصليبية كتب أسقف «دومينكانى» وهو «وليم الطرابلسى» رسالة بشؤون المسلمين يوصى فيها باستخدام المرسلين «يعنى المنصرين» بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة[2].

ولقد أشار فيليب حتى إلى هذه الوثيقة الخطيرة فى كتابه عن تاريخ سوريا وفلسطين، وأوضح القول فى العلاقة المتبادلة بين الاستشراق والتنصير وأن هدف الفريقين واحد، وإن اختلفت الوسائل، فالمبشرون يستفيدون من دراسات المستشرقين لخصائص البلاد وأحوالها وعاداتها وإمكاناتها للتقرب إلى أهلها بأيسر السبل، والتعاون قائم بين الفريقين لاستقطاب أهل الرأى فى المنطقة للسيطرة عليها بكل الوسائل المتاحة.

ولقد ركزت حملات التنصير فى العصر الحديث على أطراف العالم الإسلامى والمناطق النائية فى شرق وجنوب شرق آسيا وبصفة خاصة فى أندونيسيا ووسط أفريقيا والمناطق الاستوائية، مستعينين فى ذلك بالخدمات الاجتماعية التى يقدمونها لأهالى هذه المناطق كالمعونات الاقتصادية والخدمات الطبية ودور الأيتام وكبار السن وتأسيس المدارس بمراحلها المختلفة، ومما يلفت النظر حقًا أنه رغم كل هذه الجهود

(١) راجع التبشير فى منطقة الخليج، صـ٢٠١/ ٢٠٣، الخنجى.

(٢) فيليب حتى: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢/ ٢٦٣، دار الثقافة بيروت، نقلاً عن أ.د. عبد العظيم الديب، التعبئة الثقافية، بحث نشر فى ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م.

المضنية فإن النتائج التى حصلوا عليها كانت مخيبة لآمالهم مما دعاهم إلى معاودة النظر فى الأسلوب والوسيلة مرات ومرات، ولعل أبرز ما تم الاتفاق عليه فى مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨م هو محاولة خلق البيئة الملائمة للمسلم الذى يراد تنصيره، فبدلاً من التركيز على تنصير الفرد أخذوا يركزون على تنصير البيئة والجماعة كوحدة متكاملة يراد تنصيرها حتى لا يشعر الفرد بالغربة أو العزلة إذا ترك دينه منفرداً. أما إذا كانت الجماعة كلها محور العمل التنصيرى فإن الفرد لا يحس فيها بالغربة أو العزلة، لأنه حينئذ سيكون فرداً فى جماعة متكاملة. وهذا ما سعى المنصرون لتحقيقه فى كثير من المناطق النائية الآن. ولعل من أبرزها ما يجرى فى أندونيسيا وأفريقيا.

بين الاستشراق والتنصير:

ومن الملاحظ أن أهداف سياسة التنصير قد تلتقى مع أهداف حركة الاستشراق فى كثير من الأمور، خاصة ما يتصل منها بالأهداف الدينية والثقافية وإجماع الطرفين (المستشرقون والمنصرون) على القول بمركزيه الحضارة الإنسانية وارتباطها بأوروبا وشعوبها، وهذا ما تجده واضحًا فى كتابات المستشرقين والمنصرين ومن دار فى فلكهم من الكتاب العرب الذين يقومون بدور الطابور الخامس فى تحقيق أهداف المستشرقين فى القول بأوربة الفكر الإنسانى قاطبة» والقول بضرورة الأخذ بالنموذج الأوروبى واقتفاء أثره إذا أراد المسلمون أن يعيشوا عصرهم وحضارته[١].

وقد يكون مفيداً للقارئ أن ننبه هنا إلى أن هاتين الظاهرتين وجهان لعملة واحدة، هى موقف الغرب من الإسلام والمسلمين، وماذا يريد الغرب من الشرق الإسلامى لذلك لا غرابة أن نجد بينهما وحدة فى الهدف أحيانًا ووحدة فى الوسائل أحيانًا أخرى، فقد يكون بعض المستشرقين مشتغلاً بعملية التنصير، وقد يكون المنصر مستشرقًا وهذا واقع معروف فى عصرنا وفى كثير من بلادنا. وهذا يفسر لنا ما قد يجده الدارس أحيانًا من تداخل أحيانًا فى قراءة الأسباب والأهداف لكل من هاتين الظاهرتين.

---

(١) من هذه النماذج على سبيل المثال: عبد الله العروى ومحمد أركون بالمغرب.

ولكن ينبغى أن ننبه هنا إلى أهم ما بينهما من فروق فى الوسائل والمناهج:

١- يركز الاستشراق فى وسائله على الجانب العلمى، كالبحث والكتاب والمقال والندوة والمؤتمر والمحاضرة، فنشاطه علمى وبحثى، مجاله العلوم الإسلامية بفروعها المختلفة، فقد تجد بينهم المشتغل بالنحو أو التاريخ أو التفسير أو علوم الحديث والفلسفة والتصوف.. إلخ.. أما التبشير فغالبًا ما يركز على الجانب الاجتماعى كوسيلة مؤثرة فى تحقيق أهدافه: مثل بناء المستشفيات والملاجئ والنوادى والمؤسسات التربوية والتعليمية.

٢- يركز المستشرق فى نشاطه على مخاطبة المثقف بعد اكتشاف ميوله والتعرف على مزاجه النفسى، وكذلك المشتغلين بالسياسة ووسيلتهم فى ذلك الكتاب والمقال والندوة والصداقات الشخصية مع كبار المسئولين عن القرار السياسى والثقافى، والعائدين من البعثات التعليمية بأوروبا وغالبًا ما تؤتى هذه الصداقات ثمارها فى تنفيذ أهداف المستشرقين ولعل النظرة السريعة إلى خريطة توزيع الوظائف المؤثرة ثقافياً فى وطننا العربى تؤكد لنا صدق هذه القضية، فمعظم العائدين من البعثات خاصة من فرنسا يتبوأون مراكز القيادة الثقافية فى بلادهم ومن موقعهم الوظيفى يملكون اتخاذ القرار وتنفيذه.

أما المبشرون فيركزون فى خطابهم على الطبقات الدنيا والفقيرة فى المجتمع، الطبقات التى لاحظ لها من الثقافة أو التعليم لتسد رمقها وتروى ظمأها، والطريق إلى مخاطبة الفقير والجائع هو لقمة العيش وحفنة المال.

٣- لا يلجأ المبشر إلى الطعن فى الإسلام بطريق مباشر، وإنما يبدأ حواره مع المسلم بالحديث عن الجوانب الاجتماعية التى تشغله والتى هى نقطة الضعف فى حياته ويعانى منها، عكس المستشرق فإنه يلجأ فى مؤلفاته إلى النيل من الإسلام ومن الرسول بشكل مباشر تحت ستار البحث العلمى والموضوعية فى البحث، ويعلن رأيه بشكل مباشر وصريح فيطعن فى نبوة الرسول والقرآن ويثير المشكلات التى ما زالت تؤرق المفكر المسلم إلى الآن.

ويمكن أن نعرف التنصير من أقوال أصحابه القائمين به بأنه: منهج يسلكه المختصون لتنصير العالم وتقديم تعاليم الإنجيل إلى غير المسيحى بوسائل مختلفة ولقد أفصح الدكتور (هاريسون) عن هذا الهدف بوضوح فى تحديده مهمة الإرسالية العربية الأمريكية بدول الخليج فى قوله: «إننا نريدهم أن يصبحوا مسيحيين»[1] مستدلاً على ذلك بما جاء فى الإنجيل «فلتذهب إليهم وليكن لك أتباع بين جميع الأمم[2]، ويجب أن يعم الإنجيل كل الأمم.

ومحاولة تحقيق هذا الغرض هو ما يطلق عليه لفظ التبشير، الذى يعنى عند النصارى «العيش والعمل والحديث من أجل المسيح».

ومهمة التنصير بين المسيحيين ضرورية، ولا بد أن يتعاون للنهوض بها الأفراد والمؤسسات، وبلغ اهتمامهم بها حداً كبيراً جعل بعضهم يعلن صراحة عن طبيعة المبشرين بقوله «لقد أرسلناه لا للوعظ الاجتماعى، ولكن للخلاص، لا للحديث عن الاقتصاد بل للتبشير، لا للتقدم بل للصفح، لا للنظام الاجتماعى الجديد بل للمولد الجديد، لا للثورة بل للانبعاث الروحى.. لا للتغنى بالديمقراطية بل للإنجيل، لا للحضارة بل للمسيح، إننا سفراء ولسنا سياسيين».

ويتفق المسيحيون على أن التبشير ركن أساسى من أركان الكنيسة الحديثة، وله النصيب الأكبر من الميزانية السنوية فى أموال الكنيسة.

أهداف التبشير ومناهج المبشرين:

من الممكن أن نترك هذه النقطة دون إشارة إليها لولا أن بعض المشتغلين بالكتابة يحاول أن يحمل أعمال المبشرين فى العالم العربى على أنها أمور اجتماعية، الغرض منها المساعدة المالية والاجتماعية للفقراء والمرضى واليتامى، ويدعى أن هذه أعمال إنسانية ولا ينبغى التشهير بها أو حملها على غير مراد أصحابها، وهذا ما دعانى إلى التعرض لهذه النقطة لنبين أغراض المبشرين من كتاباتهم هم ومن على ألسنتهم دون تدخل منا للتفسير أو التأويل.

---

(١) التبشير والاستشراق: مستشار عزت الطهطاوى، صـ١٥٨-١٥٩.

(٢) Danga.13 نقلا عن التبشير والاستعمار: فروخ.

يقول الدكتور (إرهاس) طبيب الإرسالية التبشيرية فى طرابلس: فإنه يجب على طبيب الإرسالية التبشيرية ألا ينسى أبداً لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شىء، ثم هو طبيب بعد ذلك:

ولقد خطب القسيس «هاريك» فى جموع المبشرين مبيناً لهم كيفية التعامل مع المسلمين قائلاً: إن ترجمة الإنجيل وكتب التبشير إلى اللغات الإسلامية أكثر فائدة وأتم نفعًا، لأنه بمجرد شراء المسلمين لكتب المبشرين ومطالعتهم لها تتبدد أوهامهم القديمة عن المسيحية، وأما الجدل والمناظرة فيبعدان المحبة التى لها وقع كبير على قول الغير وتأثير مضاد على نشر النصرانية، فالمحبة والمجاملة هما آلة المبشر لأن طريق الاعتقاد غايته دائمًا القلب، ويجب على المبشر أن يتحلى دائمًا بمبدأ المسيحية قبل أن يتغنى بالأمور النظرية، كما يظهر للمسلم أن النصرانية ليست عقيدة دينية ولا دستوراً سياسيًا بل هى الحياة كلها.. إنها تحب العدل والطهر، وتمقت الظلم والباطل، ونفتح للمسلم مدارسنا ونتلقاه فى مستشفياتنا، ونفرض عليه محاسن لغتنا، ثم نقف أمامه منتظرين النتيجة بصبر ونتعلق بأهداف الأمل. إذ المسلم هو الذى امتاز بين الشعوب الشرقية بالاستقامة والشعور بالمحبة ومعرفة الجميل، وبهذه الطريقة فقط يمكن للمبشر أن يدخل إلى قلوب المسلمين[1].

وسبق أن قلنا إن أهداف الاستشراق قد تلتقى مع أهداف التبشير فى كثير منها لكن ذلك لا يعفينا من التنبيه إلى أهم أهداف التبشير فى العالم الإسلامى عمومًا وفى منطقة الخليج بصفة خاصة.

١- تحويل أهل الجزيرة العربية عن الإسلام إلى المسيحية، ويتضح هذا الهدف من برنامج عمل الإرسالية الأمريكية التى تأسست سنة ١٨٨٩م فقد جاء فيه ما يلى: «نحن الموقعون أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيرى رائد فى البلاد الناطقة باللغة العربية وبخاصة من أجل المسلمين والعبيد مقرين بالحقائق التالية. إن الحاجة بالغة لهذا العمل التبشيرى وضرورة تشجيعية فى العصر الحالى.. ولذلك فقد اقترحت اللجنة المؤسسة لها، ضرورة البدء السريع فى هذا العمل، وأن يكون ميدانها الجزيرة العربية وأعالى النيل.

---

(١) الخالدى: صـ١٠٤-١٠٦.

٢- ومما يقوى الهدف السابق، ما يدعيه «زويمر» أحد مؤسسى الإرسالية السابقة من وجود حق تاريخى للنصرانية فى الجزيرة العربية، وأن إعادتها إلى النصرانية كسابق عهدها أمر غير مستحيل، وقد أكد ذلك «زويمر» فى قوله: «إن للمسيح حقًا فى استرجاع الجزيرة العربية، وقد أكدت الدلائل التى تجمعت لدينا فى الخمسين سنة الأخيرة، على أن المسيحية كانت منتشرة فى هذه البلاد فى سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هنا، ولهذا فإن واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية[1]. وكان لسقوط الأندلس فى أيدى الصليبيين وانتهاء عهد المسلمين بها أثر فى تفكير «زويمر» فى الدعوة إلى استرجاع هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية.

٣- الالتفاف حول المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة، وهذا الهدف قد أعلنه كثير من المبشرين فى مؤلفاتهم، فلقد أعلن «هانوتو» أن هذه الرموز المقدسة هى رمز وحدة المسلمين وسر قوتهم، وأن المسلمين حين يلتقون حولها فى الكعبة أو فى المدينة يجددون نشاطهم ويستعيدون قوتهم الروحية التى يستمدون منها معنى التحدى على مواجهة المشكلات.

ولم ينس رؤساء المؤسسات التبشيرية أن يعلنوا صراحة أهدافهم التبشيرية على مسامع الأفراد المسلمين الذين يتعاملون معهم فى المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات التى أنشأوها فى البلاد الإسلامية لهذا الغرض، تحت ستار نشر التعليم الحديث بين أبناء الشرق. فلقد أقيمت الجامعة الأمريكية فى بيروت ١٨٦٥م، ليكون مديرها مبشرًا وجميع المدرسين بها من المبشرين كذلك، وكان من مبادئ تولى التدريس بالجامعة أن يقسم المدرسون بها على أن يوجهوا جميع أعمالهم نحو هدف واحد هو التبشير، ولم يقبل منهم أن يكونوا نصارى فقط، بل يجب عليهم أن يقوموا بمهمة التبشير أيضًا، وكانت تحرص الجامعة أن تظهر أساتذتها بمظهر المبشرين وكانت تجبرهم الجامعة أن يحضروا مؤتمرات المبشرين، ولما أحست الجامعة بنوع من الحرج فى مواجهة الدولة العثمانية فى أوائل هذا القرن ألغت مبدأ القسم المطلوب من الأساتذة.

(١) التبشير فى منطقة الخليج، عبد الملك التميمى، ص٢٤٦.

ولقد قرر مؤتمر القدس المنعقد ١٩٣٥م أن يستغل كل درس علمى فى سبيل تأويل مسيحى لفروع العلوم، كالتاريخ وعلم النبات[1]. وكان دخول الكنيسة عملاً إجباريًا على كل تلميذ بالجامعة، ولما احتج أولياء أمور الطلاب على ذلك اجتمع مجلس الجامعة وأصدر منشورًا بهذا الخصوص جاء فى مادته الرابعة ما يلى:

إن هذه كلية مسيحية، أسست بأموال شعب مسيحى، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشأوا المستشفى وجهزوه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يساندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليمًا يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافع الدين المسيحى على كل تلميذ، وهكذا نجد أنفسنا ملزمين أن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ.. وأن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقًا ماذا يطلب منه، ثم أعلن مجلس الأمناء للكلية: أنها لم تؤسس للتعليم العلمانى.. ولكن أول غاياتها أن تعلن الحقائق الكبرى التى فى التوراة وأن تكون مركزًا للنور المسيحى، وللتأثير المسيحى، وأن تخرج بذلك على الناس وأن توصيهم به.

وهذه المؤسسة التعليمية ببيروت قد تأسس لها نظائر فى سائر البلاد الإسلامية والعربية على وجه الخصوص، فهناك الجامعة الأمريكية بمصر، وكذلك فى استامبول بتركيا، بالإضافة إلى المدارس اليسوعية التى لا حصر لها فى البلاد العربية وقراها، ولا يخفى على من يراجع المناهج التعليمية فى هذه المؤسسات أن التبشير هو مركز الدائرة فى كل أنشطة هذه المؤسسات.

والدور التبشيرى الذى قامت به الجامعة الأمريكية، فى بيروت التى أسست سنة ١٨٦٥ قامت به جميع الكليات التبشيرية الأخرى التى أسست لنفس الغرض وفى شتى بقاع العالم الإسلامى ويستوى فى ذلك الجامعة الأمريكية فى وسط القاهرة، والجامعة الأمريكية فى استامبول، والكلية الفرنسية فى لاهور وهذه الجامعة الأخيرة قامت بدور خطير جدًا فى جنوب وجنوب شرق آسيا.

وتحت ستار نشر التعليم والثقافة فى بلدان العالم الثالث حول المبشرون دور التعليم بمراحله المختلفة وكذلك المؤسسات الثقافية المختلفة إلى حقول خصبة لزرع

(١) الخالدى، ص١٠٤- ١٠٦.

تعاليم الإنجيل ونشر تعاليم المسيحية بين أبناء المسلمين ابتداء من سن الطفولة فى دور الحضانة وانتهاءً بالتعليم الجامعى، حيث أسسوا مدارس ومعاهد تعليمية لكل هذه المستويات وزرعوها زرعًا فى معظم البلاد الإسلامية.

وكذلك المؤسسات الثقافية والإعلامية كانت بمثابة منابر يعملون من خلالها على نشر تعاليمهم، ولم يجدوا غضاضة فى الإفصاح عن ذلك صراحة حتى إن واحدًا منهم يعلن صراحة «أن المبشرين استغلوا الصحافة المصرية بصفة خاصة للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر منها فى أى بلد آخر حيث ظهرت مقالات كثيرة فى الصحف المصرية إما مأجورة فى أغلب الأحيان أو بلا أجر فى أحوال نادرة[1].

الوسائل والمؤسسات التبشيرية:

أ- الإرسالية الأمريكية فى دول الخليج:

هى إرسالية بروتستانتية ذات أهداف تبشيرية فى شبه الجزيرة العربية، قام بتأسيسها الدكتور لانسنج Lansing أستاذ اللغة العربية فى معهد اللاهوت فى نيوبرونسك New Brunswick الخاص بتدريب المبشرين التابع لكنيسة الإصلاح الدينى بأمريكا. ولقد ساعد لانسنج فى تأسيس هذه الإرسالية ثلاثة من تلامذته وهم جيمس كانتين، وصموئيل زويمر، وفيليب فيلبس، وكان والد لانسنج يعمل مبشرًا فى بلاد الشام وخاصة سوريا لمدة طويلة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أطلق لانسنج ومساعدوه على هذه الإرسالية اسم الإرسالية العربية سنة ١٨٨٩م. استجابة لطلب رسمى مقدم إلى هيئة الإرساليات الأجنبية للسماح بالقيام بعمل تبشيرى فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وبدأت هذه الإرسالية تباشر نشاطها فى الجزيرة العربية وخاصة فى المناطق المطلة على الخليج العربى، وكانت كنيسة الإصلاح الأمريكية بولاية نيوجرسى هى التى تتولى الإشراف والتمويل لهذه الإرسالية كما كانت تمدها بالمبشرين الجدد الذين أتموا تدريبهم بها وأصبحوا مؤهلين للقيام بالعمل التبشيرى، وكان من خطة هذه الإرسالية العمل على نشر الإنجيل المسيحى فى المكان الذى نشأ فيه الإسلام، ولقد أحست هذه الإرسالية بصعوبة المهمة المكلفة بها خاصة فى منطقة الجزيرة العربية مهد الإسلام والتى يتمتع أهلها

(١) البهى ص٤٢٩، الخالدى وفروخ ص٢٠٧.

بالولاء الكامل والغيرة الشديدة على الإسلام، لذلك فكروا فى وضع خطة مكتوبة يوافق عليها أعضاء الإرسالية لتكون هذه الخطة ورقة عمل لهم فى هذه المنطقة وفى غيرها. ومما جاء فى هذه الخطة.

نحن الموقعين أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيرى رائد فى البلاد الناطقة باللغة العربية وبصفة خاصة من أجل المسلمين والعبيد مقرين منذ البداية بالحقائق التالية:

١- الحاجة البالغة لهذا العمل التبشيرى وضرورة تشجيعه فى العصر الحديث.

٢- عدم وجود مثل هذا العمل التبشيرى تحت إشراف مجلس الإرساليات الأجنبية فى الوقت الحالى.

٣- عدم قيام أى مجهود يذكر حتى الآن فى المجالات آنفة الذكر ولتحقيق الأهداف المرجوة فإننا نتقدم من المجلس وبتأييده إلى الكنيسة عامة بالمقترحات التالية:

١- الشروع بهذا العمل بأسرع وقت ممكن.

٢- أن يكون ميدان العمل الجزيرة العربية أو أعالى النيل.

وجاء فى المادة الأولى من دستور هذه الإرسالية «سيكون اسم هذه المنظمة: الإرسالية العربية» وفى المادة الثانية: سيكون هدف هذه المنظمة القيام بالعمل التبشيرى فى الجزيرة العربية أو البلاد الناطقة بالعربية.

ولا شك أن اختيار الجزيرة العربية كمركز رئيسى لهذه الإرسالية له أهدافه البعيدة التى يخطط لها المبشرون ويعملون على تحقيقها على المدى البعيد، ومن أهم هذه الأسباب التى أعلنوها هو الادعاء بأن الجزيرة العربية كانت فى سابق عهدها موطنًا للمسيحية قبل الإسلام، ومحاولة إرجاعها إلى سابق عهدها المسيحى أمر ضرورى، وقد أكد صموئيل زويمر على هذه الأهداف فى قوله: إن من بين الدوافع للعمل فى الجزيرة العربية الأسباب التاريخية، إن للمسيح حقًا فى استرجاع الجزيرة العربية، وقد أكدت الدلائل التى تجمعت تحت أيدينا فى الخمسين سنة

الماضية على أن المسيحية كانت منتشرة فى هذه البلاد فى سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هناك، ولهذا فإن من واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية[١].

وبعد دراسة أحوال المنطقة سياسياً وجغرافياً واجتماعياً قرر الجنرال «هيج Heig» فى رحلته إلى الجزيرة العربية، أن كل الجزيرة العربية بدرجات متفاوتة مهيأة لاستقبال الكتاب المقدس بذراعين مفتوحتين»[٢].

ب- وقد أنشأت هذه الإرسالية عدة مراكز لها فى كل من بيروت، البصرة، البحرين، وكانت البحرين أهم مركز لها حيث أنشأت الإرسالية مكتبة للكتاب المقدس بالبحرين سنة ١٨٩٣ وأصبحت البحرين مركزًا مستقلاً للنشاط التبشيرى فى المنطقة بعد أن كان تابعًا لمركزهم بالبصرة، وساعد على تكثيف النشاط التبشيرى بها عوامل كثيرة أشار إليها المبشرون أنفسهم، ومن أهم هذه العوامل، وضع البحرين السياسى حيث كانت محمية بريطانية وهذا العامل وحده كان كافيًا لتوفير قدر من الأمن والأمان للمبشرين فى المنطقة. ثم ابتدأ نشاط هذه الإرسالية إلى جنوب الجزيرة العربية فأنشأت لها مركزًا فى عمان ومسقط ومن عمان امتد نشاط الإرسالية إلى شرق أفريقيا ووسطها.

جـ- وفى مطلع القرن العشرين أنشأ المبشرون مركزًا لهم فى دولة الكويت حيث بدأوا فى زيارتها سنة ١٩٠٠م للمرة الأولى وكانت زيارتهم الثانية لها سنة ١٩٠٣م حيث افتتحوا بها مكتبة لبيع الكتاب المقدس، ولكن رفض حاكم الكويت فى وقتها وهو الشيخ مبارك أن تقوم هذه المكتبة بأى نشاط تبشيرى في الكويت ثم أمر بإغلاقها.

ولكن أعين المبشرين لم تنصرف عن الكويت لما لديها من أهمية كبيرة فى نظر المبشرين، ولقد كتب «أرنولد ويلسون» عن أهمية الكويت بالنسبة للنشاط التبشيرى فقال: «إن المزايا الاستراتيجية والتجارية لموقعها وقربها من مدخل دجلة والفرات وأن لها صلتها الوثيقة بمملكة ابن سعود فى وسط الجزيرة العربية، وكونها تسمح

(١) نفس المصدر السابق، صـ٤٨-٤٩.

(٢) السابق، صـ٥٠.

بالعبور إليها بسهولة، كل هذه الأمور تجعل الكويت ذات أهمية خاصة بالنسبة للمبشرين»[١]. وظلت المحاولات قائمة بين الإرسالية والشيخ مبارك حاكم الكويت إلى أن توصلت الإرسالية إلى الحصول على موافقة منه بفتح مستشفى سنة ١٩١٣م وأعطاهم الشيخ قطعة أرض مجاورة لقصره ليقيموا عليها منزلاً لهم، وتدخل القنصل البريطانى ليكون وسيطًا لهم عند الشيخ بضمان الولاء وعدم المعارضة، وظلت هذه الإرسالية تباشر نشاطها بالمنطقة إلى وقت قريب.

د- ولعل أحدث مركز أنشئ للتبشير فى هذه المنطقة هو فى قطر، حيث قدم إليها القس «جريت بينتجز والدكاترة هاريسون، وديم، وتوماس، والآنسة كورنيليا دالنبرج لتفقد معالم المنطقة ودراسة أحوالها، وفى سنة ١٩٤٥م حضر إلى قطر القس ج. فان بيرسم» لافتتاح مستشفى وبعض المراكز الطبية فى قطر ووجدوا فى هذا فرصة جيدة لمزاولة نشاطهم، وطلب منهم الشيخ أن يضعوا تصميمًا لمستشفى سيعهد بإدارتها إليهم وفى خريف سنة ١٩٤٧م، أصبح المستشفى جاهزًا للعمل، ولكن هذه الخدمات الطبية لم تستمر طويلاً فى قطر ففى سنة ١٩٥٢م اضطرت الإرسالية أن تتوقف عن نشاطها تمامًا فى قطر حيث عادت المستشفى إلى حكومة قطر وأصبحت الإرسالية غير آمنة على نفسها فتوقفت عن العمل تمامًا فى هذا البلد[٢].

هذه فكرة موجزة عن تاريخ التبشير بالمنطقة العربية خاصة منطقة الخليج العربية، ومن المعلوم أنه فى عصر الاستعمار الحديث، نشطت عملية التبشير فى الأقطار الإسلامية التى احتلتها دول الغرب، وفرضت سيطرتها السياسية والثقافية على أهلها، وجلب الاستعمار معه كثيرًا من المبشرين وسدنة الكنائس، يقول الأستاذ أحمد دنقر فى كتابه التبشير فى منطقة الخليج «.. فى عام ١٨٧٠: وسعت البعثة التبشيرية التابعة للكنيسة الإصلاحية فى أمريكا مجال نشاطها فى العراق حيث كانت تباشر أعمالها إلى منطقة الخليج عن طريق تقديم الخدمات الطبية والتعليمية، كما أن الكنيسة الأنكليكانية ارتبط وجودها بالجيش البريطانى في

(١) السابق، صـ٦٣.

(٢) المصدر السابق، صـ ٧٠.

منطقة الخليج، بينما وصلت الكنيسة الكاثولكية عن طريق الهند وأفريقيا الشرقية، وقد أسس عدد كبير من موظفى شركات النفط كنائس على المستوى المحلي، وآخر الكنائس التي أسست فى الخليج العربى كانت تلك التى أسسها العمال المهاجروون من الهند وباكستان»[١].

أهم الوسائل:

١- من أهم الوسائل التى يسلكها المبشرون فى منطقة الخليج أنهم يركزون على الجوانب الاجتماعية لخدمة المنطقة، ومما ساعدهم على سهولة الأخذ بهذه الوسيلة أن المنطقة الخليجية قبل ظهور النفط فيها كانت تعيش حياة البداوة، فالجهل هو الصفة الغالبة على سكان المنطقة، والفقر المدقع كان واقعًا يعيشه معظم السكان خاصة الذين يعيشون فى البوادى أضف إلى ذلك الحالة الصحية والرعاية الطبية المتدنية، وهذا كله جعل النشاط الطبى وسيلة مناسبة وميسورة وبعيدة عن الشبهات، وعن طريق المستشفيات والعيادات العامة يسهل اللقاء المباشر مع سكان المنطقة المسلمين رجالاً ونساء، فكان المريض إذا ذهب إلى المستشفى لا يسمح له بلقاء الطبيب إلا بعد أن يؤدى الصلاة المسيحية بالكنيسة الملحقة بالمستشفى، ولا يصرف له العلاج إلا بعد لقاء مباشر مع الراهب أو الراهبة، وهذا جعل للهيئات الطبية بالمنطقة وضعًا ممتازًا بين سكان المنطقة، حيث كان المسلم والمسلمة هما اللذان يطلبان لقاء الطبيب والطبيبة، ويسعيان لمقابلتهما، والسماع منهما والجلوس إليهما حيثما كانا، وهذا جعل المستشفى والمستوصف من أخطر مراكز التبشير فى منطقة الخليج، ولعل أكبر مثال على ذلك مستشفى بعثة الاتحاد الإنجيلى فى الإمارات العربية المتحدة فإن نشاطها لا يقتصر على المرضى المقيمين بها فقط، وإنما تعدى ذلك إلى إقامة الندوات العامة التى تعقد فى القاعة المعدة لذلك، كما أسست المستشفى مكتبة خاصة لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية، وفى كل غرفة منها أشرطة التسجيل للكتاب المقدس وسماع موعظة الأحد[٢].

---

(١) التبشير فى منطقة الخليج، صـ٥، أحمد نون دنقر.

(٢) المرجع السابق، صـ٣٧.

٢- ومن وسائل المبشرين عمومًا -وفى الخليج بصفة خاصة- العلاقات الشخصية والصداقات التى تتم بين الأُفراد والعائلات فى داخل المنطقة وخارجها، ومن أبرز المبشرين المهتمين بهذا الجانب مجموعة صانعى الخيام، لوجودهم فى أماكن العمل المختلفة، واحتكاكهم المباشر مع أصحاب الأعمال ومع العمال أيضًا.

٣- يأتى بعد ذلك دور المطبوعات فى عملية التبشير وتوزيعها بالمجان، فهناك عدد كبير من المكتبات المسيحية تقوم بهذه المهمة، وهناك المطبوعات التى توزع على البيوت سرًا وهى أشبه بالمواعظ الإنجيلية والترانيم اللاهوتية يجدها الشخص أمام بيته فى الصباح أو ملصقة على الجدران.

٤- الإذاعات التبشيرية المنتشرة حول العالم الإسلامى وفى داخله، وهى أكثر الوسائل الحديثة فعالية فى الاتصال بالمسلمين، وهناك أجهزة إعلامية متخصصة فى إنتاج البرامج التبشيرية الموجهة إلى المسلمين، ولعل من أهم هذه الأجهزة شركات الإنتاج الإعلامى الموجودة فى لبنان وفرنسا وأسبانيا، وفى جزيرة سيشل، وبعض هذه الشركات تبث برامجها من راديو عبر العالم من موناكو ومن قبرص كما أن راديو الفاتيكان يبث برامجه التبشيرية باللغة العربية. ولعل أنشط هذه الشركات الآن راديو مونتوكارلو الذى يبث برامجه التبشيرية بعد الساعة الحادية عشرة مساء عادة.

٥- المؤسسات التربوية التعليمية، مثل دور الحضانة والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعات الأمريكية المنتشرة فى العالم الإسلامى، وهذه المؤسسات يختلف نشاطها قوة وضعفًا حسب المنطقة التى تعمل بها، فعلى سبيل المثال نجد أن أنشطة المدارس العاملة فى دول الخليج مدارس كاثوليك فى أبى ظبى، ومدرسة الإرسالية الأمريكية التى كانت تعمل فى البحرين.

٦- يضاف إلى ما سبق دور الصحافة والفنون والبعثات التعليمية وما يترتب على ذلك من نشر أفكار لتزييف التاريخ الإسلامى أحيانًا واستغلال الواقع المؤلم للعالم الإسلامى أحيانًا أخرى ومحاولة ربط ذلك التخلف بالإسلام.

ولقد قامت الصحافة بأخطر الأدوار التبشيرية فى المنطقة العربية والإسلامية على وجه العموم، فلقد هاجر إلى مصر كثير من الموارنة اللبنانيين بدعوى زائفة

ومكشوفة وهى طلب الأمان فى مصر بلد الحرية والنور. هكذا كانوا يبررون هجرتهم إلى مصر. ولازالوا. ولكن قد أثبت الواقع عكس ذلك تمامًا. فقد كان الموارنة خريجى الأديرة والكنائس والمدارس التبشيرية الذين حملوا معهم بذور الفتن وأساليب التنصير فى ربوع مصر، وأخذوا يباشرون نشاطهم تحت حماية الاستعمار الأجنبى الذى كان مسيطرًا على كل مرافق الحياة فى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكان نشاط الموارنة المهاجرين شديد الأثر، فلقد هيأ الوجدان المصرى للاستعمار الثقافى، ولقد أشار إلى هذه الحقيقة المؤرخ الأمريكى بيترجران حيث قال: لقد سعت فرنسا إلى زرع فئة من التجار المارونيين الشوام فى الإسكندرية ودمياط ورشيد، تحت حماية النفوذ الأجنبى، وكان لهؤلاء بعض الصحف التى أطلق عليها عبد الله النديم صحف الأجراء وكان يسمى ما ينشرونه بالقاذورات[1].

وقام جرجى زيدان بتأسيس دار الهلال بمصر وهى مؤسسة تبشيرية خالصة وكذلك أنشأوا مجلة الكاتب المصرى، وقيل إنها تأسست بأموال صهيونية.

أما جريدة الأهرام فتأسست بيد صليبية خالصة وكان من بنود تأسيسها ألا يعمل بها إلا النصارى ولا يقوم بتوزيعها إلا النصارى، وكان من أكبر مؤسسيها بشارة تقلا وإخوانه الذين هاجروا إلى مصر سنة ١٨٧٣هـ تحت حماية الحملة الفرنسية،

وكان صاحب دور كبير فى تأليب الإنجليز ضد عرابى، وكان قلمه مدافعًا عن الإنجليز أحيانًا. وعن الفرنسيين أحيانًا أخرى، ولقد سجل عرابى في مذكراته كيف خدعه بشارة تقلا. فقد كان مؤمنًا بمبادئ عرابى، أو هكذا كان يتظاهر، يقول عرابى: «وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تقلا محرر جريدة الأهرام، وظننت أنه قدم ليعزينى ويبدى عواطفه نحوى لأنه قد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وأنه يعمل لحرية وطننا. . . ولكنه لما دخل علىّ توقح أشد التوقح، ثم قال: أى أعرابى: ماذا فعلت وماذا حل بك ورأيت أن الرجل خائن لا محالة» هكذا يقول عرابى عن بشارة تقلا مؤسس جريدة الأهرام.

(١) راجع بحث أ. د عبد العظيم الديب، الندوة العربية، جامعة قطر. سنة ١٩٩٣م.

والدور الذى لعبه تقلا ورفاقه لا يقل عنه ما قامت به مؤسسة جرجى زيدان في مصر، فتحت ستار التنوير والنهوض والتقدمية، زلزلت كثيرًا من ثوابت القيم فى الشارع المصرى الحديث واستطاعت أن ترسخ فى وجدان الأمة العبرية كثيرًا من الأحاديث وتعمل على الترويج لها، مثل قولهم بأن الحملة الفرنسية هى بداية عصر النهضة فى مصر، أو أن الخلافة العثمانية تمثل عصر الظلام، وأن اتصالنا بفرنسا هو الذى علمنا معنى الحرية وأخذ بينا فى سلم الحضارة. . . . إلخ[1].

العمالة المهاجرة فى ظل الكنيسة:

لعل منطقة الخليج العربى أهم مناطق العالم المعاصر بالنسبة لجذب العمالة من الخارج نظرًا لظروفها الاقتصادية والاجتماعية، ولقد عقد فى بيروت سنة ١٩٧٩م مؤتمرا نظمته إحدى الهيئات التبشيرية عن أوضاع منطقة الخليج ودور العمالة المهاجرة إليها، ولاحظت هذه الهيئة (MECC) أن ٨٠٪ من سكان هذه المنطقة هم في الأساس من العمالة المهاجرة وأن أوضاع هذه العمالة تدعو للقلق والاهتمام بها وبدورها الإيجابى فى تغيير الشكل السكانى للمنطقة، وترتب على هذا الموقف أن أعدت هذه الهيئة دراسة للشكل السكانى ومحاولة التعرف على نسبة العمالة المهاجرة ودياناتها وقام بعض القسس بتنظيم زيارات عدة لدول المنطقة والعمل على تأمين العمل لبعض القسس والمربين المسيحيين الذين يتكلمون اللغة العربية لقيادة العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة.

ولقد أعدت أمانة السر المنبثقة عن مؤتمر الكنائس العالمى وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها، وبناء على دراسة هذه الوثائق أعلن مؤتمر الكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس أن تدافع عن حقوق هؤلاء العمال المهاجرين وتسعى لتحسين أوضاعهم، ولقد أنشأ هذا المؤتمر لجنة لمتابعة أحوال هذه العمالة ومتابعة تنفيذ قراراته بشأنها، وأجرى عملية استطلاع للرأى العام الكنائسى حول الأمور الآتية:

(١) راجع البحث القيم الذى كتبه أ. د/ عبد العظيم الديب، فى ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م.

١- مدى استجابة الأسرة الدولية لنداء مؤتمر الكنائس المنعقد فى أفريقيا وفى آسيا وفى الشرق الأوسط بشأن حقوق هذه العمالة.

٢- أيسر السبل لمتابعة أحوال العمالة المهاجرة فى الخليج والوقوف على ما يلاقونه من صعوبات.

٣- كيف يمكن للكنائس البروتستنتية والكاثوليكية والأرثوذوكسية أن تؤمن رسالة العمالة فى منطقة الخليج[١].

وقدرت هذه الهيئة عدد العمال المسيحيين المهاجرين إلى المنطقة رجالاً وإناثًا فى جميع مستويات العمالة يتراوح بين ٢,٥ - ٣ مليون ميسحى معظمهم من دول آسيا وأفريقيا، ولقد أعدت هيئة الأمانة العامة للهجرة فى مؤتمر الكنائس العالمى وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها، وقد قرر المؤتمر العام للكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس المختلفة خاصة التى لها فروع فى بلاد الخليج العربى أن تدافع عن حقوق العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة والعمل على تحسين أحوالهم.

ولقد صدر حديثًا كتاب عن منظمة عالمية مسيحية تعمل فى باكستان تحت عنوان «صل يوميًا Pray day by day» لنشر المسيحية فى منطقة الخليج ولتقوية الكنيسة بين العمال المهاجرين وخاصة القادمين من باكستان، ومن بين الصلوات المطلوبة أن يصلوا من أجل فتح مركز للدارسين للإنجيل بالمراسلة من الباكستانيين والهنود فى الخليج العربى ولتنمية برامج الإذاعة.

ومما سهل للمبشرين عملهم فى المنطقة أنهم يعتمدون فى تنفيذ برامجهم على هذا العدد الضخم من العمالة غير المسلمة، بالإضافة إلى أن آخر إحصائية لعدد المبشرين فى الشرق الأوسط قد بلغ ١٣٠٠ ويذكر الإنجيليون أن عدد المبشرين فى منطقة الخليج حوالى ٨٠ مبشرًا بروتستانتيا معظمهم يعمل فى المراكز الطبية.

كما أن هناك عددًا كبيرًا منهم يعملون فى المجالات الفنية والصناعية دون أن يعلنوا عن هويتهم وليس من السهل التعرف على طبيعة نشاطهم.

---

(١) راجع التبشير المسيحى فى منطقة الخليج، بقلم أحمد فون دنفر، صـ ٣٢ - ٣٥.

نشاطهم فى مصر:

ونجد أن الاستعمار البريطانى بعد أن استقرت له الأمور فى مصر لم يغب عن ذهنه هذا الدور التبشيرى، وكان من أبرز الشخصيات التى كان لها الدور الرائد فى محاربة الإسلام والمسلمين بمصر «اللورد كرومر» المندوب السامى البريطانى، وكان يتميز بالدهاء والعداء للإسلام ولغته العربية، فعمل منذ أول عهده بمصر على تغريب الحياة الثقافية والسياسية والتعليمية ومناهجها، وكان له الدور الأكبر فى تثبيت دعائم الاستعمار بمصر وقد وضع «كرومر» مخططه التبشيرى والاستعمارى معًا فى كتابه «مصر الحديثة» الذى ضمنه آراءه وأهدافه من الوجود البريطانى في مصر، ومن أهم القضايا التى أثارها «كرومر» فى هذا الكتاب ما يأتى:

١- التركيز على إظهار أن سبب تأخر المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالإسلام، لأن تعاليمه تتنافى مع المدنية الحديثة، والحضارة والعلم.

٢- ليس أمام المسلمين من طريق إلى المدنية الحديثة إلا بالتخلص من الإسلام وتعاليمه.

٣- محاولته الدؤوب إرجاع كل مشاكل التخلف الموجود فى العالم الإسلامى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى تعاليم الإسلام.

وقد امتد نشاط «كرومر» إلى لغة القرآن الكريم، حيث نادى بضرورة إلغائها والأخذ باللغة العامية، وجعل لغة القاهرة هى اللغة الرسمية وإحلالها محل اللغة الفصحى فى الكتابة والدواوين الحكومية، وهذا الرأى قد عارضه الرأى العام المصرى في وقتها، غير أنه قد وجد عند بعض المستغربين أذنًا صاغية فنادوا بالعامية من خلال الصحف خاصة صاحب «المقتطف» وألف المستشرق «ولمور» أحد قضاة المحاكم المختلطة بمصر كتاب «لغة القاهرة» فوضع قواعد اللغة العامية القاهرية ونادى بوجوب إحلالها محل لغة القرآن، ثم انتقلت هذه الدعوة المسمومة إلي المستر«وليم ولكوكس» المهندس البريطانى الذى كان بوزارة الرى والزراعة بمصر، فدعا إلى هجر الفصحى وإحلال العامية محلها، وكادت هذه القضية أن تجد لها مكانًا فى بعض المكاتبات الرسمية: لولا وقوف الرأى العام فى وجهها وفطنة

المسؤولين إلى خطورة هذه الدعوة المسمومة فى القضاء على أهم رابطة بين المسلمين والعرب وهى لغة القرآن الكريم.

ومما هو جدير بالذكر هنا، الإشارة إلى ما قام به القسيس «دانلوب» المستشار البريطانى لوزارة المعارف الذى حاول جاهدًا أن يجرد مناهج التعليم فى مصر من سماتها الإسلامية فى كثير من المواد الدراسية، فأنشأ عددًا كبيرًا من المدارس الإنجليزية تدرس جميع موادها بلغة المستعمر، وكانت هذه المدارس تبدأ نشاطها المدرسى كل يوم بالصلاة فى كنيسة المدرسة وأوصى «دانلوب» أن تكون حصص المواد الشرعية واللغة العربية فى المدارس الحكومية في نهاية اليوم المدرسى، بعد أن يكون التلميذ قد أصابه الملل والسآمة، وظلت المناهج الدراسية التى وضعها دانلوب لوزارة المعارف المصرية تعمل عملها فى تخريج أجيال مبتوتة الصلة بالإسلام وقضاياه إلى وقت قريب، والتقت أهداف «كرومر» و«دانلوب» في محاولة إبعاد الحياة الثقافية والتعليمية فى مصر عن روح الحياة الإسلامية وحاول كل منهما جذب بعض الشخصيات إلى هذا التيار العلمانى الصليبى ولكن هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل فى معظم الأحيان..

مؤتمرات التبشير:

يعقد المبشرون كثيرًا من المؤتمرات فى العالم الإسلامى لرسم الخطط التبشيرية المناسبة وتقويم العمل فى الفترات السابقة ومحاولة معالجة ما شابها من قصور أو تقصير، هذا بالإضافة إلى وضع المؤلفات المستقلة التى ألفها المبشرون لوضع خريطة كبرى للتبشير العالمى على مستوى جميع الشعوب غير المسيحية، ومن أهم هذه المؤلفات ذلك البحث الخطير الذي كتب مقدمته المسيو «شاتيليه» وضمنه مجلة «العالم الإسلامى» الفرنسية المصورة فأصدت هذه المجلة عددًا ضخمًا سنة ١٩١١م ليس فيه غير هذا البحث الضخم الذي وضعه شاتيليه وكان يدور كله حول ما تقوم به الإرساليات التبشيرية البروتيستانتية فى العالم الإسلامى وتضمنت هذه المقدمة الدور الذى تقوم به كلية القديس يوسف اليسوعية فى بيروت فى نشر تعاليم الإنجيل فى سوريا ولبنان، ولقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية واهتم بنشر محب الدين الخطيب بعنوان: الغارة على العالم الإسلامى ثم جاء كتاب تاريخ

التبشير للمستر «أودين بلس» البرتستانتى الذى تضمن تاريخ التبشير فى العالم الإسلامى حتى أواخر القرن التاسع عشر، ومن أهم الشخصيات التى برزت فى تاريخ التبشير الحديث القسيس صموئيل زويمر. الذى كتب بحوثًا متعددة عن التبشير ووسائله فى جزيرة العرب وقد بين زويمر فى بحوثه أهمية الالتفاف حول جزيرة العرب التى هى مهد الإسلام وأشار إلى ضرورة الربط بين مصالح المبشرين فى بيروت وسوريا ومكة والمدينة لأن ذلك سوف يمهد للمبشرين النفاذ إلى هاتين المدينتين المقدستين عند المسلمين، كما لفت زويمر نظر المبشرين إلى أهمية الانتشار فى جزر ماليزيا وأندونيسيا ليمكن تخليصها من قبضة المسلمين وأشار إلى ضرورة عقد مؤتمر لمراجعة أعمال المبشرين والتعرف على المشاكل التى يواجهونها، ووضع الخطط المناسبة فى المستقبل.

١- مؤتمر المبشرين بالقاهرة سنة ١٩٠٦م:

اجتمع فهذا المؤتمر معظم الإرساليات التبشيرية فى المنطقة برياسة «زويمر» وافتتح المؤتمر بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٩٠٦م، وكان عدد مندوبى الإرساليات التبشيرية قد بلغ ٦٢ مندوبًا رجالا ونساء، وتم انتخاب زويمر رئيسًا عامًا للمؤتمر، وكان من أهم المسائل التى طرحت على هذا المؤتمر الأمور التالية:

١- إحصاء لعدد المسلمين فى العالم.

٢- وضع الإسلام والمسلمين فى شرق وجنوب شرق آسيا.

٣- منهج التعامل مع المسلمين المثقفين والمسلمين العوام.

٤- دور المرأة وشؤون النساء المسلمات.

وقد جمعت أعمال المؤتمر فى كتاب مستقل نشر باسم «وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين» جمعه القسيس فلمنج الأمريكى وكتب عليه من الخارج عبارة «نشرة خاصة» ليكون الكتاب قاصرًا فى تداوله على فئة خاصة من المشتغلين بالتبشير.

وضمن هذا الكتاب بعض التوصيات التى رفعها إلى الحكومات الأوربية المعنية، ومن أهم هذه الاقتراحات محاولة الالتفاف حول الأزهر فى مصر لأنه مفتوح لكل الطلاب من العالم كله وأنه لا يخضع فى تمويله لأى حكومة لأن أوقاف الأزهر

تدر دخلاً كبيرًا يساعد العالم والمتعلم فيه، ولابد من العمل على تقليص دوره، ولنبدأ ذلك بإنشاء جامعة نصرانية تشارك فى الإنفاق عليها جميع الكنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها لأن فى التخلص منه مصلحة لجميع الكنائس بلا استثناء، ولقد قام زويمر بعمل خريطة أسماها «خريطة تنصير العالم الإسلامى» في هذا العصر ووزع أعدادًا كبيرة منها على كبار المسئولين فى الحكومات الغربية وكتب على كل نسخة نداء إلى المسئولين لعله يجد صدى له فى أوروبا وأمريكا، وعرض هذه الخريطة على المؤتمر وضمنها كتابه «العالم الإسلامى اليوم» وكان من أهم ما نصح به زويمر فى كتابه هذا إثارة بعض المشكلات الاجتماعية وطرحها في الندوات واللقاءات الثقافية كمشكلة الطلاق والتعدد، وإرث المرأة ولماذا يكون نصف الرجل، كما أوصى بالعمل على أن يجتهد المبشرون فى إيجاد أصدقاء لهم من المسلمين يقومون بنشر هذه الأفكار بين المسلمين ليتحولوا فيما بعد إلى مبشرين بتعاليم المسيح نيابة عن النصارى ومن أهم أعمال زويمر التبشيرية:

١- تقرير أهداف التبشير الذى قدمه المؤتمر الذى عقد بالهند سنة ١٩١١ وصرح فيه بأن هدف التبشير ليس هو تنصير المسلم فقط وإنما الأهم من ذلك التنكر لتعاليم الإسلام.

٢- التقرير الذى نشره فى ١٢ أبريل سنة ١٩٢٦م ويشير فيه إلى تلك المجهودات الكبيرة التى بذلها المبشرون والمصاريف الباهظة التى أنفقوها ولم تؤت ثمرتها ولذلك يجب التفكير فى تطوير وسائل التبشير ومناهجه، ومما جاء فى هذا التقرير قوله: .. وعندى أنه قبل أن نبنى النصرانية فى قلوب المسلمين يجب أن نهدم الإسلام فى نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتى بعدنا أن يبنوا النصرانية فى نفوسهم.

٢- مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م:

عقد ذلك المؤتمر تحت حماية الاحتلال البريطانى لفلسطين وكان أبرز المتحمسين فيه بالعداء للإسلام «زويمر» والقى خطبته على الحاضرين من المبشرين ومن المهم للقارئ أن أضع أمامه نص هذا الخطاب ليعرف كيف تلتقى مصالح التبشير والاستعمار مع مصالح اليهود فى فلسطين ليجمعهم هدف واحد هو التخلص من الإسلام: قال زويمر:

أيها الإخوان الأبطال: والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل ولقد أديتم الرسالة التى نيطت بكم أحسن الأداء.. إننى أقركم أن الذين دخلوا حظيرة المسيحية من المسلمين ليسوا بمسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلتم أحد ثلاثة.

إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام.

أو رجل مستخف بالأديان لا يهتم بغير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش.

وثالث يبغى الوصول إلى غاية شخصية.. إن المهمة التى ندبتكم إليها دول المسيحية فى البلاد المحمدية ليست هى إدخال المسلمين فى المسيحية، فإن فى هذا هداية لهم وتكريمًا. وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقًا لا صلة له بالله، وبالتالى لا صلة تربطه بالأخلاق التى تعتمد عليها الأمم فى حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعمارى فى الممالك الإسلامية. وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم عليه دول المسيحية.. لقد قبضنا أيها الإخوان فى هذه الحقبة من الدهر.. على جميع برامج التعليم فى الممالك الإسلامية، ونشرنا فى تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التى تهيمن عليها دول أوروبا وأمريكا.

أيها الزملاء: إنكم أعددتم فى ديار الإسلام شبابًا لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقًا لما أراده الاستعمار لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل ولا هم له فى دنياه إلا الشهوات..

فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، وفى الشهوات يجود بكل شىء.. باركتكم المسيحية ورضى عنكم الاستعمار، فاستمروا فى أداء رسالتكم، لقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الرب»[1].

---

(١) من كتاب: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، محمد محمود الصواف، ص٥٨ - ٥٩، نقلاً عن: قوى الشر المتحالفة: محمد الدهان ص١١٢ -١١٥.

الفصل الثاني

العلمانية وظروف النشأة

١- المصطلح:

درج الباحثون على استعمال مصطلح العلمانية على أنه ترجمة لكلمة Secularism الإنجليزية، وتنطق بفتح العين علمانية بمعنى الدنيوية أو اللادينية، وينطقها البعض بكسر العين نسبة إلى العلم وهو خطأ إذ لا علاقة للكلمة بالعلم، وتستعمل فى النسبة إليها بزيادة الألف والنون فيقال علمانى مثل روحانى جسمانى وهى نسبة على غير قياس.

أ- وقد تناولت المعاجم اللغوية ودوائر المعارف هذا المصطلح بالشرح والتحليل لتوضيح معناه وبيان مضمونه، ففى دائرة المعارف البريطانية مادة Secularism أن العلمانية: حركة اجتماعية يقصد بها صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها، ذلك أن الناس كانوا فى العصور الوسطى يركزون اهتمامهم فى حياتهم على اليوم الآخر والتأمل فى الله مشتغلين بذلك عن الاهتمام بالدنيا وشؤونها مما نتج عنه انتشار الفقر والجهل وكان السبب فى ذلك توجيهات وأوامر رجال الكنيسة، فظهر الاتجاه العلمانى لكى يقاوم هذه النزعة ويوجه الناس إلى الاهتمام بالدنيا بدلا من الاهتمام بالآخرة والبحث فى شؤون الإنسان بدلاً من التأمل فى الله، وتنمية النزعة الإنسانية وتحقيق رغبات الإنسان فى الدنيا القريبة بدلا من الإيمان بالوعود التى تدعو الناس إلى الإيمان بأن هذه الرغبات سوف تتحقق لهم فى الآخرة، لذلك فإن معناها يعنى الدنيوية وهذا ما رجحه العقاد، ثم تطور هذا الاتجاه خلال سيرته التاريخية فى أوربا وعرفت العلمانية على أنها حركة مناهضة للمسيحية[(١)].

ب- جاء فى قاموس العالم الجديد لـ«ويستر» أن العلمانية نظام من المبادئ والتطبيقات، وتنادى بأن الدين أو الكنسية لا دخل لهما فى إدارة شؤون الدولة أو نظام الحكم ولا علاقة لهما بوسائل التربية ومناهج التعليم والثقافة.

ج- وفى معجم أكسفورد: إن العلمانية هى الرأى أو الاتجاه الذى يقول إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساسا للأخلاق أو التربية.

---

(١) راجع وباء العلمانية د. سفر الحوالى ص١٢.

د- وفى المعجم الدولى الثالث أن العلمانية: اتجاه فى الحياة (الثقافية والاجتماعية والسياسية) يقوم على مبدأ أن الدين أو الأوامر الدينية يجب ألا تتدخل فى شؤون الدولة ونظام الحكم واستبعاد كل معنى دينى من شؤون السياسة، وهو نظام اجتماعى يقوم على أساس أن القيم الاجتماعية والسلوكية تقوم على التضامن الاجتماعى دون النظر إلى الدين[1].

هذه هى أهم التعريفات لمعنى العلمانية كما هو مدون فى معاجمهم وفى دوائر المعارف، وقد شاع استعمال المصطلح بهذا المعنى بين الباحثين فهو يعنى إقصاء الدين عن شؤون الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ونلفت النظر هنا إلى أن المعنى المقصود من هذا المصطلح هو إبعاد الدين عن شؤون الحياة كلها على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة وليس كما يقول البعض: إنها إبعاد الدين عن نظام الحكم والسياسة فقط والفرق كبير بين المعنيين. فهى ليست فصل الدين عن السياسة فقط ولكنها إقصاء الدين عن نظام الحياة كلية بما فيها الشؤون السياسية، ولو كان المعنى هو فصل الدين عن نظام الحكم لكان الخطب أهون، لكن المعنى الحقيقى للمصطلح هو إقصاء كل معنى دينى أو إيمانى عن المشاركة فى حركة المجتمع للفرد أو الجماعة على حد سواء.

ولما كان تطبيق هذا المعنى له خطورته فى حياة الشعوب فإن موقف الدول قد تفاوت فى تطبيق العلمانية، فبعض الدول قد تطرف فى التطبيق فأقصى الدين تماما عن شؤون الحياة ولم يكتف بذلك وإنما أضاف إلى هذا الموقف أنه أقام المؤسسات التى جعل مهمتها محاربة الدين والتدين والعمل على نشر الإلحاد بين الشعوب التى خضعت لسلطان هذه الدول. وهذا الموقف المتطرف نجده واضحًا فى النظام الشيوعى والدول التى خضعت لسلطانه فكان من أول ما فعلته فى هذه الدول التى احتلتها هدم المساجد ودور العبادة ومطاردة رجال الدين والقضاء على التعليم الدينى فى هذه البلاد وازدحمت السجون والمعتقلات برجال الدين من كل ملة وأشاعت بين مثقفيها أن الدين أفيون الشعوب ووسيلة لتسلط الكنيسة على رقاب الكادحين.

---

(١) راجع وباء العلمانية د. سفر الحوالى ص١٢.

وكانت هناك صورة أخرى لتطبيق العلمانية فى دول أوربا الرأسمالية حيث اكتفت بإقصاء الدين عن شؤون الحكم ونظامه وتركت للأفراد حرية الاعتقاد والأخذ بما تشاء من أوامر الدين، ولكل فرد الحق فى أن يحدد موقفه من الكنيسة قبولا أو رفضا إيمانا بها أو كفرًا بمبادئها وفى داخل هذا الإطار المعتدل نسبيًا كانت مواقف الدول أيضا متفاوتة. فبعضها حدد للكنيسة مجال نشاطها وهو العمل على تنمية الجانب الروحى والإيمانى وشجعتها على التبشير بالإنجيل وتعاليمه بين الشعوب التى لا تدين بالمسيحية ورصدت لها الميزانيات الضخمة وباشرت نشاط الكنيسة التبشيرى وشجعته، وأكبر مثال لهذا الاتجاه هو موقف فرنسا التى أعلنت نفسها حامية للمذهب الكاثوليكى فى العالم ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا موقف دول أوربا وأمريكا الآن فى القرن الحاضر.

فلا تجد دولة إلا ولها مؤسساتها التبشيرية فى العالم شرقا وغربًا وتؤكد المفاهيم على المعنى السابق لمصطلح العَلمانية، فهو ليس نسبة إلى العلم إنما هو وثنية فى مقابل الدينية، أو النظام اللادينى فى مقابل النظام الدينى والمراد بلفظ الدينى هنا هو النظام الكنسى وليس الدين بالمعنى العام، وترتب على شيوع هذا المصطلح أن أوربا فصلت فصلا تامًا بين ما هو كنسى، وما هو دنيوى، وجعلت سلطة الكنيسة مقصورة على ممارسة حقها فى السلطة الروحية فقط ولا شأن لها بأمور الدولة أو إدارة شؤونها السياسية والاجتماعية وسار الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية أمرًا واقعًا فى أوربا.

ولعل من المفيد أن ننبه هنا إلى ضرورة التفرقة بين التسلط الكنسى الذى ترفضه العلمانية والدين المسيحى بصفة عامة، ذلك أن الدول التى رفضت التسلط الكنسى لم ترفض الدين المسيحى كعقيدة يؤمن بها الأفراد أو يرفضونها حسب حريتهم الشخصية فإن معظم دول أوربا على هذا النحو الذى أشرنا إليه سابقًا فهى لم تحارب المسيحية ولكنها أقصتها عن نظام الدولة، وهذه التفرقة مهمة جدًا؛ لأن بعض الباحثين يرى أن العلمانية اتجاه محايد وليس مناهضًا للدين ويستدل على رأيه بموقف دول أوربا من المسيحية فهى لا تحارب المسيحية ولكنها لا تأخذ بها فى نظام الحكم، والعلمانية عند أصحاب هذا الرأى لا تعنى اللادينية ولكنها تعنى -

كما سبق أن أوضحنا- أنها ليست إقصاء الدين عن نظام الحكم فقط ولكنها إقصاء الدين عن نظام الحياة كلها، حياة الفرد وحياة الجماعة، سواء فى ذلك الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ولقد ترتب على هذا الفصل بين الدينى والدنيوى أن ظهرت الازدواجية فى شؤون الحياة كلها فظهرت المدرسة المدنية بجانب المدرسة الدينية، والحكم الدينى بجانب الحكم العلمانى الدنيوى والدولة الدينية فى مقابل الدولة المدنية.

٢- ظروف النشأة وأسبابها:

كان المجتمع الأوربى يعيش فى العصور الواسطى حياة تحيط بها ظروف معيشية قاسية، فالفقر والجهل كانا صفتين لازمتين لسكان هذه المناطق، وكان الناس يخضعون فى سلوكهم وعلاقتهم الاجتماعية لعادات وتقاليد أشبه بالجاهلية الأولى، فحياة القبيلة والتعصب لها والتعبد بعاداتها والخضوع لتقاليدها والقتال دونها كانت كلها الشغل الشاغل لسكان هذه المناطق، أما بالنسبة للديانة الرسمية التى كانوا يعتقدونها فقد فرضت عليهم الإمبراطوريات المتعاقبة عبادة المسيح بدلا من عبادة الله أو بدلا من عبادة الإمبراطورية وظلت أحوال أوربا تنتقل من سيئ إلى أسوأ فى الاعتقاد والسياسة والاجتماع إلى مطلع عصر النهضة وكان من الطبيعى للإنسان الذى يعيش تحت هذه الظروف أن يؤمن بكل ما يلقى عليه ويخضع لكل ما يطلب منه ولم يكن هنالك من سلطة تفرض على الناس أوامرها وتطلب منهم تنفيذها إلا سلطة رجل الدين، وأدى ذلك إلى نوع من التسلط الذى تعاملت به الكنيسة مع الناس فأذلوا رقابهم ونهبوا أموالهم تحت اسم الدين وسوف نركز على نقطتين مهمتين كانا من أهم العوامل التى ساعدت على ظهور العلمانية وشيوعها.

أ- طغيان الكنيسة وتسلطاتها:

لقد ساعدت الظروف التى عاشتها أوربا على خلق طبقة من الطغاة تستروا باسم الدين وفرضوا على الناس مجموعة من العقائد والأوامر التى لم ينزل بها وحى ولم يقرها عقل ولا يقبلها الواقع ففرضوا الضرائب الباهظة على الناس وجمعوا الأموال وملكوا الإقطاعات الكبيرة وسخروا الناس فى العمل بها بلا أجر مقابل

وعود مزعومة سمعوها من رجال الكنيسة، وادعى هؤلاء لأنفسهم الحق الإلهى فى تنصيب الإمبراطور وعزله عن الحكم، وكان هذا الزعم الخاطئ سببًا فى خلق نوع من التحالف بين رجال الكنيسة من جانب والإمبراطور الذى يقومون بتنصيبه حاكما من جانب آخر، فكان الإمبراطور وكيلا عن الكنيسة فى تنفيذ أوامر رجالها وفرضت الإتاوات وجمعتها نيابة عنهم من الناس وبالتالى كان رجال الكنيسة يباركون كل فعل يقوم به الإمبراطور وكل أمر يفرضه على الرعية، وكان هذا التحالف سببًا فى إيجاد نوع من الكراهية الشديدة لرجال الدين والإمبراطوري معًا.

وظهر فى المجتمع الأوربى طبقتان متميزتان هما طبقة النبلاء والحكام وطبقة رجال الدين وما عدا هاتين الطبقتين فكانوا رقيقا وعبيدًا يعملون فى خدمة الطبقتين السابقتين سخرة بلا أجر، وزاد طغيان الكنيسة فحرمت على الناس ما أحل الله لهم.

* فحرمت عليهم الختان بعد أن كان حلالاً.

* وحرمت زواج رجال الدين بعد أن كان حلالاً.

* وفرضت عقيدة التثليث التى لم يقبلها عقل المفكرين والعلماء.

ثم حدث نوع من الصراع الدفين بين رجال الكنيسة من جانب والإمبراطور من جانب آخر وأخذ كل منهما يتربص بالآخر ويتحين الفرصة للخلاص منه فقد ضاق الإمبراطور ذرعًا بطغيان الكنيسة ومحاولة السطو على سُلطته والتدخل الكثير فى شؤون السياسة والدولة، ومع هذا الشعور بالكراهية فإنه لا يملك حق الرفض لأوامر الكنيسة لأنه -حسب زعمهم- ينفذ أوامر الله وأن خضوعه لسلطانها ليس اختياريًا ولا تطوعًا منه ومن هنا كان رجال الكنيسة يهددون الإمبراطور بالطرد والعزل عن الحكم كثيرًا، ويذكر التاريخ أن بعض رجال الكنيسة وهو «جريجورى السابع» قال: إن الكنيسة جديرة بأن نكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق البابا أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن ينصب ويؤيد من يراه من البشر صالحًا للحكم حسب مقتضيات الأحوال، وقد مارس «جريجورى» هذا الحق عمليا مع إمبراطور ألمانيا «هنرى الرابع» حين اختلف معه فى بعض المسائل، فأعلن الإمبراطور خلع البابا وعزله عن الكنيسة وكان الرد على ذلك أن أعلن البابا خلع الإمبراطور وعزله

عن الحكم وزاد على ذلك أن حرمه من رحمة الكنيسة وعين أحد خلفائه فى مكانه وأخذت الفجوة تتسع بين الكنيسة والإمبراطور تدريجيًا حتى أعلنت الإمبراطورية الفصل التام بنى السلطتين بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وذلك بعد شيوع الاتجاه العلمانى وتطبيقه.

ب- بين حقائق العلم وخرافات الكنيسة:

لقد ادعى رجال الكنيسة لأنفسهم حق تفسير الظواهر الطبيعية، وأقحموا أنفسهم وأقحموا المسيحية معهم فى مجالات علمية لا علاقة لهم بها وليس للدين فيها رأى لا سلبا ولا إيجابًا وإنما ترك تفسير الظواهر العلمية لأهل المعرفة بها من العلماء كل فى مجال تخصصه، وكان مطلب الدين من المؤمنين به أن يؤمنوا بالموجود على ما هو عليه فى الوجود على أنه آية دالة على خالقه، وترك تفسير هذا الوجود بظواهره المختلفة للعلماء به عن طريق الكشف عن قوانينه وترابط الأسباب بمسبباتها، ولم يحدد الدين رأيًا معينًا ألزم الناس به لا فى حركة الأفلاك ولا فى تفسير الظواهر ولا فى أصل الكون وإنما ترك للعقل أن يبحث ويطرح الأسئلة ويبحث عن الإجابات ولكن رجال الكنيسة ادعوا أنهم وحدهم يملكون حق تفسير الظواهر وأنهم وحدهم أصحاب الرأى القاطع فى هذه المسائل، ومما زاد الطين بلة أن هذه الآراء وتلك التفسيرات التى قالوا بها نسبوها إلى الدين وادعوا لها العصمة فخلطوا بين نصوص الوحى وآراء الرجال، وطلبوا من الناس أن يؤمنوا بآرائهم على أنها وحى منزل معصوم من الخطأ وأن الخروج على هذه الآراء كفر وإلحاد يعاقب صاحبه بالطرد والحرمان من رحمة الكنيسة، ولقد سيطر على عقول أوربا فى العصور الوسطى بعض النظريات الخاطئة حول الأفلاك وحركتها وأن الأرض هى مركز الكون كما قال بطليموس وبعض آراء أرسطو فى النفس واختلطت هذه الآراء بأصول المسيحية وصارت أصلا من أصول العقيدة عندهم، حيث تبنتها الكنيسة وآمنت بها ودعت إلى الإيمان بها.

ثم بدأت أنوار عصر النهضة تزحف إلى أوربا مع الحضارة الإسلامية خلال منافذ ثلاثة فى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، وبدأت أوربا تتعرف على مناهج

البحث العلمى والتجربة العلمية من خلال تعرفها على تراث المسلمين فى هذه المناطق الثلاثة خاصة الأندلس، وبدأ العقل الأوربى يستيقظ من سبات الجهل والغفلة ليتعرف على خطوات المنهج التجريبى الذى يبدأ بملاحظة الظاهرة والتساؤل عن أسبابها وافتراض مجموعة من الفروض التى يتوقع الإجابة فى واحد منها، وأخذوا يتعاملون مع الظواهر الكونية بهذا المنهج التجريبى كطريق يقينى للمعرفة ورفضوا تماما الأخذ بآراء الكنيسة أو الخضوع لسلطاتها لأنهم فتشوا فى آرائهم فلم يجدوا فيها ما يقنع العقل أو يعبر عن الحقيقة وإنما وجدوها محض خرافة قدسوها باسم الدين والدين منها براء، غير أن العلماء لم يسلم لهم هذا المناخ طويلا فسرعان ما بدأ الصراع بين رجال الكنيسة ونادوا بمحاربة هذا الوافد الجديد -العلم- الذى تعلمه هؤلاء من الكفار (المسلمين) الذى جاءوا إلى أوربا، واعتبرت الكنيسة آراء العلماء وساوس شيطانية يجب محاربتها، ولو أنصفوا أنفسهم ودينهم لخضعوا لرأى العلماء ونادوا به ودعوا إليه لأنه حقائق العلم وما عداه زيف وخرافة.

وكانت بداية الطريق فى هذا الصراع هى نظرية «كويرنيق» (١٥٤٣) التى اكتشف صاحبها أن الأرض ليست هى مركز الكون كما تدعى الكنيسة، وكما قال بطليموس وأن الأفلاك لا تدور حول الأرض، ووضع «كوبرنيق» كتابه عن «حركة الأجرام السماوية» شرح فيها نظريته تفصيلاً وبين آراءه فى حركة الأفلاك وكانت على النقيض تماما مما تدين به الكنيسة فأعلنت الكنيسة الحرب على «كوبرنيق» ولم يفلت من العقاب إلا بسبب موته قبل طباعة هذا الكتاب، وأعلنت الكنيسة أن كل ما جاء فى هذا الكتاب مخالف لروح الإنجيل وأنه وساوس شيطانية.

غير أن نظرية هذا العالم لم تمت بموته فقد جاء بعده من أحياها وأعلن أن ما فيها هو حقيقة العلم الذى يجب قبوله ورفض ما عداه وكان هذا العالم هو «جرادنوا برونو» الذى قدمته الكنيسة للمحاكمة حيث قضت عليه محكمة التفتيش بالحبس ست سنوات ولما لم يتراجع عن رأيه أمروا بإحراقه (١٦٠٠م) ليكون عبرة لغيره، من العلماء الذى يخرجون على سلطة الكنيسة.

ثم جاء «جاليليو» الذى اخترع التلسكوب وأثبت بالتجربة العلمية صحة نظرية «كوبرنيق» واعتنق رأيه ورفض رأى الكنيسة، وكان جزاؤه أن قدم لمحكمة التفتيش

وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن وأمروا بتلاوة مزامير التوبة والندم فى كل أسبوع لمدة ثلاث سنوات، ثم أعلن توبته وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة.

هذه نماذج قليلة من العلماء الذين واجهوا مصيرهم المؤلم أمام رجال الدين بسبب رفضهم لخرافات الكنيسة وتمسكهم بحقائق العلم الذى توصلوا إليه خلال بحوثهم وتجاربهم العلمية، وإذا كان الصراع فى هذه الفترة قد اقتصر على بعض الشخصيات من العلماء والمفكرين فإنه قد اتخذ شكلا آخر فى القرن السابع عشر والثامن عشر فبعد أن كان الصراع قائمًا بين الكنيسة و«جاليليو» أو «كوبرنيق» أو «برونو» فإنه أصبح فيما بعد صراعًا بين الدين والعلم، بين الدين الذى تدعيه الكنيسة والعلم الذى توصل إليه العلماء أو بين الوحى والعقل.

وبدأ العلماء فى القرن الثامن عشر نهضتهم العلمية وهم متربصون بكل ما هو دينى رافضون له، متمردون عليه باسم العلم أحيانا، وباسم العقل أحيانا، وباسم حقائق الطبيعة أحيانًا أخرى ولم يعد هناك نص دينى يستحق أن يوصف بأنه نص مقدس يعلو على نقد العقل، أو يمثل مرجعًا يعودون إليه كمصدر للمعرفة بل أصبح الكتاب المقدس نفسه موضعًا للنقد والشك معًا؟

وارتفع صوت العلماء ينادون بتقديس العقل والعلم ومحاربة الدين ورفضوا النص ونبذوا كل القيود التى تعوق حركة العقل فى سبيل الكشف عن الحقائق الكونية وقوى من هذه الدعوة الكشوف العلمية التى وصل إليها العلماء فيما بعد أمثال «نيوتن» وقانون الجاذبية وأسهمت كل هذه الاكتشافات فى زلزلة أركان الكنيسة وارتفاع صوت العلم والعقل خلال القرن السابع عشر والثامن عشر بحيث جاءت الثورة الفرنسية ١٨٩٧م كمطلب ضروري لحسم هذا الصراع لصالح العلم والعقل فى مواجهة الكنيسة وخرافاتها، وفتحت هذه الثورة الباب على مصراعيه لتنقل الصراع إلى العوام من الناس بعد أن كان مقصورًا على طبقة المفكرين من الفلاسفة والعلماء فقط، وأصبح الأرقاء والعبيد وعوام الناس هم رواد الثورة على الكنيسة وعلى الحكام فى آن واحد وتمخضت الثورة الفرنسية عن نتائج كان لها أثرها فى سيادة منطق العلمانية فى مواجهة الدين والتدين.

فقد ظهرت فى أوربا المسيحية لأول مرة فى تاريخها دولة لا دينية هى فرنسا تقوم فلسفتها فى الحكم على الديمقراطية التى تحكم باسم الشعب وليس باسم الله، وتقوم عقائدها على حرية التدين بدلا من المذهب الكاثوليكى، وعلى الحرية الشخصية بدلا من الالتزام بالقيم الأخلاقية أو الدينية، وعلى دستور وضعى بشرى بدلا من قرارات الكنيسة، وكان من أول أعمال هذه الثورة حل الجمعيات الدينية، وتسريح الرهبان والراهبات، ومصادرة أموال الكنيسة، وإلغاء كل الامتيازات الممنوحة لرجال الكنيسة وتحويل رجل الدين إلى موظف حكومى يعمل تحت رقابة الدولة بدلاً من أن تكون الدولة هى التى تعمل تحت رقابته.

وساعد هذا المناخ على شيوع الفكر اللادينى فى أنحاء أوربا خاصة «فرنسا» وتبلور هذا الفكر اللادينى فى اتجاهات فكرية متميزة أسهمت إلى حد كبير فى نشأة المذاهب الفلسفية والعلمية التى تحارب الدين وتناهض التدين وتعتبر رجل الدين رمزًا للتخلف والجهل وداعية إلى الخرافة كالمذاهب الفلسفية الإلحادية، والوضعية المنطقية والطبيعية والاجتماعية، وأخذ علماء هذه المذاهب يدعون إلى تأليه العلم وعبادة العقل، وكان كتاب «جان جاك رسو العقد الاجتماعى» هو إنجيل الثورة الفرنسية المقدس حيث استبدل فيه مصلحة الوطن بالأخلاق والنظم الدينية وأحل عبادة الوطن محل عبادة المسيح، كما نادى أنصار المذهب الطبيعى بإحلال الطبيعة وقوانينها محل الدين، وصرح «فولتير» بأن «دين أهل الفكر دين رائع جداً لأنه خال من الخرافات والأساطير... وخال من العقائد التى تهين العقل».

ويمكن القول بأن الثورة الفرنسية قد حولت العلمانية من مبادئ نظرية إلى واقع عملى عاشته فرنسا وصدرت هذه المبادئ العلمانية إلى سائر أوربا فلم يعد هناك نص مقدس ولا دين يجب الأخذ بتعاليمه، وعم ذلك كل دول أوربا، وجاء القرن التاسع عشر الذى شهد خضوع العالم الإسلامى شرقًا وغربًا للاستعمار فاحتلت انجلترا وفرنسا معظم أقطار العالم العربى وكان من مهمة الجيوش المستعمرة نشر هذا الفكر العلمانى والعمل على تدعيم أركانه فى سائر البلاد التى احتلوها وهى كلها بلاد إسلامية.

****

بين العلمانية والتدين

قضية التدين:

التدين من الأمور التى لا تحتاج إلى دليل لإثبات صحتها؛ لأنها قضية فطرية وغريزة إنسانية وحاجة نفسية، فإن الله تعالى قد فطر الإنسان على محبة الخير ومحبة الحق وتحصيلهما، والسعى إليهما، والاطمئنان لهما، ومن منطلق هذه الغريزة الفطرية نجد كل إنسان -بل كل كائن حى- يسعى جاهداً لما يظنه خيراً له، وما يعتقد أنه الحق ويسعى فى طلبهما وقد يقاتل دونهما. وهذا أمر يحسه كل منا فى داخله بحيث لا يحتاج إلى برهنة أو استدلال، فأنت ترى الطفل حين يولد مدفوعًا إلى التقام ثدى أمه، دون معلم ولا مرشد كما لو كان مدربًا على ذلك من قبل، وليس هذا فى طفل الإنسان فقط بل نجده فى طفل الحيوان أيضًا، وذلك استجابة لتلك الغريزة الفطرية التى فطر الله عليها كل كائن حى، محبة الخير ومحبة الحق، وتحقيقا لما يظنه الإنسان خيرًا تجده مرتبطًا فى أول عهده بالحياة بأمه التى يتغذى منها ويظن أنها مصدر الخير له، ثم تجده بعد ذلك يرتبط بوالده ثم بأستاذه ثم برئيسه فى العمل وقد يظل ذلك الارتباط طويلا لغلبة الظن أن هؤلاء جميعًا مصدر الخير له، فإذا ما تعرف الإنسان على ربه وآمن بأنه الخالق الرازق، والمعطى والمانع، والضار والنافع وأن كل هذه الوسائط أسباب مسخرة لتستقيم بها حركة العمران فى الكون إذا ما تم له ذلك فإن قلبه يتعلق بالله تعالى باعتباره مصدراً لكل خير وصاحب كل نعمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

تراه قد اطمأن بذلك قلبه، وهدأت نفسه، وبدأ يتعامل مع الناس بل مع الكون كله على أنه وسائل سخر الله بعضها لخدمة البعض الآخر، فالكل فى خدمة الكل، وهذا قانون عام يجب أن يتنبه له الإنسان جيداً، وهذه هى سنة من سنن التدافع فى الكون، ونوع من قانون التسخير العام الذى نبهنا إليه القرآن الكريم.

وهنا أمر يجب أن ننبه إليه وهو أن قضية الاعتقاد فى الرب الخالق قضية فطرية أيضًا، فطر الله الجميع عليها كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه**

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدع..» والفطرة المقصودة هنا هى الإسلام، هى دين جميع الأنبياء، هى الحنيفية، ففى الحديث الصحيح الذى رواه الرسول ﷺ عن ربه: «**خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين وأحلت لهم ما حرمت عليهم..**» وهذه الفطرة هى الأساس النفسى الذى اعتمد عليه الأنبياء فى مخاطبة أقوامهم بالإيمان بالله خالقًا وإلهًا معبودًا وخاطبهم الوحى مذكرًا لهم بهذه الفطرة الموجودة فى نفوسهم سلفًا.

ومن هنا جاء خطاب القرآن فى هذه القضية (قضية التعريف بالخالق) بأسلوب التذكير والتذكر، وحصر القرآن وظيفة الرسول ﷺ فى هذه القضية ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وسمى القرآن نفسه تذكرة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ [المزمل: ١٩] والحديث فى هذه القضية يحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه ولكنا أردنا بذلك أن ننبه إلى أن كل إنسان قد فطره الله على الاعتقاد بوجود الخالق الذى هو جوهر الإيمان، وهذا الاعتقاد حاجة نفسية وضرورة إنسانية وحاجة النفس إلى الاعتقاد أكثر إلحاحًا على الإنسان من حاجته إلى الطعام والشراب، وقد يضل الإنسان أحيانًا فى اعتقاده وقد يخترع الإنسان لنفسه من يتوسم فيه الخير فيطلبه منه ويعبده ويقصده ويتوجه إليه كما هو الشأن فى أصحاب الأديان الوضعية والأساطير الشعبية وكانت من مهمة الأديان تصويب هذا الاعتقاد وتصحيح مساره نحو الحق الكامل لإشباع هذه الحاجة النفسية ولتذكير الإنسان بربه الخالق فيعبده ويتوكل عليه.

وليس ذلك إلا لأن التدين أصيل فى النفس الإنسانية والإلحاد عارض عليه، التدين فطرة والإلحاد شذوذ، التدين مطلب العقل الصحيح والإلحاد حالة طارئة لعلة مرضية وشبهة عارضة.

ولو تأملت تاريخ الحضارات الإنسانية شرقًا وغربًا سوف تلاحظ أن الإلحاد فى كل حضارة شذوذ وخروج على الأصل ولعل أكبر دليل على هذا أن تاريخ الحضارات الإنسانية يحتفظ بأسماء الملحدين فى كل عصر وفى كل ملة وذلك لندرتهم وشذوذهم، ومن هنا فإن كل مذهب فكرى أو سياسى أو اجتماعى جعل

مهمته أن يحارب التدين أو يعارضه فإنه محكوم عليه بالفشل ويحمل معه دليل فساده ويكون هو برهانًا على زلل أصحابه.

وليس ذلك إلا لأن الإلحاد يناقض الفطرة الإنسانية ويعارضها، وكل أمر معارِض للفطرة فإنه مرفوض فى منطق العقل وتحكيم الواقع، ومن هنا كان التدين أمانا للنفوس واطمئنانًا للقلب، وحاجة النفس إلى التدين كحاجة الجسم إلى الطعام وكما أن المعدة السليمة لا ترفض الطعام إلا لمرض طرأ عليها فكذلك النفوس الصحيحة لا ترفض التدين إلا لعلة عارضة وشبهة طارئة وإذا زال المرض عادت النفس إلى حالتها من الصحة فتقبل التدين الذى هو مقتضى فطرتها.

وإذا رجعنا إلى تعريف العلمانية سوف نجد بينها وبين التدين تناقضا لا مجال لرفعه وإزالته وهذا التناقض قد اصطدمت به الحضارة الأوربية إبان عصر النهضة، حيث لم تستطع أن تتخلص أبدًا من الإيمان بالمسيحية كعقيدة يؤمن بها الغرب وتدين بها شعوبه فتركت للناس حرية الاعتقاد بخلاف الدول الشيوعية التى حاربت التدين وناصبته العداء، ولم يدم ذلك طويلاً وكان مآلها الانهيار والخراب، وهذا الموقف جعل بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن العلمانية فى أوربا محايدة ولم تصطدم بالدين.

العلمانية فى العالم الإسلامى:

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى تعريف العلمانية سوف نجد أن بينها وبين التدين خاصة الدين الإسلامى -تناقضًا لا مجال لإنكاره أو التهرب منه، ذلك أننا أمام أمرين:

الأول: أن العلمانية -كما سبق أن بينا- ترفض الدين كمصدر وأساس للحكم- وطبعًا الدين المقصود هنا هو المسيحية- كما ترفض العلمانية أن يكون للدين أى أثر فى توجيه حياة المجتمع لا سياسيًا وثقافيًا ولا اجتماعيًا وينبغى إقصاؤه عن مناهج التربية والتعليم.

وسبق أن عرفنا الأسباب الخاصة التى دفعت أوربا إلى اتخاذ هذا الموقف من رجال الدين وسلطة الكنيسة والسؤال المطروح هنا.

هل هذه الأسباب موجودة فى الإسلام؟

إذا كان تسلط الكنيسة على العلماء ورفضهم للعلم سببًا فى ظهور العلمانية فى الغرب فهل الإسلام يرفض العلم أو يحارب العلماء؟

وهل الإسلام هو الكنيسة؟

وهل رفضت أوربا التدين بالمسيحية أم رفضت تسلط رجال الكنيسة. . .؟

هل ادعى علماء الإسلام أنهم يملكون حق تفسير الظواهر الطبيعية كما ادعت ذلك الكنيسة. . .؟

هل ادعى أحد من علماء المسلمين أنه يملك حق المنح والمنع من رحمة الله كما فعلت الكنيسة. . .؟

هل ادعى أحد من العلماء أن بيده مفاتيح الجنة يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء؟

هذه أسئلة. . . وغيرها كثير -يجب طرحها على العلمانيين فى بلاد المسلمين لأن هذه الأسئلة حاسمة فى الموقف الثقافى بكامله، ولنعود هنا إلى سؤال آخر أكثر أهمية ما هى مبررات العلمانية فى عالمنا الإسلامى. . .؟

إن موقف الإسلام من العلم والعلماء وشموله لنظام الحياة وسياسية الحكم سبق الحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن المشروع الإسلامى للتنوير وسوف نوجز القول هنا عن:

آثار الفكر العلمانى فى بلاد المسلمين:

١- من المعلوم أن الثقافة الإسلامية بفروعها المختلفة فى العقيدة والشريعة فى السياسة والاقتصاد فى الأخلاق والتربية فى الاجتماع والحضارة، تأخذ كلها من معين واحد هو مصدر الإسلام، الكتاب والسنة، ومعنى ذلك أنها ثقافة دينية تدور فى فلك الإسلام بأصوله وفروعه، الثابت فيها والمتطور، فهى نظام شامل ومنهج متكامل للحياة بأكملها على مستوى الفرد والجماعة، والنظام العلمانى لا يسمح لأى فكر دينى أن يشارك فى حركة الحياة أو يسهم فى إدارتها سواء كان ذلك على مستوى الحكم والسياسة أو على مستوى الفكر والثقافة والتربية ومعنى ذلك أن مهمة الدين عندهم لا تتعدى ممارسة الشعائر على مستوى الفرد فقط، ولا يتعدى

ذلك حدود علاقة الفرد بربه وذلك هو تفريغ الإسلام من محتواه وعزله تمامًا عن الإسهام فى حركة الحياة كما هو الشأن فى موقف أوربا من الكنيسة.

وفى هذه الحالة لا بد من طرح سؤال ما نوع الثقافة المطلوب إحلالها محل الثقافة الإسلامية لتملأ على المجتمع المسلم فراغه الثقافى والفكرى..؟

ما هو النموذج الثقافى المطلوب إحلاله محل الثقافة الإسلامية لننظم به شؤون حياتنا...؟

والإجابة على هذه الأسئلة واضحة للجميع فإن النموذج المطروح علينا الآن والمطلوب منا الخضوع له هو النموذج الأوربى؛ لأن الثقافة الغالبة والمطروحة إعلاميا هى ثقافة الغرب العلمانية، علمانية فى السياسة والحكم، علمانية فى المال والاقتصاد، علمانية فى التعليم والتربية والأخلاق، ومعنى هذا أننا سنجد أنفسنا يومًا ما فى أحضان الثقافة الأوربية أو تحت سلطانها، وهذا هو التغريب المطلوب أو المفروض على العالم الإسلامى الآن، وقد بدأ الفكر العلمانى يتسرب إلى كثير من جوانب الحياة المعاصرة محل الشريعة الإسلامية فى كثير من بلاد العالم الإسلامى، كما ظهر أثر العلمانية فى كثير من مناهج التربية والتعليم فى بلاد كثيرة وزاحم التعليم المدنى الأزهر فى مناهجه.

ولقد تبنى كثير من المتعصبين فى العالم العربى الدعوة إلى العلمانية لا بمفهوم التخلص من سلطة رجال الدين ولكن بمعنى التخلص من الدين نفسه وبدأوا يخلعون على الإسلام ما خلعته أوربا على الكنيسة فى العصور الوسطى دون أن يفطنوا إلى الفرق بين حقيقة الإسلام وموقف الكنيسة وصاروا يسمونه التنوير، وفى المقابل يصفون رجل الدين عندئذ بالتخلف والرجعية ويجعلون الدين أو التدين مرحلة تاريخية انتهى زمانها، ولكى نتقدم إلى الإمام فلا بد أن نسلك مسلك الغرب، وقد يكون الأمر سهلا لو أنهم سلكوا طريق الغرب فى الأخذ بأسباب العلم كمنهج للحياة، فإن ذلك مطلب شرعى لكنهم يدعون المجتمعات الإسلامية إلى الإباحية باسم الحرية الشخصية، وإلى الإلحاد والتنكر للأديان باسم التنوير، وإلى التمرد على النصوص المقدسة كتابًا أو سنة باسم تحرير العقل وحرية التفكير، وكم ضيع المسلمون من مواريثهم ومقدساتهم تحت هذه الشعارات الزائفة.

****

الفصل الثالث

فلسفة التنوير

بين المشروع الإسلامى والمشروع التغريبى

المصطلح وظروف نشأته:

من المفيد أ نوضح لأنفسنا ولغيرنا مفـهوم مصطلح التنوير، كيف ظهر تاريخيًا، وما الظروف الثقافية التى أفرزته وكيف انتـقل إلى العالم العربى وهو محمل بغبار معـركة وقعت علـى غير أرضنا، وتحت ظروف ثقـافية نـشأت وعاشت فى غـير حضارتنا، وفى ظل دين غير ديننا؟

إن توضيح هذا الأمر على جانـب كبير من الأهمية حتى يتـعرف الشباب على حقـيقة هذا المصطلح وظروف نشأته التـاريخية. وليكون على بينة من الأمـر، فإن كثـيرا من المصـطلحات التى تتـردد على الألسنة وتسود بـها الصحـف والمجلات مصطلحات مدخولة، ومضللة يشوبهـا زيف وتمويه أكثر مما فيها من الحق المقصود أو البيان للحق، ولأن السـاحة الثقافـية أشبه بالميدان الخـالى إلا من أصحاب هذه النزعات المدخولة، وهذه المصطلحات المضللة، فكثر استعمال هذه المصطلحات فى الكتابات والندوات الـثقافيـة دون استيـضاح من أحد لمعناها ومـدلولها، ودون أن يتساءل عن ظروف نشأتها وملابساتها الثقافية والدينية. مما يخشى معه أن يستقر فى وسائـل الإعلام وفى أذهان الشـباب، هذه المصطلحـات المدخولة أو أن مـا يطرح عليهم من قضايا فكرية وثقافية تحت مسميات التنوير أو التقدمية أو.... أو.... هى الحق الذى لا مرية فيـه أو أن مستقبل الوطن مرهون بالأخذ بـها، كما يدندن حول ذلك بعض أصـحاب الأقـلام... لا.... إن القضيـة تحتـاج إلى توضيح وطرح تساؤلات عديدة، بل تحتاج إلى مراجعة للنفس من أصحاب هذه النزعات، خاصة أن وقـتًا كافيًـا قد مضى على ظهـور هذه النزعة، وقد تبين خـلاله الخيط الأبيض من الخيط الأسود لكل ذى بصر وبصيرة، وأصبح واضحًا ماذا يريد الغرب منا، وماذا يريد حماة شعار التنوير بالمفهوم التغريبى.

إن مصطلح الـتنوير -كغيـره من المصطلحات العلمـانية -وفد إليـنا من الغرب ضمن مجموع المصطلحات التى غزت ثقافتنا المعاصرة خلال حركة الاتصال الحديثة بين مصر والعالم الغربى -خاصة فرنسا- خلال القرنين الأخيرين.

ولقد نشأ هذا المصطلح فى ظروف تاريخية عاشتها دول أوربا شرقًا وغربًا، كانت ثقافة الشعوب فى أوربا خلالها مقصورة على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها، وكانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر البطبيعية خاصة لرجال اللاهوت الكنسى، لا يجوز مخالفتها، باعتبار أن ذلك وحيًا لا تجوز مخالفته.

وحتى لا يساء فهمنا نود أن نشير هنا أنه لا ضير من استعمال المصطلحات الوافدة من هنا أو هناك، ولكن ذلك يستلزم توضيح معناها للشباب، ماذا يراد بها عند أهلها، وفى البيئة التى تولد فيها هذا المصطلح أو ذاك، ما مفهوم المصطلح عندهم، وماذا نريد به عندنا، وهل الظروف والملابسات التى أفرزت هذا المصطاح موجود فى بيئتنا أم لا؟ وهذا أمر لابد منه عند استعمال المصطلحات الوافدة لأن معظمها فيه لبس وتمويه لابد من بيانه للشباب حتى إذا قبلوا المصطلح أو رفضوه يكون موقفهم مؤسسًا على اليقين فى القبول أو الرفض. وكثيرًا ما تثور المشكلات بين المدارس الفكرية، بسبب عدم توضيح المفاهيم ولا بيان لمدلول المصطلحات، فقد يكون المصطلح مشتملاً على حق وباطل بسبب ظروف نشأته فيكون قبوله على الإطلاق قبولا لما فيه من الباطل، ويكون رفضه على الإطلاق رفضًا لما فيه من الحق، وفى كلتا الحالتين افتراء على المنهج العلمى السليم.

ومن المعروف تاريخيًا أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كانت فى العصور الوسطى تمثل الجهل والتخلف والخرافة، فلقد طلبوا من المسيحيين الإيمان والإذعان لآرائهم فى تفسير الظواهر الكونية مدعين أن الدين (الكنيسة) يختص بتفسير هذه الظواهر، وأن الخروج عليها كفر وإلحاد، ويكن جزاؤه الطرد من رحمة الكنيسة.

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن موقف الأديان من الكون وظواهره « الإيمان بما هو موجود على ما هو عليه فى الوجود»، دون أن يفرض الدين تفسيرًا معينًا لهذه الظواهر أو تلك، تاركًا ذلك كل لمنطق العلم وما يصل إليه العقل من اكتشافات وعلاقات بين الأسباب والظواهر، دافعًا للعقل أن يعمل ويكتشف القوانين ويدرك العلاقات، جاعلاً الكون كله خاضعًا لسلطان العقل بحثًا واكتشافًا وتسخيرًا وتوظيفًا ومن هنا كان الكون كله آية دال على خالقه، وكان أكثر العلماء اكتشافًا

لقوانين الكون وأكثرهم إدراكًا للعلاقات أشدهم خشية لخالق هذا الكون، هذه نقطة تحتاج إلى بسط وتفصيل أحسب أن لها مجالاً آخر، ولكن أردنا أن ننبه هنا إلى السقوط الذى وقعت فيه الكنيسة بفرض آرائها على العلماء ودعوى احتكارها تفسى الظواهر الكونية، ووجوب الخضوع لتفسيراته وقبول آرائها فى تفسيره للظواهر الطبيعية، وترتيب على ذلك ميلاد حرك التنوير الرافضة لآرائها، معلنة أن ما يدعيه رجال الكنيسة باطل لا حق فيه، جهل لا يسنده علم، خرافة لا يقبلها العقل.

ولما كان رجال الكنيسة هم الممثلون للدين. فقد فتش العلماء فيما يطالبهم رجال الكنيسة الإيمان به والاعتقاد بصحته، فوجدوا أن هذه الآراء، وتلك التفسيرات خرافة لا يقرها العقل، وجهل لا يقبله العلم، وظلام وتخلف لا يثبت أمام النقد ومنطق العلم، فأعلنوا ثورتهم على هذه الآراء وتلك الخرافات التى ارتبطت فى أذهانهم بالكنيسة ورجالها

وبدأت قصة هذا الصراع المرير بين الكنيسة والعلماء منذ أيام «كوبرنيق» (١٤٧٣- ١٥٤٣م) الذى أعلن آراءه فى الطبيعيات والفلك ومركز الكون؛ وكلها على نقيض ما يدعيه رجال الكنيسة، وانسحب ذلك الموقف بكامله على الدين بمفهومه العام.

لم يتنبه العلماء إلى ضرورة التفرقة بين رأى رجال الكنيسة والدين الصحيح فى مفهومه العام، وصار الدين عندهم -كما عرفوه من رجال الكنيسة- تجسيدًا للتخلف والجهل والخرافة، وأصبح رجل الدين رمزًا لكل هذه المعانى. فهو داعية للجهل، محارب للعقل، رافض للعلم، ولا شك عندى -أن هذه الكوكبة من العلماء التى عاشت هذه المعركة كان ينقصها العلم بالدين الصحيح، الذى نزل على عيسى عليه السلام، فضلاً عن جهلهم التام بالإسلام واحتضانه للعلم وتكريمه للعلماء، ولا شك عندى أيضًا أن رجال الكنيسة الذين أعلنوا هذه الحرب التاريخية على العلم والعلماء قد أساءوا إلى المسيحية، وأفسدوا بموقفهم هذا حركة التاريخ المعاصر. فلا انتصروا لدينهم، ولا حققوا النصر على عدوهم بل كانوا

الكنيسة والدين معًا، حيث صوروا الموقف على أنه صراع بين الدين والعلم، وليس بين رجال الكنسية والعلماء، بين العقل والخرافة، بين النور والظلام، بين التقدم والتخلف، وكان مفهوم التنوير يعنى التحصن بمنطق العلم والعقلانية، ضد هذا الدين ورجاله، الذين يمثلون الجهل والخرافة، فكان لابد أن ينتصر العلم فى مواجهة الجهل وينتصر العقل فى مواجهة الخرافة، والتقدم فى مواجه التخلف.

وكان مصطلح التنوير هو المعبر عن نتيجة هذه المعركة التى حسمها التاريخ والواقع لصالح العلم والعقل والنور ضد الكنيسة وآرائها، ولقد صورت المعركة كلها على أنها صراع بين الدين، بمعناه العام، وكل معانى التنوير التى هى العقلانية والتقدم، وانتقلت المعركة بكل ملابساتها وظروفها إلى عالمنا العربى بدون أن يفطن دعاة التنوير فى عالمنا العربى إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسة، ولا عالمنا العربى هو أوروبا، ولا الحضارة الإسلامية هى الحضارة الأوروبية فى عصورها المظلمة، فليس رجل الدين عندنا رافضًا للعلم، ولا محاربًا للعقل.

وأخذ دعاة التنوير عندنا يصورون المعركة فى بلادنا على أنها صراع بين الإسلام والعلم، بين الدين والعقل، بين ضرورة التخلص من الماضى، والنهوض بالمستقبل، وكان النموذج الغربى فى نظرهم هو المثل والقدوة التى ينبغى أن نحذوا حذوها، ونسير فى ركابه حت لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه معهم.

وأصبحت الثنائية التناقضية بين الدين والعلم عنوانًا لحركة التنوير، وملازمًا لها فى بلادنا، فكما رفض العلماء فى أوروبا تسلط رجال الكنيسة، وأعلنوا الحرب عليها، دليلاً على التنوير أخذ دعاة التنوير عندنا بنفس المبدأ، فأعلنوا الحرب على الإسلام ورجاله؛ لكى يعلنوا عن أنفسهم أنهم تنويريون ودعاة التنوير، وكما أعلن العلماء فى الغرب أن الدين -الكنيسة- خرافة، ورجاله رموز للجهل، أخذ دعاة التنوير فى بلادنا يلصقون نفس التهم بالإسلام ورجاله، ولو أنصف هؤلا الدعاة إلى التنوير لبدأوا دعوتهم من حيث بدأ الإسلام الذى يجعل العلم دينًا وفريضة، ويجعل حاكم العقل فى عالم الشهادة ميزانًا لا يخطئ، ولو أنصفوا لفرقوا بين الإسلام والكنيسة، وبين الشرق والغرب.

والدين والحضارة:

لقد أصبح من المقرر عقلاً -الذى لا يحتاج إلى دليل- إن تاريخ الحضارة الإنسانية هو تاريخ للتدين البشرى ومعتقداته، حيث يعكس كل شعب تدينه ومعتقداته فى آثاره وتراثه الحضارى، شعرًا كان أو نثرًا، أسطورة كانت أو صورة مجسمة فى شكل تمثال أو نحت أو حكمة شعبية، هذه قضية لا تخلو منها أية أمة من الأمم، ولا ينفرد بها تاريخ شعب دون شعب آخر، ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نقول: إن تاريخ الحضارات الإنسانية هو تاريخ تدينها أيا كان هذا التدين ونوع هذا الاعتقاد، رقيا أو انحطاطا، مقبولاً فى منطق العقل أو مرذولاً، نزل به كتاب وبشر به وحى أو وضعه البشر، وأوصى به الحكماء، فلم نجد فى تاريخ البشرية من لدن آدم إلى الآن، أمة بلا دين ولا شعبًا بلا عقيدة، وما كانت الأساطير الشعبية فى كثير من البلاد إلا تجسيداً لغذائها الروحى، الذى يسد حاجتها إلى الاعتقاد، ويعبر عن حاجتها إلى التدين.

قد توجد أمم كثيرة بلا فنون، وبلا مسارح، وبلا علوم، وبلا آثار، ولكن يستحيل أن نجد على ظهر الأرض أمة بلا اعتقاد وبلا مظهر يعبر عن تدينها، فقد نجد أمة لا تملك الأهرامات، ولا أبا الهول، كما تملكه مصر، وقد نجد أمة ليس لديها سور عظيم مثل سور الصين. وقد نجد أمة بلا فلسفة ولا مسارح ولا فنون كما هو الشأن فى اليونان، ولكنك تجد أمم أهل الأرض كلها تشترك فى حاجتها إلى الاعتقاد والتدين، ثم تختلف وسائلها فى التعبير عن هذه الاعتقادات، وعن تلك الحاجة الغريزية الفطرية، فنجد أممًا جسدت عقائدها فى التوجه إلى المحسوسات التى لمست فيها نوعًا من النفع والقدرة الخارقة، وأممًا أخرى نزل عليها الوحى بتصويب الاعتقاد وتوجيهها نحو المنهج السماوى، فالأمم التى اندثر معالم الوحى فيها تحاول أن تبحث لنفسها عن دين تعتقده، وقد تجد فى بعض النماذج البشرية المثل والقدوة ومؤهلات الاعتقاد، فتضفى عليها صفة الألوهية أو صفة الأنبياء أو الحكماء، ولعل فى نشأة الأديان الوضعية ما يكفى للدلالة عل حاجة الإنسان الغريزية إلى التدين والاعتقاد، وليس بوذا ولا زرادشت ولا حكماء الصين القدامى إلا نماذج بشرة أضفى عليها أهلها صفة القداسة إشباعًا لحاجتهم إلى الاعتقاد. هذه قضية نكاد نجزم أنه لم تخل منها أمة من الأمم.

ولهذا لا نجد أمة بلا معبد أو محراب، أيا كان اسم هذا المعبد كنيسة أو مسجدًا أو بيعًا أو. . . أو. . . هذه حقيقة أكدها تاريخ الحضارات الإنسانية، ذلك أنه فى داخل كل منا تعطش ذاتى لا يرويه إلا الاعتقاد، صحيحًا كان هذا الاعتقاد أو فاسدًا، وفى طبع كل منا نهم يشبه نهم الجائع إلى الطعام.

ولعل هذه الحاجة الغريزية إلى التدين هى التى جعلت الفيلسوف الفرنسى «رينان» يقول: إن من الممكن أن يضمحل كل شىء نحبه ويتلاشى من أمام أعيننا، وأن يبطل حرية العقل. . . لكن يستحيل أن ينمحى التدين من نفوسنا، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أصحابه أن يحصروا حاجة الإنسان فى المطالب المادية الدنيئة للحياة الأرضية، ولقد جاء فى معجم لاروس للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية حاجة مشتركة بين جميع الأجناس البشرية حتى أكثرها همجية وأقربها إلى حياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية(١).

ونحن نؤكد من جانبنا أنه من أجل إشباع هذه الحاجة الفطرية وتصحيح مسارها التاريخى كان تتابع الأنبياء والمرسلين إلى أمم أهل الأرض قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

إن تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها يوضح أمرًا فى الطبيعة الإنسانية قرره الواقع، وأكده التاريخ هو أن التدين أصيل فى النفس الإنسانية، والإلحاد أمر عارض عليه، الاعتقاد هو الأصل، والإلحاد شذوذ، الإيمان هو منطق الفطرة، وهو صمام الأمان للنفس البشرية، والإلحاد طارئ لمرض عارض، وهذا ما يشير إليه الحديث القدسى الشريف: **«خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين»** والحديث الصحيح: **«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع»** أى نقص والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم- لم يأتوا بدعوتهم إلى البشرية ليؤسسوا أصل الاعتقاد فى النفس البشرية لا ولم

(١) انظر هذا النص عن بحث العلمانية د/ عدنان زرزور ضمن كتاب عقائد وتيارات فكرية تأليف: محمد السيد الجليند، عدنان زرزور، محمد شامة بكر زكى.

يكن هذا غرضهم، ولا هدفًا لهم، وإنما جاءوا ليصححوا الاعتقاد المنحرف، ويصوبوا مساره المعوج وتعليم شعائره، والإعلان عن طقوسه وشعبه، ولذلك فإن القرآن الكريم سمى وظيفة الأنبياء تذكيرًا وتذكرة وسماهم مذكرين. قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وسمى القرآن نفسه تذكرة، فقال سبحانه عن القرآن ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ [المزمل: ١٩] نعم إن الرسل لم يؤسسوا الاعتقاد فى نفوس البشر، وإنما صححوه، كشفوا عنه الصدأ، وأزالوا عنه ظلمات الشك ورين الشبهات، وحديث القرآن عن هذه القضية جاء كله فى صيغة التذكير والتذكر لينبهنا إلى أن هذه قضية مركوزة فى نفوس بنى آدم، قد يعلوها الصدأ أحيانًا، قد يخبو نورها أحيانًا، لكنها لا تموت ولا تتلاشى أبدًا.

الدين فطرة:

بعد تأكيدنا على أهمية الحقيقتين السابقتين نرى ضرورة مراجعة تفسير علماء الاجتماع لظاهرة التدين أو كما يطلقون عليها -خطأ- ظاهرة الدين، ويعتبرون الدين مرحلة تاريخية انتهت وظيفتها بدخول العالم عصر العلم، ولقد ناقش المرحوم د/ دراز هذه القضية فى بحثه القيم عن (الدين) وبين تهافت موقف علماء الاجتماع فى تفسيرهم التاريخى للدين وأشار إلى إن مؤسسى علم الاجتماع الحديث يقسمون تاريخ الإنسان إلى مراحل ثلاثة أولها مرحلة الدين -ثم مرحلة العقل والتفلسف- ثم مرحلة العلم وكل مرحلة تمثل فى نظر علماء الاجتماع مقدمة للمرحلة التى تليها ولابد أن تختفى هذه المرحلة السابقة بظهور المرحلة التالية لها، وهذه المراحل الثلاث تسير فى تاريخ الإنسان فى خط تطورى، ومرحلة الدين أو التفسير الدينى هو أول هذه المراحل، إنه يمثل مرحلة الطفولة العقلية فى عمر البشرية. مرحلة التفسير الغيبى للظواهر، ولابد أن تختفى هذه المرحلة بمجرد أن يحل مكانها التفسير العقلى الفلسفى للظواهر، كما أن التفسير التجريبى العلمى لابد أن يحل مكان التفسير الفلسفى العقلى، وهذه المراحل الثلاث تمثل موقف الإنسان من ظواهر الطبيعة وتفسيرها، فالتفسير الدينى أولاً، ثم التفسير العقلى الفلسفى، ثم التفسير العلمى، وقد أصبح هذا التقسيم الثلاثى

للتاريخ أشبه بالمسلمة التى قبلها العلماء على أنها حقائق لا تحتاج إلى نقاش. وقد انتقل هذا التفسير بدوره إلى عالمنا العربى، وبات منهجًا من مناهج الدرس الأكاديمى فى أقسام الاجتماع بالجامعات العربية، ويلقن للطلاب على أنه حقائق تاريخية تكاد تصل فى وثاقتها حد القضايا الرياضية، وأخذ صفة العموم والشمول لكل تاريخ الإنسان فى أى مكان وحضارة وهذه القضية من وجهة نظرنا تحتاج إلى مراجعة دقيقة، وإعادة نظر فى أسبابها وفلسفتها ونتائجها.

أولاً: إن هذه المستويات الثلاثة أو التقسيم الثلاثى لعلاقة الإنسان بالكون وتفسيره نرى أنها لا تسير بالضرورة فى حياة الإنسان المؤهل لهذا الموقف -فى هذا الخط التناقضى- كما صوره علماء الاجتماع- بل الأولى من ذلك أن يقال إنها تسير فى خط متجاور أو متواز. فهى متزامنة فى حياة الفرد، وبالتالى فيه متزامنة فى حياة الأمم: والشخصية السوية المتكاملة نجدها مؤمنة بالمستويات الثلاثة، وأنها متزامنة متجاورة متعاونة فى وقت واحد وليست متعاقبة أو متناقضة ينفى لاحقها سابقها، كما صورها علماء الاجتماع، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاتيته بشكل تكاملى إلا إذ جمع فى موقفه من الظواهر بين هذه المستويات الثلاثة للتفسير التى تمثل فى شخصية الإنسان الفرد الجانب الحسى المادى، والجانب العقلى العلمى، والجانب الروحى، فإنه يدرك الظواهر المحسوسة بالأدوات الإدراكية الحسية، ثم يفسر العلاقات السببية -بين نوع الظاهرة وأسبابها بعمله العقلى، ثم يتساءل عن القوة الكامنة فى الأسباب التى أنتجت هذه الظاهرة، من الذى أودع هذه الأسباب قوة التأثير فى المسببات، ومن الذى حفظ لها قوة التأثيرحتى أخذت شكل الثبات والاطراد، بحيث كلما تكررت الأسباب تكرر معها وقوع الظاهرة وتفسير العلاقة بين السبب والمسبب؟ هذا هو عمل العقل ومنطق العلم.

ولكن البحث عما وراء السبب الظاهرى وعمن أودعه قوة التأثير فى المسببات هو غذاء الروح لتتصل من خلاله إلى إثبات مسبب الأسباب، الذى غاب عنه أصحاب الفكر المادى، والذين توقفوا عند مجرد ملاحظة الظاهرة وارتباطها بأسبابها دون أن يتساءلوا: عما وراء ذلك إن هذا النمط من المفكرين هم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ

هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ومن هنا نرى أن تفسير الظواهر يمر بمستويات فكرية ذهنية متزامنة فى الشخص الواحد، وليست مراحل متعاقبة، ولا متنافية، ولا متناقضة، وبالتالى فإن ملاحظاتها على مستوى الشخص الواحد، ثم على مستوى الأمم والشعوب يجعل تفسير «دوركايم» لهذه المراحل تفسيرًا خاطئًا، فهى ليست مراحل تاريخية تنتهى إحداها لتحتل مكانها المرحلة الأخرى، ولكنها مستويات متكاملة ومتزامنة فى حياة الأفراد والشعوب على السواء.

ولو جاز تفسير هذه المستويات على أنها مراحل متعاقبة لكان أولى بها أن يكون ترتيبها على نحو معاكس تمامًا لما قال به علماء الاجتماع، ذلك أن ارتباط الإنسان بالواقع الحسى وما تمليه عليه الوقائع التجريبية فى حياته اليومية أسبق إلى ذهنه وعقله من مرحلة التساؤل حولها وحول أسبابها، فضلاً عن تفسيرها تفسيرًا دينيًا، وهذا واقع مشاهد فى حياة كل منا تلاحظه صباحًا ومساءً، حتى لدى الأطفال والحيوان نجد كثرة المشاهدات المحسوسة لدى الطفل تكون عنده مخزونًا معرفيًا وتجعله يتوقع حدوث الظاهرة عند مشاهدته لما يسبقها من أسباب دون أن يجسد فى نفسه حاجة إلى تفسيرها أو التساؤل عن العلاقة بينها وبين أسبابها، وهذه مرحلة الطفولة وارتباطها بحياتها اليومية، أما مرحلة التعليل والتفسير، فإنها مرحلة تالية؛ لأن النفس الإنسانية فى هذا الشأن تكون فى موقف القابل للفعل المتأثر بما يشاهده، وليس فى موقف الفاعل أو المتسائل، فيكون التفسير التعليلى للظاهرة مرتبطًا بعملية التجريد العقلى والتعميم فى التصورات الذهنية ومنطق العلم التجريبى، عادة ما يربط الظاهرة المحسوسة بأسبابها الحسية.

ثم فى مرحلة تالية يتجاوز العقل هذا المستوى الحسى إلى البحث عن العلل البعيدة ليتساءل عما وراء السبب المحسوس من قوى يتساءل عمن جعل السبب مؤثرًا فى مسببه؛ لأن الأثر فى حقيقته وجود وفعل، يحتاج فى أداء وظيفته وعمله إلى وجود أكمل منه وفاعل أكبر منه، وهذا هو التفسير الدينى للظواهر، فهو وإن كان تفسيرًا أوليًا فى الترتيب، ولكنه تفسير يأتى فى المرحلة الثانية، أو المستوى الثالث، هذا لو قلنا جدلاً بتفسير المستويات التاريخية الثلاثة، حسب رأى علماء الاجتماع، فالتفسير الطبيعى للمعارف الإنسانية إنها تبدأ بالمحسوسات وارتباط

الظواهر الحسية بعضها ببعض، ثم يكون البحث عن العلل البعيدة للظواهر بعد تفسيرها تفسيرًا حسيًا، وبعد اكتشاف العلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها، وهذه هى مراحل العمل العقلى ومستويات التفسير العلمى، ثم تأتى النظرة التحليلية التى تعود بالنفس الإنسانية إلى البحث عن العلل البعيدة من خلال طرح الأسئلة الكثيرة. وذلك حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكون المحسوس وظواهره إلى البحث عما وراءه من علل وأسباب تحكم مسيرته وتنظم حركته فى شكل غائى لا فوضى فيه، فى شكل ونسق يحقق معنى العناية الإلهية بالكون والعناية بأجزائه، ويحقق غاية الخالق من وجوده وإرادته فيه وبدون هذا التفسير لا يكون إلا التفسير العبثى الفوضوى، وهذا ما يؤدى إليه التفسير التاريخى للدين، كما يسمونه فى علم الاجتماع[(١)].

ونحن لا نجد صعوبة فى ربط هذا التفسير الثلاثى للتاريخ بقصة الصراع بين العلم والكنيسة التى سبقت الإشارة إليها؛ لأن هذا التفسير يرجع تاريخه إلى «أوجست كونت»، وهو أحد الذين عاشوا هذه المأساة، وأحد الذين رفضوا تفسيرات الكنيسة الخرافية للظواهر العلمية، فهو تفسير محلى مرتبط بظروفه الثقافية والحضارية، ومن الخطأ تعميمه على الحضارات الإنسانية الأخرى- خاصة الحضارة الإسلامية التى من أهم خصائصها رفض الخرافة ومحاربة الجهل، والتى تجعل من منطق العلم فريضة وشريعة. فلم يكن يومًا ما منطق العقل فيها متناقضًا مع منطق الوحى، ولا منطق التدين رافضًا لمنطق العلم، فما يجوز تصوره فى بيئته لا يعنى بالضرورة إمكان وقوعه فى بيئة أخرى، ومن هنا نرفض تعميم هذا التصور لخصوصيته بالبيئة الأوروبية التى أفرزته، والحضارة الغربية التى أظلته، ولشدة تناقضه مع التصور الواقعى، كما عليه واقع الإنسانى العرفى... فإن تاريخ الإنسان ليس حلقات متناقضة، كما صوره هؤلاء، وإنما هو حلقات متكاملة، كما يوضحه الفكر الإسلامى، فمن المعلوم أن الإنسان خلق خلوًا من العلم والتصور، ثم زوده الله بأدوات تحصيل هذا العلم الذى يبدأ بالمحسوسات، ثم ينتهى بالمجردات، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) انظر: الدين د محمد عبد الله دراز ص ٧٨ وبعدها وراجع أيضًا بحث العلمانية د: زرزور.

وتجد أن هذه الأدوات تذكر فى القرآن الكريم بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالأدوات الحسية من السمع والبصر، ثم ينتهى بالفؤاد فى صيغة الإفراد أحيانًا، وفى صيغ الجمع أحيانًا أخرى، وهذه الأدوات هى التى تعمل وتباشر نشاطها فى حياة الإنسان بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالمحسوسات، وينتهى بالمعقولات والمجردات، وهى كلها تعم عملها فى خطوط متكاملة ومتعاونة، وليس فى خطوط متتالية متعارضة، كما يذهب الوضعيون.

ومهما يكن من أمر، فإن التفسير التاريخى للدين إذا جاز الأخذ به فى حضارة الغرب، فذلك مرتبط بالظروف التاريخية التى ولد فيها هذا التفسير، فلا يجوز نقله أو الأخذ به فى الدراسات الاجتماعية عندنا، ولكن للأسف الشديد فإن هذا التفسير قد انتقل إلينا بهمومه وعيوبه ونقائصه ضمن ما نقل إلينا من الغرب دون أن يحاول أحد من المتخصصين التعرض له بنقد أو تمحيص، وأصبح فى عرفهم من المسلمات التى لا تقبل النقاش، وأخذوا يتعبدون به فى مؤلفاتهم ويلقنونه الطلاب فى دور العلم ومعاهده.

يتبين لنا مما سبق أن مصطلح التنوير نشأ فى هذا الجو الثقافى، الذى أفرزته طبيعة الصراع بين الكنيسة والعلم، فجاء محمَّلاً بالمعانى الآتية:

أ- الرفض المطلق للكنيسة، وأن آراء رجالها تجسيد للجهل والخرافة ومناقضة للعلم، وقد حل لفظ الدين محل الكنيسة، وانتقل المعنى الذى يتعلق بالكنيسة من رفضها العلم ومحاربتها للعلماء لينسحب على الدين بالمعنى العام، وهذا أخطر ما فى هذه المشكلة.

ب- ترتب على ذلك أن رفع العلماء فى أوروبا لواء الحرب ضد كل ما هو كنسى (دينى) ليفسحوا بذلك الطريق أمام العلم والعقلانية ليحل التنوير محل الظلام، والعقل محل الخرافة.

ج- ترتب على ذلك أن ظهرت نزعة الإلحاد التى سادت العصر بأكمله، وكان من أهم آثارها التوجه العام نحو إشباع الغرائز الدنيا فى الإنسان على حساب كل ما هو دينى، وبات معنى القيم والأخلاق كلمات باهتة لا معنى لها ولا مضمون، وارتبط ذلك أيضًا بمعنى التنوير، حيث أصبح كل من يتمسك بالمفاهيم الدينية

والقيم الأخلاقية رمزًا للرجعية والتخلف، وصار المنحل أخلاقيًا ودينيًا هو رجل العصر الحديث «المودرنيزم».

ومما يؤسف له أن كل هذه الملابسات التى ارتبطت بمصطلح التنوير انتقلت معه إلى الشرق العربى، وأصبحت من لوازم التنوير، فلم يعد التنوير مقصورًا على رفض الجهل ومحاربة الخرافة، وإنما امتد معناه ليشمل تغير العادات والسلوك والقيم والمفاهيم الثابتة فى بلادنا، والمرتكزة على الأبعاد الدينية والخلقية. وتطور ذلك عند البعض إلى رفض الإيمان بالغيب، فجعلوه من الخرافات التى نادوا بضرورة التخلص منها.

حقيقة التنوير:

بعد هذه المقدمات التى نرى أهميتها فى توضيح معنى التنوير، الذى نعيش حركته الآن نود أن نطرح سؤالاً مهمًا حول حقيقة التنوير الذى تسعى إليه الشعوب، وما هى أسسه وركائزه؟ إن كلمة التنوير فى لغتنا فى العربية مأخوذة من الفعل «نوَّر» الرباعى ومصدره «تنويرًا» بمعنى أنار الطريق لغيره. وقد يكون ذلك التنوير حسيًا، وقد يكون معنويًا، فإنارة الطريق الحسى له وسائله المعروفة، كالمصباح والكهرباء مثلاً، وليس هذا المعنى المقصود عند استعمال هذا المصطلح بين المثقفين، وإنما المقصود هو الجانب المعنوى بمعنى تنوير العقول، والقضاء على ما فيها من ظلام، وكذلك تنوير الحياة الثقافية للمجتمع والقضاء على ما فيها من جهل، وكذلك تنوير الحياة السياسية، والقضاء على ما يشوبها من ظلم ودكتاتورية.

كذلك فإن ركائز هذا التنوير تتمثل فى أمور محددة تتناول حياتنا فى شئونها المختلفة، السياسية والاجتماعية والثقافية.

أ- **فى المستوى الثقافى**: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العلم -العقلانية.

ب- **وفى المستوى الاجتماعى**: يرتكز التنوير على أسس أهمها: الحرية - المساواة.

جـ- **وفى المستوى السياسى**: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العدل - الديمقراطية (الشورى).

هذه الركائز الأساسية هى عمدة الإصلاح فى كل نهضة. فلقد نهضت بها أوربا حديثًا، ونهض بها العالم الإسلامى يوم أن كان الإسلام عاملاً محركًا فى سياسته، وحاكمًا لشئون الحياة فيه، وضابطًا لها بأوامره ونواهيه علميًا وثقافيًا، واجتماعيًا.

وهذه الركائز فى التصور الإسلامى لإقامة الدولة تمثل أوامر إلهية نزل بها الوحى، وفرضتها شريعة الإسلام، وتعبد الله بها المسلمين، والتفريط فى هذه الركائز أو فى واحدة منها يعتبر جريمة فى حق المجتمع، ومسئولية يحاسب عليها المسلم أمام الله يوم القيامة؛ لأنها تنبع من صميم الاعتقاد ويجعل صاحبه -أيا كان موقعه- محلاً للمساءلة أمام الله وأمام المسلمين.

والأحاديث النبوية والآيات القرآنية أكدت فى أكثر نصوصها على ضرورة هذه الركائز كأسس لبناء الدولة الإسلامية.

ركيزتا العلم والعقل:

ولكل ركيزة من ركائز النهضة التى سبق أن أشرنا إليها ما يتعلق بها من النصوص والآثار التى تدعو إليها فضلا عن أنها كلها قد مارسها المسلمون عمليًا، وأصبحت واقعًا عاشه المسلمون فى حياتهم فى سلسلة متعاقبة من التاريخ.

والأخذ بهذه الركائز واعتبارها حلقات مهمة فى منظومة التطور النهضوى، الذى تحرص عليه الشعوب هو المعيار الصحيح لحركة التنوير التى تنشدها الأمة. ولا شك عندنا أن أوروبا قد نهضت بمبدأ العلم والاحتكام إلى العقل فى مواجهة الجهل والخرافة عند الكنيسة، كما أن نهضتنا المعاصرة ترتبط أيضًا بالأخذ بهذين العاملين، وليس ذلك لأن أوربا نهضت بهما، لكن لأنهما معًا -العلم والعقل- أساس النهضة فى كل أمة. ولا توجد أمة حاربت العلم أو رفضت منطق العقل، وحاولت أن تمنى نفسها بالنهضة. إن ذلك شأنه كمن يمنى نفسه بالحصاد دون أن يبذر الحب أو ينتظر النتائج قبل أن يحصل المقدمات. تلك قضية بديهية لا يحتاج إقرارها إلى مزيد بيان أو تفصيل.

فكما نهض المسلمون بهما سلفًا ينبغى أن يأخذوا بهما حاضرًا ومستقبلاً. لكن نود أن ننبه هنا إلى نقطتين أساسيتين تمثلان محور الخلاف بين المشروع الإسلامى والمشروع التغريبى فى مفهوم العلم وفى توظيفه.

تتصل النقطة الأولى بفلسفة العلم، فإنها تقوم فى المشروع العلمانى على قطع الصلة بين عالم الشهادة، الذى هو مسرح العلم ومجال تطبيق نظرياته ومبادئه، وعالم الغيب، الذى يتخذ من عالم الشهادة مقدمة ضرورية وآية للإيمان به، والوصول إليه من خلاله، فإن فلسفة العلم فى أوروبا تبدأ طريقها من المادة، وتنتهى إلى المادة، ولا تؤمن بشىء آخر وراءها يقود إليه عالم الشهادة أو يدل عليه، ومن هنا اقتصرت بحوثهم على الأسباب الظاهرة الكامنة فى الطبيعة واعتصموا بها، وجعلوها فاعلة بذاتها مستقلة فى الفعل والتأثير، مبتوتة الصلة عن خالقها، وجعلوا الحديث عن خالق آخر وراء الأسباب الظاهرة فى الطبيعة حديث خرافة، وخارج منطق العلم والعقل معًا، وقالوا: لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بأن نتجاوز هذه الأسباب المادية بالبحث أو الحديث عما وراءها؛ لأن فى ذلك تجاوزًا لمنطق العقل والعلم إلى منطق الجهل والخرافة، ومن ثم فإن الحديث عن الله ربًا خالقًا للعالم، وخالقًا للأسباب ومسبباتها خارج تمامًا عن دائرة المشروع العلمانى التغريبى للنهضة؛ لأنهم كما سبق يبدأون من المادة وينتهون إلى المادة، ولا شىء وراءها يجوز أن نتساءل حوله أو نبحث عنه، هكذا قالوا وصرحوا فى بحوثهم وكتاباتهم[1]. وعلى هذا النحو أخذوا يدعون الناس إلى الإيمان بالعلم المستقل فى تأثيره عن الخالق للسبب والخالق لأثره فى المسببات، فجاء عالم الشهادة عندهم منفصلا عن عالم الغيب ولا علاقة بينهما.

وإذا كانت هناك علاقة يؤمنون بها فهى علاقة التناقض التى تجعل الإيمان بأحدهما ينفى الإيمان بالآخر، والدعوة إلى الإيمان بأحدهما تحمل فى طياتها الدعوة إلى نفى الإيمان بالآخر، فأما الإيمان بالمادة فقط، وإما الإيمان بما وراءها، ولعل هذا يفسر لنا كثرة استعمال بعض المصطلحات التى تحمل معنى السخرية والاستهزاء بالمؤمنين بالغيب، حيث يطلقون عليهم مصطلح «الغيبيون» أى المؤمنون بالغيب والغيب عندهم لا وجود له ولا دليل عليه، بل الإيمان به دليل الجهل والخرافة.

(١) راجع كتاب ما هى النهضة لسلامة موسى فى مواضع متفرقة منه، وراجع يوميات أحمد عبد المعطى حجازى فى الأهرام، والسيد ياسين وغيرهم.

والأمر فى ذلك يختلف تمامًا عن مفهوم فلسفة العلم فى المشروع الإسلامى. ففى الإسلام نجد أن العلم مطلب شرعى، وفريضة دينية يكثر الحديث عنه فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، وكلما ازداد المرء علمًا بالصنعة وبالعالم زاد إيمانه بالخالق، وكلما ازداد عقل المرء تشبعًا بأسرار الطبيعة ودقة قوانينها ازداد خشية للخالق، ولهذا جاءت الآية الكريمة حاصرة لهذا المعنى الدقيق فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والمفروض عقلاً أن العالم المدقق كلما ازداد تحصيلاً لقوانين العلم واكتشافًا لأسباب الظواهر يزداد تساؤله عن خالقها ودقة صنعتها وحكمة الخالق منها وفيها، ليقوده هذا النظر العلمى والتساؤل العقلى إلى الإيمان بالخالق الحكيم، الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل شىء صنعه، فيقوده عمل العقل فى عالم الشهادة بحثًا وتنقيبًا وكشفًا عن الأسباب واكتشافًا للعلاقات بين الأسباب ومسبباتها إلى الإيمان بالخالق الحكيم، فلا يعمل العقل فى هذا العالم الغيبى المحسوس المشاهد منفصلاً عن العالم، فهو ليس منعزلا فى وظيفته الكونية عن عالم الغيب؛ لأنه آيته وبرهانه ومقدمة ضرورية تقود إليه، ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التى تأمر العقل البشرى أمر وجوب بضرورة التأمل والتدبر فى هذا العالم من سمائه إلى أرضه اكتشافًا للسنن والقوانين وكشفًا عن العلل والمعلولات الكامنة بين الأسباب والمسببات، وغالبًا تختم هذه الآيات بجعل هذا الكون آية وبرهانا على الخالق الحكيم.

نعم إن المسلمين فى القرون الأخيرة خذلوا إسلامهم يوم أن عطلوا العقل عن وظيفته الكونية التى دعاه القرآن إلى مباشرتها والنهوض بها؛ لأنه لم ينزل كتاب سماوى ليأمر العقل بتبنى منهج فى البحث الكونى يقوم على الاعتبار العقلى، وملاحظة الظواهر الكونية مثل القرآن، فليس فى الإسلام أطفئ سراج عقلك، ثم اتبعنى، والآيات القرآنية فى هذا المعنى كثيرة ومتنوعة، فمنها ما يتعلق بعالم الأفلاك، ومنها ما يتعلق بالأرض وما عليها، ومنها ما يتعلق بالإنسان وما يحيط من كائنات أخرى تتصل حياتها بحياته. ومن اللافت للنظر حقًا أن كل الآيات المتعلقة بهذه الأنواع تدعوا العقل إلى الملاحظة وارتباط الظواهر بعضها ببعض كما هو الشأن فى المنهج التجريبى قال تعالى فى الحديث عن بدء الخلق.

قال تعالى: ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين (١٢) ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين (١٣) ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت (١٧) وإلى السماء كيف رفعت (١٨) وإلى الجبال كيف نصبت (١٩) وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (٦) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) ونزلنا من السماء ماء مباركًا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج ﴾ [ق: ٦-١١].

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين (٢٠) وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

بالإضافة إلى قسم القرآن بالظواهر الكونية الأخرى، والشمس وضحاها والعصر والفجر.. إلخ.

بل إن القرآن الكريم يعلم العقل كيف يبحث عن الحقيقة فى قضية الخلق والخالق - وهى من أعقد المسائل العقلية - فيطرح مجموعة من الفروض والاحتمالات ليناقش العقل القضية من خلالها. فيقول تعالى:

﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾

﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ [الطور: ٣٦].

هذه الأسئلة يتضمن كل سؤال منها فرضًا عقليًا عن قضية الخلق تعليمًا وتدريبًا وترويضًا للعقل البشرى ليصل بذلك إلى الحق اليقين.

قال تعالى: ﴿ ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون (٩٥) فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم (٩٦) وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (٩٧) وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (٩٨) وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

ولاحظ أيها القارئ الكريم خواتيم هذه الآيات القرآنية على الترتيب السابق، فى ذلك لآيات لقوم يعلمون، لقوم يفقهون، لقوم يؤمنون، إن هذه الآيات -وغيرها كثير- تستفز العقل وتستثيره ليلاحظ هذه الظواهر.

كيف يرتبط بعضها ببعض وجودًا وعدمًا ليكتشف العلاقات السببية بينها. وهذه أولى خطوات البحث العلمى، ملاحظة الظاهرة واعتبارها مع ما يرتبط بها من ظواهر أخرى وكلها ظواهر محسوسة ومشاهدة.

لم تقرأ فى تاريخ الفلسفة الإنسانية، ولا فى تاريخ الأديان كتابًا حفز العقول حفزًا على العلم والتعلم والملاحظة والاعتبار، كما فعل القرآن الكريم، ولكن

للأسف الشديد لم يتنبه المسلمون إلى هذه الأوامر الإلهية التى هى المفتاح الوحيد لتحقيق وظيفة الإنسان فى تعمير الكون، كما نبه إليه الشرع بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

إن وظيفة الكون كآية دالة على خالقه، ووظيفة الكون كمخلوق مسخر للإنسان لا ينهض بهما الإنسان إلا بمفتاح العلم. ومن هنا كانت آيات النظر والتفكير والتدبر كلها تتصل بالكون وما فيه من آيات، وملاحظة ظواهره وارتباط بعضها ببعض وجودًا وعدمًا، وهذا يتصل بما نسميه خطوات البحث فى العلوم، ملاحظة الظاهرة -واعتبارها بما قبلها وما بعدها وجودًا وعدمًا.

ولا ينبغى أن يفهم أحد من هذا أننى أقول إن القرآن كتاب فى منهج البحث العلمى، أو أنه وضع خطوات البحث العلمى أو... أو... لا ليس هذا من مقصدنا. وإنما الذى أقصده أن نوضح لأولئك الذين يقولون إن الإسلام يحارب العلم نقول لهم هذا هو كتاب الإسلام ودستوره، وهذا هو موقفه من العلم والعلماء، فأرونى كتابًا سماويًا قبله حفز العقل إلى العلم حفزًا بمثل ما حفزه القرآن، أو كتابًا سماويًا غيره ربط بين العلم والعقيدة كأساس لخشية الله، كما ربط القرآن. فلماذا إذن يتقولون على الإسلام وهم لا يعلمون شيئًا عنه، إلا ما يرونه من واقع المسلمين، ولا شك أنه واقع متردد يدعو إلى الأسف، وكان الأولى بهم -وهم مسلمون- أن يحثوا المسلمين على النهوض من هذه الكبوة بالاعتصام بمنطق العلم كمطلب شرعى وأمر إلهى، بدلاً من أن يدعوهم إلى رفض الدين وتنحيته عن واقع الحياة.

إن من الإنصاف أن يفرقوا بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ لأن الحكم على الإسلام من واقع المسلمين فيه ظلم للإسلام من جانب، وفيه مجافاة للمنهج العلمى من جانب آخر.

إن وظيفة عالم الشهادة فى التصور الإسلامى أنه يقود العالم به والمتأمل فى دقة صنعه، وما أودعه الله من أسرار ومكنونات يتم الكشف عنها آن بعد آن. وما فيه من دلائل وبراهين تدل على العناية الإلهية، كما يقول ابن رشد: يقود الناظر

المتأمل إلى الإيمان بخالق هذا الكون، ولكن فلسفة العلم الغربى التى يدعوننا إلى الأخذ بها اعترفت بالمادة وأنكرت ما وراءها، نظرت إلى السبب ولم تنظر إلى مسبب السبب فوقفت بأصحابها عند منتصف الطريق، وضاع منها النصف الآخر، وبالتالى ضاع منها التفسير العلمى الصحيح للموقف الكونى بكامله، حيث اقتصروا على المقدمات، وأهملوا البحث عن النتيجة، فلم يصلوا بذلك إلى شىء.

إن الأسباب فى التصور الإسلامى فاعلة ومؤثرة، هذه حقيقة نزل بها القرآن وحث عليها الشرع، ويجب الإيمان بها، والأخذ بمفهومها قال تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ﴾ [النحل: ١١] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] وباء السببية تكرر ذكرها فى القرآن كثيرًا، ولام التعليل ورد ذكرها فى القرآن الكريم كثيرًا، تكرر ذلك فى القرآن الكريم بشأن الأسباب الطبيعية وبشأن الأفعال الإنسانية على سواء، ليجعل ربط الأسباب بمسبباتها قاعدة وقانونًا يستقر فى ذهن المسلم، فلقد ذكر القرآن الكريم أن نزول المطر سبب فى إنبات الزرع، وفى القرآن كذلك ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤] والإيمان بهذه لا يتناقض أبدًا مع الإيمان بتلك.

وفى القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] والإيمان بخالقية الله للجنين لا يتعارض مع الإيمان بمشروعية الزواج والإنجاب كسبب مباشر لذلك، وباء السببية ولام التعليل، كما قلنا تكرر ذكرهما فى القرآن على مستوى الأفعال الكونية، وعلى مستوى الأفعال الإنسانية، وهذه حقيقة مقررة فى الإسلام.

ولكن هذه الأسباب ومسبباتها هى فى النهاية مخلوقات لله. والأثر الكامن فى السبب الفاعل فى المسبب هو كذلك مخلوق لله، إن شاء نزعه الله من السبب فلا يقع المسبب، وإن شاء أودعه السبب وعطله عن الفعل بوجود المانع الأقوى منه، وإن شاء عطل المسبب عن قبول الأثر الفاعل، فلا ينفعل به فلا يقع المسبب أصلاً لتقع المعجزات على يد الرسل والأنبياء تأييدًا لصدقهم، وبرهانًا على صحة دعوتهم؛ لأن القضية كلها كامنة فى قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فما شاء

كان، وما لم يشأ لم يكن، والحديث فى هذا الموضوع بتفصيلاته قد يخرجنا عن الحد المرسوم لنا فى مثل هذه العجالة، ولكن أردنا التنبيه هنا إلى موطن الخلاف فى هذه النقطة بين المشروع العلمانى التغريبى، والمشروع الإسلامى فى فلسفة العلم، فإن المشروع العلمانى قد اختزل الموقف الوجودى كله فى جانبه المادى وجعله مقصورًا على البعد الحسى للوجود. فكان شبيهًا بالموقف الدهرى، الذى تحدث عنه القرآن الكريم فى قوله سبحانه: ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فرد عليهم القرآن بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ففى واقع الأمر ليس معهم من دليل على صحة قولهم، إلا الجهل بالدليل وعدم العلم به، فاتخذوا من عدم العلم بالدليل دليلا على عدم الوجود الذاتى، وتلك خطيئة مرذولة فى منطق العلم، لا يغفرها ذو عقل أو صاحب منهج، إذ من المعلوم أن نفى العلم بوجود الشيء ليس نفيًا لوجود الشيء فى نفسه؛ لأن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وأنت إذا سألت الواحد من هؤلاء عن دليله على ما يؤمن به ويدعو إليه لا تجد معه دليلاً إلا عدم علمه بالدليل. والدليل الذى يجهله نزل به القرآن وناقشه عقليًا. وطلب منه الإيمان به عن علم ويقين لا عن جهل وتقليد، ولكن ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

أما النقطة الثانية: التى هى محور الخلاف بين المشروعيين، فتتعلق بتوظيف العلم، فمن الأمور التى نبه إليها الإسلام أن هذا العالم وما يكتنفه من قوانين وعلاقات سببية بين أجزائه ينبغى أن يسخر لصالح الإنسان وتحقيق سعادته؛ لأن الكون كله مسخر للإنسان. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] فالجماد يعمل فى خدمة النبات، والنبات يعمل فى خدمة الحيوان والإنسان، والحيوان يعمل فى خدمة الإنسان، فأنت لو تأملت وظائف الكائنات كلها فسوف تجدها تعمل فى شكل دائرى لتصب خدماتها جميعها لصالح الإنسان، وبالتالى فإن العلم والاكتشافات العلمية ينبغى أن تعمل فى هذه الدائرة فى خدمة نوع الإنسان كله. وليس لخدمة لون من البشر على حساب لون آخر، ولا تعمل

لخدمة جنس على حساب جنس آخر. إذا اختل هذا الميزان الشرعى فى توظيف العلم ومكتشفاته فإن ضرر العلم على النوع الإنسانى يكون أكثر من نفعه، ذلك أن المشتغلين بالعلم فى كل أمة هم الأقل عددًا بالنسبة لغيرهم، وبالتالى فلو سخر هؤلاء العلم لصالحهم هم دون غيرهم لأدى ذلك إلى نكوص العلم عن أداء وظيفته فى خدمة النوع الإنسانى، بل قد يؤدى إلى دماره وخرابه، وكما هو الشأن الآن فى أرجاء العالم، فبدلا من أن يوظف العلم لصالح النوع الإنسانى كله، وظفه أصحابه لخراب البلاد وقتل العباد فى الحروب وفى التسلح وتصنيع الأسلحة المدمرة لصالح فئة معينة على حساب بقية العالم، ولا يخفى على أحد كمية الأسلحة الذرية والبيولوجية التى تهدد العالم الآن، والتى يستذل بها دول الغرب العالم الثالث، وتحت وطأة الخوف منها ينهب الغرب ثروات العالم الثالث وخيراته.

إن التقدم العلمى الذى أحرزته أوربا وأمريكا أمر تفخر به البشرية، ولا شك فى ذلك. لكن كيف توظف هذه الدول بحوث العلم ونتائجه؟ كيف تستذل به الشعوب أو كيف تتحكم به فى مصائر الشعوب؟ كيف تحكم به على بعض الشعوب بالخراب والدمار والتشريد؟ كيف تسخره لصالح الكيان الصهيونى لتشرد به شعبًا بأكمله وعلى حساب العرب؟

إن توظيف العلم لصالح الإنسان مهمة إنسانية وشرعية تكتمل بها وظيفة الإنسان الكونية فى إعمار هذا العالم، وهو فى نفس الوقت مسئولية شرعية وأمانة دينية استخلف الله الإنسان عليها، حيث يسأل عنها يوم القيامة، كما تحدث الرسول ﷺ وعن ذلك فقال: «لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع... فذكر منها «وعن علمه ماذا عمل به»»، والحديث ذكر العلم بالمعنى العام. فلا وجه لتخصيصه هنا بالعلم الشرعى فقط. فالمفترض فى العلم أنه يعمر ولا يخرب، يبنى ولا يهدم، يسعد الإنسان ولا يشقيه، تلك وظيفة العلم النافع وهذه رسالته، لو أن المليارات التى تنفق يوميا على صناعة التسليح للدمار والخراب وظفت لرفاهية النوع الإنسانى وإسعاده لما كان هذا التفاوت اللامعقول بين شعوب الأرض. وما وجدنا شعوبا تفترش الثرى وتلتحف العراء، وأخرى تفترش الحرير وتلتحف الديباج. إن سوء توظيف العلم على يد الغرب هو المسئول عن هذا التفاوت المذهل بين الشعوب، ولا حل لهذه المشكلة إلا أن يوظف العلم بروح

إسلامية، ويعمل لإسعاد النوع الإنسانى كله، وليس لصالح نوع واحد، أو جنس واحد على حساب الآخرين.

هاتان النقطتان (فلسفة العلم وتوظيف العلم) تمثلان خلافًا جوهريًا بين العلم فى التصور الإسلامى والمشروع العلمانى التغريبى.

العقل:

أما العامل الثانى من عوامل النهضة الثقافية، فهو العقل والتفكير العقلانى فى مواجهة الخرافة والتفكير الخرافى، وفى الإسلام نجد أن العقل هو مناط الأهلية للخطاب الإلهى تشريفًا وتكليفًا، وهو حجة الله على عباده بالتكليف أمرًا ونهيًا، وفاقد العقل ليس مؤهلاً للخطاب الإلهى أصلاً لا أمرًا ولا نهيًا، وهو يعيش خارج دائرة التكاليف الشرعية، وبالتالى خارج دائرة المساءلة، ولم نجد فى كتاب سماوى سابق على الإسلام خطابًا للعقل تكريمًا وتشريفًا واحترامًا، كما جاء فى القرآن الكريم، ولا أريد أن أكرر هنا كلامًا يقال كثيرًا حول تعظيم العقل والإعلاء من شأنه كميزة خص الله بها الإنسان دون بقية الكائنات الأخرى ليصبح بذلك أهلاً للخطاب الإلهى، فإن العقل وسيلة لفهم القرآن وأداته، وهو المؤهل الوحيد للخطاب الإلهى للإنسان ولو تخلف العقل لسقط معنى الخطاب الإلهى، وفات مقصوده، وفى نصوص الخطاب الإلهى تحذيرات كثيرة من متابعة الهوى، أو الخرافة أو حتى الظنون، باعتبار أن ذلك كله فى خصومة مع العقل وفى محاربة له يجب التخلص منها كمدخل طبيعى للاعتصام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وإذا كانت وظيفة العلم القضاء على الجهل، فإن وظيفة العقل القضاء على الخرافة، والعقل والعلم معًا هما جناحا النهضة الثقافية للشعوب، ولا قيام لأحدهما فى غياب الآخر، وهما عندنا وجهان لعملة واحدة عنوانها: «النهضة الإسلامية» «بالعلم والعقل»، ولا غنى للنهضة عن واحد منها. وهذا ما أكده الإسلام ودعا إليه.

ولعل من المهم فى هذا السياق أن تفهم الحكمة فى أن خطاب إلهي للإنسان نزل به الوحى ليرشد الإنسان إلى أساس نهضته فى كل عصر كان قوله تعالى:

﴿اقْرَأْ﴾ وإن هذه القراءة قراءة كونية يكون لحمتها وسداها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ فلا ينبغى أن نفصل القراءة عن اسم ربك، ولا عن آياته الكونية، لتقود هذه القراءة العقل وصاحبه إلى العلم بالكون وأسراره فى صحبة تلازمية بين قراءة الكون وآياته وخالقه سبحانه لتربط المقدمات بنتائجها، برباط العقل الصريح، الذى لا يخطئ النتيجة إذا أحسن الأخذ بالمقدمات بمنهج علمى رشيد.

وهذا دليل صريح على محاربة الجهل بشتى صوره، سواء كان هذا الجهل متصلاً بأصول الاعتقاد وتنظيم علاقة العبد بخالقه، أم متصلاً بالعادات والأعراف الاجتماعية، أم متصلاً بالتفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، ومن اللافت للنظر، ومما ينبغى ألا نهمله فى هذه السياق أن الإسلام يربط الموقف العام من هذه القضية بسلامة العقيدة أو فسادها، فلقد حذر من اللجوء إلى العرافين والكهنة والسحرة، ليستقى منهم المرء ما يظنه علمًا أو معرفة تتصل بحياته أو مستقبله، أو تتصل ببعض الظواهر الأسرية، واعتبر ذلك خروجًا على الاعتقاد الصحيح، كما هو خروج على العقل السليم قال ﷺ: «من ذهب إلى عراف أو كاهن، فقد كفر بما أنزل على محمد».

وكم حذر الإسلام من اتباع الظنون والأهواء فى بناء اليقين وإصدار الأحكام سلبًا، أو إيجابًا، واعتبر كل ذلك منشأ للضلال وخروجًا على منطق العقل والعلم بقدر ما هو خروج على صحة الاعتقاد.

ركيزتا الحرية والمساواة:

وعلى المستوى الاجتماعى نجد أن مبدأ الحرية والمساواة يمثلان فى الإسلام أساسيات العلاقات الاجتماعية بين الناس. لأمرين مهمين جداً:

الأمر الأول: أن هذين المبدأين ينبعان أصلاً من اليقين بالله، وأنه رب كل شىء ومليكه وخالق كل شىء ورازقه وإنه المحيى والمميت، وعلى سبيل الإجمال فإنه له الخلق والأمر وحده، والإيمان بهذه الحقيقة يعطى المسلم مفتاح التعامل مع الناس من واقع إيمانه بهذين المبدأين، فالإيمان بواحدنية الخالق الرازق يجعل عبودية المرء له وحده، وبقدر إخلاص هذه العبدوية لله يتحرر المرء من عبوديته لغيره، وهذا

يجعل الإيمان بالحرية على أنها فريضة دينية يحاسب المسلم على التفريط فيها. فهى ليست منةً من أحد ولا هبة من حاكم لشعب، وإنما هى فرض دينى يجب صونه والدفاع عنه... والإيمان بقضية الحرية لا يقتصر على معنى الحرية السياسية فقط، وإنما تشمل الحرية العقائدية والدينية والاجتماعية، ولهذا فإن الفتوحات الإسلامية كان من أهدافها الكبرى تأسيس هذا المعنى للحرية فى نفوس الناس، وحمايته من سطوة حاكم طاغية أو تسلط ظالم مستبد، ولقد جسد هذا الهدف الدينى للحرية القائد المسلم العظيم «ربعى» حين أعلن صراحة «إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد»، إنه بذلك يجسد معنى الحرية لتكون واقعًا يعيشها الإنسان، وينعم بها فى مواجهة تسلط ظالم أو طغيان حاكم. إنها مبدأ لا يحد من إطلاقه إلا عدم الإضرار بحرية الآخرين أو النيل منها، أو النيل من عقائد الآخرين أو أديانهم، فكما يحرص الإسلام على حرية أبنائه يحرص بنفس القدر على حرية الآخرين واحترام عقائدهم... فإذا دعاهم إلى الإسلام فيكون منهجه فى الدعوة منهجًا قرآنيًا أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن استجابوا فيها ونعمت، وإلا فلا سلطان له عليهم، ومن واجبه نحوهم احترام عقائدهم وصون كنائسهم ومعابدهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والحرية من جانب آخر هى التى تمنح المرء إحساسه بالمساواة مع الآخرين فكلكم لآدم، وآدم من تراب، والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حين يؤكدان قضية الحرية، فإنما يؤكدان فى نفس الوقت قضية المساواة والعكس صحيح، ففى القرآن الكريم نجد هذا المبدأ مجسدًا فى صيغة قاطعة لا تحتمل التأويل قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وفى السنة النبوية **«كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»**، والرسول ﷺ يقول لابنته فاطمة: «يا فاطمة بنت محمد اعملى، فإنى لا أغنى عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد. لا يأت الناس بأعمالهم يوم القيامة وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم».

وعمر بن الخطاب يستدعي ابن الأمير عمرو بن العاص ليقتص منه لغير المسلم. والقضية مشهورة. ويقول له: كلمته التاريخية «متى استعبدتم الناس ولقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

إن ركيزتى الحرية والمساواة يمثلان النسيج الإسلامى، الذى يسرى بخيوطه في نسيج المجتمع الإسلامى ليربط بين أفراده بهذا الرباط العقائدى ليجعل منه وحدة اجتماعية تستمد قوتها من إيمانها واعتقادها بهذا المبدأ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، **«كلكم لآدم وآدم من تراب»**، ولأهمية هذين المبدأين (الحرية والمساواة) فى تأسيس المجتمع والحفاظ على كيانه تجد الرسول ﷺ فى خطبة الوداع يخصهما بالتفصيل ويجعل منهما قاعدة الإصلاح لكل بناء اجتماعى قبل أن يعرف الناس ما يسمى بوثيقة حقوق الإنسان من أربعة عشر قرنًا. إنه ﷺ يقرر فى خطبته الحاجة حقوق الإنسان كنوع وليس حقوق لون معين ولا جنس معين من بنى البشر دون بقية الألوان والأجناس، إنه يقول: «أيها الناس» بهذا العموم الشامل «كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. إن أموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا».

ونصوص الإسلام فى تقديس الحرية والمساواة لا يتسع المقام لسردها، ولكن فقط هى إشارات موجزة لكى يعرف الشباب أن حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة لم نجدها مصونة فى غير الإسلام بهذا السياج العقائدى المتين. وهذا بخلاف ما نسمع عنه من مواثيق حقوق الإنسان التى لا يتمتع بها إلا الإنسان الأوروبى أو الأمريكى فقط، فإذا أصابهما أذى أو مس أحدهما ضر تقوم الدنيا ولا تقعد، أما الإنسان المسلم فى البوسنة والهرسك، أما الإنسان المسلم في فلسطين، أما الإنسان المسلم فى كشمير وفى الشيشان، فإن وثيقة حقوق الإنسان لم توضع لأجله، وليس من نصيبه أن تطبق عليه بنودها، وإنما يباح دمه وعرضه على مسمع من العالم كله، ولا يتحرك لأجله أحد.

ركيزتا العدل والشورى:

لفت القرآن انتباهنا فى أكثر من آية إلى أن العدل ركيزة أساسية لقيام الممالك وبناء الحضارات، وإن غيابه عن نظام المجتمع ومسيرة الحياة فى العلاقات المتبادلة

بين الناس من جانب وبين الحاكم والمحكوم من جانب آخر سبب فى انهيار الحضارات وهلاك الأمم.

وحين يقص القرآن الكريم قصص الأمم الماضية وأحوالها لم يكن القصد من ذلك مضيعة الوقت أو التسلية، وإنما كان القصد والغاية خلق الوعى التاريخى فى عقول الناس، الوعى بالتاريخ وأحداثه، التعرف على أسباب انهيار الأمم، وأسباب اندثار الحضارات، حيث يحل الظلم محل العدل ويسود الاستبداد بدلاً من الشورى، وتقهر الشعوب بسيف السلطان الباطش، إن هذه القصص القرآنية تهدف -فيما تهدف- إلى أن صناعة الطغيان تتم بيد الشعوب التى تسمح لحكامها أن يستبدوا، وأن الشعوب هى صانعة الطغاة في كل عصر حين يتنازلون عن ممارسة حقوقهم ليتولى الطاغية تصريف شئونهم، نيابة عنهم بالبطش والاستبداد مرة، ويسلب حريتهم بوسائل مختلفة مرات ومرات، ولكن النتيجة المحتومة لا يتحملها الطاغية بمفرده، وإنما تعود النتائج السيئة على الأمة التى صنعت هذا الطاغية، أو ذاك.

إن قراءة التاريخ توضح لنا أن الشرق والشرقيين عمومًا يحتكرون صناعة الطغيان، ويباركون ميلاد الطغاة، حتى كاد أن يشيع بين مؤرخى الحضارات أن الطغيان صناعة شرقية خالصة، ولقد جسد القرآن مجموعة من الضوابط التى ساقها في شكل الصيغ التى هى أشبه بالقواعد الاجتماعية التى يتضمن كل منها سنة كونية من سنن الله فى خلقه، فإذا مارست الأمم أسباب هذه السنة الكونية كان لابد من وقوع هذه السنة وحلولها بالأمة؛ لأنها لا تتخلف أبدًا مادامت قد وقعت أسبابها، وهذه غاية القص القرآنى وأحد أسبابه الكبرى، الوقوف على هذه السنن وأسبابها ونتائجها ودورها فى بناء الممالك وانهيار الحضارات.

قال تعالى:

١- ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [الكهف: ٥٩].

٣- وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

٤- وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣].

٥- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

٦- وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

إن من سنن الله فى قيام الممالك وانهيارها هو سيادة العدل أو غيابه، وارتباط العدل بنظام الملك ارتباط عضوى، كارتباط الأسباب بنتائجها سلبًا وإيجابًا، ولذلك كان من تراث هذه الأمة «أن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة»، وهذا قانون عام أثبت التاريخ صدقه، ونبه إليه مفكرو الإسلام كابن تيمية، وابن خلدون، والفارابى، والكندي، وليس من العدل أن يحتج على عدم صحة القانون بفساد الناس فى تطبيق المبدأ على سلوكهم أو بظلم بعض الحكام فى عهودهم، فإن ذلك لا يخلو منه تاريخ أمة من الأمم، ولا مجتمع من المجتمعات، فكم من القوانين الرائعة ضاعت هيبتها عند التطبيق على يد الأتباع، وكم من مبادئ سامية ضاعت قيمتها بسبب فساد التطبيق وانحراف الأتباع.

إن ارتباط ركيزتى العدل والشورى بالعقيدة سلبًا أو إيجابًا يعطيها قيمة الحياة فى نفوس الناس فى الممارسة العملية فى الحكم بين الرعية؛ لأنها تكون حينئذ التزامًا عقائديًا دينيًا، باعثه ذاتى والدوافع إليه يقين المسلم بالله وليس إلزامًا قانونيًا يمارس من واقع الرقابة الخارجية للسلطان أو للمجتمع، فشتان بين هذا وذاك.

إن القرآن الكريم جاء بالأمر الإلهى صريحًا بالعدل وجعله فريضة ملزمة لكل من يتولى شئون الناس، وربطه ربطًا محكمًا بالعقيدة ليستقر فى ذهنية المجتمع أن شئون الحكم وسياسة المجتمع من خصوصيات الاعتقاد السليم واليقين الصحيح، وذلك منطق فطرى فى نفوس البشر محبة العدل وكراهية الظلم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

ولقد ضرب الرسول ﷺ المثل والقدوة العملية أمام الصحابة فى تطبيق مبدأ العدل، فلقد جاءه أشراف قريش يشفعون عنده فى امرأة سرقت، وهى فاطمة المخزومية، فعلمهم الرسول ﷺ أن صيانة الحقوق لا ينبغى أن تضيع بشفاعة الشفعاء، ولو كانوا من أشراف قريش فقال ﷺ: **«أتشفعون فى حد من حدود الله. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»**.

لقد نبههم الرسول ﷺ إلى مكمن الخطر فى انهيار الممالك وهلاك الأمم.

وهو ضياع الحقوق بين الناس، أكل أموال الناس بالباطل، ضياع قيمة العدل، وتفشى الوساطات كوسيلة لضياع الحقوق، فمن لا يملك يعطى من لا يستحق، وهذا من أسوأ الأمراض وأخطرها فى سقوط الممالك وانهيارها، والأمر لا يحتاج إلى بسط أو تفصيل أكثر؛ لأن بيان قيمة العدل أمر معلوم من الدين بالضرورة، وكذلك الشورى فقد أمر القرآن الكريم الرسول ﷺ بممارستها، فقال للرسول ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وجعل من صفات المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول أن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وكان الرسول ﷺ يقول لصحابته: **«أشيروا على أيها القوم»**.

فهذه الركائز هى أسس النهضة فى كل الأمم، لا أقول تبناها الإسلام، ولكن أقول ولدت فى ظل الحضارة الإسلامية، وبشهادة ميلاد إسلامية؛ لأن أصولها قرآنية خالصة، وليست هناك حضارة -تبنت نصوصها المقدسة هذه المبادئ مجتمعة إلا الحضارة الإسلامية، وليس فى دساتير الأمم نصوص سابقة على الإسلام تبنت هذه المبادئ وجعلتها غاية ومقصدًا لليقين والاعتقاد. إن هذه المبادئ تمثل فى الإسلام عقيدة وشريعة، فهى التزام عقائدى وليست إلزامًا قانونيًا، ولعل فى الإيجاز هنا ما يغنى عن الإطناب والتفصيل؛ لأن ذلك له مجال آخر.

****

الفصل الرابع

بين الأصولية والتطرف

مقدمة تمهيدية

ظهر فى الآونة الأخيرة حركات متطرفة وجماعات شبابية فى العالم الإسلامى تبنت أفكارًا وآراء تدعى بها نسبًا إلى الأصول الأولى للإسلام، واختلفت هذه الجماعات فى الاجتهادات والاستنباطات واتسعت دائرة الخلاف بينها، بحيث صار لكل منها منهج يختلف فى أصوله ومظاهره عن الآخرين، وكان لكل منها موقف متميز من المجتمع ومشكلاته، والحكم ونظامه، والإنسان ومنهج تربيته، وزاد عدد هذه الجماعات وتبع ذلك بالضرورة زيادة الاجتهادات والآراء، وفى وسط هذا الزخم من الآراء اختلط فى ذهن الشباب الصواب بالخطأ والحق والباطل والتبس الأمر على معظم أبناء الجيل خاصة أن بعض هذه الجماعات كان له علاقة ما بالمعتدلين فى الساحة الإسلامية واستغلت هذه العلاقة استغلالا سيئًا مما لزم معه أن تجلى المواقف وتوضح الأمور ليتبين للشباب المعاصر الفرق بين الأصولية والتطرف والغلو الذى حذر منه الإسلام ونفر منه ولذلك فإن الأمر هنا يحتاج إلى مداخل تمهيدية توضح خلالها مفهوم المصطلح ومضمونه ونشأته وكيف استعمل فى عالمنا العربى المعاصر، ومن هنا سوف نتناول بالتحليل المصطلح «أصولية، تطرف» والمنطلقات الفكرية لكل منها حتى نتبين مواقع أقدامنا من الصواب والخطأ.

أولا: الأصولية:

لم يظهر مصطلح الأصولية فى لغتنا العربية كرمز وعلم على جماعة معينة أو فرقة ذات مبادئ وأصول ومواقف متميزة إلا فى العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن؛ لأن هذا المصطلح ليس وليد البيئة العربية الإسلامية ولا هو ابن شرعى لها. وإنما ظهر أولا فى الغرب وفى لغته ثم نقل إلى لغتنا العربية حاملا معه تجربته وهمومه وملابساته، ولقد أرخ الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى لهذا المصطلح وتاريخ ظهوره فى المعاجم اللغوية فى فرنسا وبين أن أول ما ظهر هذا المصطلح كان فى معجم لاروس الصغير ١٩٦٦م وكان معناه عامًا غير محدد ولا دقيق، وكان يرمز به إلى «مواقف عامة لمجموعة من الكاثوليك الذين دأبوا على التمسك بالماضى ورفض كل جديد وعدم القدرة على تكييف عقيدتهم مع ظروف الحياة وتطوراتها

الجديدة فى «فرنسا» وبعد ذلك بثلاث سنوات ظهرت الكلمة فى معجم لاروس الجيب سنة ١٩٦٩م وكان يقصد بها الكاثوليك وحدهم خاصة الذين كانوا يتميزون «بالاستعداد الفكرى لرفض التكيف مع ظروف الحياة الحديثة».

فى سنة ١٩٨٤م ظهر المعجم الكبير فى اثنى عشر جزء (لاروس) وقد أخذ المصطلح يتحدد معناه بشيء من الدقة والضبط والوضوح فهو بمعنى داخل الحركة الدينية: «موقف الجمود والتصلب والمعارضة والرفض لكل جديد ولكل تطور» وكل الأمثلة التى ذكرها «لاروس» فى معجمه توضيحًا لمفهوم مصطلح الأصولية كانت مأخوذة من مواقف الكاثوليك، فى فرنسا والتى جسدت حركة الكفاح فى ظل يبوس العاشر بفرنسا من سنة ١٩٠٣م- ١٩١٤م.

وقد شهد المصطلح تطورًا كبيرًا خاصة بعد مؤتمر الفاتيكان الثانى، ثم انتقل المصطلح من مجال الدراسات الدينية الكاثوليكية إلى مجال السياسة والاجتماع حيث أريد به، «المذهب المحافظ والتصلب فى موضوع المعتقد السياسى».

وكان جاك ديبور يطلقه على «جماعة الكاثوليك الذين يرفضون كل تطور وجديد ويعلنون تمسكهم بالتراث»[١].

أما جيمس بيبر، فيؤكد المعانى السابقة لمصطلح أصولية فى الغرب عمومًا وفرنسا خصوصًا، وأضاف: يطلق المصطلح على (.. فرقة من البروتستانت تؤمن بالعصمة الحرفية لكل كلمة وردت فى الكتاب المقدس، لأن أفرادها يدعون أن الآباء يتلقون مباشرة عن الله، ويرفضون العقل ويردون أحكامه وأحكام العلماء، ويرفضون التفكير العلمى ويرونه احتقارًا للكنيسة التى تختص بكلمة الرب ويميلون إلى العنف واستخدام القوة لبسط آرائهم ومعتقداتهم على الجميع[٢].

وفى هذه الإشارات التى تناولت تاريخ ظهور المصطلح فى الغرب وما يحمله من خصائص وصفات اتصفت بها الكاثولكية أو البروتستانت، نرى مفيدًا أن نضع أمامنا الحقائق التالية عن هذه الأصولية وتتلخص فيما يأتى:

---

(١) انظر: الأصوليات المعاصرة، روجيه جارودى، ط، دار ٢٠٠٠م باريس ص١٢.

(٢) انظر: الأصولية فى العالم العربى، ريتشارد هربر، ترجمة عبد الوارث سعيد. دار الوفاء، ص٢٤

١- أول ما ظهر استعمال للمصطلح أصولية كان فى الغرب. وكان يقصد به فرقة من الكاثوليك أو البروتستانت.

٢- من لوازم الأصولية رفض التطور ومحاربة العلم وعدم التكيف مع ظروف الحياة المعاصرة.

٣- التشبث بالماضى التراثى والمطالبة بالعودة إليه كمرجع أساسى فى مواجهة الحداثة المعاصرة.

٤- عدم التسامح ورفض الآخر.

٥- العنف واستعمال القوة وبسط الرأى والمعتقد الذى يدينون به.

فهى -إذن- جمود فى مواجهة التطور، وجنوح إلى الماضى في مواجهة التكيف مع الواقع ومواجهة العلم والعلماء بآراء الكنيسة وفكر الآباء. وانغلاق على الذات فى مواجهة الانفتاح على الغير.

وفى داخل هذه الدائرة لمعانى الأصولية وخصائصها كانت هناك أصوليات أخرى متعددة تعيش بنفس الخصائص فى الغرب خارج المجتمعات الإسلامية.

ويقول روجيه جارودى: فى الغرب ظهرت أم الأصوليات، وهى الأصولية الصهيونية، وتحت عباءتها ظهرت الأصولية الماركسية والأصولية الرأسمالية ومن باطن هاتين الأصولتين ظهرت فكرة السيطرة على العالم الثالث فى مطلع هذا القرن. وكانت الشرارة الأولى لنشاط هذه الأصوليات هى إسقاط الخلافة العثمانية بتدبير الأب الروحى للأصولية الصهيونية وهو تيودر هرتزل[١].

هذا على الجانب النظرى. أما في مجال الممارسة العملية لهذه الأصوليات فقد ظهرت الممارسات العلمية للفكر الأصولى فى الغرب قبل ظهور هذا التحديد التاريخى، لأن الكلمة لا تدخل المعاجم اللغوية إلا بعد أن تعيش على ألسنة الناس فترة طويلة ويظهر أثرها فى الحياة العامة، ثم تجد لنفسها مكانًا فى المعاجم اللغوية، وربما نجد البداية الأولى للممارسات العلمية للفكر الأصولى فى موقف اليهود من

---

(١) واجع: الأصوليات المعاصرة مرجع سابق ص١٣.

نصوص التوراة ومحاولة جذب البروتستانت إلى الأصول التورانية للإيمان بها والاعتقاد فيها. خاصة ما جاء فى هذه النصوص من نبوءات تبشر بميلاد إسرائيل، واستعادة أرض الميعاد، ثم عودة المسيح ثانية ليحكم العالم من مسقط رأسه بأرض أورشليم القدس، ولقد نجحت الأصولية الصهيونية فى إقناع الأصولية المسيحية بهذه النبوءة الخرافية وأصبح البروتستانت -خاصة أمريكا- على قناعة تامة بذلك. وارتبط عندهم عودة المسيح ثانية بقيام دولة إسرائيل. وأصبح من الواجب عليهم تبعًا لذلك تحقيقًا لهذه النبوءة أن يعملوا جاهدين لإقامة دولة إسرائيل ومساندتها. وصار ذلك واجبًا دينيًا مقدسًا عند البروتستانت وهذا يفسر لنا ميلاد هذا التعاطف الكبير بين الصهيونية والبروتستانت من جانب ووقوف الأصولية المسيحية ضد أى حق من حقوق العرب فى استعادة أرضهم وحقهم المشروع من جانب آخر. وكان ميلاد دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م واحتلال إسرائيل القدس كاملة لأول مرة فى التاريخ سنة ١٩٦٧م هى أبرز الإشارات التاريخية لتحقيق هذه النبوءة بعودة المسيح ثانية مما زاد فى تمسك الأصولية المسيحية بنصوص التوراة اعتمادًا على ما أشاعته بينهم الأصولية الصهيونية من ضرورة الإيمان بالتوراة كجزء أساسى من العقيدة المسيحية.

وساعد الوضع المتردى للعرب وسيطرة إسرائيل على القدس كاملة لأول مرة منذ أكثر من ألفى عام على الترويج لهذه النبوة وضرورة الاعتقاد بصحة الأصول التوراتية التى اشتملت على هذه النبوءة والعودة إليها كمرجع عقائدى لإدارة شئون الحياة فى الأصولية الصهيونية والمسيحية على حد سواء.

وترتب على ذلك زيادة عدد الأصوليين البروتستانت فى الغرب الذين يعملون على مساعدة الصهيونية. وقدر أحد الباحثين عدد الأصوليين البروتستانت فى أمريكا وحدها بـ٣٠ مليون أصولى من مجموع المسيحيين البروتستانت البالغ ٤٠ مليون شخص[١].

وقد أكدت الوثائق التى ظهرت أخيرًا هذا التعاطف والتقارب العقائدى بين الأصولية الصهيونية والمسيحية وضرورة التعاون بينهما ضد الإسلام ففى سنة ١٩٨٥م عقد مؤتمر بال بسويسرا (٢٧ - ٢٩ أغسطس ١٩٨٥م) بعنوان الصهيونية

(1) See Commontary (March 1981) P. 25.

المسيحية جاء في مقدمة إعلان هذا المؤتمر ما يلى: .. نحن الوفود المجتمعين هنا من ممثلى كنائس مختلفة. وفى نفس القاعة الصغيرة التى اجتمع فيها من ٨٨ عامًا تيودور هرتزل ومعه وفود المؤتمر الصهيونى الأول الذى وضع اللبنة الأولى لإعادة ميلاد إسرائيل. جئنا معًا للصلاة ولإرضاء الرب، ولكى نعبر عن ديننا الكبير وشغفنا العظيم بإسرائيل الشعب والأرض والعقيدة.. إننا نتوحد اليوم فى أوروبا بعد ٤٠ عامًا على الاضطهاد لليهود لكى نعبر عن تأييدنا لإسرائيل.. إننا نناشدكم بحب أن تحاولوا تحقيق العديد مما تصبون إليه.. وأن تدركوا أن يد الله وحدها هى التى ساعدتكم على استعادة الأرض وجمعتهم من منفاكم طبقًا للنبوءات التى وردت فى النصوص المقدسة.

إن التقارب المسيحى اليهودى زاد من أيام هرتزل ونما وتطور[١] وأثمر على يد بلفور حيث وعده المشئوم بميلاد إسرائيل.

ولقد ترتب على هذا الموقف إعادة تفسير التوراة ونصوصها وبخاصة ما يتصل فيها بمعتقدات المسيحية البروتستانتية من عودة المسيح وبناء مملكة الألف عام السعيدة وما تلى ذلك من عَبْرَنَة أو تهويد للبروتستانت.

ولقد قام (وليام بلاكستون ١٨٤١ - ١٩٣٥م) بنشر كتابه (عيسى قادم) (١٨٧٨م) وزع منه مليون نسخة وترجم إلى ٤٨ لغة، وكان هذا الكتاب من أخطر أنواع الدعاية للأصولية الصهيونية خاصة فيما يتعلق بعودة المسيح وعودة إسرائيل إلى أرض الميعاد وكتب يقول: «إن النبوءة التوراتية هى أكثر إيفاء من الصهيونية المعاصرة ثم أسس فى شيكاغوا سنة ١٨٨٧م منظمة أسماها «البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل» والتى تحولت فيما بعد إلى: الزمالة اليسوعية الأمريكية. ومازالت تباشر نشاطها الصهيونى المسيحى إلى اليوم، وهو الذى نادى بفكرة أرض بلا شعب يجب أن تعطى لشعب بلا أرض، وهو الذى بعث إلى هرتزل نسخة من التوراة ووضع خطوطًا تحت النصوص التى تشير إلى استعادة اليهود لأرض فلسطين والنصوص الأخرى التى تشير إلى عودة المسيح ثانية.

(١) انظر: البعد الدينى فى السياسة الأمريكية. ص١٤.

والاتجاهات الأصولية داخل الكنيسة الأمريكية قد تبلورت بعد حرب ١٩٦٧م وقد أثر الموقف الأصولى للكنائس الأمريكية على الرئيس الأمريكى ريجان فتحدث بنصوص التوراة، وعن نبوءة العودة التاريخية لإسرائيل، كما تحدث الرئيس الأمريكى كارتر فى مارس ١٩٧٨م أن إسرائيل وأمريكا يتقسمان تراثًا واحدًا، وهو نبوءات التوراة بعودة المسيح وإسرائيل.

ووجد الأصوليون المسيحيون فى هزيمة العرب ١٩٦٧م تحقيقًا لنبوءات التوراة لأن القدس عندهم هى المدينة التى سيحكم عيسى عليه السلام العالم منها[١].

المصطلح فى لغتنا العربية:

اتضح لنا مما سبق أن هذا المصطلح ظهر فى الغرب وحمل معه تجربة الغرب من كاثوليك وبروتستانت، ولقد نقل لفظ الأصولية إلى عالمنا العربى وهو محمل بهذه المعانى التى أشرنا إليها سابقًا ويتضمن الخصائص والصفات التى عرفت بأنها لوازم تاريخية لهذا المصطلح فى الغرب ولا يذكر المصطلح إلا مقرونًا بها ومعروفًا بها «جمود. جنوح إلى الماضى.. مناهضة التطور. عدم التكيف مع الواقع المعاصر».

العلاقة التناقضية القائمة بين الدين والتطور، بين التراث والحداثة. العنف» كل هذه الصفات صاحبت المصطلح ولازمته تاريخًا وبالتالى صاحبته حين نُقل إلى اللغة العربية حيث ترجم المصطلح وهو يعنى كل هذه الصفات، وأصبح كل من يسمى أصوليًا يرمز به إلى كل هذه المعانى.

و أخذ البعض فى كتاباته العربية يطلق هذا المصطلح على كل ملتزم بالأصول الإسلامية والسنن النبوية، فصار كل من يرتاد المسجد، ومن يطلق لحيته ومن ترتدى الحجاب رموزًا حية للأصولية فى زعم هؤلاء، ولم يحاول أصحاب الشأن أن يوضحوا للشباب الفرق بين معنى المصطلح فى موطنه الذى ولد فيه ومعناه فى لغتنا العربية وفى بيئتنا الإسلامية، وماذا يعنى لفظ أصولى وأصولية فى لغة العرب وهل يلزم بالضرورة أن يستعمل هذا المصطلح فى لغتنا العربية وهو محمل بهذه المعانى وتلك الظلال الكئيبة التى صاحبته فى الغرب؟

(١) راجع: البعد الدينى فى السياسة الأمريكية، دراسة فى الحركة المسيحية الأصولية، د. يوسف الحسن، ط. مركز الدراسات الوحدة العربية بيروت، ١٩٩٠م ص٧٩.

إن الأمر يحتاج منا أن نتوقف قليلاً أمام هذا المصطلح الغريب فى دلالته ومضمونه حيث صار مستعملاً على ألسنة البعض بما يشبه أسماء الأضداد لأنه أصبح صفة ذم وعاملاً من عوامل التنفير والترهيب. والمفروض أنه فى لغتنا العربية وفى بيئتنا الإسلامية يتمدح به وأن يكون من عوامل الترغيب والتقريب وليس الترهيب والتنفير. لأن الكلمة أصولى وأصولية فى لغتنا العربية، ليست محملة بهذه المعانى التى صاحبتها فى ثقافة الغرب وتجربته. هذا من جانب ومن جانب آخر أن الكلمة لم تأخذ بعد طابع المصطلح الرمزى فى ثقافتنا المعاصرة إلى الان لأنها مازالت فى دور التحديد للمعنى المقصود والضبط فى الاستعمال. فهى ليست شائعة فى الاستعمال كمصطلح المعتزلة أو الأشاعرة بحيث إذا أطلق اللفظ انصرف تلقائيًا إلى جماعة معروفين بقواعد مذهبهم وأصولهم وبأسمائهم أحيانًا.

وهل إذا استعملت هذه الكلمة فى لغتنا العربية يكون المراد بها ضرورة تلك المعانى التى صاحبتها فى تجربة الغرب؟ فتكون مرادفة لكلمة تطرف أو تنطع أو تشدد أو جمود فتصبح بمثابة الرمز والإصطلاح بصرف النظر عن أصلها الاشتقاقى في اللغة فيكون شأنها فى ذلك شأن جميع الاصطلاحات الرمزية التى قد تكون علاقتها مبتورة الصلة تمامًا بأصلها الاشتقاقى وجذرها اللغوى أم لابد أن تراعى العلاقة الضرورية بين أصل الكلمة واستعمالها فى الحياة وعلى ألسنة المتخاطبين بها.

إن مصطلح أصولى بالمعنى المعجمى يعنى العودة إلى الأصول الأولى للإسلام وهى الكتاب والسنة وما اتفق عليه سلف الأمة سواء تعلق ذلك بأصول الدين ومسائل الاعتقاد أم تعلق بالأحكام الشرعية ومسائل الفروع. إنه يعنى العودة إلى هذه الأصول. فكرًا وثقافة واعتقادًا وسلوكًا. فى التشريعات ونظم الحكم. فى سياسة المال وإدارة المجتمع، فى تربية الفرد وإقامة الدولة. إنها تعنى الإسلام بشموله وعمومه، بأصوله وفروعه، وهى بهذا المفهوم مطلب شرعى وواجب اعتقادى، فإذا قيل فلان الأصولى أو من رجال الأصول أو من الأصوليين فإنها تعنى المدح بأنه من رجال الأصول سواء كانت أصول الدين أم أصول الفقه. وغالبًا ما تستعمل في حق علماء أصول الفقه المعروفين كما تطلق على كل من تخصص من المعاصرين فى هذا الفن. وليس فى هذه النسبة ما يذم به ولا يعاب بل هى

كما قلت من صفات المدح التى يوصف بها علماء الأصول الحاذقين فى هذا التخصيص لكنها للأسف الشديد نقلت إلى اللغة العربية لتستعمل فى مجال الذم والتنفير نظرًا لما تحمله من معان لازمتها فى الغرب يرفضها الإسلام جملة وتفصيلاً أن الكلمة تطلق فى الاستعمال المعاصر ليراد بها أصحاب تلك الآراء المتشددة والمتطرفة. لكن إطلاقها على هؤلاء بهذا المعنى فيه لبس وتدليس على السامع والقارئ معًا بل على المسلمين بصفة عامة وربما أوحت - من خلال استعمالها بهذا المعنى- بالتنفير من التمسك بالأصول فيؤول الأمر بهؤلاء إلى الانسلاخ من الإسلام كلية. وربما كان هذا هدفًا مقصودًا لبعض الفئات التى زجت بهذا المصطلح فى ساحة الحوار الثقافى بين الجماعات الإسلامية وخصومها.

إن الأمر خطير يحتاج إلى مراجعة فى ضرورة ضبط استعمال المصطلح، وأرى أن تحديده بالآراء المتطرفة مهم جداً لأمرين:

١- الأول أن من بين الجماعات الإسلامية الموجودة فى ساحة الحوار من هو ملتزم بالكتاب والسنة نصًا وروحًا ويرفض الغلو بكل مظاهره، ويعتبر الغلو والتطرف حربًا معلنة ضد الإسلام، ويعبر فى سلوكه ومواقفه عن الإسلام فى كل جوانبه، وهؤلاء لا ينبغى أن يطلق عليهم أصوليون بالمعنى الاصطلاحى المعاصر، المنقول إلينا من الغرب، وإن كانوا فى حقيقة الأمر أصوليين بالمعنى اللغوى والعرفى معًا، وإلا فإن المسلمين كلهم أصوليون بهذا المعنى.

٢- الأمر الثانى: أن الكلمة تستعمل للذم على ألسنة المعاصرين كما نقلت إلينا. بينما هى في لغتنا العربية - تستعمل للمدح والثناء والذى يحمل وزر هذا التدليس هو الإعلام العربى وما قام به من إطلاق لهذا المصطلح على كل من يلتزم بالإسلام فكرًا وثقافة وعقيدة وسلوكًا. دون تمييز بين التطرف الذى هو جوهر المشكلة القائمة، والالتزام الذى هو عنوان المسلم والأصولى معًا. وعدم الدقة فى الاستعمال لهذا المصطلح أدى إلى خلط كبير فى ذهن الناس.

التطرف معناه ومعياره:

مصطلح التطرف معناه مجاوزة الوسط فى كل شىء فى الاعتقاد والسلوك والآراء. ومجاوزة الوسط قد يكون بالإفراط والغلو فيولد التطرف. وقد يكون

بالتفريط والإهمال فيولد الانحلال والتسيب، وكلا الطرفين مذموم شرعًا وعقلاً وهذا التحديد البسيط ذو نسب قوى بالمدلول اللغوى لكلمة التطرف فى أصلها الاشتقاقى وبالجذر اللغوى «ط ر ف»[1] ففى لسان العرب: «طرف كل شىء منتهاه. ومعناه الوقوف فى الطرف. وهو يقابل التوسط والاعتدال: قال الشاعر:

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت ... بها الحوادث حتى أصبحت طرفًا

وأصل استعمال الكلمة فى الحسيات كالتطرف بالجلوس أو الوقوف أو السير فى الطرف ثم انتقل إلى المعنويات كالتطرف فى الدين أو الفكر أو السلوك والآراء.

وعندما نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة «تطرف» نجدها شاملة لكل من يتجاوز المتوسط إما بالإفراط والغلو أو بالتفريط والإهمال كما سبق. والذى نلفت النظر إليه فى هذه القضية أن الذى شغل به المفكرون أنفسهم كما شغل به الإعلاميون أجهزة الحكم فى بلادهم هو نوع واحد فقط من أنواع التطرف، وهو الخاص بمجاوزة الحد إلى الإفراط والغلو. أما التطرف الثانى وهو التفريط والإهمال فلم يشغل به باحث أو سياسى أو جهاز حكومى فى دولة ما. فقد تغافل عنه المجتمع؛ ربما لأنه يثير حساسية فى المجتمع أو لا يشكل خطرًا على أجهزة الدولة المعنية، ولا يعبر فى مضمونه عن قلق سياسى أو ثقافى أو حضارى بالنسبة للمراقبين الغربيين لما يجرى في المنطقة، وهذا الفهم القاصر والمغلوط لمعنى التطرف لا يعبر عن حقيقة المشكلة التى نحن بصددها. ذلك أنه إذا كانت فضيلة هذه الأمة أنها وسط فى كل شىء فى العقيدة والشرعية وكان الغلو فى تنفيذ الأوامر تطرفًا بالإيجاب فإن التفريط والإهمال والتسيب والتحلل المطلق يعنى تطرفًا بالسلب يجب أن تهتم به المؤسسات المعنية بالمشكلة بنفس القدر بل أكثر. وعلينا أن نقارن هنا بين موقفين أحدهما شاب يطلق لحيته ويرتاد المسجد وفتاة سترت نفسها وغطت رأسها. والثانى شاب سكير وعربيد وفتاة أخرى عارية ترتدى ثيابها فوق الركبة وترتدى الشيبونيز واضعة السيجارة فى فمها مجاهرة بالفطر فى رمضان.. ستجد المجتمع المعاصر يحكم على أصحاب الموقف الأول بالرجعية والتزمت، وربما التطرف والأصولية؛ بينما يحكم على أصحاب الموقف الثانى بالمعاصرة والمودرنيزم

(١) راجع: لسان العرب، مادة: طرف ٩٠/ ٢١٧.

ويقول: إنها حرية شخصية؛ مع أن كلمة التطرف فى وضعها اللغوى وفى العرف العام لا تطلق إلا على أصحاب الموقف الثانى. وهذه المغالطة فى استعمال المصطلحات والتفسير بعدم الدقة فى بيان معناها يقودنا إلى طرح السؤال التالى:

ما هو معيار التطرف؟

وبعبارة أخرى ما هو الوسط الذى إذا تجاوزه الفرد كان متطرفًا. هل تأخذ هذا المعيار من عرف الجماعة وسلوكها فتكون الأعراف الاجتماعية هى المعيار، وهى الوسط حتى ولو كانت هذه الأعراف فاسدة تتعارض مع مبادئ الإسلام وأصوله؟ أم يكون المعيار هو القانون الذى تأخذ به الدولة وينهض لحراسته والذب عنه نظام الحكم فى المجتمع؟ ولو كان هذا القانون يحل حرامًا ويحرم حلالاً..؟ لعل طرح هذه الأسئلة يقربنا من الهدف الذى نريده.. إننا هنا بصدد حكم شرعى دينى (تطرف ~ غلو) ومعياره الذي يقاس عليه لابد أن يكون شرعيًا ودينيًا كذلك...، فلا تصلح أعراف الجماعة ولا قوانينها أن تكون معيارًا صادقًا للحكم الشرعى إلا بالقدر الذى يتطابق فيه سلوك الجماعة وقانونها مع الشرع ومصادره، أما إذا حدث انفصام بين مبادئ الشرع وأصوله وعرف الجماعة وقانونها فعندئذ لا ينبغى أن تجعل العرف الاجتماعي أو القانون الوضعى معيارًا للحكم الشرعى على سلوك الفرد أو الجماعة بأنه «تطرف» سواء كان ذلك فى القول أو الاعتقاد، أو السلوك.. ومن المعلوم أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره كما يقول فلاسفة المنطق. والحكم بمصداقية المعيار هنا مصدره الشرع وليس غيره. فإن إطلاق لفظ التطرف على ألسنة الإعلاميين فى مختلف مؤسساتهم بدون ضابط له، قد أحدث لبسًا وخلطًا هائلاً فى الاستعمال والإطلاق معًا. فقد رأينا من يطلق على ارتداء الحجاب وإطلاق اللحية وتحريم الربا والخمر والامتناع عنها بأنها كلها مظاهر تطرف ولم يفرقوا فى ذلك بين ما نصت عليه الشريعة فى حكمها القطعى بأنه سنة أو واجب، وبين ما وصل إليه المرء باجتهاده الشخصى، بل إن بعض الصحف اتهمت المسلمين جميعًا بالتطرف لأنهم يؤذنون فى اليوم خمس مرات ويذهبون إلى المساجد خمس مرات في اليوم[1].. والأمر فى ذلك يحتاج إلى تمحيص المصطلحات وتحرى الدقة فى

(١) راجع فى هذه المعلومة: التطرف الدينى الرأى الآخر. د. صلاح الصاوى. ط. الآفاق الدولية للإعلام. ص١٦.

استعمالها وإطلاقها معًا، لابد أن تفرق فى إطلاق المصطلح بين من يلتزم فى سلوكه بأوامر الشرع ونواهيه، ومن يترك الاعتدال والتوسط فى ذلك بالتنطع والغلو والتشدد فى السلوك أو الاعتقاد أو الآراء مجافيًا لما كانت عليه سنة الرسول وحياته؛ فإن الأول محمود طلبه الشرع، والثانى مذموم نهى عنه الشرع. قال ﷺ: «**عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى..**» وقال بنفس الدرجة من الصحة. «هلك المتنطعون»[1]. وقال: «**إياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان من قبلكم الغلو فى الدين**»[2]. وقال: «**لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم**»[3]، وإن هذا الدين يسر فأوغل فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا.. إلخ[4].. والنصوص فى ذلك كثيرة لا يتسع لذكرها هذا المقام.

والمصطلح الشرعى المقابل لكلمة التطرف هو الغلو -التنطع- التشدد. وهى كلها كلمات مذمومة ومذموم من تنطبق عليه فى سلوكه أو اعتقاده أو رأيه وذلك لما يلازمها من التنفير والترهيب وهما ضد روح الشرع ومقاصده.

أردت بهذه المقدمة التمهيدية أن أبين وجه الصواب والخطأ فى استعمال هذه المصطلحات حتى يكون كلامنا محددًا ونصًا فى المطلوب خاصة فى الكشف عن المنطلقات الفكرية للأصولية المتطرفة، ونريد أن نكون أكثر تحديدًا فى السير نحو الهدف المطلوب. فنحن لن نتكلم هنا عن الأصولية العامة، وإنما سنحدد أنفسنا فى الحديث عن الأصولية المتطرفة فقط.

ذلك أن الأصولية الإسلامية العامة ظاهرة صحية عرفها تاريخنا الإسلامى فى عصور مختلفة من مراحل ضعفه وخوره، فكانت تنقله من حالة الضعف إلى حالة القوة، ومن حالة الخور والسكون إلى الحركة والانطلاقة، وتجدد للإسلام شبابه وتشد من عزيمته.. فعندما انغمس بنو أمية فى طيب العيش وملذات الحياة وصرفهم ذلك عن أمر الرعية ظهرت أصولية أبى حنيفة، ومالك، وسيرة عمر بن عبد العزيز، وعندما طغت مظاهر الحضارة اليونانية على معالم الإسلام وأصوله فى

(١) رواه مسلم: ٢٠٥٥، أبو داود ٤/ ٢٨١، ابن حنبل ١/ ٣٨٦.
(٢) رواه ابن حنبل ١/ ٢١٥: ابن ماجه ٢/ ١٠٠٨.
(٣) رواه أبو داود ٤/ ٢٨١.
(٤) البخارى ١/ ٩٤.

العهد العباسى ظهرت أصولية ابن حنبل ومدرسته، وعندما انهارت الدولة العباسية وسيطر الترك والمغول بثقافاتهم المختلفة ظهرت أصولية ابن تيمية والنووى وابن القيم، وفى العصر الحديث لما ضعفت الخلافة العثمانية وسيطر الغرب بحضارته المادية على الشرق الإسلامى ظهرت أصولية ابن عبد الوهاب فى السعودية سنة ١٧٩٢م، والسنوسية ١٨٠٠ فى ليبيا، والمهدية فى السودان ١٨٧٩م، ومحمد عبده (ت ١٩٠٥م) ورشيد رضا (ت١٩٣٥م). الأصولية المعاصرة ليست بدعًا فى التاريخ الإسلامى، إنما هى امتداد طبيعى لأصوليات تاريخية سابقة.

وقارئ التاريخ الإسلامى قد يجد علاقة قوية بين فترات الضعف التى تصاب بها الأمة وهذه الصحوات المتكررة على امتداد التاريخ. ولكن السؤال المطروح الآن هو ما معيار الحكم على هذه الصحوات؟ هل تعد تطرفًا وشذوذًا أم تعد صحوات ضرورية لتستعيد الأمة مسيرتها وتتبوأ مكانتها الحضارية.

إن معيار الحكم على هذه الصحوات هو الذى يحدد مفهوم المصطلح ومصداقيته، ففى عصر النبوة بدت دعوة الإسلام نفسها شذوذًا وتطرفًا فى أعين قريش وكفار مكة وفسرها البعض بأنها همس من الجنون أو مطلب سياسى يقصد به زعامة القبيلة أو مطلب اقتصادي يقصد به جمع المال والثروة. وراود كفار مكة محمدًا ﷺ بهذه المطالب. وهذه الدعاوى كلها كان سببها أن دعوة الإسلام جاءت مخالفة لأعراف قريش وخلاف عاداتها، وكان هذا المسلك نفسه هو ما سبق أن واجه الأنبياء والمصلحين فى كل عصر، لأن كلاً منهم قد بدا فى أعين مجتمعه غريبًا فيما يدعو إليه غريبًا فى سلوكه. غريبًا فى أقواله وآرائه. كانوا جميعًا فى أعين المجتمع تجسيدًا لكل معانى التطرف. والسؤال المطروح هنا من الذى يستحق أن يسمي متطرفًا فى مثل هذا الظروف. هل من خالف العرف والعادة والرأى والمذهب يعد متطرفًا؟ أم الذى خالف أوامر الشرع ونواهيه وناقض فى سلوكه أقوال الرسول وأفعاله هو الجدير بأن يسمى متطرفًا؟

إن تحرير معنى المصطلح مهم جداً حتى لا تضيع حقائق الأمور وسط هذا الضجيج الإعلامى الذى صاحب هذه القضية الخطيرة فى عصرنا. خاصة إذا كان من طبائع العصر التسرع فى إصدار الأحكام والمجادلة بالاتهامات بدلاً من التحرى والدقة وضبط المسائل بشكل علمى.

بين الأصولية والتطرف:

يتضح لنا مما سبق من توضيح معنى الأصولية الإسلامية والتطرف أن بينهما نوعًا من التضاد فلا يجتمعان أبداً. ذلك أن الأصولية بمفهومها الإسلامى الصحيح ترفض التطرف وتنطلق فى ذلك من أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله، ومن النهى الصريح فى القرآن الكريم عن الغلو، وتحذير الرسول منه فى أكثر من حديث إياكم والغلو فى الدين هلك المتنطعون. يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا، كما أن التطرف فى مضمونه ضد الوسطية التى هى خاصة الأصولية الإسلامية، ولذلك فإن الجمع بينهما من وجهة نظرنا أمر غير مستقيم لأن المرء إما أن يكون أصولياً ملتزمًا وإما أن يكون متطرفًا، ولا واسطة بينهما، والخلط والخطأ إنما يقعان فى تصور الناس وفى أحكامهم غير المنصفة ولا الدقيقة.

والأصولية بمفهومها الصحيح ليست جديدة على تاريخ أمتنا -كما سبق أن أشرنا إلى ذلك- ولكن الجديد فى عصرنا هو ذلك الربط غير الشرعى بين مفهوم الأصولية والتطرف فى نظر البعض. والربط بينهما وبين المفهوم الغربى وتجربته عند البعض الآخر. فهى عند بعض الناس تعنى التطرف والغلو ولم يفرقوا فى ذلك بين معنى الالتزام والتطرف وعند البعض الآخر تعنى رفض التطور وعدم التكيف مع الواقع، والتقوقع فى الماضى والتعبد بالتراث. إلخ هذه المعانى التى صاحبت المصطلح فى تجربة الغربية وفى حقيقة الأمر فإن الأصولية الإسلامية بريئة من هذا وذاك. بريئة من التطرف والغلو كما هى بريئة من اتهامها برفض التطور ومحاربة التنوير وعدم التكيف مع الواقع والتعبد بالتراث. إلخ والقضية فى نظرنا ترجع إلى تصميم بعض الجهات المستفيدة من إثارة هذا الغبار الفكرى في المنطقة العربية لتظل ملتهبة مشغولة بنفسها عن الاشتغال بعظائم الأمور مما هو أهم بذلك من قضايا البلاد. إن بعض أجهزة الإعلام وبعض المؤسسات الثقافية فى العالم العربى حريصة على أن تظل نار هذه الفتنة مشتعلة فى بلادنا، كما خبت نارها أوقدوها ثانية لأنهم لا يجدون ذواتهم إلا فى مثل هذه الظروف المضطربة التى تموج فيها الفتن كقطع الليل المظلم فتجرف أمامها كل شىء كما أن الجهات الخارجية التى غذت وتغذى اشتعال هذه الفتنة متربصة بالمنطقة وهى تمديدها بفتيل الاشتعال من آن إلى آخر. إما فى شكل تقرير مكذوب أو معلومات مزورة فتلتقطها بعض

أجهزة الإعلام وتروج لها حتى صار الناس في حيرة من أمرهم أين الحقيقة؟. أين الإسلام وأين التطرف؟، أين الالتزام وأين التحلل؟ وما معنى أن نسمى كل مسلم ملتزم متطرفًا؟ وما معنى أن يكون المسلم الملتزم داعية إلى التأخر رافضًا للتقدم ومحاربًا لكل جديد عقبة فى طريق التنوير، كما يروج لذلك بعض المتربصين بالإسلام والمسلمين.

إن محاولة البعض إقحام الأصولية الإسلامية فى دائرة التطرف أو إلباسها ثوب المفهوم الغربى للكلمة على جانب كبير من الخطورة، بل هو ثمرة يسعى كثير من المتربصين بنا إلى قطفها وهو -لا قدر الله- إن نجح فى ذلك فقد قدم خدمة تاريخية للأصولية الصهيونية التى تسعى جاهدة إلى تفريغ الإسلام من مضمونه بل تسعى جاهدة إلى اغتيال الحس الإسلامى فى قلب المؤمن إن استطاعت. ولذلك فإن واجب الأجيال أن تتعرف على حقائق الأمور بمحاولة فض الاشتباك بين هذه المصطلحات ليعرفوا الفرق بين ما هو إسلامى صحيح وما هو غلو وتطرف، وما هو أصولى بالمفهوم الغربى الوافد، وبين ما هو أصيل وما هو وليد الأزمة الراهنة من مفاهيم ودلالات ومصطلحات بمعان غربية لا تتحملها الألفاظ العربية عند إطلاقها.

لابد هنا من ضرورة التفرقة بين الفكر الأصولى والفكر المتطرف ومنطلقات الأول ومنطلقات الثانى.

١- فإذا كانت الأصولية تعنى الإسلام الحى المتحرك، فإن التطرف يعنى التقول على الإسلام والتطاول عليه والقول عن الله وعلى الله ما ليس لهم به علم.

٢- ومنطلق الأصولية الإسلامية هو النص قرآنًا وسنة، أما منطلق التطرف هو أقوال البشر من رؤساء الفرق وآراء علمائها.

٣- الأصولية الإسلامية تعنى الالتزام بالوسطية وبالحكم الشرعى أمرًا ونهيًا، والتطرف يعنى الخروج عن حد الوسطية والاعتدال إلى الغلو والتنطع والتشدد.

٤- الأصولية الإسلامية محمودة مطلوبة شرعًا، التطرف مذموم ومنهى عنه شرعًا.

٥- الأصولية الإسلامية تمثل سماحة الإسلام فى الدعوة إليه، أما التطرف فمن سماته العنف والغلظة.

٦- الأصولية الإسلامية التزام بما ألزم الشرع أمرًا ونهيًا، والتطرف إلزام بما لا يلزم شرعًا.

٧- الأصولية الإسلامية تعنى حياة الإسلام واقعًا. التطرف آفة الدين وعلة التدين معًا، لأنه يجعل ما ليس شرعًا أمر شرعيًّا، ولذلك فإن المنطلقات الفكرية للتطرف تختلف فى أصولها ومبادئها عن منطلقات الأصولية. وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية أن يتبين الناس الفروق بين مصطلح التطرف والأصولية من جانب والفرق بين منطلقات كل منهما من جانب آخر.

خطر التطرف على الدين:

ولقد حذر أئمة السلف من الغلو فى الدين والتنطع فى الأحكام وبينوا أن الغلو هو آفة التدين وحذروا من الآفات الثلاثة فى كل عصر:

١- تحريف الغالين.

٢- وانتحال المبطلين.

٣- وتأويل الجاهلين.

فتحريف الغالين كان سببًا فى هلاك الأمم السابقة ممن غلوا فى العقيدة أو العبادة على حد سواء. فحرموا على أنفسهم ما أحل الله وحرموا طيبات أحلت لهم، وخرجوا بغلوهم عن الوسطية والاعتدال التى هى سمة الإسلام. قال تعالى فى وصف أهل الكتاب ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ** ﴾[المائدة: ٧٧]، وقال ﷺ: «**إياكم والغلو فى الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين**[١]» وقال: «**هلك المتنطعون. قالها ثلاثًا**»[٢].

وتواصى الأئمة فيما بينهم بالتحذير من هذه الآفات الثلاثة لأنها تشوه حقيقة الإسلام وتلزم المسلمين بما لا يلزم شرعًا، وهذه الآفات الثلاثة ترجع فى معظمها إلى أصول الفرق التى حذر منها العلماء كالخوارج والمرجئة والرافضة، وليس لها فيما صح من نصوص الكتاب والسنة نصيب.

---

(١) رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وفى الجامع الصغير، ص٢٦٨، راجع مدخل لدراسة السنة. مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم فى كتاب العلم، رقم ٢٦٧٠ مدخل لدراسة السنة.

وللإمام ابن القيم إشارة مهمة إلى كيفية الأخذ والفهم عن الرسول ﷺ حيث يقول: ينبغى أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمل، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام، بل هو أصل كل خطأ فى الأصول والفروع، فيا محنة الدين وأهله.. حتى صار الدين بأيدى كثير من الناس هو موجب هذه الأفهام، والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور ولا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأساً[1].

ولعل من أبرز سمات التطرف التى تميز به عن الأصولية الإسلامية وينفرد بها.

١- إن المتطرفين فى معظم الأحيان يجهلون العلم بمراتب الأحكام فيضعون المندوب فى مقام الواجب أو السنة ويخلطون بين المكروه والحرام ويترتب على ذلك قلب الأحكام الفقهية فيهتمون بالمندوب والسنة على حساب الفرائض والواجبات ويتشددون فى المكروه على حساب المحرمات.

٢- الاستبداد بالرأى والتعصب والتحامق مع المخالف وقد يكون ذلك فى معظم الأحيان عن جهل وقلة علم. وإعجاب كل منهم برأيه واحتقار الآخرين. وهذه كلها مواقف تتنافر مع روح الإسلام ونصوصه.

٣- إنهم يقرنون بين الخطأ والإثم، دون تفرقة بين من يخطئ عن جهل ومن يخطئ عن قصد، ولا بين المجتهد والمتعمد فى خطأه.

٤- عدم الاعتراف بالآخر وسوء الظن بالآخرين واتهامهم فى عقيدتهم والطعن فى آرائهم.

٥- الطعن فى العلماء والتشويش عليهم واتهامهم فى كثير من الأحيان.

٦- الميل والخروج إلى التشدد والتعسير على الناس وإلزامهم بما لا يلزم.

٧- التكفير للحاكم والمجتمع بدون ضوابط، ومن المعلوم أن الحكم بالتكفير له ضوابطه وأصوله التى من تخطاها فى الحكم على الآخرين، فقد باء بإثمها،

(١) الفتاوى ٢٥/ ١٠٠ - ١٠٤ مسألة حكم المرتد.

والعجيب أن أصحاب هذه المقالة يحاولون الانتساب بها إلى الأصولية الإسلامية وهى منها براء، ولعل الإمام ابن تيمية كان من أكثر الأئمة بعداً عن الحكم بتكفير المسلم أو المجتمع أو الحاكم رغم ما يشاع عنه زوراً وبهتاناً فى القول بذلك. ولم يعرف لهذه المقالة من أصول إلا فى فكر الخوارج الذين يقولون بكفر مرتكب الكبيرة وسوف أضع بين يدى القارئ نصوص ابن تيمية التى توضح موقفه مما ينسب إليه من قول بتكفير المسلم أو الحاكم أو العالم المخطئ.

١- يقول ابن تيمية: (إن علماء المسلمين المتكلمين فى الدنيا باجتهادهم لا يجوز تكفير أحدهم بمجرد الخطأ أخطأه فى كلامه، فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما أصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون أنهم أخطأوا فيه من الدين).

٢- وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض. بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطاه يكفر، ولا يفسق، بل ولا يأثم، ومن المعلوم أن المنع عن تكفيرهم علماء المسلمين، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية.. فكيف يكفر علماء المسلمين فى مسائل الظنون؟ أم كيف يكفر علماء المسلمين أو جمهور سلف الأئمة وأعيان العلماء بغير حجة أصلاً[1].

٣- ويقول ابن تيمية: من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات لا يدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم، فإن كان الإمام مستور الحال.. صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الأئمة.

٤- ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة.. والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من

(١) الفتاوى ٣٥/ ١٠٠ - ١٠٤ مسألة حكم المرتد.

بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله.. قال ﷺ: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله[١].

٥- السلف قاتل بعضهم بعضًا فى الجمل وصفين.. ومع القتال كان يوالى بعضهم بعضًا موالاة الدين لا يعادون معاداة الكفار.. ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من قتال[٢].

٦- إنى من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى فإنى أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخبرية القولية والمسائل العلمية، ومازال السلف يتنازعون فى كثير من المسائل ولم يشهد أحد على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية.

وليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له الحجة.

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة[٣].

٧- ولا ريب أن الخطأ فى دقيق العلم مغفور للأمة وإن كان فى المسائل العلمية ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد فى طلب العلم بحسب ما أدركه فى زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاده، ولا يؤاخذه لما أخطأ، تحقيقيًا لقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى، كما نطق به القرآن.

(١) راجع الفتاوى ٣/ ٢٨٧ - ٢٨٥.
(٢) نفسه ٣/ ٢٨٥.
(٣) الفتاوى ١٢/ ٤٦٦.

هذه نصوص ابن تيمية يوضح بها مواقف سلف الأمة فى أخطر القضايا المثارة الآن، والتى كانت سببًا فى تمزيق شمل الأمة. قضية تكفير المسلم، قضية تكفير الأمة والمجتمع، قضية الخروج على الإمام أو الحاكم. يتضح خلالها أن ذلك ليس مذهبًا للسلف، ولا رأيًا لابن تيمية. وأن من نسب ذلك إليه كاذب فى دعواه إن كان ناقلاً، ومخطئ فى فهمه إن كان مجتهدًا، ويستوى عندى فى ذلك الخطأ من يدعى النسب إلى فكر ابن تيمية ومن يفترى ذلك عليه عامدًا وقاصدًا، فكلهم مخطئ فى دعواه، وأن الحق فى ذلك ينبغى أن يعرف من نصوص ابن تيمية إن كان الرأى ينسب إليه، ويعرف من نصوص السلف إن كان الرأى ينسب لهم، بدلاً من التقول عليهم أو القول بغير علم. لأن ذلك خطر عظيم خاصة فيما يتعلق بعقائد المسلمين وفى أيام الفتن التى يختلط فيها الحق بالباطل والصواب بالخطأ، والله أعلم.

****

الفصل الخامس

الصهيونية

مدخل تاريخي

علاقة اليهود بأرض فلسطين:

انتهينا فى لقاءات سابقة من الحديث عن قضيتى الاستشراق والتبشير وهما يمثلان جناحى الحوار بين المسيحية والإسلام منذ ظهور الإسلام إلى الآن، قضية الاستشراق والتبشير من أقدم القضايا التى مثلت وجسدت موقف النصرانية، أو الصليبية -إن شئت- موقف الصليبية الغربية من الإسلام، ومن الشرق، وانتهينا إلى أن بين هاتين الظاهرتين وحدة فى الهدف، وقد يكون بينهما وحدة فى الأسلوب أحيانا، وقد يكون بينهما نوع من الفروق فى الأسلوب أحيانًا أخرى، لكن الهدف والغاية تتحد عند هاتين الظاهرتين، وهو الموقف العدائى الرافض للإسلام كدين سماوى، وللقرآن كوحى إلهى، وللنبى محمد ﷺ كرسول نبى.

(١)

نريد أن نكمل الدائرة بالحديث عن موقف اليهودية من الإسلام، وإذا كان الاستشراق، والتبشير يمثلان موقف الصليبية من الإسلام؛ فإننا نجد الحوار أو الصراع -إن شئت- اليهودى للإسلام يتمثل فى ظاهرتين تاريخيتين قديمتين قدم الإسلام نفسه، هاتان الظاهرتان هما: الماسونية، والصهيونية فكلتا الظاهرتين: الصهيونية والماسونية يمثلان وجهين لعملة واحدة هى موقف اليهودية من الإسلام.

وأود فى البداية أن أفرِّق بين الصهيونية واليهودية، فاليهودية الصحيحة ديانة سماوية نزل بها وحى الله تعالى على نبيه موسى -عليه السلام- ونزل بها كتاب التوراة على سيدنا موسى عليه السلام- كما نزلت بها الألواح على موسى -عليه السلام- ونحن نؤمن بما صح من التوراة ، وبما صح من الألواح، وبما صح منهما على نبى الله موسى -عليه السلام- والمسلم مطالب؛ لكى يصح إيمانه، وإسلامه أن يؤمن بنبوة موسى، كما هو مطالب أن يؤمن بنبوة عيسى -عليه السلام- ويؤمن فى نفس الوقت بوحى الله الذى نزل على موسى ممثلاً فى التوراة وبوحى الله الذى نزل على عيسى ممثلاً فى الإنجيل.

وفى نفس الوقت نحن نؤمن بأن مفكرى هاتين الظاهرتين قد امتدت أيديهما إلى هذين الكتابين بالتحريف والتبديل كما صرح بذلك القرآن الكريم، وعلينا أن نعرف من البداية أن اليهودية شىء، والصهونية شىء آخر، كما سوف نعرف -فيما بعد- ما هى الصهيونية؟ وكما فرقنا بين المسيحية الصحيحة، والصليبية المعاصرة ينبغى أن نفرّق بين اليهودية الصحيحة، والصهيونية المعاصرة.

فنحن مطالبون بالإيمان باليهودية الصحيحة، كما أننا نرفض -وبشدة- الصهيونية المعاصرة، كما أننا مطالبون بالإيمان بالمسيحية الصحيحة، لكننا نرفض -أيضًا وبشدة- الصليبية المعاصرة لنا الآن؛ لأن الأول منهما وحى سماوى والثانى منهما صناعة بشرية متطرفة.

هذه بعض النقاط التى ينبغى أن نضعها أمامنا منذ البداية؛ حتى تتضح الرؤية أمامنا، وحتى لا تختلط الأوراق فى ذهن البعض؛ فيخلط بين الصهيونية، واليهودية، كما حاول البعض أن يخلط بين الصليبية والمسيحية، لا، هناك فارق كبير بينهما المسيحية الصحيحة وحى إلهى، لكن الصليبية المعاصرة صناعة وفكر بشرى، كذلك اليهودية الصحيحة وحى إلهى، أما الصهيونية المعاصرة، فهى صناعة وفكر بشرى، والفارق كبير بين ما نقرأه، فيما نزل على نبى الله عيسى، وما نزل على نبى الله موسى، وما وضعته، وما حرفته عقول البشر فى مزامير، وفى دسائر الصليبية من جانب، والصهيونية من جانب آخر.

(٢)

ولعل من المفيد أن نلقى بعض الضوء على علاقة الإسلام باليهودية، كما ألقينا بعض الضوء على علاقة الإسلام بالمسيحية قبل حديثنا عن الاستشراق، وعن التبشير.

فمن المعروف أن أول من ناصب العداء للرسول ﷺ بالمدينة المنورة هم اليهود عادوه، وعاندوه عمليًا على مستوى الحرب، وعقليًا وفكريًا على مستوى الخديعة، والمكر، وإثارة الشبهات.

ولعل الذين يقرءون السيرة النبوية، وبداية تاريخ صدر الإسلام يؤمن تمامًا بقسوة الحوار، وقسوة العداوة التى أظهرها اليهود فى المدينة المنورة للرسول ﷺ

التى بلغت فى بعض المواقف حد التآمر عليه، وقتله؛ إما بالسم أحيانًا، وإما بإلقاء الأحجار الثقيلة، وهو جالس بجانب الجدار من جانب آخر.

فى زمن الأمويين، والعباسيين أيضًا نجد علاقة اليهودية بالإسلام لا تختلف عن علاقة اليهودية بالرسول -عليه الصلاة والسلام- حتى إننا نجد أن بين الأمويين، والعباسيين، وبين العصر الراشدى -عصر الخلفاء الراشدين- نجد أن التاريخ لم يتوقف، بل كانت هناك مؤامرات حاكها عبد الله بن سبأ، وهناك مؤامرات ترتب عليها قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهناك مؤامرات ترتب عليها قتل الخليفة الزاهد عثمان بن عفان، ولا نبرئ الفتنة التى وقعت بين على ومعاوية من أيدى اليهود.

ولعل دور عبد الله بن سبأ كان من أبرز الأدوار التى أجّجت نار الفتنة بين هذين الصاحبين الجليلين فى بداية صدر الإسلام -رضى الله تعالى عنهم أجمعين.

فى العصر العباسى، والأموى وجدنا بعض اليهود يعلنون الإسلام، وتولى بعضهم المناصب الإدارية فى بلاط الأمراء، لكنهم أيضًا حاكوا الفتن، والدسائس؛ سواء فى ذلك من وجد منهم فى بلاد الشام، أم فى الأندلس، أم فى مصر، أم فى جنوب الجزيرة العربية، وحتى فى شمال أفريقيا، لم تخل هذه المناطق من مكائد أظهرها اليهود للإسلام والمسلمين فى هذا الوقت المبكر من تاريخ الإسلام.

وأما من بقى على يهوديته، ولم يعلن الإسلام؛ فقد أصابهم بعض من الاضطهادات فى البلاد التى وقعوا فيها، وتفرقوا فى البلاد، لكنهم لم ينسوا -للحظة من اللحظات- موقفهم من الإسلام، وأن هناك أرضًا مزعومة يحبون أن يعودوا إليها -وهى فلسطين- وتمخضت تاريخيًا هذه المواقف اليهودية التى لم يخل منها عصر من عصور التاريخ عن بلورة هدفين أساسيين يمثل كل منهما غاية ومقصدًا لكل من يحمل الديانة اليهودية:

أما الهدف الأول: فهو إقامة دولة لليهود فى أرض فلسطين، وبعض المناطق المجاورة لها بمضى الزمن.

أما الهدف الثانى: فهو محاولة السيطرة على العالم بأسره بعد أن تتحقق لهم المملكة التى يحلمون بها لتكون لهم السيادة على أناس هم يؤمنون أنهم خلقوا

لخدمتهم فقط، يؤمن اليهود أن غيرهم من البشر قد خلق لخدمة اليهودى فقط، وتكونت جماعات كثيرة جداً أخذت تبلور وتجسد هذين الهدفين بوسائل من التزوير أحيانًا للتاريخ، ومن التزوير أحيانًا للكتب المقدسة، ومن التزوير أحيانًا لبعض الوثائق التاريخية، وكان من أخطر هذه الجماعات، أو الجمعيات هى: الصهيونية العالمية -والتى شكلت خطرًا داهمًا على العالم عامة، وعلى الإسلام بصفة خاصة.

(٣)

هذان الهدفان اللذان يسعى إلى تحقيقهما تاريخ اليهود كله، أيضًا من المهم أن نلقى الضوء عليهما؛ لأن محاولة الصهيونية العالمية الدءوبة لتحقيق هذين الحلمين اعتمدت على مجموعة من الأساطير التاريخية، ومجموعة من الأساطير الدينية حاولت الصهيونية العالمية أن تركز على الأساطير الدينية بالذات لتبين للعالم كله أن هذين الهدفين؛ إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين، والسيطرة اليهودية على العالم هما وعد من وعود الرب -تبارك وتعالى- لأبناء إسرائيل، ولابد من العمل على تحقيقهما تنفيذًا لوعد الرب، وبناءً على هذين الهدفين يعتمد كل منهما على أسطورة دينية؛ فقد بدأت أيدى الصهاينة تمتد إلى الكتب المقدسة بالتزوير بالإضافة أحيانًا، وبالحذف أحيانا أخرى، وبالتبديل وبالتحريف أحيانًا أخرى؛ لتبين للعالم أن هذين الهدفين نزلت بهما التوراة على موسى -عليه السلام-.

ولكى يكون اليهودى يهودياً صادقًا؛ لابد أن يعمل على تحقيق هذين الهدفين مهما كان موقعه الجغرافى، ومهما كانت الأرض التى يقف عليها؛ فلابد أن يعمل، أو يساعد بما يستطيع على تحقيق هذين الهدفين.

وبدأت أسطورة الأرض المزعومة تحاك حولها المؤمرات، ويوضع لها النصوص الزائفة فى المزامير، وفى الأسفار الملحقة بالتوراة، والتى هى من صنع الصهيونية لتجسيد قضية العودة إلى الأرض المقدسة فى فلسطين، ولذلك أرى من المناسب أن أضع أمام حضراتكم بعض الملامح التاريخية التى تكذب هذه الافتراءات، وترفض هذه الافتراءات من واقع التاريخ، ومن واقع الحقائق التاريخية الواقعة أمامنا الآن، لنبين مدى تزييف التاريخ على أيدى هذه الجماعة الصهيونية، ومدى استعبادها لعقول الناس بمحاولة السيطرة عليها بالفكر الدينى أحيانًا، وبالقوة وبالبطش أحيانًا أخرى.

إسرائيل: الاسم والأرض:

ما هو تاريخ بنى إسرائيل، ودخول بنى إسرائيل إلى أرض فلسطين؟

أولاً: ما هى معنى كلمة إسرائيل؟ إسرائيل هذا هو اسم من أسماء أبناء إبراهيم -عليه السلام- نحن نعلم أن إبراهيم -عليه السلام- ولد له إسماعيل الذبيح، ثم إسحاق، ثم يعقوب، أطلق لفظ إسرائيل على نبى الله يعقوب، وكلمة إسرائيل تعنى: شعب الله، أو ابن الله.

ولعلكم تلاحظون معى أن الاسم له دلالة دينية كلمة إسرائيل، اسم نبى، وهذه الدلالة الدينية إذا سمعها اليهودى، أو الصهيونى يحدث عنده من التداعى أن هذه دولة دينية أيدها الرب بوعده فى التوراة، ولابد من مناصرة هذه الدولة، وأيضًا مما ينبغى أن نعرفه من وجه المقارنة بين كلمة إسرائيل وأى اسم لأى دولة إسلامية لا نجد أى دولة إسلامية تحمل اسم نبى، ولا رسول، ولا صاحب ولا صدّيق، لأن التاريخ يؤكد أن اسم هذه الدولة يحمل معه معنى العصبية، ومعنى العنصرية التاريخية كما سنرى فيما بعد.

التاريخ يؤكد لنا أن بنى إسرائيل قد دخلوا أرض فلسطين بوسيلة الغزو من الخارج، دون أن يكون لهم أى جذور تاريخية، أو أى تاريخ إقامة فى هذه المنطقة، وقد صور جمهور المؤرخين دخولهم إلى أرض فلسطين على أنه انقضاض مجموعة من الرعاة الجياع الذين يبحثون عن مرعى لإبلهم، وأغنامهم؛ ليستقروا حولها؛ فتأكل الماشية، ويأكلون ويعيشون، ثم ينتقلون إلى مكان آخر فيه رعى جديد وهكذا.

فلم يكن دخولهم فيها أول مرة للإقامة، وإنما بحثًا عن الرعى، بحثًا عن الكلأ بحيث إذا انتهت مصادر الرعى ومصادر الكلأ لإبلهم وماشيتهم؛ تركوها وانتقلوا منها إلى مكان آخر ، وكان هذا الوجود فى أرض فلسطين يمثل فى بعض جوانبه المظهر الأول لجماعة من بنى إسرائيل على مسرح التاريخ بوصفهم جماعة من البدو الرحل الذين يبحثون عن المرعى، وعن الكلأ، ولا قرار لهم فى أى مكان يقيمون فيه، وإنما ينتقلون وراء الرعى ووراء الأمطار، هذا كان أول دخول لبنى إسرائيل إلى أرض فلسطين.

(٤)

أيضًا لا يعرف التاريخ أبدًا، ولم يذكر التاريخ أن بنى إسرائيل كان لهم دولة فى أرض فلسطين قبل الوجود العربى بها، ولكن السكان الأصليين كانوا يقيمون بها وينتمون إلى قبيلة بنى كنعان من الكنعانيين العرب، ويقول المؤرخون: إن اليهود لم تقم لهم قوة فى هذه المنطقة إلا فترة خمسين سنة فقط، وحتى فى هذه الخمسين سنة كانوا محاطين بممالك أكثر قوة وأرقى مدنية وحضارة كالمملكة المصرية القديمة، ومملكة فارس... إلخ.

والمدة التى أقاموا فيها أيضًا لم تكن إقامة على سبيل الاستقرار، وإنما كانت إقامة طلبًا للرعى، وبحثًا عن الرزق، وهذه الظاهرة ظاهرة الإقامة فى أرض فلسطين كانت أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف وسط ميدان صاخب؛ فكان مصيره أن دهمته السيارة، هذا الوصف -أيها الإخوة- يذكره المؤرخ ويلز- وهو يؤرخ لحياة العبرانيين فى أرض فلسطين.

كان حولهم من كل جانب ممالك قوية، ولذلك لم يستطيعوا أن يقيموا فى هذه الأرض إلا ريثما توجد حياة رعوية توجد أمطار ويوجد عشب فترعى الماشية، وينعمون بهذه الظاهرة، ثم ينصرفون منها إلى غيرها.

ومن ناحية الأماكن والأمم المجاورة لهؤلاء البدو كانت علاقة عداء ولم تكن علاقة مؤاخاة ولا حسن جوار، وإنما كما يؤرخ لهم ويلز فى كتابه عن (قصة الحضارة) أن علاقتهم بالمجاورين لهم كانت علاقة عداء كموقفهم من السلوقيين فى سوريا، والبابليين فى العراق، والمصريين، والرومان، وفارس فهؤلاء جميعًا ناصبوهم العداء، ودمروهم تدميرًا، ثم جاء التدمير التاريخى الأول على يد بختنصر الذى جعل مملكة يهودا ولاية تابعة لبابل، وهذا الملك قد غزا هذه المنطقة أكثر من مرة، وكان أكثرها شدة وقسوة تلك التى حدثت فى عام ٥٨٧م حين استولى على أورشليم، وأحرقها على آخرها، وهدم الهيكل، وأسر جميع سكان المدينة، وأخذهم أسرى إلى بابل.

وبعد فترة زمنية قد تبلغ نصف قرن تقريبًا استعان بهم ملك الفرس «قورش» وسمح لهم بالعودة إلى فلسطين بعد أن احتل هو مملكة بابل، وسمح لهم بالعودة

إليها، ولكن كثيرين منهم فضلوا البقاء بعيدًا عن أرض فلسطين، ووقع من عاد منهم تحت السيادة الفارسية، ولم تكن لهم لا دولة، ولا مملكة، ولا إقامة مستقلة، وإنما كانوا عبيدًا لقورش، فهم انتقلوا من أسر بابل إلى أسر الفرس بقيادة قورش.

ثم تعرضت المدينة كلها للتدمير الثانى بعد ذلك فقد دمرت على يد بطليموس الأول الذى كان يحكم مصر، فقد هدم المدينة، ودك أسوارها، وأخذ منهم عشرات الآلاف من الأسر، وكان ذلك فى القرن الرابع قبل الميلاد تقريبًا، ثم تكرر الغزو بعد ذلك، ومن يقرأ تاريخ هذه المنطقة يجد أنه لا يمضى قرن -وربما أقل- إلا ويغزوها أحد جيرانها، ويدمرها، ويدمر كل ما فيها حتى إنهم فى سنة ٦٣ق.م دخل الجيش الرومانى المدينة واستباح هيكلها وفتك بسكانها.

وفى عهد القائد الرومانى «تيطوس» تم تدمير أورشليم وتدمير هيكلها تدميرًا كاملاً، وذبح اليهود فيها، وأسر من أسر من شعبها، ومنذ ذلك التاريخ انقطعت صلة اليهود تمامًا بفلسطين، فلم تقم لهم بها دولة، ولم يتأسس لهم بها حكم، وقد تفرقوا فى أقطار الأرض شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، واستمرت هذه المرحلة التى تسمى فى مرحلة الشتات أكثر من سبعة عشر قرنًا من الزمان.

وظل الأمر كذلك إلى أن بدأ التفكير فى العودة مرة أخرى إلى فلسطين. وشهد القرن التاسع عشر الميلادى نشاطًا ملحوظًا حول تحقيق هذا الحلم لأسباب تاريخية -ذكرنا بعضها ونحن نتحدث عن الاستشراق والتبشير، وعن دور المستشرقين ودور أوروبا فى هز كيان الخلافة العثمانية ومحاولة القضاء عليها -لأنه- أيها الإخوة- لم يتم إقامة هذه الدولة، أو التفكير فيها بشكل عملى إلا بعد أن وصلت الخلافة العثمانية بسبب المؤامرات التى حيكت حولها إلى مرحلة من الضعف الذى هيأ لأحد الصهاينة، أو مؤسس الصهيونية المعاصرة وهو تيودور هرتزل أن يقابل السلطان عبد الحميد؛ ليتفاوض معه على تأسيس دولة فى أرض فلسطين، كما سنعرض لذلك فيما بعد.

هذه فكرة موجزة عن قضية الأرض، وقضية وجود إسرائيل فى هذه المنطقة من العالم وجودًا تاريخيًا، وهل لها أصول، أو حقوق تاريخية، أو ليس لها حقوق تاريخية؟ وقد يزداد الأمر تفصيلاً فيما بعد -إن شاء الله تعالى.

الصهيونية معنى ودولة

ونأتى الآن إلى الحركة الصهيونية، أو الصهيونية العالمية، ما معنى كلمة الصهيونية؟ ما سبب هذه التسمية؟ ما دلالتها؟ ومتى ظهرت على السطح الثقافى، والسياسى والعالمى؟ لأن هذه الأسئلة تقفنا على التاريخ الحقيقى لهذه الحركة الصهيونية .

أولاً: كلمة الصهيونية هى: نسبة إلى جبل، أو تل موجود فى جنوب بيت المقدس يسمى جبل صهيون، وتنسب إليه الحركة وأحيانًا تطلق كلمة صهيون على القدس كلها، ليس على الجبل الذى يقع فى جنوب بيت المقدس فقط، وإنما قد يطلق أحيانًا على القدس كلها، وأحيانًا يطلق على الجزء الجنوبى من بيت المقدس، ولذلك سميت هذه الحركة بالحركة الصهيونية نسبة هذا الجبل. لماذا؟.

لكثرة الأساطير التى حاكها أبناء صهيون حول هذا الجبل، وحول أكذوبة أن الرب قد وعد إسرائيل وأبناء إسرائيل -بل أكثر من هذا- قد وعد نبى الله إبراهيم وذريته -من بعده- أن يهب لهم هذه الأرض، وما حولها، وهذه إحدى الأساطير الدينية التى أسس بنو صهيون دولتهم عليها، أسطورة الوعد الإلهى بالأرض المقدسة.

إذا كانت التسمية نسبة إلى جبل صهيون، فما معنى كلمة الصهيونية؟ هل هى جماعة؟ هل هى جمعية؟ هل هى مدرسة فكرية؟ يعرف المؤرخون الحركة الصهيونية بأنها جمعية لم تؤسس بشكل شرعى، وإنما مجموعة من المفكرين -كما تقول (دائرة المعارف البريطانية)- تقول: «إن اليهود فى طول التاريخ وعرضه يتطلعون إلى افتداء إسرائيل، وإلى اجتماع الشعب اليهودى فى فلسطين، واستعادة الدولة اليهودية، وإعادة بناء الهيكل وإقامة عرش داود فى القدس مرة ثانية، وأن يتولى إمارتها من نسل داود» (دائرة المعارف البريطانية) وهى تشرح فكرة تأسيس الجمعية الصهيونية: أن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل، واجتماع الشعب اليهودى من شتى بقاع العالم فى أرض فلسطين؛ ليستعينوا بما شاءوا على إعادة

الدولة اليهودية، ويقوموا ببناء الهيكل، وإقامة عرش داود فى القدس، وأن يتأمر أو يتولى إمارتها أمير من نسل داود.

ثانيًا: فيمكن من هذا التحليل أن نعرِّفَ الحركة الصهيونية بأنها: حركة سياسية دينية تستخدم الوسائل المختلفة؛ لتجميع اليهود من شتى أنحاء العالم على أرض فلسطين؛ ليعملوا على إقامة الدولة العبرية اليهودية، وبناء الهيكل، واستعادة مجد بنى إسرائيل مرة ثانية.

وعند قراءتنا لتاريخ هذه الحركة سوف نرى أنها تستخدم الوسائل غير المشروعةأكثر من الوسائل المشروعة لتحقيق هذا الحلم.

والبعض يعرفها بأنها: حركة قومية يهودية ينتمى إليها يهود الشتات من العالم، ولا علاقة لهذه الحركة العنصرية باليهودية الصحيحة إطلاقًا، لماذا؟ لأنهم يرون أن اليهودية الصحيحة تعتمد على نصوص من التوراة، أما الحركة الصهيونية المعاصرة؛ فإنها تعتمد، وتستمد عقائدها من (التلمود) وتحاول أن تجد لها نسبًا تاريخيًا فى التوراة عن طريق تحريف النصوص أحيانًا، واختلاق الأسفار أحيانًا وبعض المفكرين يحاول التخلص من هذه الحركة العنصرية، ويرى أنها حركة لا إنسانية؛ لأنها تحاول أن تزيف الحقائق الدينية لصالح الأهداف السياسية، وقد يزداد الأمر وضوحًا فيما بعد.

إذن يمكن أن نختصر التعريف فى عبارات موجزة أن الحركة الصهيونية: جمعية كوّنها، وشكلها بعض مفكرى اليهود الذى حاولوا أن يجمعوا اليهود من الشتات، ويعملوا على إقامة الهيكل مرة ثانية، وإقامة دولة إسرائيل مرة ثانية، وأن يحكم هذه الدولة أحد أبناء داود، وتقوم هذه الأفكار التى يلتفون حوله على مجموعة من المبادئ والأساطير التى اختلقوها ونسبوها إلى (التوراة).

وسوف أتلو على حضراتكم فيما بعد بعض النصوص الزائفة التى يحتكم ويرجع إليها بعض الصهيونيين تأييدًا لأكذوبة وأسطورة أن الحركة الصهيونية حركة دينية ينبغى أن يلتف حولها كل من ينتمى إلى اليهودية.

ثالثًا: فهذه التسمية إذن لها بعد دينى، كما أن تسمية دولة إسرائيل بإسرائيل أيضًا لها بعد دينى، عليكم أيها الأخوة ألا تنسوا هاتين الحقيقتين: كلمة صهيون نسبة إلى جبل مقدس، وكلمة إسرائيل نسبة إلى نبى الله وهو مقدس، فكأن التسميتين يحملان معهما دلالة دينية، ويستدلون على ذلك بنصوص من التوراة -كما سنرى فيما بعد.

أولاً: قداستها: إن كلمة صهيون هذه اعتبرها اليهود، أو الحركة الصهيونية تعتبرها كلمة مقدسة؛ لأنها تعبر عن مكان مقدس، ويستدلون على تقديس هذا المكان بكثير من النصوص التى ألصقوها بالتوراة، وخاصة بعض الأسفار التى ربما يجد القارئ لكل من هذه الأسفار -لأول وهلة- أن هذا الكلام الموجود فيها يستحيل أن ينسب إلى الرب -تعالى- وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

مما جاء فى (سفر أشعياء) سفر ٥٢ من ١ : ٧ بالنسبة لجبل صهيون بالذات، دلالة على أن هذا الجبل تقدسه الحركة الصهيونية ماذا جاء فى هذا السفر يقول: «هذا على لسان الله -سبحانه وتعالى- وحاشا لله أن يقول كذلك:

١- استيقظى، استيقظى، البسى عزك يا صهيون، البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة؛ لأنه لا يعود يدخلك -فيما بعد- أغلف، ولا نجس (الأغلف، والنجس يعنون بهما النصرانى) انتفضى من التراب قومى اجلسى يا أورشليم انحلى من رباط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون، ما أجمل على الجبال قدمى المبشر المخبر بالسلام، المبشر بالخير، المخبر بالخلاص القائل لصهيون: قد ملك إلهك الأرض. وعندما قالت صهيون: قد تركنى الرب وسيدى نسينى؛ كان رد الرب عليها كما يدعى اليهود: حى أنا يا صهيون إنك تلبسين كلهم كحلى، وتنطقين بهم كعروس، هكذا قال السيد الرب: ها إنى أرفع إلى الأمم يدى، وإلى الشعوب أقيم رايتى؛ فيأتون بأولادك فى الأحضان وبناتك على الأكتاف يُحمَلن إليك يا صهيون.

وفى أخبار الأيام الأولى ورد أن الفلسطينيين قد انتصروا على شاؤل ملك اليهود وقتلوه وسائر ولده، فولى بنو إسرائيل داود ملكًا عليهم متوسلين به أن يقبل ذلك؛ حتى يتمكنوا من قتل الفلسطينيين، وقد استجاب داود لطلبهم، واتخذ من جبل صهيون حصنًا له.

تقول التوراة: جبل صهيون هو جبل الرب، ومسكنه ومستقر بيته، وبه الهيكل، وبه يمثل جزء من عقيدتهم القائمة على خصوصية الإله؛ ففى إطار الحديث عن داود -عليه السلام- فى العهد القديم ورد أن داود أراد أن يبنى بيتًا للرب، ولكن الله نهاه عن ذلك لكثرة حروبه وإراقته للدماء وعدم أهليته لهذا العمل - كما أخبره- بأن ولدا من نسله يختاره الرب يكون له أبًا، ويكون الولد له ابنًا هو الذى سيبنى ذلك الهيكل، وقد بنى سليمان بيت الرب هذا، تحقيقًا لوعد الإله؛ ليجلس على كرسى مملكة الرب على إسرائيل.

هذه كلها نصوص تبين مدى التصاق الفكرة الصهيونية بالعقيدة الدينية التى يختلقون لها الأكاذيب، ويلصقونها بالتوراة.

٢- ورد فى (سفر أشعياء): «ارفعى عينيك يا صهيون ارفعى عينيك حواليك، انظرى قد اجتمعوا كلهم جاءوا إليك يأتى بنوك من بعيد، وتحمل بناتك على الأيدى، حينئذ تنظرين، وتنيرين، ويخفق قلبك ويتسع؛ لأنه تتحول إليك ثروة البحر، ويأتى إليك غنم الأمم، هكذا تكلم الرب إله إسرائيل قائلاً: اكتب كل الكلام الذى تكلمت به إليك فى سفر؛ لأنه ها أيام تأتى يقول الرب" وأرد سبى شعبى لإسرائيل، ويهوذا، وأرجعهم إلى الأرض التى أعطت آباءهم إياها؛ فيمتلكونها من البحر إلى النهر».

ثانيًا: فلسطين محرمة على غير اليهود: أيضًا هناك نصوص تصرِّح بأن هذه الأرض محرمة على غير اليهود، ونصوص تصرح بأن جبل صهيون جبل مقدس، ونصوص تصرح بأن هذه الأرض لإسرائيل لا لغيرها.

٣- فورد فى (سفر هوشه): لأن بنى إسرائيل سيقعدون أيامًا كثيرة بلا ملك، وبلا رئيس، وبلا ذبيحة، وبلا تمثال، بعد ذلك يعود بنو إسرائيل ويطلبون الرب إلههم وداود ملكهم، ويفزعون إلى الرب، وإلى جوده فى آخر الأيام؛ فتعطى لهم الأض، وترنمى.

افرحى يا بنت صهيون؛ لأنى ها أنا ذا آتى، وأسكن فى وسطك -هكذا يقول الرب- فيتصل أمم كثيرة بالرب فى ذلك اليوم، ويكون لى شعبًا؛ فأسكن فى

وسطك؛ فتعلمين أن رب الجنود قد أرسلنى إليك، والرب يرث يهوذا نصيبه فى الأرض، ويختار أورشليم، وأسكنوا يا كل البشر قدام الرب؛ لأنه قد استيقظ من مسكن قدسه فى جبل صهيون.

هناك نصوص كثيرة فى حقيقة الأمر لا نجد فيها روح إله يتكلم، ولا معانى ربوبية تحنوا على عبادها، وإنما هى روح عنصرية سياسية، وربما اقتصادية حاكها هؤلاء؛ لينسجوا فى ضوئها أسطورة الأرض وأسطورة العودة إلى جبل صهيون؛ حتى إنك تقرأ أمثال هذه العبارات:

٤- ورد فى (سفر عويدا) مثلاً: «وأما جبل صهيون؛ فتكون عليه نجاة ويكون مقدسًا، ويرث بيت يعقوب مواريثهم، وسبى هذا الجيش من بنى إسرائيل؛ يرثون الذين هم من الكعنانيين، وسبى أورشليم الذين هم فى صفارد؛ يرثون مدن الجنوب، ويصعد مخلصون على جبل صهيون ليدينوا جبل عيسو، ويكون الملك للرب إشارة إلى حدود الدولة الصهيونية من الشمال والجنوب والشرق والغرب.

وأيضًا نجد فى هذه النصوص بعض الأفكار العنصرية التى بنى عليها مؤسس الحركة الصهيونية السياسية المعاصرة أسطورة: شعب الله المختار، وأسطورة أن إسرائيل اصطفاهم الله دون سائر البشر حتى إن الوعد فى بعض النصوص يرد أنه لأولاد إبراهيم، وينسى مؤسس الحركة الصهيونية أن العرب أيضًا هم من ولد إبراهيم، ويجعل الوعد خاصًا بمن؟ بنسل إبراهيم من أبناء يعقوب فقط!

نجد فيها فكرة أن: «أرض إسرائيل، لا يوضع لها حدود جغرافية نهائيًا، وإنما نجد فى النصوص حيث يوجد قدمك -أيها الجندى- فهى آخر ملكك.

ونجد فيها نصوصًا. تدل على أنهم لا يسمحون لغير اليهود بالإقامة فى وسط هذه الأرض؛ لأنهم سيكونون كالمناخيس فى ظهورهم تجسيدًا لفكرة العداء، وفكرة القهر، وفكرة السيطرة ينطق كل حرف من أحرف هذه النصوص بمعانى الغدر والخسة والنذالة والسطو على أموال وعلى أرزاق الآخرين.

هذه بعض النصوص -كما قلت- التى تؤيد الأسطورة الدينية التى بنيت عليها قضية العودة إلى الأرض وقضية نسبة الحركة إلى جبل صهيون باعتباره جبلاً مقدسًا.

إذن نستطيع أن نقول: إن هذه الحركة تأسست على فكر دينى عقائدى تحتل هذا الفكرالدينى أهداف سياسة. وتتخلل هذا الفكر الدينى أفكار عنصرية، ونستطيع أن نلمح فى هذه النصوص موقف الحركة الصهيونية من أصحاب الديانتين التاليتين؛ المسيحية، والإسلامية حيث يصفون المسيحية، والإسلامية بالنجس، والغلف إشارة إلى هاتين الديانتين ومن يدين بهما.

****

الجذور التاريخية لحركة الصهيونية العالمية

ما هى الجذور التاريخية لهذه الحركة الصهيونية؟ هل هناك عام محدد أو عقد محدد من الزمن يمكن أن نعتبره بداية طبيعية لهذه الحركة السياسية، أو الصهيونية؟ فى واقع الأمر من الصعب أن نحدد عامًا نستطيع أن نجعله بداية طبيعية لهذه الحركة كحركة تاريخية، لكن يمكن أن نحدد بداية طبيعية للصهيونية السياسية والقومية بالذات، ونحن نتكلم عن «تيودور هرتزل» مؤسس الصهيونية المعاصرة، لكن الصهيونية التاريخية لم تكن وقفًا على «تيودور هرتزل» وإنما يأتى هذا الرجل ممثلاً حلقة فى سلسلة امتدت هذه السلسلة تاريخيًا إلى ما قبل ذلك بقرون وقرون.

ولذلك أود أن أنبه هنا إلى أن هناك رباطًا تاريخيًا بين الماسونية العالمية والصهيونية العالمية، الماسونية العالمية كحركة يهودية، والصهيونية العالمية حركة يهودية، أيهما أسبق؟

ربما تكون الماسونية من ناحية الجانب التاريخى، وربما أيضًا تكون الصهيونية من جانب العمل، والنشاط التاريخى، ولعل كثيرًا من المؤرخين يرون أن الحركتين قد نشأتا -ربما- فى وقت واحد، ولهدف واحد -وإن اختلفت التسميات، واختلفت حقول النشاط، ووسائل النشاط كما سنرى فيما بعد.

(١)

لكن على أية حال نحن نجد أن بعض المؤرخين ينبه أن تاريخ الصهيونية يمكن تقسيمه إلى مراحل أربعة خاصة أننا نجد هذا التقسيم عند أشهر المؤرخين اليهود فى مصر، وهو ليفى أبو عسل، يقول فى تأريخه للحركة الصهيونية فى كتابة «يقظة العالم اليهودى» والذى حدد فيه تاريخ الحركة الصهيونية بأربع مراحل فقال: «نحن إذا أمعنا النظر جيدًا نرى أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعة أزمنة مختلفة.

الأول: هو زمن التوراة، **والثانى:** هو الزمن السابق على تيودور هرتزل، **والثالث:** الزمن المعاصر لتيودور هرتزل، والذى يبتدئ من سنة ١٩٠٤م وينتهى

بنهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، أما الزمن الرابع: فربما يمتد ليشمل وعد بلفور الذى كان شديد الإعجاب بالفلسفة اليهودية كما كان شديد التعاطف والتأثر بما جاء فى التوراة عن الشعب المختار والوعد الإلهى بأرض فلسطين، وربما يمتد أثر هذا الموقف إلى وقتنا الحاضر الآن.

هذا التقسيم ليس تقسيمًا دقيقًا، لكنه تقريبى، وعلى كل حال، كان أول من شيد صرح الصهيونية، ووطد دعائمها، ونشر مبادئها بشكل منظم، وربما شكل مؤسسى هو تيودور هرتزل الذى سوف نتحدث عنه -فيما بعد- إنما قبل هذا التاريخ كان النشاط الصهيونى -ربما- كان يميل إلى الفردية أكثر منه إلى الجماعية، ولم تعرف الصهيونية روح العمل الجماعى إلا فى القرن التاسع عشر، وربما فى بعض عقود متأخرة من القرن الثامن عشر، وما قبل ذلك كانت عبارة عن جهود فردية آمن بها المحافظون، وعملوا على تنشيط الدعوة إلى أفكارهم، وأعلنوا فكرة العودة إلى أرض فلسطين التى تسللت إليها هذه الدعوة، والتف حولها الصهيونية المنظمة فيما بعد.

ولكثرة الخلافات حول تاريخ هذه الحركة نجد أن بعض المؤرخين يغالى أحيانًا فيصل بتاريخها إلى نبى الله موسى -عليه السلام- ونجد أن ليفى أبو عسل مؤرخ هذه الحركة يقول: «إن موسى -عليه السلام- كان أول من شيد صرح الصهيونية، ووطد دعائمها، ونشر مبادئها» لكن -أيها الأخوة- إن الواقع أثبت أن الصهيونية -كما نقرأ تاريخها- ليست إلا حلقات فى سلسلة لا يمكن العودة بها إلى نبى الله موسى -عليه السلام-[١].

(٢)

كما نجد بعض المؤرخين فى (دائرة المعارف البريطانية) أيضًا يمد هذه الحركة بجذورها، ويحاول أن يضع لها حلقات، أو مسافات تاريخية ترتبط كل مسافة بشخص معين، فيبدأ بحركة المكابيين التى أعقبت العودة من السبى البابلى، والتى كان من أول أهدافها العودة إلى صهيون وبناء هيكل سليمان، وهذه العودة تمت على يد قورش ملك الفرس.

---

(١) راجع فى تقسيم تاريخ الحركة. ص١٦- ٢٢ من كتاب يقظة العالم اليهودى، وانظر كتاب: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى، ص٦٠، تأليف إسماعيل الكيلانى، ط المكتب الإسلامى، دمشق.

والحركة الثانية يؤرخ لها «بيباراكوخيا» هذا اليهودى الذى أثار الحماسة فى بنى قومه، وحثهم على السعى للتجمع فى أرض فلسطين، وإقامة الصلاة فوق جبل صهيون.

ثم تمتد الحركات رويدًا رويدًا إلى أن تصل بنا إلى حركة منشئة بنى إسرائيل التى تمت سنة ١٦٠٤ وكان يدعو إلى توطين اليهود فى بريطانيا، توطئة لإعادتهم إلى أرض فلسطين، ويبدو أن هذه الحركة كانت النواة الأولى للصهيونية الحديثة التى وجدت لها أرضًا خصبة فى بريطانيا حيث ترعرعت، ونمت، واستطاعت -فى مدى ثلاثة قرون- أن تسخر جميع القوى الإنجليزية فى تحقيق أهداف اليهود فى فلسطين.

ويبدو أن هذه الفترة التاريخية هى التى شهدت حركة الإصلاح الدينى على يد «مارتن لوثر» والتى شهدت أيضًا انتقالاً نوعيًا للعلاقة بين المسيحية واليهودية -من جانب- على يد «مارتن لوثر» والتى بدأت تشاهد، أو تزامن قضية الإحساس بضرورة الخلاص من اليهود فى أوربا، من كل دول أوربا، وبدأت حالة الكراهية لليهود فى أوربا، والعمل على تجميع شملهم فى أرض فلسطين مستعينين أيضًا بالأساطير الدينية التى أسستها الحركة الصهيونية قبل ذلك.

وكثير من المؤرخين يعتبرون هذه الفترة أخصب الحركات التى تجمعت حولها عواطف الأوربيين خاصة المثقفين منهم؛ لتشحذ هممم وعقول الأوربيين بالتعاطف مع الحركة الصهيونية، ودعوة اليهود من الشتات، ومناداتهم بالعودة إلى فلسطين إحياءً للمملكة الداودية والعمل على إعادة بناء الهيكل فى أرض فلسطين، وبالذات على جبل صهيون.

من المهم أن نشير إلى بعض الحركات التى ارتبطت بأسماء معينة؛ حتى نصل إلى مؤسس الحركة الصهيونية السياسية العالمية، والذى أعطاها بعدًا تاريخيًا على مستوى العالم، وهو «تيودور هرتزل».

فعلى سبيل المثال وجدنا حركة «شبتاى ليفى» فى سنة ١٦٧٦ تاريخ وفاة هذا الرجل، هذه الحركة تولى قيادتها هذا المفكر «شبتاى ليفى» وكانت من أشد الحركات الصهيونية فى وقتها عنفًا، وتعصبًا فى نهاية القرن السابع عشر تقريبًا، حتى إن هذا الرجل ادعى أنه المسيح المنتظر.

وما لبثت هذه الحركة أن أحدثت رد فعلى عكسى، فجاء «مندلسون» يدعو اليهود والمنتمين إلى الحركات الصهيونية أن يتقبلوا العيش مع جيرانهم فى البلاد التى يعيشون فيها، وأن يكتفوا بالجانب الروحى من الديانة اليهودية، ويهملوا الجانب السياسى، هذه العبارة مهمة جداً فى هذه المرحلة من التاريخ؛ لأنها تدلنا على أن أهداف الحركة الصهيونية -وإن تشبثت بنصوص دينية- إلا أنها لم تكن دينية خالصة، وإنما كان لها أهداف سياسية ربما كانت هى الأغلب فيما بعد.

(٣)

نابليون والصهيونية:

وأيضًا من الحركات التى كان لها أثر كبير الحركة الصهيونية التى قادها «نابليون بونابرت» قائد الحملة الفرنسية على مصر، وعلى الشرق هذا القائد الذى زورت حملته على أنها جاءت إلى مصر بقصد التنوير، وبقصد نشر الحضارة، وبقصد نشر العلم، ولكن الأهداف الحقيقية لهذه الحملة قد أعلن عنها نابليون بونابرت -نفسه- فى وثائق أدعوكم إلى قراءتها فى الكتاب العظيم الذى جمعه وطبعه -فى شكل وثائق تاريخية- الصحفى محمد حسنين هيكل فى كتاب بعنوان: (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل).

فى هذه الوثيقة اعترف نابليون بأنه كان على علاقة باليهود، وأنه صاحب الدعوة إلى المجلس الأعلى اليهودى فى سنة ١٨٠٦ للاجتماع بهم لإثارة حماستهم، وأطماعهم وتحريضهم على مساندته فى احتلال الشرق العربى واعدًا إياهم بمنحهم أرض فلسطين، فى الوقت الذى كان اليهود فيه فى فرنسا كانوا قد بدءوا نشاطًا إيجابيًا منذ ١٧٩٨ تمكن كتابهم وخطباؤهم من إثارة الحماسة اليهودية؛ لإعادة بناء الدولة فى أرض فلسطين[1].

وقد استغل نابليون عواطف اليهود، فحرضهم على جمع الأموال لتمويل حملته على مصر، وقد ألقى أحد حكماء اليهود خطابًا خطيرًا فى هذا الاجتماع كانت كلماته كلها عبارة عن مادة لكتاب ظهر -فيما بعد- بعنوان (بروتوكولات

---

(١) انظر: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: محمد حسنين هيكل، ص٣١، ٣٢، ط دار الشروق.

حكماء صهيون) حيث حث الفرنسيين فيه، أو اليهود بالذات على التضحية بالمال من أجل العودة، وبناء الدولة، وبناء هيكل أورشليم، كما حثهم على تشكيل مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى البلدان التالية، وحدد هذه البلاد ابتداء من إيطاليا، وسويسرا، والمجر، وبولونيا، والسويد، وألمانيا، وتركيا وتكوين مجالس منتخبة فى هذه البلاد على أن تتولى تلك اللجنة فى كل بلد دراسة وسائل العودة لليهود المقيمين فى هذه البلاد إلى أرض فلسطين.

إخوانى القراء تأملوا معى هذه الملاحظة؛ لأنها على جانب كبير من الأهمية فى هذا الاجتماع الذى دعاهم إليه نابليون بونابرت، وقف أحد حكماء صهيون -على مرأى ومسمع من بونابرت الذى ادعى أنه جاء؛ لنشر التنوير والحضارة والعلم فى الشرق- ماذا قال هذا الرجل كان من أهم ما دعا إليه أن يؤسس فى كل بلد أوربى جمعية، أو مجلس ينتخبه اليهود المقيمون فى هذا البلد، أو تلك تكون مهمة هذا المجلس العمل على جمع اليهود المقيمين فى هذا البلد، وإثارة حماستهم، وأن يبحثوا معًا وسائل العودة لهؤلاء اليهود إلى أرض فلسطين.

لو استقرأت أسماء البلاد الأوربية التى ذكرها هذا المفكر فى هذا اللقاء تجدها شملت جميع دول أوربا بلا استثناء، مجلس يؤسس فى كل بلد أوربى يبحث عن أفضل الوسائل لعودة اليهود إلى أرض فلسطين بل لقد ذكر ما هو أنكى وأدهى من هذا.

صرح بهذه العبارة: دراسة تلك اللجنة لأفضل الوسائل المتاحة للعودة إلى أرض فلسطين للاستيلاء على مقدرات العالم بعد وضع السبيل المؤيدة إلى ذلك، وتكون قرارات هذه اللجنة ملزمة لجميع يهود العالم.

ثم بدأ هذا المفكر فى هذا الاجتماع أيضًا يحدد المناطق الجغرافية المؤسسة لدولة إسرائيل، فهى تبدأ من الوجه البحرى فى مصر؛ حتى يتمكنوا من السيطرة على البحر الأحمر، وعلى مياه النيل، ثم يتعاونون من أثيوبيا والحبشة، وهى البلاد التى كانت تقدم للملك سليمان الذهب، والعاج، والحجارة الكريمة، كما أن الإقامة بفلسطين سوف تسهل الاتصال بفرنسا -من جانب- وإيطاليا وأسبانيا عن طريق البحر الأبيض -من جانب آخر.

ثم بدأ يتحدث عن مزايا موقع فلسطين ومواردها، وأثر ذلك فى قوة الدولة المرتقب ميلادها، تأملوا معى مليًا ما جاء فى هذا الخطاب من تحديد جغرافى للدولة، ومن دعوة اليهود الموجودين فى أوربا قاطبة للعودة إلى فلسطين، ودعوة نابليون نفسه، واستعانته باليهود لكى يؤسسوا ويمولوا حملته على الشرق.

وهنا سؤال مهم جدًا: هل بعد ذلك يصح لمؤرخ أن يدعى -زورًا- أن حملة نابليون على مصر كانت هى بداية عصر التنوير فى مصر، وأن القصد من هذه الحملة كان هو نشر العلم والمدنية فى أرض مصر؟ أظن بعد هذه التصريحات لم يعد هناك مبرر لتزييف أكثر فى تاريخ المنطقة وفى تاريخ هذه الحملة بالذات.

بعد حركة نابليون نجد فى مسيرتنا التاريخية الحركة القوية التى قادها رجال المال اليهود بقيادة عائلة «روتشيلد» فقد قدموا الأموال الطائلة لشراء الأراضى فى فلسطين، وبناء المستعمرات منذ أواسط القرن التاسع عشر وساعدهم على ذلك بعض اليهود الذين تظاهروا بالنصرانية حتى وصلوا إلى رئاسة الوزراء فى بريطانيا، مثل اللورد «بكسون فيلد» رئيس وزراء بريطانيا فى عهد الملكة فيكتوريا، ومثل صاحب وعد بلفور فإن أصله يهودى أيضًا.

(٤)

ثم نصل بعد ذلك إلى الحركة الكبرى التى قادها المؤسس الحقيقى للصهيونية المعاصرة، وهو الصحفى النمساوى «تيودور هرتزل» الذى ولد فى سنة ١٨٦٠ توفى ١٩٠٤ وسوف أتكلم عن هذا الرجل بشىء من التفصيل -فيما بعد- لكن الذى يهمنى هنا هو أن نجعل هذا الرجل، وهذه الفكرة التاريخية التى نحن بصددها بداية التأسيس الحقيقى للصهيونية المعاصرة، أو لصهيونية ما بعد هرتزل، فيمكن اعتبار ما قبل هرتزل مجموعة حلقات أدت كلها -وبطبيعة البعد التاريخى- إلى تزايد نشاط الحركة الصهيونية جيلاً بعد جيل، وقرنا بعد قرن، إلى أن وصلت إلى قمتها فى عهد تيودور هرتزل، وقبل أن أتكلم عن هذا الرجل، وعن نشاطه علينا أن نضع هذا التاريخ أمام أعيننا ١٩٠٤ أواخر عهد الدولة العثمانية وفى خلافة السلطان عبد الحميد، وقلنا -ونحن نتكلم عن الاستشراق والتبشير- أن مما

تعاون عليه الاستشراق مع الاستعمار مع التبشير هو العمل على سقوط الدولة العثمانية، وأن مما تعاون عليه الاستشراق والتبشير والاستعمار، وحالفهم فيه مؤسس الصهيونية المعاصرة أن أتوا بـ«مصطفى كمال أتاتورك» الماسونى الصهيونى اليهودى الذى تربى فى أحضان يهود الدونمه، وربوه فى نوادى ألمانيا على الفكر القومى، وتولى بنفسه قيادة حركة الاتحاد والترقى التى عملت على إسقاط الخلافة العثمانية.

****

مرحلة التأسيس للصهيونية المعاصرة

إذن كان تيودور هرتزل على موعد مع هذا الظرف التاريخى الذى هيأ له فرصة ساعدته على أن يحقق أحلام الصهيونية المعاصرة فدعا إلى مؤتمر عقد فى «بال» بسويسرا، وطرح فيه مجموعة من الأفكار التى سميت فيما بعد (بروتوكولات حكماء صهيون) لتأسيس دولة إسرائيل وقد صرح هذا الرجل بعد المؤتمر بقوله: «اليوم ولدت الدولة اليهودية، وبعد خمسين عامًا سيراها العالم بالتأكيد» هذا الكلام تم فى سنة ١٨٩٥ تقريبًا وصرح أن الدولة الإسرائيلية أو الدولة الصهيونية سوف يراها العالم بعد خمسين عامًا، ولو راجعنا التاريخ سوف نجد أن ميلاد الدولة الحقيقى كان فى ١٩٤٨ وكان قرار التقسيم، والمسافة الزمنية، المحصورة بين مؤتمر «بال» بسويسرا وتاريخ ميلاد الدولة تقريبًا استغرق هذه الفترة التى أشار إليها تيودور هرتزل.

ومن المهم أن أشير إلى الأمور التى تضمنها هذا المؤتمر، والتى تمخض عنها هذا المؤتمر؛ لكى أضع هذه البنود أمام إخواننا العلمانيين الذين يتهاونون فى العناصر المكونة للهوية العربية الإسلامية عليهم أن يروا -الآن- وصايا تيودور هرتزل لبنى قومه، ويتأملوا فى أنفسهم ماذا يطرحون على أبناء جلدتهم الآن؟..!

بعضهم ينادى باللغة العامية مكان الفصحى، وبعضهم ينادى بإلغاء الإعراب، وبعضهم ينادى بفصل الدين عن الدولة، وبعضهم، وبعضهم..

أدعوهم أن يتأملوا وصايا هرتزل فى هذا المؤتمر، ماذا قال هرتزل بعد أن صرح بميلاد هذه الدولة بعد خمسين عامًا؟

١- لقد تم الاتفاق فى هذا المؤتمر -أيها الإخوة- على أن أول ما يعمل به أبناء صهيون التنشيط المستمر، والدعوة التى لا تنقطع على تعليم اللغة العبرية لأبناء اليهود.

٢- وإحياء الآداب اليهودية فى مضمونها اللغوى الكلاسيكى، التى كانت قد ماتت، واندثرت منذ عشرات القرون، لكنه لكى يؤسس دولة، لكى يبنى

قومية، لكى يضع نقطة يلتف حولها أبناء صهيون عليه أن يحيى هذه اللغة التى تمثل فى نظره، وفى نظر بنى جلدته رمز الوحدة الصهيونية، رمز الالتفاف حول الكتاب المقدس، اللغة العبرية، والآداب اليهودية.

٣- ثم ماذا؟ العمل على إنشاء صندوق تمويل للمشاريع اليهودية يمول عن طريق الجهود الذاتية مع وضع المنهج الأمثل للانتفاع بتلك البقعة المباركة من كافة جوانبها.

٤- كما تم الاتفاق فى هذا المؤتمر على تكرار عقد المؤتمرات؛ لتحقيق الآمال المرجوة لليهود فى أرض فلسطين.

وقد توجه الصهيونى «هرتزل» بعد ذلك إلى السلطان عبد الحميد؛ لكى يفاوضه فى تأسيس الوطن القومى لليهود على أرض فلسطين، ونحن نعلم أن هذه البقعة المباركة كانت تحت ولاية السلطان عبد الحميد باعتبارها إحدى دول الخلافة العثمانية، وتوهم هرتزل أن السلطان عبد الحميد بمقتضى الحالة المرضية حيث كانوا يسمون الخلافة العثمانية: بالرجل المريض -بمقتضى إحساس هرتزل بهذه الحالة المرضية للدولة العثمانية، كان قد توقع بأن السلطان عبد الحميد سوف يتهاون ويتنازل عن هذه البقعة المباركة للصهيونية، وظن ذلك تيودور هرتزل، وأخذ يرسل رسله إلى السلطان عبد الحميد، لكى يحدد له موعدًا للقائه ليتفاوض معه على أن يقطعه هذه الأرض؛ لإقامة الدولة الصهيونية عليها. وكان يحمل معه بعض الإغراءات المالية والاجتماعية؛ ليقدمها هدية للسلطان عبد الحميد؛ ليستجيب له فى تحقيق رغباته.

تكررت هذه العروض ثلاث مرات بين تيودور هرتزل، السلطان عبد الحميد كان اللقاء الأول فى يونيه ١٩٠١ واللقاء الثانى فى فبراير ١٩٠٢ واللقاء الثالث فى يوليه ١٩٠٣ وكانت المغريات التى حملها هرتزل، ليعرضها على السلطان عبد الحميد كرشوة أو جُعل فى مقابل تنازله عن أرض فلسطين ما يلى:

١- عرض عليه أن يسدد ديون تركيا كلها، وكانت ديونه كثيرة.

٢- ثم عرض عليه تطوير الصناعة بتركيا، والتجارة، وذلك من خلال إنشاء بعض البنوك التى يملكها اليهود، ويمولها برأس مالهم هم.

٣- ثم عرض عليه بعد ذلك إقامة جسور للسكك الحديدية عبر القارات المتصلة بها.

٤- وبعد ذلك عرض عليه أن يقوم بحملة إعلامية عالمية تدافع عن السلطان عبد الحميد، وعن سياسته فى المنطقة العربية فى مواجهة الدول الأوربية لعلمه أن الدول الأوربية كانت قد تمالأت كلها على السلطان عبد الحميد. بل إن فى هذا التاريخ كانت بعض الدول الإسلامية قد وقعت فريسة للاستعمار البريطانى، والفرنسى، والإيطالى فى بداية القرن العشرين.

٥- ثم عرض عليه بعد ذلك أن ينشئ فى المملكة، أو فى الخلافة جامعة عصرية لتعليم الشباب العلوم الحديثة بدلاً من أوربا.

٦- ثم عرض عليه هدية مالية قدرها مائة مليون جنيه ذهب، فضلاً عن وعود أخرى مقابل السماح فقط بإنشاء شركة يهودية فى فلسطين تشترى الأراضى الصحراوية غير المزروعة، وتوطن فيها اليهود.

وقد قوبلت -طبعًا- تلك المطالب من السلطان عبد الحميد بالرفض، والزجر وصرح السلطان عبد الحميد بأن الهدف هو إيجاد حكومة لليهود فى فلسطين، وليس مجرد قطعة أراضى صحراوية لا زرع فيها ولا ماء، ثم قال عبارته الشهيرة: «ولن يكون ذلك إلا على أجسادنا» هذه هى عبارة السلطان عبد الحميد الذى ظلمه التاريخ، صرح بهذه العبارة فى وجه من؟ فى وجه تيودور هرتزل: لن يكون ذلك السماح لليهود بإقامة شركة لشراء الأراضى فى أرض فلسطين: «لن يكون ذلك إلا على أجسادنا».

ثم تألف وفد آخر من اليهود من ثلاثة أشخاص، وقابلوا السلطان عبد الحميد -بعد ذلك- فأبى مقابلتهم، ووكل أمرهم إلى أحد موظفى الخلافة وتقريبًا هو: تحسين باشا، وقد تبين من المقابلة أنهم يرغبون من الدولة العثمانية أن تسمح بزيارة الأماكن المقدسة فى فلسطين، وبإنشاء مستعمرة قرب القدس، وذلك مقابل المغريات التى حملها تيودور فى المرة الأولى، وكذلك فى المرة الثالثة، وكان لتلك المحاولات أثرها فى إصدار قرار بقانون الجواز الأحمر، وكان خاصًا بكل يهودى

يدخل أرض فلسطين بقصد السياحة، أو الزيارة كما أن الحكومة منعت امتلاك الأراضى لليهود، أو استيطانهم فيها فكان كل يهودى يريد أن يدخل أرض فلسطين للزيارة له جواز خاص بالزيارة فقط، بحيث لا يسمح له بالإقامة فيها.

هذه المقابلات التى تمت بين هرتزل، والسلطان عبد الحميد كانت البداية الطبيعية لتأسيس الجمعية الصهيونية، أو الدولة الصهيونية، أو الدولة العبرية -إن شئتم- بشكل منظم فى حراسة الدول الأوربية وحراسة المال اليهودى؛ مستغلين فى هذا الظرف التاريخى وهو ضعف الخلافة العثمانية.

هذه هى مراحل تأسيس الحركة الصهيونية تاريخيًا، وقد مرت بحلقات متتالية كان أهمها من وجهة نظرى على الأقل: مرحلة أو حركة نابليون بونابرت، ثم حركة روتشيلد التى تولت جمع المال، والمرحلة الثانية وهى الأخطر هى مرحلة تيودور هرتزل.

هذا هو الجانب التاريخى الذى يهمنا فى هذه القضية وفى مسارها التاريخى.

****

ماهية الصهيونية وأبعادها الدينية

نأتى الآن إلى دراسة الحركة الصهيونية من حيث هى ما طبيعة هذه الحركة هل هى حركة دينية خالصة -كما يدعى البعض ويحاول أن يتصيد لها النصوص الدينية من التلمود ومن التوراة وهى نصوص زائفة كما قلت؟.

هل هى حركة قومية تنادى بأفضلية الجنس اليهودى، وأن ما عداه خلق لخدمة الجنس اليهودى، وقد يؤيدون هذا القول بنصوص -أيضًا- من التوراة، ومن التلمود توضح أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن غير اليهود هم من سلالة حصان نجس، وأنهم أُميون خلقوا لخدمة اليهود، أنهم لا يستحقون أن ينتسبوا، ولا يصاهروا، ولا يتزوجوا، ولا يزوجوا أحدًا من اليهود؛ فتكون الحركة عنصرية قومية؟

هل هى حركة سياسية لها أهداف سياسية تبغى من ورائها تأسيس حكومة عالمية تحكم العالم كله، وتستأثر بخيراته، وتستولى على مصادر ثروته تحت سمع وبصر مجموعة من النصوص الزائفة التى تتولى تنفيذها شركات عالمية تخصصت فى صناعة الأسلحة، واستخراج معادن وخيرات الأرض من باطنها، وجمع الثروات العالمية فى أيديهم، ثم تحاول السيطرة على العالم من خلال حكومة واحدة تحكم العالم..؟ ما طبيعة هذه الحركة -أيها الأخوة؟.

لا شك أن هذه المحاور الثلاثة كونها حركة دينية، كونها حركة قومية عنصرية، كونها حركة سياسية، هذه الأبعاد الثلاثة -كما قلنا- لها من يؤيدها، ويدافع عنها، خاصة إذا وجدنا أن من الصهاينة أنفسهم مفكرين يتبنون هذه القضية، أو تلك ويحاولون أن يوظفوا لخدمتها بعض نصوص من الأسفار التوراتية، وبعض نصوص من التلمود، ويحاولون أن يقهروا التاريخ لتفسير وتأييد وجهة نظرهم من أنها حركة دينية أو قومية أو سياسية.

وإذا أردنا أن نوضح القول حول هذه المحاور الثلاثة عن طبيعة هذه الحركة الصهيونية؛ نجد أن الكلام فيها قد يتداخل بحيث نجد أن آراء المفكرين الذين

يفضلون القول بأنها حركة قومية ينصون -أيضًا- على أنها لا تخلو من أهداف سياسية، كذلك الذين ينصون على أن الحركة الصهيونية حركة سياسية؛ يقولون إنها لا تخلو من أهداف قومية دينية؛ فهناك تداخل، لكن المعلم الأساسى للحركة بعد هرتزل تأخذ بعدًا سياسيًا قوميًا عنصريًا.

حركة قومية عنصرية:

ومن هنا نستطيع أن نوضح، أو نلقى الضوء على كل رأى من هذه الآراء بشىء من الإيجاز؛ لأن الأيديولوجية الصهيونية التى تميل إلى القول بأن الحركة هى فى أصلها حركة قومية يعتمدون على نصوص وضعوها بأيديهم فى سفر التكوين مثلاً يقولون -معتمدين على هذا النص- فى أن الأرض حق لإسرائيل، وأن الجنس جنس إسرائيل، وأن الذى يسكن الأرض الفلسطينية هم من بنى إسرائيل وليس من غير بنى إسرائيل، جاء فى (سفر التكوين) ما يلى: فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام -سيدنا إبراهيم عليه السلام- ميثاقًا قائلاً له: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير -نهر الفرات.

فمن هذا المنطلق الدينى أعلن الزعماء الصهاينة أن فلسطين قد أعطيت لنا من الرب، وذلك دون أن يسألوا أنفسهم عن مضمون هذا العهد، وعما إذا كان الاختيار الإلهى غير مشروط، أو له شروط، وبصرف النظر أن العرب من نسل إبراهيم، أم ليسوا من نسل إبراهيم، ثم يؤيدون هذا بنصوص أخرى مكذوبة فإن بعضهم يستدل بقوله، أو بما جاء فى نصوص التوراة أيضًا: «إن هذه الأرض أعطيت لنا وعدًا من الرب، ولنا عليها حق» فبدأت الحركة الصهيونية تقرأ الكتاب المقدس -كما يقول بعض المؤرخين- قراءة انتقائية يضعون أيديهم على نص ويبترونه من السياق العام، ويستدلون به على ما يريدون منه. مثل أفضليتهم كجنس، ومن أحقيتهم بالأرض دون غيرهم، ولذلك نجد مثلاً على سبيل المثال أن الرجوع إلى الكتاب المقدس عند حزب العمل، أو عند حزب الليكود إنما يراد منه تدعيم سياسة مؤداها أن فلسطين خاصة بالصهيونيين وحدهم بموجب منحة موقع عليها من الرب؛ فأى جنس غير صهيونى غير يهودى يدخل هذه الأرض يكون معارضًا لإرادة الرب.

لقد قال الرب لموسى فى نص سفر العدد: كلم بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة، وتخربون جميع مرتفعاتهم، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم، ومناخس فى جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها؛ فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم.

لاحظ النص: طرد، تخريب، قتل أى دم غير يهودى بنص التوراة عندهم التى حرفوها، يقولون إن القتل والتخريب وهدم البيوت سياسة توراتية كلفهم بها الرب. كل هذه النصوص -أيها الأخوة- موجودة فى سفر العدد.

أما سفر التثنية فلا تقتصر النصوص فيه على أن تطلب من الصهاينة اغتصاب الأرض فقط، ولا طرد أصحابها فقط، بل إنها تطلب منهم المذبحة، يقول النص: متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها، وعليك أن تطرد شعوبًا كبيرة من أمامك، ودفعهم الرب إلهك أمامك، وضربتهم؛ فإنك تحرمهم الإقامة فى الأرض، لا تقطع لهم عهدًا ولا تشفق عليهم، ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحوا اسمهم من تحت السماء «هل هذا نص إلهى -أيها الأخوة».

وفى سفر يشوع وهو سفر المذابح لا يؤخذ على أنه نص كلاسيكى عندما يدرس فى المدارس الإسرائيلية، ولكن هو كذلك وسيلة إلى الإعداد النفسى للمجندين فى الجيش، هذ السفر الذى يسمى عندهم سفر المذابح، يدربون الجنود فى الجيش على قراءة وحفظ وتنفيذ ما جاء فى هذا السفر، والوعاظ العسكريين الربيين منذ غزو لبنان يدعون إلى الحرب المقدسة. وقد حدد لهم الموضوع الأساسى أحد الكهنة الربانيين برتبة كابتن بقوله: إننا لا ينبغى أن ننسى المنابع الكتابية التى تبرر هذه الحروب، والتى تبرر وجودنا هنا، إننا نؤدى وجودنا الدينى اليهودى بوجودنا هنا، لقد كتب علينا أداء هذا الواجب الدينى التعبوى وهو: أن نغزو الأرض ونحارب العدو.

ونجد أن التلاعب بالنصوص ابتداءً من مجال علم الآثار حتى الكتب المدرسية هى القضية التى يتنافس فيها الأحبار، والمفكرون الصهاينة، التلاعب

بالنصوص العقائدية؛ إما من (التلمود) أحيانًا، أو من أسفار التوراة أحيانًا أخرى.

هنا نستطيع أن نقول: إن الذين يفسرون الحركة على أنها حركة قومية؛ يجدون لذلك مبررًا فى نصوص التوراة التى تنادى بأفضلية الجنس، وأحقية الأرض، وتنادى فى نفس الوقت بعدم جواز إقامة أى فرد غير يهودى على أرض فلسطين؛ فيجعلون هذه الحركة حركة قومية تنادى بأفضلية الجنس اليهودى، وأحقية الجنس الصهيونى، أو اليهودى بالإقامة فى هذه الأرض بمقتضى وعد الرب، وهى أسطورة -كما قلنا- أو أحد الأساطير التى أسس عليها اليهود قضيتهم أمام العالم.

حركة دينية:

بينما يرى البعض الآخر أن هذه الحركة هى حركة دينية نابعة من الفكر الدينى اليهودى الخالص بمقتضى النصوص التى نجدها أحيانًا تحت أيدى دعاة القائلين بأنها حركة قومية، والنصوص التى نجدها تحت أيدى القائلين بأنها حركة سياسية هؤلاء معهم نصوص وأولئك معهم نصوص، فوجدنا فريقًا من المحللين يرى أن هذه الحركة، حركة دينية نابعة من الكفر الدينى اليهودى التوراتى الزائف، وما يتضمنه هذا الفكر من نظريات وعقائد، يأتى فى مقدمة هذه العقيدة فكرتهم عن المسيح المخلص الذى سيأتى فى آخر الزمان، أو فى الألفية الثالثة؛ لينقذ اليهود من الاضطهاد الذى وقع عليهم، ويحررهم من الشتات..

ثم تأتى بعض الأفكار الأخرى التى ترتقى عندهم إلى مستوى العقائد كاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، والنصوص فى التوراة موجودة، والاعتقاد بالأرض والعودة إلى الأرض، والنصوص موجودة، ويشكل هذا كله مزيجًا يفعل فعله فى وجود ونشاط هذه الحركة الصهيونية عند أصحاب هذا الرأى القائلين بأنها حركة دينية، أصحاب القائلون بأنها حركة قومية معهم نصوص، والقائلون بأنها حركة دينية معهم أيضًا نصوص.

حركة سياسية:

لكن التحليل الثالث لهذه الحركة يرى أنها حركة سياسية، وإن كانت لا تخلو من أهداف ونوازع، أو مستندات ووثائق دينية لكن أهدافها أهداف سياسية بالدرجة

الأولى، سعى أصحابها إلى تنفيذ فكرهم السياسى، ولا مانع أن يستغلوا المواقف العلمانية؛ ليستفيدوا بالفكر العلمانى فى تنفيذ مخططاتهم؛ فيعملوا على استغلال الظروف السياسية، ويحاولوا إقناع اليهود أنهم أمة لها حق تقرير المصير، ولكنهم استندوا فى التنفيذ إلى أفكار دينية مستقاة من التراث الدينى اليهودى، لما فى الفكر الدينى من تأثير فى إثارة المشاعر، وحشد القوى، وإثارة الطاقات الكامنة فى النفوس لتنفيذ وعد الرب بالأرض، وبأفضلية الشعب.

ويتلخص رأى هؤلاء القائلين بأنها حركة سياسية فى أن الحركة الصهيونية هى فى جوهرها حركة علمانية لا تستند إلى أى فكر دينى إلا عند الحاجة، لكنها فى وسائلها، وتخطيطها، ومؤتمراتها، ووسائلها العملية علمانية خالصة قد أضفت على هذا النشاط العلمانى طابع دينى لما له من تأثير فى النفوس كما قلنا من قبل.

ويستدل أصحاب هذا الرأى على أن الحركة الصهيونية حركة سياسية بأن تاريخ الزعماء كله تاريخ علمانى، ولعل من أوضح الأدلة على صحة هذا الرأى أقوال زعماء الحركة الصهيونية أنفسهم التى تدل على هذا الطابع العلمانى دلالة واضحة، حتى إن هرتزل أكبر مؤسسى هذه الحركة قد قال: إننى لا أنقاد لأى دافع دينى. ونقرأ فى كتابه «الدولة اليهودية» الذى ينظر إليه على أنه أحد الكتب المقدسة لهذه الحركة لما تحدث عن شكل الحكومة التى ستحكم الدولة عند قيامها تساءل قائلاً: هل سننتهى إلى حكومة دينية، ثم أجاب قائلاً: لا بالتأكيد، إن العقيدة تجمعنا، والمعرفة تمنحنا الحرية، ولذلك سنمنع أى اتجاهات دينية تتصدر قيادتنا من جانب الكهنوت بالذات سوف نحصر كهنتنا داخل المعابد، كما سنحصر الجيش داخل الثكنات، وسينال كل منهما ما يليق به من احترام رفيع، ولكن لن يسمح لهما بالتدخل فى شئون الدولة؛ لأن ذلك سيجلب علينا صعوبات فى الداخل والخارج.

هذا النص صرح به تيودور هرتزل كدستور للحركة الصهيونية، ونشاطها -فيما بعد- وهذا ما جعل كثيرًا من المفكرين يرون أن الحركة الصهيونية هى حركة سياسية فى أهدافها ومقاصدها، وإن تسترت أحيانًا ببعض النصوص الدينية، وعندما زار هرتزل القدس قبيل وفاته انتهك العديد من الشعائر الدينية اليهودية؛

ليؤكد أن قضيته منفصلة عن القضية الدينية تمامًا، وكان صديقه فى هذه الزيارة «ماكسنوردو» فى سنة ١٩٢٣ وهو أحد الزعماء الصهيونيين، وكان ملحدًا يجاهر بالإلحاد، وقد وصل إلى حد القول: «بأنه سيأتى اليوم الذى يحتل فيه كتاب هرتزل مكانة تساوى مكانة الكتاب المقدس ذاته، حتى بالنسبة للمتدينين بالديانة اليهودية».

ولا نعجب إذا وجدنا حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل يتلذذ فى بعض الأحيان بمضايقة الحاخامات -رجال الدين- بشأن الطعام المباح شرعًا، وغير المباح على سبيل السخرية منهم. هذا كله يدل على أن الحركة -كما أرادها هرتزل- هى حركة سياسية، ثم إن موقف رجال الدين اليهودى والمتدينين منهم -من هذه الدولة التى سعت الحركة الصهيونية إلى إقامتها- قابلوها بالرفض المطلق منذ أن كانت مشروعًا فى عقولهم، واستمروا على رفضها حتى بعد إقامتها.

وقد انعقد مؤتمر فى مدينة مونتريال بكندا للحاخامات الأمريكيين بالذات فى سنة ١٨٩٧ وهو نفس العام الذى انعقد فيه المؤتمر الأول للحركة الصهيونية برئاسة هرتزل، وقد أصدر هؤلاء الحاخامات قرارًا برفض مشروع هرتزل، كما رفضوا أى مشروع لإقامة الدولة اليهودية، وعبر بعضهم عن مخاوفهم من الأيديولوجية العلمانية التى تسعى الصهيونية لنشرها، بل إن بعضهم عبر عن تخوفه قائلا: إن إقامة دولة يعد اقتلاعًا لليهودية من جذورها. بل إنه نظر إلى الصهيونية وإلى دولة إسرائيل بوصفهما من تعاليم الكفار التى نشرها المرتدون -أقطاب الفكر الصهيونى- لماذا؟ لأنهم من وجهة نظر الحاخامات علمانيون، وليسوا رجال دين.

وزيادة على ذلك فإن الحركة الصهيونية لا يمكن تصنيفها ضمن الحركات الدينية اليهودية؛ لأنها لا تملك رؤية دينية من جانب، كما أنها لا تمتلك برنامجًا دينيًا تبتغى نشره بين اليهود، ومن ثم نجد المؤرخين للحركات الدينية لا يذكرون هذه الحركة ضمن الحركات اليهودية الخالصة، بل إننا نلاحظ أن الحركة الصهيونية تؤكد على القيم المادية، وتميل إلى ترجمة القيم الدينية إلى مفاهيم مادية؛ فكل شىء روحى يترجم فى إسرائيل إلى قيمة مادية مما يدل على أن الحركة حركة علمانية، وليست حركة دينية، وإذا علمنا أن رواد هذه الحركة قد نشأوا فى ربوع أوربا؛

نستطيع أن نقول إن الصهيونية قد ورثت هذا الطابع العلمانى من البيئة الأوربية نفسها؛ لأن أقطاب الفكر الصهيونى تربوا فى أوربا، وهذا لا يعنى أن الحركة -وإن كانت علمانية- قد قطعت علاقتها التامة مع الموروث الدينى، لا، هذا غير واقع وغير متوقع أيضًا؛ لأن الفصل بين الحركة السياسية القومية وبين الدين يعد نوعًا من الغباء السياسى الذى يحرص زعماء الحركة الصهيونية على عدم الوقوع فيه؛ لأنهم بذلك سوف يستثيرون رجال الدين والمخلصين من اليهود فى كل وقت ضدهم.

لذلك فهم أحيانًا يتسترون بالستار الدينى وأحيانًا يعلنون شعارهم العلمانى.

كان دعاة الحركة الصهيونية أيضًا على علم بما للدين من قوة فى تحريك الجماهير وجذبها إلى ساحة الكفاح وإخراجها من عزلتها إلى حيز العمل، ولذلك نجد أن قادة هذه الحركة إذا وجدوا فى الاستعانة بالدين فائدة ونفع؛ لجأوا إليه، وإذا لم يكن فيه نفع، ولا فائدة بالنسبة للواقع التاريخى نفضوا أيديهم منه، ولا تعجب أن جنود الحرب فى حرب ١٩٦٧، وحرب ١٩٤٨، وحرب ١٩٧٣ كان بين كل كتيبة يهودية بعض أحبار اليهود الذين يقرئونهم التوراة، ويعلمونهم ما فيها من أوامر ربانية تأمرهم بقتل كل ما هو غير يهودى، أو تذبحه، أو تنفيه من الأرض.

وإذا علمنا أن قادة الحركة أيضًا يتكون لديهم إحساس بأن الدين وحده هو القادر على أن ينتزع اليهود من البلاد التى يعيشون فيها، ليتركوها ويهاجروا إلى أرض فلسطين؛ لجأوا إلى النصوص الدينية التى تدعو كل يهودى أن يترك مكانه ووطنه الذى يعيش فيه ويهاجر إلى أرض الميعاد.

فتلاحظ معى: مع أنها حركة علمانية سياسية كما يرى هؤلاء إلا أنها تلجأ إلى الدين لتستفيد بما فيه من نصوص إما لإثارة قضية العودة والإحساس بالحاجة إلى أرض الميعاد، أو لإثارة الجنود الصهيونيين واليهود ضد من هو غير يهودى، أو لإثارة قضية شعب الله المختار عندهم.

وأيضًا كان للدين أثر كبير فى ربط هذه الحركة فى الكتب المقدسة ليعطيهم بعدًا تاريخيًا؛ لأن الدين هو الذى يعطى المواطن الذى يعيش فوق هذه الأرض قيمته

المقدسة المستمدة من النصوص التى امتلأت بها التوراة، والتى تكررت فى أسفار العهد القديم بالنبوءات الكثيرة التى كتبها اليهود فى فترات هزيمتهم وغربتهم وشتاتهم، والتى قد اكتسبت -بمرور الزمن- قوة العقيدة، وأصبحت تحيا فى وجدان اليهودى، وتحركه لتحقيق كل ما هو أمر للعودة إلى الأرض، ولمحاربة غير اليهودى، والاعتزاز بنفسه كواحد من أفراد شعب الله المختار.

فقضية استغلال الدين كانت قاسمًا مشتركًا بين من يفسر الحركة بأنها حركة سياسية، ومن يفسر الحركة بأنها حركة قومية، وقد سعى قادة الحركة الصهيونية إلى استثمار هذه الفكرة أكثر من غيرهم فى أى وقت مضى خاصة فى العصر الحديث، حتى إننا نجد واحدًا منهم يصرح بهذه العبارة: لو ألغينا مفاهيم الشعب المختار الموجودة فى نصوص الكتاب المقدس، ولو ألغينا قضية الوعد بالأرض الموجودة، لو ألغينا هذه وتلك لانهارت الصهيونية من أساسها.

وعندما سأل «بلفور» صاحب الوعد المشهور، عندما سأل «وايزمان» ومعروف من هو وايزمان إنه أحد أكبر زعماء الحركة الصهيونية بعد هرتزل، والرئيس الأول لإسرائيل بعد قيامها سأله بلفور قائلاً: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومى فى أوغندا مثلاً؟، وكانت هذه فكرة مطروحة فى مؤتمر «بال» أن تقام الدولة فى أوغندا أو فى مكان آخر غير فلسطين، فأجابه وايزمان: إن الأمر الوحيد الذى يجمع كل شتات اليهود، ويجمع عليه اليهود كأساس للحركة الصهيونية هو فلسطين، وفلسطين وحدها، وقلت: حتى لو أن موسى نفسه جاء يدعو لغيرها لما اتبعه أحد، وأن أى ابتعاد عن فلسطين يشكل نوعًا من الكفر.

ونجد موشى ديان نفسه -وكان وزيرًا للحربية الإسرائيلية- كان يخاطب الجنود قائلاً: إذا كنا نحن أصحاب التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة؛ فينبغى لنا أن نمتلك -كذلك- أرض التوراة. لاحظوا معنى الربط بين الفكر الدينى -والمتمثل فى نصوص التوراة- والفكر السياسى المتمثل فى امتلاك الأرض.

ولم يكن مهمًا بالنسبة لابن جوريون مثلاً -وهو أحد قادة إسرائيل المعاصرين- أن يكون الله قد أعطى لليهود، أو لأنبيائهم عهدًا بإعطاء أرض فلسطين، لكن المهم -فى نظره- أن تظل هذه الأسطورة مغروسة فى الوجدان اليهودى، ولذلك

يجب أن تبقى سارية المفعول، حتى بعد أن يثبت أن الوعد المقطوع به، -وهو الوعد بالأرض، والوعد بأنهم شعب الله المختار -أنه مجرد أسطور من الأساطير الشعبية التى ليس لها مصدر إلهى.

إلى هذا الحد يتشبث قادة إسرائيل المعاصرون، كما تشبث أجدادهم فى الماضى بالنصوص الدينية؛ لكى يؤكدوا قضيتهم، ويجعلوا من باطلهم حقًا فى نظر العالم.

وعن طريق هذه النصوص استطاعوا أن يقنعوا أوربا بأنهم أصحاب الأرض.

وأن يقنعوا مفكرى العالم بأنهم شعب الله المختار.

وأن يقنعوا العالم كله بأسطورة الأرض، وأسطورة الميعاد، وأسطورة عودة المسيح إلى أرض فلسطين؛ ليحكم العالم فى الألفية الثالثة التى تأسس بها، والتى تأسس عليها فكرة الصهيونية الصليبية المعاصرة التى تأسست فى أمريكا لمناصرة الصهيونية فى أرض فلسطين.

هذه بعض الآراء التى قيلت حول تحليل الحركة الصهيونية، هل هى حركة دينية خالصة؟ هل هى حركة سياسية خالصة؟ هل هى حركة قومية خالصة؟

وقد وجدنا أن هذه الآراء الثلاثة مطروحة فى تحليل الحركة الصهيونية، وأصبح النص الدينى قاسمًا مشتركًا بين هذه التفسيرات كلها.

وبذلك لا نميل إلى القول: بأن رأيًا معينًا هو الصواب وما عداه خطأ، وإنما نرى أن كل هذه الآراء كل منها له وجهة نظر وله ما يبرره فى النصوص التى يستدلون بها على أن هذه الحركة قومية أحيانًا، دينية أحيانًا، سياسية أحيانًا أخرى، لكننا بالتأكيد نميل إلى القول بأن هذه الحركة خاصة بعدما تأسست بشكل رسمى مؤسسى على يد «هرتزل» بدأت تأخذ شكلاً سياسيًا قوميًا، وربما تحتاج إلى تأييد بعض مواقفها باستغلال بعض نصوصها من التوراة أو التلمود كما سوف نرى، ولذلك فإن مظهر هذه الحركة على امتداد القرن العشرين وبالتحديد من يوم أن ظهر على المسرح السياسى «تيودور هرتزل» بدأت هذه الحركة تأخذ بُعدًا سياسيًا قوميًا على امتداد القرن العشرين بأكمله، كما يرى المؤرخون أن المؤسس الأول

للصهيونية السياسية بهذا المعنى الذى نريده هو «هرتزل» سواء نحا هذا المنحى فى كتابه الذى أسماه (الدولة اليهودية) الذى ظهر عام ١٨٩٥ أو ما قرره فى المؤتمر الأول الذى عُقد فى سويسرا فى مدينة «بال» فى عام ١٨٩٧، فى هذين العملين؛ كتاب الدولة اليهودية والمؤتمر الأولى الذى عقده فى سويسرا نجد أن هذين العملين يمكن أن نستنتج منهما معًا الفكر السياسى الصهيونى لهذه الحركة الذى يهدف «هرتزل» من ورائه إلى:

١- السيطرة الكاملة على الأرض مستغلاً أسطورة الوعد، وأسطورة الشعب.

٢- وأيضًا السيطرة على العالم من خلال خلق ما يسمى بالحكومة الواحدة التى تحكم العالم، ولا غرابة فى ذلك؛ لأننا نجد «هرتزل» نفسه يعترف بمحض إرادته بأن فكرة الصهيونية عن عودة اليهود إلى أرض فلسطين ليست جديدة على الفكر اليهودى، وهو يذكر فى صحيفته أن أحد أصدقائه وهو اسمه «شيف» قال له فى ١٧ يونيو ١٨٩٥: «إنها شىء حاول أحد الناس تحقيقه» لكن هذا الرجل كان مسيحيًا زائفًا، ودون أن نذهب بعيدًا فإن نفس الموضوع قد عولج على يد كثير من الكتاب الذين سبقوا «هرتزل» ونادوا بضرورة عودة الشعب إلى الأرض الموعودة من خلال لقاءات كثيرة تمت قبل «هرتزل» لكن الجديد على يد «هرتزل» أنه صاغ القضية فى شكل عبارات أشبه بالقضايا المنطقية أو القضايا الرياضية، فعندما صاغ «هرتزل» هذا الشعار «نحن شعب وفلسطين وطننا التاريخى الذى لا يُنسى فإنه لم يفعل فى هذا الشعار إلا أنه تناول ما أطلق عليه هو نفسه «الأسطورة العظيمة التى نطلقها صرخة مدوية لتجميع قوى العالم حول الحفاظ على حقوقنا التاريخية التى ندعيها».

هذه القضية بهذا الشكل نقلها «هرتزل» من بُعد دينى إلى بعد سياسى، ونحن نعرف أن «هرتزل حينما التقى بالسلطان عبد الحميد أو حاول أن يلتقى مع السلطان عبد الحميد، حاول أن يأخذ منه وعدًا بتأسيس وطن لإسرائيل فى أرض فلسطين، وتكلمنا عن هذا اللقاء بالتفصيل، وقلنا: إن السلطان عبد الحميد رفض مقابلة الرجل، وحاول أن ينيب عنه رجلاً من موظفى حكومته يسمى تحسين، وتم اللقاء بين تحسين و«هرتزل» وعرض عليه مغريات كثيرة تكلمنا عنها فيما سبق كان من

أهمها تسديد الديون، وإعطاء أموال ذهبية، وإنشاء جامعة، وإنشاء سكة حديد... إلى آخره، لكن لما رفض السلطان عبد الحميد هذه العروض، أضمر «هرتزل» فى نفسه ضرورة القضاء على الخلافة العثمانية ليتسنى له إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين.

مقارنة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا:

وبعض المحللين يرى أن هذه الفكرة التى هيمنت على «تيودور هرتزل» تشبه تمامًا نفس الفكرة التى طبقها بعض دعاة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا، ولذلك يلمح أو يشير بعض الكتاب إلى أن «هرتزل» أراد أن يطبق فى الشرق وفى أرض فلسطين بالذات السيناريو الذى حققه «سيسل روديس» فى أفريقيا الجنوبية، وربما أشار إلى أن «هرتزل» قد صرح فى بعض لقاءاته أنه متأثر بهذا الرجل، وأن مهمة «تيودور هرتزل» هى تطبيق نفس المنهج الذى طبقه «سيسل روديس» فى جنوب أفريقيا، ولذلك طلب «هرتزل» من «سيسل روديس» فى ١١ يناير ١٩٠٢ مساندته فى تحقيق حُلمه فى إقامة الدولة الصهيونية على أرض فلسطين كما فعل هو فى جنوب أفريقيا، ولذلك أرسل له يقول: «أرجوك أرسل إلى نصًا يقول: إنك فحصت برنامجى، وإنك توافق عليه، وأنه يتوافق إلى حد كبير مع برنامجك الذى احتللت به جنوب أفريقيا».

برنامج هرتزل:

وعلى ذلك استطاع «هرتزل» بناء على هذا التفكير أن ينظم المؤتمر الصهيونى الأول فى بال ١٨٩٧، وكان يحلم بأن يعقده فى «ميونخ» غير أن كثيرًا من المفكرين المعاصرين له عارضوا هذا الأمر ورأوا أن يعقد فى بال بسويسرا، وترتب على هذا المؤتمر أن صاغ «هرتزل» برنامجًا كبيرًا جداً يمكن أن يسمى ببرنامج بال، أو يسمى ورقة عمل لـ«هرتزل»، أو ورقة العمل للمنظمة الصهيونية العالمية خلال القرن العشرين، هو فعلاً يمكن أن يسمى هذا ورقة عمل، ففى أغسطس ١٨٩٧ افتتح «هرتزل» مؤتمر بال ووضع برنامجه للتنظيم الصهيونى العالمى على النحو الآتى:

افتتحه بقوله: «إن الصهيونية تستهدف أن تُنشئ للشعب اليهودى وطنًا فى فلسطين مضمونًا بوساطة القانون العام» القانون العام هنا ربما يشير به إلى ما ظهر فيما بعد بالأمم المتحدة ومجلس الأمن، أو قانون الدولة العظمى التى كانت مسيطرة فى هذا الوقت وهى بريطانيا العظمى التى كانت لا تغيب عنها الشمس كما يقولون، ولذلك نجد أن هذا القانون العام تمثل تمامًا فى احتضان بريطانيا للحركة الصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى وأثناء الحرب العالمية الأولى إلى أن تمخض عنها وعد بلفور ١٩١٧، وكتب «هرتزل»: إن تحقيق هذا الهدف يتطلب الآتى، ووضع مجموعة من الخطوات التى يراها ضرورية لإنشاء هذا الوطن القومى فى فلسطين.

أولاً: نادى بتطوير استعمار فلسطين على أحسن وجه، وأرشد إلى ضرورة تهجير المزارعين والمهنيين والتجار اليهود وأصحاب رءوس الأموال لتكتمل دائرة الحركة اليومية فى استصلاح الأرض وزراعتها والتجارة بالمنتجات الزراعية.

ثانيًا: ثم نادى بتنظيم يهودى فى كل دولة أوربية، وأن هذا التنظيم ينبثق عنه مجلس قومى يهودى فى كل بلد أوربى تكون مهمته تقوية الشعور القومى لدى اليهود المقيمين فى هذه البلد أو تلك، وحثهم على ضرورة الهجرة إلى أرض فلسطين أرض الميعاد، أرض الأجداد، الأرض المقدسة.

ثالثًا: ثم المناداة بتنظيم اليهود وتوحيدهم على مستوى العالم فى شكل مجلس عالمى، هيئة عالمية، وكالة دولية تجمع شتات اليهود فى أنحاء العالم حتى إذا ما احتاج إليه الأمر يمكن الوصول إليهم فى أى بقعة من العالم.

رابعًا: ثم تقوية الشعور القومى عند اليهود وتوعيتهم بأنهم قومية مفضلة، وأنهم شعب مختار ولهم حقوق إلهية على العالم.

خامسًا: ثم ضرورة المساعى التحضيرية للحصول على موافقة الحكومات التى هى ضرورية لبلوغ الهدف لبناء الدولة الصهيونية، ومهمة الحصول على موافقة الحكومات تناط بالمجالس اليهودية التى تؤسس فى هذه البلاد.

وقد ظل هذا البرنامج دستور الحركة الصهيونية -أيها الأخوة- حتى عقد المؤتمر الثالث والعشرين الصهيونى عام ١٩٥١ حيث صيغت الأهداف بطريقة جديدة، وصيغ هذا البرنامج تحت عنوان برنامج أورشليم الذى أعقب برنامج بال.

يمكن أن نستوعب الفترة أو المساحة الزمنية بين المؤتمر الأول -المؤتمر الصهيونى الأول- على يد «هرتزل» والمؤتمر الصهيونى الثانى بعد تأسيس الدولة وميلاد الدولة الذى عُقد فى أورشليم سنة ١٩٥١ ونتأمل ماذا وقع خلال هذه الفترة الزمنية من ١٨٩٧ إلى ١٩٥١ نلاحظ ما يأتى:

أ- إسقاط الخلافة العثمانية.

ب- تم وضع معظم أو جميع البلاد العربية باستثناء المملكة العربية السعودية تحت الاحتلال، فاحتلت بريطانيا الأردن، وفلسطين، والعراق، ومصر، والسودان، والإمارات المطلة على الخليج العربى، واحتلت فرنسا المغرب، الجزائر، تونس، وسوريا، ولبنان. واحتلت إيطاليا ليبيا. لو وضعت أمامك الخريطة الجغرافية للوطن العربى لأبصرتها كلها واقعة تحت الاحتلال الأوربى فى الفترة ما بين مؤتمر بال الأول ومؤتمر أورشليم الثانى.

وفى خلال هذه الفترة الزمنية أيضًا عليك أن تتذكر أنه تم ما يسمى بالاتفاق الودى بين فرنسا وبريطانيا، وتم توقيع ما يسمى بمعاهدة «سايكس بيكو» وتمت الحربين العالميتين التى انتهت الأولى منهما بوعد بلفور، وانتهت الثانية منهما بميلاد الوطن القومى لليهود عام ١٩٤٨.

هذه أمور ينبغى أن نضعها أمامنا لنعرف كيف تتحرك الصهيونية، وكيف نظمت نفسها، وكيف بلورت أهدافها، وكيف تعد البرنامج أثر البرنامج خطوة لتصل فى النهاية إلى تحقيق هذا الهدف الذى تسعى إليه.

برنامج أورشليم:

إذا كانت هذه الخطوات تتعلق ببرنامج بال على يد «هرتزل» فقد صيغ برنامج أورشليم على النحو التالى:

إن أهداف الصهيونية هى العمل على وحدة الشعب اليهودى على أن تكون إسرائيل مركزه وحياته وموطن تجمع الشعب اليهودى، واعتبارها وطنًا تاريخيًا.

واعتبار أن الهجرة إليها من جميع البلاد عملاً إلهيًا تنفيذًا لوعد الرب؛ لأن ذلك يعمل على تقوية دولة إسرائيل المؤسسة على المثل العليا النبوية للعدالة والسلام.

ولابد من المحافظة على شخصية الشعب اليهودى، وتطوير التربية اليهودية عن طريق تعليم اللغة العبرانية والآداب اليهودية، وإحياء الأساطير الشعبية المبثوثة فى ثنايا التوراة، وكذلك بالقيم والثقافة اليهودية حماية لحقوق اليهود فى كل مكان.

٤- ولا ننسى أن «هرتزل» قد قبل فى مؤتمر بال بنوع من المواءمة بين صيغة وطن قومى فى فلسطين ولم تتردد كلمة دولة يهودية، لكن نحن وجدنا فى المؤتمر الثانى كلمة دولة يهودية التى هى عنوان كتاب «هرتزل» نفسه، كأن الكتاب الذى وضعه «هرتزل» حمل معه عنوان الدولة مع أنه فى قانونه أو فى برنامجه قال: وطن قومى لليهود، ونريد من هذا أن نستشعر ضخامة العمل الذى قام به هذا الرجل فى غيبة من الوعى العربى، بل فى حضور من الخلافات العربية ونسيان ما يسمى بالهوية العربية والهوية الإسلامية التى تمثل جدار الصد لهذا الهجوم الصهيونى على العالم العربى، ونجد أن التعبير بكلمة «وطن قومى» أو «دولة» أخذت شكلاً أشبه باللعبة الفلكلورية بين كتاب الحركة الصهيونية، ففى حين أن «هرتزل» طالب بإقامة وطن قومى، وأن وعد بلفور طالب بإنشاء وطن قومى إلا أنه قد بذلت جهود كثيرة لإقناع هؤلاء بأن المطلوب هو دولة يهودية فى فلسطين ولكن صرح «هرتزل» بقوله: «إننا يجب أن نلجأ إلى التعمية للتعبير عنها فى صيغة تتحاشى أن تثير قادة الأتراك فى الأرض التى تطمع فيها، واقترحنا عبارة «وطن قومى» مرادفة لكلمة دولة؛ لأن وطن يعنى: قطعة نقيم عليها وطن، أما كلمة دولة فنحتى من الاتساع ما تعنيه حسب تفسيرات المجتهدين والمفسرين والمحللين السياسيين.

ولذلك نجد أن هذه الصيغة الغامضة كانت تعنى لدى «هرتزل» واقعًا محددًا أعلنه للناس، ولكنها فى نفس الوقت لم تكن هى الغاية التى يسعى إليها «هرتزل» فقد كتب فى صحيفة ٣ سبتمبر ١٨٩٧ فى صحيفته التى كان يتولى رئاستها أنه إذا كان واجبًا أن ألخص أعمال المؤتمر فى كلمة واحدة كنت أمسكت عن نطقها علنًا، فهذه الكلمة هى: «أننى فى بال أسست الدولة اليهودية بيد أن هذا شئ، لا يقال بصوت عال» إلى هذا الحد كان يعلن شيئا ويضمر شيئا آخر، ونفس القضية فى وعد بلفور فإن نفس الصيغة هى كانت إنشاء وطن قومى لليهود التى قد قبلت فى مؤتمر بال، لكن الإعلان النهائى لبلفور فإنه لم يتكلم عن كل فلسطين بل عن إقامة وطن قومى فقط للشعب اليهودى والواقع أن العالم كله استعمل كلمة وطن فى هذه المرحلة، لكن ترجم فيما بعد على أن كلمة دولة هى المقصودة وأن هذا ما كان يعنيه «هرتزل» وكتب كثيرون حول تحليل هذه الظاهرة، وأن كلمة وطن استبدلت بكلمة دولة فى تاريخ ميلاد إسرائيل ١٩٤٨، وأصبحت هذه الدولة معترفا بها عالميًا الآن مع أن المقصود فى الطلبات التى قدمت للخلافة العثمانية هى وطن قومى، ووعد بلفور كان المطلوب وطنا قوميا، ولم يكن المصرح به أو المعلن كلمة دولة لليهود[1].

****

(١) انظر: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى. إسماعيل الكيلانى ص٦٠، ٦٥، وبعدها.

النشاط الصهيونى فى أوربا وأمريكا

من المهم أن نلقى الضوء أيضًا على النشاط السياسى للحركة الصهيونية فى أوربا وفى أمريكا بعد مرحلة مؤتمر بال؛ لأن هذه الفترة الزمنية من وجهة نظر المؤرخين لدولة إسرائيل وللحركة الصهيونية العالمية تعتبر أخصب الفترات فى تاريخ الحركة الصهيونية العالمية، بل ربما يرى البعض أن هذه الحركة قد وصلت إلى نهايتها وبدأت فيما يسمى بالانحدار أو الانهيار التاريخى.

نجد أن تفرق اليهود فى بلدان أوربا، وأن ما أشار به «تيودور هرتزل» فى مؤتمره من ضرورة تأسيس مجالس يهودية فى بلاد أوربا تكون مهمة هذه المجالس العمل على الحصول على موافقة الحكومات المعنية على ما نريده منها من مساعدات وفى نفس الوقت تنمية الشعور اليهودى لدى المواطنين اليهود فى هذه البلاد، ثم محاولة الزحف الهادئ المنظم إلى الاستيلاء على مناصب قيادية سياسية وثقافية فى هذه البلاد، وهذا ما تم فعلاً فى معظم بلاد أوربا وأمريكا بلا استثناء، ولذلك أرى من الضرورى -أيها الأخوة- أن نلقى الضوء على مدى تغلغل النفوذ الصهيونى تنفيذًا لبرنامج «هرتزل» الذى تمخض عنه بال ١٨٩٧، وسوف نمر على بعض البلاد الأوربية بشىء من الإيجاز لنرى كيف تسللت الصهيونية إلى مناطق التأثير فى هذه البلاد[1].

١- ففى بريطانيا مثلاً تسللت الحركة الصهيونية فى أجهزة الحكم حتى كان منهم رئيس الوزراء دزرائيل فى عهد الملكة فيكتوريا، كما استطاعوا أن يحصلوا على الأغلبية فى عضوية مجلس الشورى للبلاط الملكى البريطانى فضلاً عن مجلس العموم، ومجلس اللوردات، والمجالس البلدية، والجمعيات الخيرية، والأحزاب السياسية فى بريطانيا، كما استطاعت الصهيونية مع مطلع القرن العشرين أن تسيطر على مقررات البلاد الاقتصادية متمثلة فى البنوك، والشركات

(١) راجع فى هذه المعلومات المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ص٣٥ وما بعدها، والفصل الثانى منه، وراجع كتاب عقائد وتيارات فكرية معاصرة (بحث اليهود)، د. بكر زكى.

الصناعية والتجارية، والمناجم، وأسهم شركات البترول على سبيل المثال فى إيران والعراق والكويت.

وفى مجال الصحافة فى بريطانيا وجدنا أن جريدة تايمز اللندنية أسست عام ١٧٨٨ بمال يهودى، ولم تخل منذ تأسيسها حتى الآن من صهاينة يحتلون بها مراكز متقدمة، وقد أخذت تلك الجريدة بعد أن آلت إلى شركة مالية كان أبرز أعضائها من اليهود أخذت على عاتقها مهمة الترويج للفكر الصهيونى على مستوى العالم كله. كما أنشأ اليهود جرائد الديلى تلجراف فى عام ١٨٥٥ واشتراها اليهوديان، ليفى وليفى لاوش. هذا فى بريطانيا.. فقد استولوا على الصحافة، استولوا على البنوك، استولوا على شركات الأموال، تسللوا إلى مناطق التأثير السياسى من خلال المناصب القيادية كمنصب رئيس الوزراء، وعضوية مجالس الشيوخ، ومجالس العموم، ومجالس اللوردات بحيث كانوا أغلبية حتى إذا حدث تصويت على أى شىء يستطيعوا أن يكونوا بأصواتهم أغلبية أو يؤثروا ليحصلوا على الأغلبية.

٢- فى فرنسا مثلاً وجدنا أن اليهود قد لعبوا دورًا بارزًا فى قيام الثورة الفرنسية سواء تحت ستار الماسونية العالمية، والشعارات التى رفعوها حينذاك شعار حرية، إخاء، مساواة، وكان تمويل هذه الثورة بواسطة اليهود من إنجلترا منهم على سبيل المثال: «بنيامين جولد سميد» وأخيه «ابراهام» و«موسى» وصهره السير «موسى مونتفرى» ومن ألمانيا جمعوا لها أموال يهودية من هناك، وبدأ تغلغل الحركة الصهيونية فى مناصب الدولة فى فرنسا حتى وجدنا فى النصف الأول من القرن العشرين عدة مناصب هامة تولاها أفراد ينتمون إلى الحركة الصهيونية السياسية بفكرهم وأعمالهم، ووجدنا رئاسة الجمهورية، ورئاسة الوزراء ورئاسة الحزب الشيوعى وكثير من الوزارات يتولاها أفراد ينتمون إلى الفكرة الصهيونية، هذا فى مجال السياسة فى فرنسا.

فى مجال الصحافة أنشأت الحركة الصهيونية عدة صحف ركزت على تضليل الرأى العام فيما يتصل بحركة اليهود فى أرض فلسطين، وإظهار أن اليهود مغلوب على أمرهم، وأنهم مستضعفون فى الأرض، وأنهم مطردون، وأن العرب

يعاملونهم بقسوة. . . . و. . . . . . إلى آخره، وزينت بعض الأشخاص حتى تولوا مناصب حساسة خدموا من خلالها الحركة الصهيونية فى فرنسا، واستطاعت هذه الحركة -أيها الإخوة- أن تحوّل باريس إلى مدينة الترف واللهو والدعارة، وكثرت فيها بيوت الأزياء والخمارات باعتبار أن هذا اللون من السلوك أفضل وسيلة من وجهة نظر الصهيونية؛ ليستذلوا من خلالها الشخصيات السياسية والقادة والمسئولين بصورة غير مباشرة، وعن طريق الإغراء بالمرأة من خلال هذه الوسائل كسروا بها أعناق كثير من المشتغلين بالفكر السياسى فى فرنسا.

٣- إذا انتقلنا إلى ألمانيا نجد أن اليهود تمكنوا من الوصول إلى مناصب حساسة وبخاصة فى الوزارات، كما لعبوا دوراً هاماً فى هزيمة ألمانيا فى الحرب الأولى، لأنها لم تستطع ان تعطيهم فلسطين وطنًا خالصًا فى الحرب العالمية، ولأن «هتلر» أراد أن يطهر ألمانيا من سلطة الصهيونية، ولم ينسوا موقف «هتلر» والساسة الألمان من الحركة الصهيونية، وحركة المحارق والأفران التى نصبها لهم «هتلر» وموقف الحركة النازية من اليهود، ونستطيع أن نقول: إن هناك أكثر من وزارة فى ألمانيا كان يهيمن عليها أفراد صهاينة، وزارة المالية كان يهيمن عليها «شفرو برنشتين» وزارة الداخلية هيمن عليها «برورس فرند» وزارة العدل كانت يهودية مائة فى المائة، وفى مقاطعات أخرى من ألمانيا كانت الحركة الصهيونية تسيطر عليها بكثير من أبنائها.

٤- فى روسيا لم تغمض أعين الصهيونية عن المد الروسى فى القرن العشرين، ولذلك أخذت تعمل فى أحضان القيصرية الروسية على نشر الفكر الصهيونى فى ربوع روسيا، وعملوا على قلب نظام الحكم وتوزيد ذلك إلى اليهود حتى يتحقق لهم ما يريدون، وكانت لهم يد طولى فى الثورة البلشفية سنة ١٩١٧، وتولى زمام الحكم فى هذه البلاد اليهود لفترة من الزمن، ونستطيع أن نرصد فى الأيام الأولى للانقلاب العسكرى بعدد الوزراء الصهاينة الذين تولوا هذه المناصب فى الاتحاد السوفيتى أو روسيا آنذاك، حتى إنه لم يمض عام على الانقلاب البلشفى فى سنة ١٩١٧ حتى وجدنا نفوذ اليهود فى روسيا على النحو الذي يلفت النظر، بحيث نجد أن أول حكومة بعد الثورة مباشرة كان عدد وزرائها ٢٢ وزير كان منهم ١٧ صهيونى، وكانت لجنة الشئون الداخلية ٦٤ كان منهم ٤٥ صهيونى. لجنة الشئون

الخارجية كانوا ١٧ كان منهم ١٣ صهيونى. لجنة الشئون المالية ٣٠ عضواً منهم ٢٦ صهيونى، ولو أخذنا نستقرئ اللجان الحزبية فى الحزب الشيوعى الروسى، واللجان الداخلية لهذا الحزب نجد أن معظم لجان هذا الحزب كانوا إما يهوداً وإما صهاينة لنعلم مدى تغلغل النفوذ الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى.

وقد كتب بعض المحللين لهذه الظاهرة أن نسبة اليهود فى الوظائف المهمة فى روسيا كانت نحو ٨٠٪ من الوظائف وظل هذا النفوذ اليهودى الصهيونى قائمًا فى روسيا حتى أسقطها «جورباتشوف» فى نهاية القرن العشرين، وما زال نفوذ الصهيونة قائمًا فيها حتى الآن.

وما نلاحظه من تأييد لبعض الحقوق العربية، أو بعض الحقوق الفلسطينية، أو محاولة إظهار العداء لإسرائيل، أو معارضتها فى مجلس الأمن ما هو إلا ضرب من التضليل للرأى العام، وللتمكين للنفوذ الشيوعى فى بلاد العرب، ولاستنزاف موارد المسلمين من ناحية حتى إذا كُشف النقاب عن حقيقة الموقف الروسى، فلا ننسى أبداً أنها الدولة الأولى التى اعترفت بإسرائيل لحظة ميلادها بعد أمريكا مباشرة، بل إن البعض يرى أنها اعترفت بميلاد الدولة الصهيونية قبل أمريكا، هذا فى روسيا.

٥- رؤساء أمريكا يتعهدون بالوطن القومى لليهود ومناصرته، ماذا نجد فى الولايات المتحدة الأمريكية؟ وحديثنا عن النشاط الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية الآن سوف نركز فيه على كيف تسللوا إلى الاستيلاء على المناصب، أما عن نشاط الحركة الصهيونية بشكل عام فى أمريكا فهذا له موطن آخر. نستطيع أن نلحظ فى عهد الرئاسات المتوالية فى الولايات المتحدة الأمريكية أى مدًى استطاعت الصهيونية أن تؤثر على القرار السياسى فى أمريكا من خلال استيلائها على المناصب القيادية فى هذا البلد.

ففى عهد الرئيس «ويلسن» كان مستشاره للشئون الاقتصادية اليهودى الصهيونى «برناردو باروخ» وكان مستشاره للشئون المالية اليهودى الصهيونى «هنرى مورجانتو» وكان مستشاره للشئون السياسية اليهودى الصهيونى الكلونيل «مانديل» وكان

مستشاره فى القانون الدولى اليهودى الصهيونى «ولترلمان» ومستشاره القضائى اليهودى الصهيونى «جيمس لويس» وأكثر من هذا كان كبير المستشارين السياسيين المليونير اليهودى الصهيونى «فرانكفورت» هذا فى عهد الرئيس «ويلسن».

وفى عهد «روزفلت» كان اليهودى «برنارد باروخ» مستشاره الاقتصادى، و«هنرى مورجانتو» مستشاره المالى... إلى آخره، نجد أن الهيئة الاستشارية لـ«روز فلت» تقريبًا كانت هى نفس اللجنة الاستشارية التى كانت فى عهد «ويلسن» والذى تغير أو استبدل فيهودى استبدل بيهودى وصهيونى استبدل بصهيونى، ولا ننسى أن الرئيس «روزفلت» نفسه كان يهودى الأصل صهيونى السلوك، ولذلك جمع فى عهده أكبر عدد ممكن من اليهود فى دوائر الحكومة الأمريكية، ويسر لهم كل سبل العيش وسبل السيطرة على اقتصاديات البلاد فى أمريكا، كما أخذت نجمة داود وسليمان تحتل مكانتها فى الدوائر الأمريكية وخاصة على الطابع البريدى، وعلى أختام البحرية الأمريكية، وعلى طابعة الدولار الجديد، وميدالية رئيس الجمهورية، وغطاء الشرطة، وإشارة الصدر التى كان يضعها العمدة فى كثير من المناطق. هذه أيها الأخوة أشياء قد لا تلفت النظر لكن لها دلالتها المهمة جداً فى إحياء الوعى الصهيونى.

ولكن ما علاقة أمريكا بالحركة الصهيونية حتى تتخذ من نجمة داود شعاراً للدوائر الحكومية، وتجعلها شعارا على الطابع البريدى، وعلى أختام البحرية الأمريكية، وعلى طابعة الدولار، وعلى ميدالية رئيس الجمهورية، وعلى غطاء الرأس للشرطة، وإشارة الصدر التى يضعها العمدة فى كثير من الولايات الأمريكية؟؟ ما علاقة هذا بذاك؟ أليست هذه أمور وإن كانت تبدو فى نظر البعض أموراً هينة إلا أنها تدل على ما فى قلب «روزفلت» من ولاء وعقيدة صهيونية يحاول أن يشعر بها بنو وطنه ويلفت نظرهم إلى ضرورة التمسك بهذه الشعارات والولاء للحركة الصهيونية.

إذا انتقلنا إلى «ترومان» الذى جاء بعد «روزفلت» نجد أنه كان يهودى الأصل صهيونى السلوك تظاهر بالمسيحية ولكنه لعب دوراً بالغًا فى التمكين لليهود فى أمريكا وخاصة فى وزارات الدفاع، ووزارة الخارجية، ووزارة الاقتصاد، وفى

"CIN" وفى المخابرات الأمريكية كما أنه وضع كثيراً منهم خبراء له فى السفارات الأمريكية فى البلاد الخارجية.

ثم جاء «ايزنهاور» هو من سلالة يهودية، كما أنه عضواً فى جمعية بنايبرس الصهيونية، وصديقًا لجماعة شهود يهوا الصهيونية، كما نال الدرجة ٣٣ من الماسونية العالمية، وهى أسمى الدرجات فى تلك الحركة الماسونية، وقد تمكن اليهود فى عهد كل من «رزوفلت» و«ترومان» و«ايزنهاور» و«كيندى» و«جونسون» أن يشرفوا على النشاط الذرى في الولايات المتحدة الأمريكية، وأن يكونوا أعضاء عاملين في نوداى وجمعيات ومؤسسات النشاط النووى فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولا شك أن رؤساء أمريكا المعاصرين قد تأثروا بالصهيونية وتضامنوا معها إلى حد كبير، وأجدنى مضطراً أن أضع أمامكم هذه القضية.

فى عصرنا الحاضر، نجد أن بعض الرؤساء الذين ماا زالت أسماؤهم وأصواتهم تتردد فى أجهزة الإعلام العربية والإسلامية والصهيونية يعلنون ولاءهم للحركة الصهيونية مع أنهم يعتنقون الديانة المسيحية والمذهب البروتستانتى.

وجدنا الرئيس الأمريكى السابق «جيمى كارتر» وهو أحد ممثلى الاتجاه الصهيونى الصليبى نجده فى كثير من المواقف الأمريكية المعاصرة يعلن ولاءه للحركة الصهيونية ولإسرائيل، وكان يرى كرئيس دولة أن إسرائيل هى محل الرعاية أولاً، وهى قبل كل شىء، وأن عودتها إلى الأرض التوراتية التى أُخرجوا منها منذ مئات السنين هى مهمة أمريكية بالدرجة الأولى، أرأيتم، إن إنشاء دولة إسرائيل هكذا يقول «كارتر»: «إن إنشاء دولة إسرائيل هو إنجاز للنبوءة التوراتية». ولذلك كانت سياسة «كارتر» قائمة على أساس أنها -أى: فلسطين- هى الأرض التى وعد الله بها اليهود، وأقر بأن عليه التزامًا كاملاً ومطلقًا نحو إسرائيل كرئيس أمريكى وهو شخص متدين مؤمن بالنبوءة الواردة فى التوراة حول ضرورة عودة إسرائيل إلى أرض الميعاد، وكانت فكرته عن السلام تدور حول الأمن الدائم أولاً لدولة إسرائيل ولا يعنيه بعد ذلك شأن الفلسطينيين أو حقوق الفلسطينيين.

وفى زماننا هذا أيضًا ندرك بوضوح مدى التعاطف القائم بين الساسة الأمريكان مع اليهود ضد العرب للضغط الصهيونى الموجود فى هذه البلاد، وإن بدا التظاهر بالعداء أو الخلاف السياسى والأيدولوجى فهو لون أيضًا من التضليل وبناء المستوطنات الذى يتم أمام أعيننا الآن تُجمع له الأموال الأمريكية وتهجر إليه اليهود من أمريكا ومن روسيا.

ثم بضغط أمريكى فى عهد الرئيس «ريجان» نجد أن الاستنزاف واستثمار الأموال اليهودية فى أرض فلسطين وفى دولة إسرائيل عملاً مقصودًا وتسعى إليه أمريكا ورجال الأعمال الأمريكان، حتى إن الشركات المالية فى أمريكا باتت تهدد أصحاب القرار السياسى فى أمريكا بتحقيق وتلبية طلبات إسرائيل فورًا ودون إبطاء نجد أن «ريجان» صرح فى بعض المواقف بأنه يشارك الصهيونية تراثًا وتوراتيًا، وأن بينه وبين إسرائيل تراثًا مشتركًا فى النبوءة المكذوبة التى تتذرع بها إسرائيل بعودة المسيح إلى أورشليم ليحكم العالم.

هذه - أيها الإخوة- فكرة موجزة عن النشاط الصهيونى فى دوائر الحكم، دوائر القرار السياسى فى بلاد أوربا وفى أمريكا، ونستطيع أن نلحظ منها مدى هذا التغلغل فى دوائر القرارات السياسية التى يستطيعون من خلالها الضغط على الحكومات الأوربية والحكومات المتوالية فى أمريكا لتلبية مطامع إسرائيل، وتأييد مطالب إسرائيل فى المحافل الدولية، والوقوف ضد أى حق عربى فلسطينى فى المحافل العربية وفى مجلس الأمن، وفيما يستجد من تحالفات دولية؛ لأن الحقيقة أن مجلس الأمن وما تمخض عنه من قرارات لم يخدم أبدًا أى قضية لا للعرب ولا للمسلمين تحت هذا الضغط الصهيونى فى دوائر الحكم فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا.

نستطيع أن نلحظ من خلال هذا التغلغل الصهيونى في دوائر الحكم فى دول أوربا وأمريكا، نستطيع أن نلحظ التعاطف العالمى الأوربى بالذات والأمريكى بصفة خاصة مع دولة إسرائيل، حتى إذا ما دخلت إسرائيل فى أى أزمة أو فى أى حرب مع البلاد العربية ولاحت فيها بوادر النصر للعرب نجد أنه سرعان ما تتدخل هذه القوى لصالح الدولة الصهيونية، حدث ذلك مرارًا ولو استقرأنا تاريخ الحروب بين

إسرائيل والعالم العربى ابتداءً من عام ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣ نجد أنه كلما بادرت أو لاحت بوادر النصر للجيوش العربية بدأت أمريكا بالتهديد أو بريطانيا أو دول أوربا إما باستصدار قرار من الأمم المتحدة، أو من مجلس الأمن، أو التدخل المباشر والتهديد المباشر كما حدث فى حرب ١٩٧٣ حيث كانت دبابات أمريكا تنزل من الطائرة إلى ميدان المعركة مباشرة. هذا التعاطف الذى لا يخفى على أحد أوجد هذه الدولة على هذه البقعة من الأرض بميلاد غير شرعى أشبه بميلاد اللقطاء، لكنه متعاونًا مع الاستعمار الأوربى ومستعينًا بالنفوذ الأمريكى استطاع أن يحقق فى هذه المنطقة حلمًا طالما راود خيال الحركة الصهيونية منذ ثلاثة قرون أو أكثر من ذلك.

وبنظرة سريعة -أيها الأخوة- نلقيها على الخريطة الجغرافية للمنطقة العربية بعد ميلاد هذه الدولة ميلادًا غير شرعى يتبين لنا الآتى:

١- إنه قد تم فعلاً الفصل الجغرافى بين شرق العالم العربى وغربه وشماله وجنوبه، فبعد أن كان العربى يسير من مصر باعتبارها دولة عربية أفريقية إلى الأردن دولة عربية أسيوية أو إلى السعودية أو إلى سوريا مرورًا بدولة عربية هى فلسطين أقيمت الحواجز دون هذا المشوار، وبعد أن كان العربى المسلم يأتى من سوريا وتركيا إلى السعودية جنوبًا أو إلى اليمن جنوبًا مرورًا بفلسطين أقيمت دونه الحواجز، وبدأ الفصل الجغرافى بين شرق العالم العربى وغربه وشماله وجنوبه، وترتب على هذا محاذير كثيرة نحن نجنى ثمرتها الآن، وهذه إحدى مساوئ إقامة هذه الدولة بمعونة أمريكا والاستعمار الغربى.

٢- ثم ترتب على قيام هذه الدولة أن الدول الإسلامية أصبحت بصفة دائمة في حوار ساخن مع الدول الأوربية؛ لأنها تناصر اليهودية على حقوق العرب والمسلمين فى فلسطين خاصة[١].

٣- إن يقظة المسلمين ضارة بالصليبين لا شك، فما اتحد المسلمون إلا وقويت دولتهم، فهم إما فاتحون أو محررون لبلادهم، لكن هذه اليقظة دونها

(١) راجع: عقائد وتيارات فكرية معاصرة (بحث اليهود)، د. بكر زكى.

خرط القتاد؛ لأن إسرائيل والحركة الصهيونية فتحت أعينها تمامًا على تفتيت الحركة الإسلامية، وإثارة الفتن والصراعات بين كل دولة عربية وأخرى، وكل دولة إسلامية وأخرى حتى لا تتحقق هذه الوحدة، ولو فى أدنى صورة منها، فكان من أهداف تأسيس أو من قيام هذه الدولة أن تعمل على إضعاف عوامل التوحد بين شرق العالم الإسلامى وغربه وشماله وجنوبه، ثم تحكم اليهود فى الدعاية العالمية إلى حد أن أقنعوا العالم بأنهم أصحاب حق وأن العرب كانوا مغتصبين لأرضهم وحقوقهم، وبدأت هذه الحركة تتحكم فى كثير من القرارات الدولية من خلال النفوذ الأمريكى فى مجلس الأمن أو الأمم المتحدة. وترتب على هذا انهيار اقتصادى رهيب فى موارد العالم العربى، فبعد أن كانت موارد العالم العربى الاقتصادية توظف للتنمية وللنهوض وللقيام بحركة نهضوية عامة وشاملة فى جميع أنحاء العالم العربى أصبحت هذه الموارد تستنزف لحروب ما كان أغنانا عنها لولا وجود هذه العلة المرضية فى جسد الأمة العربية، وقد اضطرت بعض البلدان إلى كثير من الديون نتيجة تسليح الجيوش من بلاد أوربية.

هنالك آثار سيئة جداً نتجت عن ميلاد هذه الدولة على أرض فلسطين، ولعب التمكن الصهيونى وتمكين دوره فى المنطقة فى عدم استقرار المنطقة لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا حتى ثقافيًا، ووجدنا أن معظم هذه البلاد العربية بدأت تلعب فيها أصابع الموساد الإسرائيلى الصهيونى بإثارة الفتن الطائفية فى بعض البلاد التى يسكنها نصارى ومسلمون كما حدث فى لبنان أكثر من مرة، وكما حدث فى مصر أكثر من مرة، وإثارة فتن بين بعض القبائل وبعضها الآخر كما في بعض بلدان الإمارات العربية المطلة على الخليج العربى أو الخليج الفارسى، لأن الحركة الصهيونية من وسائلها فى السيطرة على العالم العربى بكل وسيلة، إما باستنزاف خيراته وموارده فى الحروب، وإما بإثارة القلاقل والفتن بين الحاكم والمحكومين، أو بإثارة الصراعات الداخلية والفتن الطائفية بين أهل الملل والمذاهب كما حدث في كثير من البلدان العربية، المهم أنه لا يهدأ لها بال مادامت الأمة العربية أو الوطن العربى فى حالة هدوء أو استقرار.

نشاط اللوبى الصهيونى فى أمريكا ومظاهره:

مازال الحديث مستمراً عن الحركة الصهيونية العالمية، وعن نشاطها العالمى، وسوف أركز فى الصفحات التالية على النشاط الاجتماعى الثقافى الفكرى لهذه الحركة فى الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأننا نلحظ ولعلكم تلحظون معى أن الحركة الصهيونية الآن لم تعد تعنى دولة إسرائيل بقدر ما أصبحت تعنى السياسة الأمريكية والقرار السياسى الأمريكى.

فلقد تأسس فى أمريكا ما يسمى باللوبى الصهيونى منذ فترة، وهذا اللوبى الصهيونى يعمل على جبهات متعددة، ودائمًا ما نجد آثاره واضحة فى كثير من نواحى الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

واتضح أن التنظيم الصهيونى أو أن اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية - استطاع أن يستصدر قراراً بأن جميع المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية تُعفى من الضرائب فى جمع الأموال التى تجمعها لتمويل دولة إسرائيل، ثم أظهرت شهادات لجنة التحقيق بمجلس الشيوخ الأمريكى المعدة لهذا الغرض أن فى نشاطات التنظيم الصهيونى أن الأمر لا يقتصر على وقائع جمع المال، بل إن التنظيم الصهيونى لم يقنع بأن اعتبر نفسه مؤسسة إنسانية تُعفى من الضرائب، بل إنه أخذ فى نشاط سياسى لحساب قوة خارجية يجمع لها الأموال من دافعى الضرائب فى أمريكا، وأن هذه الأموال مجهولة المصدر والمنبع كما أيضًا هى مجهولة بنود الصرف.

ويقول أحد المحققين فى هذه اللجنة: إن هناك مذكرة رسمت الخطوط العريضة للجنة الميزانية العامة فى سنة ١٩٦٢ و١٩٦٣ وبدأ يطرح بعض الأسئلة عمّا إذا كان هناك مثال واحد من هذه المذكرة موجود يبين لنا هذا الفساد المالى أو ليس موجودا، فأجابه الرجل المسئول عن هذه المذكرة اسمه «هملى»: نعم يا سيدى هو موجود وموجود فى ملفاتنا، وأخرج محضر التحقيق ومعه مذكرة، وتبين فى هذه المذكرة ما يأتى:

أن هناك لجنة تسمى لجنة المجلات، وطالبت الحركة الصهيونية بزرع المحررين اليهود وإثارة ونشر مقالات مناسبة فى المجلات ذات الانتشار الواسع، وإعادة طباعة النصوص وتوزيعها وهى النصوص التى تبدو مؤيدة للنشاط الصهيونى فى المنشورات التى صدرت فى هذه الفترة. هذه المجلات كانت تمول بأموال من وزارة المالية الأمريكية دون علم المسئولين.

ووضعت المذكرة أمام المسئولين عن الحركة الصهيونية بعض البنود تطالبهم بضرورة تنفيذها، فعلى مستوى التلفاز والإذاعة والأفلام طالبتهم بأن ينظموا أحاديث إذاعية وتليفزيونية وأفلام تزرع فيها شخصيات موجهة لإثارة بعض القضايا ضد الإسلام والمسلمين، وضد العالم العربى، وإنتاج برامج تسويق يبين فيها حقوق إسرائيل وعدوان العرب والمسلمين على إسرائيل، وإظهار العرب والمسلمين بمظهر الوحشية وإسرائيل بمظهر الحَمَل الوديع.

ثم هناك تنظيمات دينية مسيحية طالبت بأن تُزرع فيها قادة يؤمنون بفكر الحركة الصهيونية، وأن يتولوا كتابة مقالات مؤيدة فى الصحافة البروتستانتية والكاثوليكية وتقاوم كل من ينادى بحق فلسطين فى الأرض، وأن الأرض هى أرض الميعاد لإسرائيل.

وفى الأوساط الجامعية تولوا كذلك العمل على نشر هذه الأفكار الصهيونية بين الطلاب عن طريق إقامة الحلقات النقاشية، والمؤتمرات، وحفلات الرقص، وإخراج بعض الأفلام الاستعراضية، وأفلام تتولى عرض شخصيات إسلامية فى شكل كاريكاتورى عملاً على تهجين هذه الشخصيات، وإظهار العربى والمسلم بصورة الإنسان غير المتحضر.

هذا فضلاً عن الصحافة اليومية، والكتب، والمحاضرات، والمشروعات الاقتصادية، ومحاولة العمل على نشر فكرة السفر إلى إسرائيل وإعانة الذين يطلبون السفر إلى إسرائيل حتى يروا ما فى أرض إسرائيل وأرض الميعاد من تحضر يعود سببه إلى أنه ذو جذور أوربية أمريكية، ويرى واقع الشعب الفلسطينى الهمجى ليرى الفرق بين هذا وذاك.

هذه بعض ملامح للنشاط الصهيونى على مستويات متعددة فى أمريكا فى عصرنا الحاضر، وهذا كله كان بمثابة تنفيذ لورقة العمل التى وضعها «تيودور هرتزل» فى برنامجه الأول الذى عقد فى ١٨٩٧ ميلادية.

هذا -أيها الأخوة- بعض ملامح ما يمكن أن نطلق عليه الصهيونية الأمريكية؛ لأن الصهيونية العالمية تأخذ ملمح البلد الذى تعيش فيه، وسوف نجد أن هذه الحركة الصهيونية أخذت بُعداً دينياً آخر فى أمريكا بالإضافة إلى هذين البعدين البعد السياسى والبعد الاجتماعى.

****

علاقة الصليبية بالصيهونية

[١]

من المعروف تاريخيًا أن الكنيسة الكاثوليكية ظلت ألفى عام تتخذ موقفًا من اليهود يقوم على أن اليهود هم الذين قتلوا يسوع المسيح، وأن اليهود بقتلهم المسيح -عليه السلام- قد قتلوا الرب، فكأن الشعب اليهودى فى نظر المذهب الكاثوليكى بالذا يسمى عندهم قاتل الرب أو قاتل الإله، وأصبح الشعب المختار عند الكاثوليك ليس هو اليهود وإنما هو الكنسية، وأصبح العهد القديم تجسيدًا رمزيًا للعهد الجديد.

هذا هو موقف الكاثوليكية المسيحية من اليهود، أنهم قتلة الرب، وأن الشعب المختار ليس هو اليهود وإنما هو الكنيسة، وأدى هذا التفسير فى نظر الكاثوليك إلى تصورهم أن اليهود حين رفضوا الاعتراف برسالة المسيح وأنه رسول من قبل الرب فلم يهتدوا فإنهم بذلك قد قطعوا صلتهم بالأمة الإبراهيمية، وصاروا بصرف النظر عن كونهم الشعب المختار أو غيره محكومًا عليهم باللعنة لماذا؟ لأنهم قتلوا الرب من جانب ولم يعترفوا برسالة عيسى من جانب آخر، فعاقبهم الله -سبحانه وتعالى- بأن طردهم من فلسطين ودفعهم سبايا إلى بابل، وعاقبهم بالنوازل التاريخية التى مرت بهم على طول التاريخ اليهودى، وأصبحت أورشليم فى نظر الكاثوليك ليست بذى قيمة تاريخية، وتولد عن هذا أن ظهرت فكرة معاداة السامة هذا المبدأ الذى يعتبر مبدءًا مسيحيًا من الناحية النوعية؛ لأنه قد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية حتى منتصف القرن العشرين أن أبناء الكنيسة هم شعب الله المختار، وأن اليهود هم الشعب القاتل للرب إلى منتصف القرن العشرين تقريبًا، وهذه الفكرة مسيطرة على الكنيسة الكاثوليكية.

وفيما يتعلق بالحالة الخاصة لهذه الكنيسة وعلاقتها بالتاريخ اليهودى، فإنها قد فسرت أن عودة صهيون إلى أحضان بنى صهيون أو إسرائيل من الناحية الرمزية تشبه إلى حدٍّ كبير عودة المسيحى إلى نقائه وصفائه -يعنى: كأن اليهود قد تابوا

ونابوا وعادوا إلى الرب وصالحوا الرب فعادت إليهم أرض صهيون- بهذا التفسير الأسطورى نجد أن العلاقة بين الكاثوليك واليهود تأخذ هذا المنحى التاريخى شد وجذب، لين أحيانًا وقسوة أحيانًا، علاقة اعتراف وعدم اعتراف أحيانًا أخرى.

(٢)

إلا أن القضية أخذت بُعدًا مختلفًا تمامًا عن هذا الاتجاه على يد المصلح البروتستانتى الشهير المسمى بـ«مارتن لوثر» هذا الرجل الذى تحرك فى القرون الوسطى تقريبًا ١٥٠٠ ليقضى على هذا التقليد الكاثوليكى، ولا ننسى أن هذا الرجل كان أصله صهونيًا، وكان له فى هذا الصدد موقفان:

فهو كان فى البداية متعاطفًا مع الفكرة الصهيونية، ويرى أن الأرض فى فلسطين أرض صهيونية ويجب أن تعود إلى أحضان الصهاينة، لكن هذا الموقف تغير تمامًا، وتحولت محبته للصهيونية إلى عداء، وأخذ يقود حركة تطهيرية يحاول من خلالها أن يتخلص من اليهود فى أوربا قاطبةً، ليس حبًا فى عودتهم ولكن حرصًا على التخلص من وجودهم فى أرض أوربا كلها. هذا المسيحى «مارتن لوثر» قائد الحركة التطهيرية أو قائد حركة الإصلاح كان فى أصله ينتمى إلى الفكر الصهيونى قاد هذه الحركة، وأخذت حركته تمتد فى ربوع أوربا تحمل معنيين

معنى التخلص من العنصر الصهيونى فى أوربا:

والمعنى الآخر تنادى بعودتهم إلى الأرض -كما قلت- ليس حبًا فى تحقيق النبوءة ولا حبًا فى الصهيونية، ولكن محاولة للتخلص من العنصر اليهودى الموجود فى أوربا.

من هنا يمكن أن نقول إن حركة الإصلاح التى قادها «مارتن لوثر» فى هذا القرن السادس عشر مثلت علامة فارقة فى تاريخ العلاقة بين اليهود والمسيحيين، فقد أكد المصلحون على أهمية العودة للكتاب المقدس كمصدر وحيد للوحى، وأكدوا أيضًا على أهمية التفسير الحر دون التقيد بالتفسير الحرفى الذى يدعيه أبناء صهيون، وبذلك أعاد المسيحيون اكتشاف الجذور اليهودية للمسيحية، وقد أُثر عن «مارتن لوثر» قوله فى كتاب له نشر فى سنة ١٥٢٣ بعنوان أن (المسيح ولد

يهوديًا): «لقد كانت بمشيئته أن يكون إنعامه على العالم بالدين من خلال اليهود وحدهم دون سائر البشر، لكن اليهود كانوا يمثلون أبناءه المحببون لديه، وما نحن -هو يقصد أن المسيحيين البروتستانت- إلا ضيوف غرباء على مائدة اليهود».

هذا الرأى سرعان ما تغير على يد «مارتن لوثر» وتراجع عن هذا الموقف، وسجل تراجعه عن هذه الفكرة فى كتاب له صدر عام ١٥٤٤ بعنوان: (عن اليهود وأكاذيبهم) لاحظ معى عنوان الكتاب الأول (المسيح ولد يهوديًا) أما الكتاب الثانى بعنوان: (عن اليهود وأكاذيبهم) صرح «مارتن لوثر» فى هذا الكتاب من ذا الذى يمنع اليهود من أن يعودوا إلى أرضهم فى يهوذا لا أحد، بل وإننا على أتم استعداد أن نساعدهم بكل ما قد يحتاجونه فى رحلتهم إلى أرضهم المقدسة» واسمع معى هذه العبارة: «لمجرد أن نتخلص منهم فهم عبء ثقيل ومصيبة حلت بنا» هذا تعبير «مارتن لوثر» الموقفان مختلفان تمامًا ففى الموقف الأول يربط بين المسيحية واليهودية فى كتابه: (المسيح ولد يهوديًا).

وموقف آخر على النقيض من الموقف الأول ينادى فيه بضرورة التخلص من اليهود.

ولقد فطن «مارتن لوثر» حين اكتشف أن اليهود قد استطاعوا أن يؤثروا فى حركة التاريخ قبل مجيئه إلى التاريخ، ولذلك جعل من مهمته تصحيح التاريخ الذى زيفه اليهود، وأنه حتى تتحقق النبوءات التى يدعونها، ويكون المجىء الثانى للمسيح ينبغى أن يكون تجمع اليهود ليس فى أوربا وليس فى ألمانيا، وإنما هناك بعيدًا عن دول أوربا كلها، ولابد من تحويلهم بعيدًا عن الأرض الألمانية، وعن الأرض الأمريكية أيضًا، لماذا؟ لأننا سوف نجد أن «مارتن لوثر» هذا قد تولدت عن حركته تلك حركة تسمى (حركة الأطهار) التى هاجرت إلى أمريكا فيما بعد، والتى فسرها البعض بأنها ميلاد جديد للدولة الأمريكية، كما أن هجرة اليهود إلى إسرائيل أو إلى فلسطين ميلاد جديد للدولة العبرية، وكان ذلك هو الحل الذى طرحه بعض علماء اللاهوت وهو عضو المجلس العمومى البريطانى السير «توماس برايتمان» حين طرح قضية الهجرة فى مطلع القرن العشرين ونادى بها المتطهرون أنه لابد من أن نعمل على هجرة اليهود من ألمانيا وأوربا إلى أرض الميعاد.

(٣)

الصليبية الصهيونية:

وهذ المعنى قد صرح به الأصولى الصهيونى «وليم بليكستون» فى كتابه الذى طبعه بعنوان: (المسيح قادم) وبات هذا الكتاب أشبه بالكتاب المقدس للإنجيليين فى أمريكا، ومن هذا التاريخ -تاريخ نشر هذا الكتاب الذى هو (يسوع آت) أو (المسيح قادم)- بدأت فى أمريكا تتأسس حركة بروتستانتية صليبية صهيونية تعمل على تجميع ما يسمى بالصهيونية الصليبية تحت مضمار واحد فى ربوع أمريكا، وعلى طريق هذه الجمعية -جمعية الصهيونية الصليبية- بدأت تتأسس حركة جديدة فى أمريكا كان لها أثرها البالغ الخطورة فى مسار التاريخ الأمريكى إلى وقتنا الحاضر وألفت النظر هنا إلى نقطتين مهمتين:

١- نجد أن «لوثر» إذن تصدر الدعوة إلى تجميع اليهود فى فلسطين وإعطائهم الدعم المسيحى لتعود فلسطين وطنًا لهم، فليس حبًا فيهم -كما قلنا- وإنما محاولة للتخلص من اليهود.

٢- كذلك نجد السبق الذى كان للبروتستانتية والإنجيلية التى تولدت فى أمريكا تعمل على تكوين ما يسمى بالصهيونية اليهودية، وهو سبق تاريخى اختلطت فيه التصورات والأهواء والعواطف والرموز الدينية؛ لتجعل لحركة التطهير التى هاجرت من أوربا إلى أمريكا ما يمكن أن يسمى بالرمز لعودة اليهود إلى أرض فلسطين، وبدأ البعض يقارن بين هجرة المتطهرين من أوربا إلى أمريكا وهجرة اليهود من شتى أنحاء العالم إلى إسرائيل، وكأنما هناك تاريخ مشترك بين تأسيس الدولتين، حتى إننا نجد أن بعض رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية كـ«جيمى كارتر» مثلاً يعلن بصراحة: «أننا والشعب الإسرائيلى كلنا من الشعوب المهاجرين الرواد» . هذه بعض الملامح عن هذه الحركة التطهيرية التى بدأت على يد «مارتن لوثر» فى ألمانيا.

(٤)

نبوءة الظهور:

ونجد أن هذه الحركة بعد أن ترتب عليها هجرة أوربية إلى أمريكا بدأت نظرية جديدة تظهر فى الأفق البروتستانتى، هذه الفكرة مضمونها أو ملخصها أن السيد

المسيح سوف يظهر فى الألفية الثالثة ليحكم العالم، وأن هذا الظهور سوف يكون على أرض فلسطين، ولن يتم هذا الظهـور إلاّ بعد إقامـة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، فالنظرية تسمى النظرية الألفية أو نظرية المُلك الألفى، بدأت هذه النظرية تأخذ ظهوراً تاريخياً شيئًا فشيـئًا فى بعض الكتابات البروتستانتية، وهى تعنى: أنه عندما يجتمع اليـهود من الشتات فى أرض فلسطين ستقوم معـركة عالمية بين قوى الخير والشر ويعود المسيح لتنتصر قـوى الخير ويقيم مملكته على الأرض والتى ستدوم ألف عام مع خلاف بين المسيحيين بعضـهم مع بعض إذ يعتقد بعـضهم أنهم ليسوا مطالبين بالعمل لعودة اليـهود من الشتات إلى فلسطين، حتى يتحقق الملك الألفى؛ لأن هذا سـوف يحدث من وجـهة نظرهم بفـعل إرادة الله، ودون تدخل من أحد، وكان هذا أصل ظهور نظرية المُلك الألفى.

لكن بعـد نكبة أو بعـد حرب يونيـة ١٩٦٧ قلبت الموازين، ومن الأهميـة بمكان ونحن نحاول الوقوف على هذا الدور الذى لعـبته الصهيونية البروتسـتانتية فى تمكين الصهيونية العالمية من تنفيـذ مشروعها فـيه على مستوى العـالم العربى بالذات فى فلسطين، نجد أن إسرائيل رفعت مظلة الحـماية البالغـة الشراسة الـتى حمل لواءها الشعـب الأمريكى والسـياسة الأمـريكية ممعنة فى العنف الدموى فـوق تلك المظلة التاريخيـة مستعينة بهـذه النبوءة والترويج لهذه النبوءة، حـتى إنه من الأهمية بمكان ونحن نحاول أن نظهر أثر هذه النبـوءة فى مواقف الصهيونية المسيـحية فى أمريكا، وفى محاولة لتفسير النشاط البروتستانتى الصهيونـى فى أمريكا فنجد أن زعماء هذه الحركـة إذا تكلم الواحد منهم فإنه يتكـلم وكأنما يخبرنـا عن الله، أو يتكلم بصوت الله، أو يسمعنا صوت الله، وأن سلطته مـستمدة من الله، وأنه حين يتكلم عن هذه النبوءة فإنما يخبـرنا أيضًا بوعد الله، وكأنما قضية النبـوءة الواردة فى التوراة أصبحت تأخذ وضعها الطبيعى بين كتاب اللاهوت البروتستانتى كما أن نبوءة الشعب المختار، ونبـوءة الوعد بالأرض بفـلسطين أخذت أيضًـا مكانهـا فى كـتابات بعض مـفكرى اللاهوت اليـهـودى، وبدأ البـعض يقـارن بين الـنبـوءتين أسطورة الوعـد بالأرض وأسطورة الشعب المخـتار، بأسطورة النبوءة الإلهـية الواردة فى التوراة بعـودة المسيح ليحكم العالم من أرض فلسطين، وأن هذه العودة لا تتم إلاّ بعد قيام دولة إسرائيل.

ولذلك نجد أنه قد ازداد ميل المهاجرين الأوربيين المعروفين بالأطهار أو المتطهرين، أو المخلصين، أو سمهم ما شئت فإن كل هذه الأسماء تتردد حول الذين هاجروا من أوربا ليسكنوا أمريكا تحت تأثير حركة التطهـير التى قام بها «مارتن لوثر» ازداد ميلهم إلى إسباغ الهوية اليهودية على أنفسـهم وبدءوا يتخلصون من الفكرة الكاثوليكية التى تميل إلى اعتبار أن اليهود قـتلة الرب، لا، بل بدأوا يتخلصون من هذه الفكرة تمامًا، بل أكثر من هذا ازداد ميلهم إلى أن يسبغوا عـلى أنفسهم الهوية اليهودية، وإن شئت اليهودية الصهـيونية إلى حد أنهم أقنعوا أنفـسهم بأنهم العَبرانيون الحقـيقيون، وأنهم شعب الله المخـتارو فـعلاً، وفى اقتناعـهم بذلك ذهبوا إلى حـد التخلى عن مـبادئ الرحمـة، والاعتدال، والمغفـرة فى صوغهم لطريقـة حياتهم الخاصـة والتى نزل بها المسيح -عليه السلام- لطريقة أخرى أضفتها عليهم ميولهم إلى الحياة العبرانية.

هذا ما نجـده واضحًـا فى سلوك هؤلاء المتطهرين فـى هذه الفترة من الـتاريخ، انتقال من سلوك وحالة اجتماعية وانتماء دينى، إلى انتماء آخر وسلوك آخر وهوية أخرى، ولذلك لا نعجب أن نجد أن هؤلاء قد أطلقوا على أنفسهم أو أطلق عليهم المؤرخون اسم: «الصهـيونية الصليبيـة» البعض يسميهم: «الصـهيونية المسيـحية» لكننى أرفض هذا؛ لأن المسيحية الصحيحة ترفض ما عليه هؤلاء.

هذا الميل والولاء الذى بدأ يظهر شيئًا فشـيئًا فى سلوك ما يسمى بالمتطهرين إلى الحركـة الصهيونيـة والشعب الإسرائيلى -هو الذى يفـسر لنا أن كتابات السـاسة الإنجليز عمومًا من القرن التاسع عشر بدأت تأخذ لونًا من التعاطف مع اليهود ومع الحركة الصـهيونية، كما نجـد أن دعوة عالمية لإعادة اليـهود إلى فلسطين تتردد فى كتابات الساسة الإنجليز، هـذه الاتجاهات التى ظلت تعمل عملها إلى أن ولدت لنا وعد «بلفور» ١٩١٧، والذى يحلله المؤرخون للحركـة الصهيونية بأن «بلفور» هذا نفسـه قد تربى فى أيام صباه على دراسـة العهد القـديم بتوجيه ودفع حـثيث من والدته المتدينة تدينًا عميقًا، والذى ينتمى إلى أسرة من المتطهرين الذين آمنوا بالولاء للفكرة الصهيونية.

هكذا نرى الأطهار رأوا أن أمريكا أيضًا بالنسـبة لهم هى أرض الميعاد التى هاجروا إليها، بل إنهم كانوا يرون أنهم هم الكنعانيون الجدد على أرض أمريكا؛ لذلك كانت

هجرتهم الأولى تحمل معها نزعة عبرية ظهرت آثارها فى الحضارة الأمريكية الأولى فى هذا العهد. هذه الحضارة التى بُنيت أصولها على أفكار مسيحية يهودية التراث لماذا؟ لأنه قد رأى المتطهرون الأوائل أن أمريكا هى أرض الميعاد وفسروها هذا التفسير أى: هى الأرض التى سيقيم فيها الله ويقيم فيها وطنًا ومملكة للخيروهم روادها - أى: الأطهار- وهذه الرؤية الدينية هى التى جعلت من الأرض الأمريكية أرضًا لها طبيعة دينية خاصة، وهى التى جعلت المهاجرين الأوائل من الأطهار يتميزون بحالة إيمانية خاصة، فأرض الميعاد هى لأصحاب الميعاد كما أن أرض التوراة لأصحاب التوراة، لذلك بدأ يظهر بين الأمريكيين الأصوليين الأوائل شعور بأنهم شعب الله المختار أو شعب مميز، أو شعب أرقى من بقية الشعوب، وهذا الشعور، ما كان له أن يتأكد إلا من خلال التوحد مع الثقافة والحضارة اليهودية كتصور لما جاء فى الكتاب المقدس، وكشعب يوجد بالفعل، لقد رأى الأطهار الأوائل من أنفسهم شعبًا يهوديًا جديدًا أو هو امتداد للشعب اليهودى الذى يبحث عن وطن له.

فى هذا المناخ نستطيع أن نقول: إن الجذور الأولى للمجتمع الأمريكى هى التى تأثرت بهذا الفكر الصهيونى الجديد إلى حد كبير؛ مما جعل المجتمع الأمريكى مخترقًا من قِبل الفكرة اليهودية، وهذه العبارة «مخترقًا من قِبل الفكرة اليهودية» تكررت فى كتابات كثير ممن أرخوا للحركة الصهيونية يقولون: إن المجتمع الأمريكى أصبح مخترقًا من قبل الفكرة الصهيونية والفكرة اليهودية، وفى بداية نشأة المجتمع الأمريكى رحّب الأمريكيون الأطهار بقدوم اليهود، ووجدوا فيهم شعبًا يماثلهم أو أمة تماثلهم، فهم مهاجرون إلى أمريكا واليهود مهاجرون أيضًا إلى أمريكا، وتوجهوا بشىء من التبشير البروتستانتى فى هذا المجتمع اليهودى الجديد، ولعل المعنى يكون واضحًا من وراء ذلك، فهو تعبير عن رغبة عميقة للتوحد بين الأصولية الأمريكية اليهودية والأصولية البروتستانتية التى تمثلت فى قدوم الأطهار إلى هذه المنطقة[1].

التوحد الفكرى:

وأيضًا هو توحد فكرى يتوج بتحول اليهود إلى المسيحية، والمسيحية البروتستانتية إلى اليهودية، وتصبح أمريكا فى هذا الوقت من التاريخ هى أرض الميعاد لكلّ من

(١) انظر: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى مواضع متعددة وخاصة ٣٠ وبعدها.

اللونين، ويصبح اليهود والأصوليين الأمريكيين هم شعب الله المختار معًا، إلى هذا الحد كانت التحليلات العلمية لظاهرة قدوم الأطهار أو المتطهرين من أوربا وهجرة بعض اليهود إلى هذه المنطقة من العالم، ومحاولة التوحد فكريًا وثقافيًا وعقائديًا بين المتطهرين القادمين من أوربا واليهود المهاجرين إلى أمريكا، ومع مرور الوقت كان يتضح أن ما كان الأطهار الأوائل ينظرون إليه بعين لم تتحقق فقد أصبحت أمريكا دولة لا دينية يسود فيها الفكر الليبرالى الإلحادى، عكس ما كان يرجو المتطهرون فى بداية عهدهم بأمريكا.

ونجد أنه فى منتصف القرن العشرين ظهر فى هذا المجتمع نوع أطلق عليه المحللون اسم «الرجاء الجديد» أو «أرض الميعاد الجديد» فالرجاء هو: عودة اليهود إلى فلسطين، وأرض الميعاد هى: فلسطين، ولكنها أرض رمزية لن يرحل إليها الأمريكيون بل يرحل لها اليهود، فتحل بركات الميعاد على أرض أمريكا، ويتوحد الأصوليون مرة أخرى مع اليهود كيف؟ نجد أنه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بدأت الأصولية الصهيونية بدأت تحت ما يسمى برجاء العودة تعمل على دفع أصحاب القرار السياسى شيئًا فشيئًا إلى العمل على ميلاد دولة فلسطين خاصة أنها قد خرجت من الحرب العالمية الأولى منتصرة، وبدأت تتولى زمام الأمور على مستوى العالم، فبدأت الأصولية الصهيونية الصليبية البروتستانتية تعمل تحت ما يسمى بعامل الرجاء بعودة اليهود إلى أرض فلسطين، والعمل على لمّ شتات اليهود من أنحاء العالم إلى هذه الأرض المقدسة، ويحدث فى هذا الرجاء نوع من التوحد مرة أخرى بين المتطهرين أو البورتستانت أو الصليبية والصهيونية اليهودية من جانب آخر، تتمثل هذه الوحدة فى ماذا؟ فى أن الشعب الأمريكى يتأثر بدعوة البروتستانت فى مساعدة اليهود لإقامة دولتهم، فتحل عليهم البركة وتكون أرض الميعاد الجديد -التى هى فلسطين- أشبه بأرض الميعاد القديمة التى حل بها المتطهرون من قبل، ويصبح شعب الله المختار هو الشعب اليهودى الصهيونى الذى حلّ بأرض فلسطين كما كان شعب الله المختار هو التوحد الصهيونى الصليبى الذى تم على أيدى الأطهار أو المتطهرين، وعلى يد اليهود منذ قرن أو أكثر من قرن من الزمان.

هذا الانتماء الصهيونى قد سرى فى طريقة الحياة الأمريكية وتسلل فى نسيجها بعد ظهور قضية الرجاء، وأخذ هذا الولاء يظهر أثره شيئًا فشيئًا فى جميع القرارات الأمريكية التى تتعلق بالشرق الأوسط، ويفصح عن مدى ذلك التغلغل ما أظهره الجمهور الأمريكى العريض من تحمس بالغ للانتداب البريطانى على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ثم إدانة أمريكا العالمية لصوت وسياسة بريطانيا فى فترة ما بين الحربين تجاه فلسطين، كلما بدا أن تلك السياسة خرجت عن خط وعد بلفور، وقفت لها أمريكا بالمرصاد، ثم جاء عام ١٩٦٧ فمثل تاريخًا جديدًا له دلالة خاصة فى الظاهرة الدينية فى أمريكا بالذات خاصة فى فكر جماعة الصهيونية الصليبية البروتستانتية بالذات؛ لأن هزيمة العرب فى ١٩٦٧ قد أدت إلى ظهور الأصولية الإسلامية من تيار نخبوى قليل العدد ثم تحول إلى تيار شعبى عمّ المسلمين قاطبةً، وأصبحت الجماعات الإسلامية بديلة عن الحكومات الإسلامية فى نظر الشعوب، وأدى الانتصار بالنسبة لإسرائيل إلى تقوية الأصولية اليهودية إذ فسرت هذا الانتصار بأنه دليل على أن الله معها، وأن عوامل التاريخ التى تمهد لنزول المسيح فى إسرائيل قد بدأت تظهر بوادرها، وأن الأصولية الصهيونية الصليبية فى أمريكا قد بدأت تجنى ثمرات النبوءة التى بشرت بها فى أمريكا، وهى النبوءة القائلة بأن المسيح سوف ينزل ليحكم العالم من أرض فلسطين.

كما أدى انتصار إسرائيل إلى دعم أفكار الأصولية المسيحية فى أمريكا من جانب آخر ومنها إلى العالم كله. نتيجة انتشار هذه الأفكار المتعلقة بعودة اليهود وانتصارهم تمهيدًا لقدوم المسيح -عليه السلام- مما غلّب التيار المتطرف الصهيونى فى فلسطين وفى أمريكا، وجعل صوته عاليًا ومؤثرًا فى القرارات السياسية الأمريكية بل والأوربية أيضًا.

وهناك عامل آخر ترتب على انتصار إسرائيل فى ١٩٦٧ أنه فتح الطريق لازدهار الصهيونية الصليبية، فقد قارن الشباب الأمريكى بين هزيمتهم فى «فيتنام» مثلاً وانتصار اليهود ١٩٦٧، وفسروا ذلك بأن الله لم يكن معهم فى «فيتنام» لكنه كان مع اليهود فى ١٩٦٧؛ لأنهم شعب الله المختار.

وفى عام ١٩٧٠ نجد أن بعض المفكرين الصهيونيين كتب كتابًا بعنوان «الراحل كوكب الأرض العظيم» وبعد عشرين سنة من الطبعة الأولى لهذا الكتاب وصلت

مبيعات هذا الكتاب إلى أكثر من ١٨ مليون نسخة، وبذلك يمكن أن يقال: إن هذا الكتاب كان أكثر الكتب رواجًا فى أمريكا فى هذه الفترة بالذات لماذا؟ لأن الكتاب -أيها الأخوة- أخذ يشرح تاريخ العالم من وجهة نظر عقائدية بحتة، وهذه النظرة العقائدية هى نظرة صهيونية صليبية بروتستانتية مائة فى المائة، فهو يشرح ماضى التاريخ فى ضوء الاتفاق التام مع نبوءات الكتاب المقدس بعهديه: العهد القديم والعهد الجديد، ومن ثم يمتد بالتاريخ من الماضى إلى المستقبل؛ ليُقنع العالم أن ما سيحدث فى المستقبل سوف يكون أيضًا طبقًا لنبوءات الكتاب المقدس بحسب فهمه لها، لماذا؟ لأن ما تنبأ به الكتاب المقدس وقع فى الماضى.

إذن ما جاء فى الكتاب المقدس من نبوءات تتعلق بالمستقبل سوف يقع فى المستقبل أيضًا كما وقع نظيره فى الماضى حيث يقيس المستقبل على الماضى، وهذا من وجهة نظره، والرؤية التاريخية التى عرض لها المؤلف فى مجملها تدور حول قوى الشر وقوى الخير فى العالم، وكيف سيبدأ العد التنازلى لنهاية العالم من خلال تجمع اليهود من الشتات فى دولتهم فى فلسطين، ثم تتجمع قوى الخير متمثلة فى أمريكا؛ لتحارب قوى الشر العالمى فى معركة عالمية تسمى معركة «الهرمجدون» وفى هذه المعركة تنتصر قوى الخير على قوى الشر، ثم يأتى المسيح ليحكم العالم كله لمدة ألف سنة.

محاور الخير والشر:

وخلال صفحات هذا الكتاب يتعرض المؤلف للدول المختلفة؛ ليصنفها فهى إما تنتمى إلى محور الخير أو إلى محور الشر، فروسيا مثلاً ضمن قوى الشر، والعرب والمسلمون قاطبةً ضمن محور الشر، ولذلك فإن انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ يمثل فى نظر المؤلف جزءٌ من الخطة الإلهية لانتصار قوى الخير، وقيام إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ليتجمع فيها كل شعب الله المختار حتى عندما تقوم الحرب الأخيرة ويموت فيها أغلب اليهود حسب رواية يوحنا اللاهوتى، وحسب النبوءة الواردة فى التوراة التى تقول: لا يبقى من اليهود (سوى ١٤٤٠٠٠) لا يزيدون ولا ينقصون، حين يحدث هذا يأتى المسيح ويعطى لشعبه المختار المتبقى فرصة أخيرة حتى يقبلوه كمخلص للعالم، فاليهود إذن فى النهاية هم شعب الله

المختار وهم الذين يأتى إليهم المسيح ليؤمنوا به، وعن طريقهم يخلص العالم من كل الشرور، ومن هنا يصل المؤلف إلى أن اليهود كشعب مختار قد ضل الطريق فى البداية، ولكن الله لم يتخل عن شعبه المختار؛ لذلك تظل له مكانة خاصة، وتظل له ما يسميه بالفرصة الأخيرة؛ لأن كل قوى الشر سوف تتحطم فى معركة «الهرمجدون» ويذهب الأشرار إلى الجحيم، وكل من رفض المسيح كمخلص للعالم يذهب إلى الجحيم، أما شعبه المختار الذى رفضه أولاً وأعطاه الرب فرصة أخرى حتى يقبله فهو الذى ينزل إليه المسيح ليأخذ بيده ويقود العالم نحو الله مرة ثانية.

ومن العجيب أن بعض الساسة الأمريكان كان يؤمن بهذه الخرافات، فوجدنا مثلاً الرئيس «ورنالد ريجان» كان من أنصار الصهيونية المسيحية أو الصهيونية الصليبية المتحمسين لهذه النبوءة المؤمنين بها والمصدقين بها، فقد قرأ هذا الكتاب وتأثر به تأثرًا شديدًا، وقد صرح الرئيس ريجان لجريدة «الواشنطن بوست» فى ١٨ أبريل سنة ١٩٨٤ بأنه كان يشعر عند الانتخابات بأن المسيح يأخذ بيده، وأنه سوف ينجح ليقود معركة «الهرمجدون» التى يعتقد أنها ستقع خلال الجيل الحالى فى منطقة الشرق الأوسط[1].

بل أكثر من هذا عجبًا أنه فى هذا الوقت ظهر خبر فى الصحافة المصرية يقول: إن أحد سياسى البيت الأبيض كتب فى مذكراته أن «نانسى ريجان» حرم الرئيس «ريجان» كانت تستشير عرافة فى نفس هذا الوقت، كانت هذه العرافة تأخذ عطاءها من البيت الأبيض وتقيم حفلاتها التعبدية داخل أحد الفنادق الكبرى فى القاهرة، ولم يلفت أحد إلى هذه المقابلة الطريفة التى تمت برغم ما فيها من دلالة، فزوجة رئيس أكبر دولة فى العالم تحدد لزوجها طريقه من خلال الرؤى والنبوءات الدينية، ومن خلال مواعظ امرأة أصولية بروتستانتية كان لها شرف إرشاد الرئيس وسيد البيت الأبيض إلى القرارات التى يجب عليه أن يتخذها بشأن قضية الشرق الأوسط.

وكان الرئيس «ريجان» يطلق على الاتحاد السوفيتى لقب «إمبراطورية الشر» وكان يتمنى أن يقضى على هذه الإمبراطورية وهو فى الرئاسة، وهذا التعبير -أيها

(١) الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى، ص ٣١ وبعدها: ١٧٩- ٢٠٠؛ سقوط الأقنعة: السفير محمد والى، ص ٥١، ٥٢ وبعدها.

الأخوة- ليس مجرد وصف، بل هو سرد كامل للنبوءات وانتظار لتحقيق هذه النبوءات، وهو نفس التفسير الذى قال به «ريجان» فإن إمبراطورية روسيا هى التى ستقود كل قوى الشر من العرب والمسلمين وتزحف حتى منابع البترول وتصل إلى أرض فلسطين، وهناك سوف تقابل أمريكا فى معركة حامية الوطيس، أمريكا التى هى شعب الله المختار التى تقود كل قوى الخير لتقضى به على كل قوى الشر الذى هو الاتحاد السوفيتى وما معه من الدول العربية والدول الإسلامية، ولكن والحمد لله سقط الاتحاد السوفيتى قبل أن تقوم هذه المعركة لأبين لكم -أيها الأخوة- مدى شناعة الأساطير التى أسست عليها الفكرة الصهيونية، وبالتالى قامت على أساسها الدولة الإسرائيلية على مرأى ومسمع من العالم كله، ولكن سقوط الاتحاد السوفيتى لم يجعل «ريجان» يتوانى عن استعداده لخوض المعركة الكبرى «الهرمجدون» فهى ليست الأمل الذى يمكن التنازل عنه؛ لأنها انتصار لقوى الخير العالمية على قوى الشر العالمية، وكان سقوط إمبراطورية الشر فى نظر «ريجان» يعنى ضياع الحلم الذى كان يعيش من أجله، أو الذى كان يراود نفسه بأنه يعيشه عملاً وواقعًا كما عاشه نظريًا، ولكن كان سقوط هذه الإمبراطورية -التى هى إمبراطورية الشر روسيا- كان انتصارًا مرحليًا لقوى الخير قبل وقوع معركة «هرمجدون» فإذا كانت الإمبراطورية الكبرى للشر قد سقطت فهذا لا يعنى من وجهة نظرهم أن الحرب لم تقع، لا بل هم يؤمنون بأنها واقعة لا محالة ونحن وهم فى انتظارها وإلى أن تقوم معركة «الهرمجدون» بين قوى الخير التى تدعى أمريكا أنها تمثله، وقوى الشر التى تصنف أمريكا أنها تشمل العالم الإسلامى كله نحن فى انتظار هذه المعركة، وربما كان المأزق الذى تعيشه أمريكا فى العراق هو البداية الطبيعية للهزيمة الكونية التى بدأت تعيشها أمريكا من الآن وبقية الهزائم آتية إن شاء الله.

وسائل أمريكا لتضليل الرأى العام تحت شعار محاربة الإرهاب:

إن الواقع التاريخى قد أثبت كذب هذه النبوءات من أولها إلى آخرها، فقد سقط الاتحاد السوفيتى ولم تقم أو لم تقع معركة «الهرمجدون» ومعنى سقوط إمبراطورية الشر -التى هى الاتحاد السوفيتى- لا يعنى انتهاء أهل الشر فى العالم،

أو نهاية إمبراطورية الشر فى العالم، هكذا فسر «ريجان» وفسر أنصار الاتجاه الصهيونى الصليبى فى أمريكا، فحوروا القضية من معركة «الهرمجدون» إلى ما يسمى بمحاربة الإرهاب العالمى، وأخذ مصطلح الإرهاب يحل محل معركة «الهرمجدون» ورفع فى أمريكا شعار: الحرب العالمية ضد الإرهاب، وانتهى من على ألسنة الساسة الأمريكيين مصطلح معركة «الهرمجدون» وأخذوا يقولون: إن روسيا إذا كانت قد سقطت أو سقط الاتحاد السوفيتى فإن ذلك ليس إلا مرحلة تاريخية من مراحل الصراع بين قوى الخير وقوى الشر، ولذلك نقلوا المعركة بكاملها من مواجهة بين الخير والشر فى معركة «الهرمجدون» إلى معركة تاريخية جديدة بدءوا يرفعون لها شعاراً جديداً وهو شعار «الحرب العالمية ضد الإرهاب».

أرجو أن نعى تماماً الواقع التاريخى ونحن نفسره من واقع الكتابات التى ظهرت فى أمريكا تحت التأثر بالفكر الصليبى الصهيونى، وتحت فكرة أن أمريكا هى رسول الله إلى العالم لتحارب الشر فى العالم، ولتعمل على سيادة الخير فى العالم، وجدنا انطلاقاً من هذا التفكير الأسطورى فى سنة ١٩٨٦ لعلكم تذكرون -أن أمريكا قد قامت بضرب ليبيا فى هذا التاريخ ١٩٨٦، وكان السبب الذى ظهر فى الإعلام الأمريكى تبريراً لهذا الموقف الأمريكى من ليبيا- أن ليبيا بلد إرهابى، وأن أمريكا تحاربها من منطلق أنها مسئولة عن محاربة الإرهاب فى العالم، ولكن الواقع التاريخى أثبت خلاف ذلك تماماً، فلقد صرح الرئيس الأمريكى «ريجان» وهذا التصريح أيضاً معلن فى الصحف الأمريكية ونشر فى صحيفة «سان ديجو» ونشرته بعددها الصادر فى أغسطس عام ١٩٨٥ بماذا صرح ريجان؟ صرح بالآتى: قال: إن «ريجان» كره ليبيا؛ لأنه يرى أن ليبيا واحدة من أعداء إسرائيل الذين ذكرتهم النبوءات الواردة فى الكتب المقدسة، وأنها عدوة لشعب الله المختار وبالتالى يجب ضربها وإبادتها انتصاراً لشعب الله المختار، وتحقيقاً للنبوءات الواردة فى الكتب المقدسة، لماذا؟ لأنها عدوة لله[1].

يقول الصحفى الذى أجرى هذا التحقيق مع «ريجان»: لقد انتحى بى «ريجان» جانباً أثناء حفل العشاء، وأخذ يتحدث إلى عن النبوءات الواردة فى الكتاب

(١) الخلفية التوراتية، ص ٧١ وما بعدها.

المقدس، وعن حتمية نشوب حرب مع الاتحاد السوفيتى؛ لأن السوفيت فى نظره هم يأجوج ومأجوج الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس، وأن هذه الحرب سوف تكون آخر حرب كبرى يشهدها العالم، وأن «ريجان» هو المؤهل لقيادة هذه الحرب، ثم التفت إلى الصحفى بحدة وقال له: إننى قرأت فى الإصحاح ٣٨ من «سفر حزقيال» أن أرض إسرائيل سوف تتعرض لهجوم تشنه عليها جيوش الأمم الكافرة، وأن ليبيا سوف تكون من بين تلك الأمم. هذا ما صرح به ريجان لهذا الصحفى، وبناء على هذا التصريح وجد عنده المبرر الذاتى لضرب ليبيا، ثم ظهر على العالم بأنه يضرب ليبا لماذا؟ لأنها دولة إرهابية. هذه هى السياسة الأمريكية المتأثرة بحركة الصهيونية الصليبية فى أمريكا.

وإذا انتقلنا من الرئيس «ريجان» إلى الرئيس «جيمى كارتر» وجدنا أن هذا الرئيس قد نجح إلى حد ما فى أداء بعض الواجب المقدس عليه الذى يؤمن به تجاه إسرائيل، حيث أمن لها السيادة وحيازتها لكل الأرض المتعاقد عليها أو التى أبرم الله الوعد بينه وبين أنبياء بنى إسرائيل من أجلها، وفرح بذلك فرحًا شديدًا، واعتبر نفسه أنه بذلك قد حقق النبوءات التى سيسود تبعًا لتحقيقها سلام إسرائيل فى العالم كله، وصرح الرئيس «جيمى كارتر» بذلك فى بعض المناسبات، وأعلن أنه إنما فعل ذلك؛ لأن بينه وبين إسرائيل تاريخًا مشتركًا وتراثًا مقدسًا مشتركًا، وهو يقول بينه وبين إسرائيل لا يعنى بينه وبين شخصه ولكن بين القوة الصهيونية الصليبية التى يقودها والتى يمثلها فى أمريكا وبين إسرائيل تراثًا مشتركًا، وهو النبوءات الواردة فى التوراة عن نزول المسيح فى أرض إسرائيل.

وإذا انتقلنا إلى الرئيس «بوش» الابن الموجود حاليًا نجد أنه هو الآخر لم يكتف بما فعله الرئيس «ريجان» ولا بما فعله «بوش» الأب، ومن المفيد أن نذكر هنا أن «بوش» الأب بعد حرب الخليج الثانية وبعد أن تم تحرير الكويت أعلن فى حفل تحرير الكويت أنه بذلك يعلن النظام العالمى الجديد الذى تقوده أمريكا فى المنطقة. تابعوا معى هذه التصريحات وهذه التواريخ؛ لأنها على درجة كبيرة من الأهمية لنعلم كيف تدير أمريكا وإسرائيل الحركات الانقلابية وحركة التاريخ فى المنطقة العربية.

جاء «بوش» الابن كما قلنا ورأى أن «كارتر» لم يقم بواجبه تمامًا تجاه إسرائيل، وأخذ يعلن ويصرح أنه سوف يأخذ على عاتقه التمهيد الكامل لسيادة إسرائيل وسيادة أبناء النور على أبناء الظلام فى المنطقة وبالتالى فى العالم كله، وأبناء النور كما ذكرنا من قبل هم الأمريكيون واليهود، وليس كل الأمريكيين للأسف الشديد، بل كل الأمريكيين الذين ولدوا ولادة ثانية بعد هجرة أبناء النور من أوربا إلى أمريكا.

هذه كلها مسائل يؤمنون بأن التوراة قد تنبأت بها، وأن مهمة أمريكا المعاصرة -بما أنهم يمثلون أبناء النور- مهمتها الأساسية هى القضاء على أبناء الظلام، على محاور الشر، وأن محاور الشر تتمثل عندهم فى العرب وفى المسلمين بعد سقوط الاتحاد السوفيتى من أمامهم -قضية سقوط روسيا أو الاتحاد السوفيتى- لا تعنى انتهاء محاور الشر كما قلنا، وإنما تعنى مرحلة من مراحل المواجهة بين قوى الخير التى تمثلها أمريكا، وقوى الشر التى تتمثل فى العرب المعادين لإسرائيل، ولا يخفى على حضراتكم أن هذا التفسير التاريخى كله يصب فى صالح إسرائيل وضد فلسطين وضد العرب، وأمريكا هى الأمة التى جعلت نفسها حامية للخير ومحاربة للشر أعلنت أن الرب قد حملها هذه الرسالة وخصها بها دون سائر الأمم، وما الذى يمكن أن تفعله إزاء هذا الاختيار الإلهى؟ هى أعلنت أن الله اختارها لهذه المهمة، وأن الرب قد قرر ذلك، وهى لا تملك مخالفة مشيئة الرب، ولن تكف عن البر وتحقيق ما وعد الرب به، ولا بد من مواجهة محاور الشر وعوامل الظلام فى العالم، ولتكن البداية من المنطقة العربية، لماذا؟ لأنها تريد أن تقعد وترسى وتضع جذور إسرائيل فى المنطقة كما نبأ بذلك العهد القديم، ولذلك نجد أن نصوص التوراة التى ترددت على ألسنة المسئولين من الطبقة الحاكمة لأمريكا الآن تتردد وتدور كلها حول النبوءات الواردة فى التوراة، حول ضرورة الانتصار لله ممثلاً فى الانتصار لإسرائيل، وحول تحقيق وعد الله بتحقيق قيام دولة إسرائيل، وأن الصيغة التى استخدمتها التوراة، وصرح بها الرب فى التوراة لا بد أن يحققها أبناء النور الذين هم الشعب الأمريكى.

لا أريد أن أترك هذه الأمور حتى أوضح لكم تمامًا أن الواقع الذى نعيشه يحتاج إلى نظرة فاحصة فى تفسير الواقع، وتفسير السياسة الأمريكية فى المنطقة؛ لأن

أمريكا من منطلق النبوءات الواردة فى التوراة تعتقد أن المعارك القائمة فى المنطقة العربية بين إسرائيل وأمريكا من جانب، وبين العرب والمسلمين وفلسطين من جانب آخر هى معركة بين الرب والشيطان، ولذلك تجدهم فى أسفار العهد القديم يأخذون منها هذه النصوص ليجعلوها شعارًا لمعاركهم ضد العرب.

يقولون: حرموهم بالسيف -يعنى: اذبحوهم يعنى: اذبحوا العرب -لا تأخذكم بهم شفقة، اذبحوهم رجلاً رجلاً، وامرأة وشيخًا، وطفلاً رضيعًا.

وفى المرات التى تقاعس فيها الشعب لأسباب متعلقة بالكسب المادى أو انصراف بعض المسئولين عن تنفيذ أوامر الرب كانت مشيئة الرب عليهم أن ينهزموا؛ لأنهم فرطوا فى أوامر الرب، ولكى يعيدوا الأمور إلى نصابها لا بد أن يأخذوا الدرس والعبرة فلا يفرطوا فى أوامر الرب أبدًا.

ولذلك هم الآن يرفعون شعار أن معارك الرب يديرها الرب بنفسه من أعلى، ولا بد أن يتحقق النصر فيها لشعبه المختار، وأمريكا عندما تحلت بروح التوراة وسارت على هديها فى التعامل مع الهنود الحمر انتصرت وأبادتهم واغتصبت أرضهم، وكذلك تلقن إسرائيل الدرس أنها لا بد أن تتمسك بتعاليم التوراة لكى تنتصر على العرب كما انتصرت أمريكا على الهنود الحمر.

ولكى تأخذ أرض العرب كما أخذت أمريكا من الهنود الحمر أرضها، ولكى تطرد العرب من أرضهم وتقتلهم وتقتل نساءهم كما قتلت أمريكا الهنود اللحمر وسبت نساءهم وجعلتهم عبيدًا لهم فى المزارع والمصانع.

هكذا نرى الواقع يشير ويؤكد أن العقيدة الدينية أن الأصولية الصليبية قد أصبحت من أهم العوامل المؤثرة فى سياسة البيت الأبيض الأمريكى عبر «جيمى كارتر» و «رونالد ريجان» و «جورج بوش» الأب و «جورج بوش» الابن، هذه أمور أصبحت من الوضوح والبيان بحيث لا نحتاج معها إلى أدلة، وكل وقائع التاريخ المعاصر، وكل تصريحات الرؤساء السابقين والحاليين تؤكد لنا أنهم يتعاملون مع المنطقة من منطلق إيمانهم بهذه النبوءات، وليس أدل على ذلك من أن أحب الاستشهادات إلى قول الصليبيين الصهيونيين هو الاستشهاد الذى لا

يملون من تكراره الموجود فى سفر التكوين ١٢/٢ و ١٢/٣ وهو الذى يعلن فيه الرب أن الله سيجعل إسرائيل أمة عظيمة يباركها، ويعظم اسمها، ويجعلها بركة، ويبارك مباركيها، ويلعن لاعنيها، وتتبارك فيها جميع قبائل الأرض. هذا النص أشبه بالدستور الدينى الذى تعامل به «جيمى كارتر» و «ريجان» و «بوش» الأب و«بوش» الابن مع القضية الفلسطينية ومع شعب إسرائيل ومع الحركة الصهيونية العالمية، فلا نجد القضية الفلسطينية مطروحة فى مجلس من مجالس الأمن أو الأمم المتحدة إلا بمعاضدة من أمريكا ومن السياسة الأمريكية والبيت الأبيض، لدرجة أن البيت الأبيض قد استخدم حق الفيتو -حق النقض- ٨٧ مرة ضد فلسطين، ولم يستعمله مرة واحدة ضد إسرائيل، ولذلك نجد أن سيطرة الفكر الصهيونى والحركة الصهيونية على البيت الأبيض وعلى القرار السياسى فى البيت الأبيض لا تحتاج إلى دليل أكثر من النظر إلى الواقع الذى يؤكد ما قلناه، ويؤكد اعتصام البيت الأبيض بالنبوءات الواردة فى التوراة ضد المسلمين والعرب ولصالح إسرائيل وصالح شعب الله المختار.

ولعلكم تلاحظون معى، على سبيل التمثيل بأمثلة واقعية عندما يفجر فلسطينى نفسه دفاعًا عن أرضه وعرضه ووطنه وحريته يسمى إرهابيًا، تقوم الدنيا ولا تقعد بواسطة الإعلام الأمريكى ضد هذا الشخص الفلسطينى، ولكن عندما تغتال الحكومة الإسرائيلية شعبًا بأكمله وأرضًا بكاملها ووطنًا بكامله يسميه «بوش» الابن دفاعًا عن النفس، هل رأيتم إرهابًا أكثر من هذا؟ يسميه دفاعًا مشروعًا عن النفس، وحين يزداد الصلف الإسرائيلى والغارات الوحشية على الفلسطينيين أقصى ما تفعله أمريكا هى أن تناشد الفلسطينيين بهدوء النفس وضبط النفس، تناشد الفلسطينيين ولا تناشد إسرائيل، وطبعًا المقصود بضبط النفس هنا ألا يدفعهم الاعتداء الوحشى إلى المقاومة وإنما يستسلموا، هل رأيتم إرهابًا أكبر من هذا؟ يلومون الحمل ولا يلومون الذئب، يلومون الفريسة ولا يلومون المفترس. هذه هى السياسة الصهيونية ضد العرب وضد فلسطين.

****

اهتمام الحركة الصليبية الصهيونية بمستقبل إسرائيل

وعندما غزا الجيش الإسرائيلى لبنان وقف الصهيونى الصليبى «جيرى فلويل» يدافع عن هذا الغزو، ويعلن أن الأرض التى وعد الله بها إسرائيل تمتد من النيل إلى الفرات، ففى ٦ فبراير سنة ١٩٨٣ صرح هذا الرجل لصحيفة «كورير تايمز تليجراف» التى تصدر فى ولاية تكساس بأنه يؤيد أخذ الإسرائيليين للأراضى العربية من العراق، وسوريا، وتركيا، والسعودية، ومصر، والسودان، وكل لبنان، والأردن، والكويت، أما فلسطين كل فلسطين التى كانت تحت السيطرة الإسرائيلية أساسًا فهذه مسألة منتهية؛ لأنها كلها ملك اليهود أصلاً وهى التى أبرم الله وعده مع أنبياء بنى إسرائيل أنها ملك لإسرائيل ولأبنائه من بعده، أرأيتم هذه الأساطير؟ وكان هذا مناسبة تظهر فيها ثنائية الموقف الصليبى الصهيونى فى أمريكا، وربما فى أنحاء العالم؛ لأن الصليبية الصهيونية فى أمريكا كانت تراوغ أحيانًا وتدعى أنها لا تناصر إسرائيل، ولكن بعد هذه التصريحات أصبح الموقف الأصولى الصليبى واضحًا لا يحتاج إلى مراوغة[1].

ومن هنا وجدنا التناقضات فى الموقف الصليبى الصهيونى:

فبعد أن كان هدفهم هو تبشير اليهود بالمسيحية تنازلوا عن رسالة التبشير وأخذوا يعاضدون الأهداف الصهيونية لتحقيق حلم إسرائيل.

وبعد أن كان هدفهم نشر تعاليم المسيح بين غير المسيحيين أخذوا يروجون لما يسمى بالألفية الثالثة التى تقع فيها معركة «هرمجدون» أو المعركة الفاصلة بين قوى الخير وقوى الشر.

وبعد أن كانوا يعتقدون أن اليهود هم قتلة المسيح انقلبت الآية وأخذ الصليبى الصهيونى يضع اليهود فى المرتبة الأولى ثم المسيحى الأصولى فى المرتبة الثانية، بعد أن كانوا يعتبرون الشعب اليهودى ملعون ومطرود من رحمة الله؛ لأنه قتل المسيح.

(١) الخلفية التوراتية، ص ٧١.

بعد أن كـان العرب يمثلون فئـة من فئات البـشر عند الصليبيـة الصهيـونية بدأ الأصولى الصهيونى والأصولى الصليبى يعتقد أن العرب من قوى الشر وليست من قوى الخير، ونسى أن العرب فيهم المسلم وفيهم اليهودى وفيهم المسيحى، إلى هذا الحد طغت قضية التـعصب للفكر الصهيونى على الأصولية الصليبيـة فأعمتها عن الحقـائق التاريخـية تمامًا، وقلبت الموازين وأخـذت تتسنم ذرى الإعـلام الأمريكى لترويج لدعاياتها ضد العرب وضد المسلمين وضد القضية الفلسطينية عمومًا.

(١)

المؤتمر الصليبى الصهيونى:

لا أريد أن أترك هذه القضايا دون أن أضع أمامكم بـعض الوثائق التاريخية التى تؤكد ما نقول؛ حتى لا يكـون كلامنا مرسلاً بدون دليل تاريخى، لكى نوضح لكم قوة هذه الصلة وأثرها فى السياسة الأمريكية وفى موقف الصليبية الصهيونية عمومًا أذكر لكم إعلانًا قـام به أعضاء السفـارة الصليبية الدوليـة فى القدس، سوف أورد فقط فقـرات من هذا الإعلان؛ لأنه إعلان طويل جداً، لكن فـقط سوف أضع أمام حضراتكم بعض الفقرات التى تبين مدى الصلة وقوة هذه الصلة، بل اهتمام الحركة الصليبية الصهيونية بمستقبل إسرائيل ومستقبل الصهيونية اليهودية العالمية فى العالم.

مما جاء فى هذا الإعـلان: «نحن الممثلون للمؤتمر المسـيحى الصهيـونى الدولى الثانى المنعقـد فى القدس العـاصمـة الأبدية لإسرائيل -هكذا العـاصمـة الأبدية لإسرائيل كـأنهم معترفـون بإسرائيل ومعتـرفون بأن القدس هى العاصـمة الأبدية لإسرائيل، ومعنى هذا أن قـوانين الأمم المتحدة وقوانين مـجلس الأمن ضربوا بها عرض الحائط- العـاصمة الأبدية لإسرائيل نعلن فى ١٤ إبريـل ١٩٨٨ فى مناسبة الذكرى الأربعـين لاستقلال إسـرائيل -لأن إسرائيل كان ميـلادها سنة ١٩٤٨ بعد انتهـاء الحرب العالمية الثـانية، وعقـد هذا المؤتمر ١٩٨٨ فتكون الفتـرة الزمنية هى أربعون عامًا- ننتهز هذه الفرصة لنعلن سيادة الله وعصمة كلمته المقدسة بأن خطته للفداء سوف تقـيم السلام والبركات فى النهاية فى الشـرق الأوسط ولكل البشرية من خلال وعوده الميثـاقية الأزلية لإسرائيل، إن المسيـحية الصهيونية هى صـهيونية

كتابية تؤمن بالكـتاب المقدس، وتعلن تحقق أهدافه النبوئية والـتى تتجمع فى عودة المسيـح إلى القدس. هذه هى النبـوءة التى يدورون حولهـا؛ لهذا نحن نفـهم من الكتاب أن الله أحب شعبه.

وقد أعطاهم الحق فى تحمل المسئولية.

وأعطاهم الحق فى امتلاك وبناء الأرض الموعودة.

وأعطاهم الحق فى أن يحكموا المسكونة -المسكونة يعـنى: العالم- وبالتالى من خلال كلمته «لهذا نحن نعلن حبنا لإسرائيل والشعب اليهودى».

من الذى يعلن هذا؟ هم الصليبيون المتصهينون.

وأين أعلنوها؟ فى السفارة الصهيونية الصليبية فى القدس.

ومتى أعلنوها؟ فى مناسبـة الاحتفال بمرور أربعين عامًا علـى قيام دولة إسرائيل -ونعلن تأكيدنا للحق الـكتابى للشعب اليهودى كى يعـيش بحرية فى كامل أرض إسرائيل، والتى تشـمل يهوذا، والسامرة، وغـزة كدولة يهودية، ونعلن تشجـيعنا لعودة كل اليهود من الشتات إلى الأرض كاستجابة لدعوة الله القوية والمحبة لشعب إسرائيل، والتى عبر عنهـا أنبياؤه، إننا ندعو كل الدول كى تعترف وتحـترم قداسة وعد الله للشعب اليهودى -أقرأ هذه العبـارة مرة ثانية: إننا ندعو كل الدولة العالمية كى تعترف وتحترم قداسة وعد الله للشعب اليهودى- بإعطائهم أرض كنعان كملكية نهائيـة، وفى نفس الوقت كى يؤمنوا بوعوده الخاصـة بكل ذرية إبراهيم -والغريب أنهم نسوا أن العـرب من ذرية إبراهيم- نحن نتحـدى الكنيسـة كى تتوب عن كل معـاداة للسامية فى الماضى والحـاضر، وعن أى عقـائد تجاهلت أو بدلت الحقيـقة الكتابيـة لوجود إسرائيل، وعن أى خطايا بالتـعهد أو إسـقاط العهد ضـد الشعب اليهودى -التوبة المذكـورة هنا هى توبة الكنيسة عن اتهامها لليـهود بقتل من؟ بقتل السيـد المسيح- وترتب على هذا إعلان البـابا يوحنا الثانى الذى انتـقل إلى العالم الآخر منذ فترة قليلة إعلانه تبرئة اليهود من دم المسيح. هذه هى التوبة التى تطالبها الصليبيـة الصهيونية من الكنيـسة، أن تتوب عن كل معاداة للسـامية فى الماضى أو الحاضـر ونحن ندعو الكنيسة إلـى -ما زال الإعلان قائمـًا- إلى أن تصوم وتصلى

باجتهاد من أجل سلام أورشليم القدس، وندعو الكنيسة أن تتوسط من أجل إسرائيل ومن أجل سكانها ومن أجل كل اليهود فى كل مكان، وندعو الكنيسة أن تعبر عن الحب والدعم لإسرائيل وللشعب اليهودى فى الفكر والكلمة والعمل حسب التوجيهات الذى أعطاها الرب.

هذه النصوص اقتبسها الإعلان من سفر أشعياء ٥٨، ٦٢ هذا الإعلان تبنته السفارة الصليبية فى القدس -كما قلنا سنة ١٩٨٨- كتعبير عن الموقف التاريخى والموقف النهائى والكنسى من إسرائيل، ومن احتلالها للأرض، ومن طردهم للشعب الفلسطينى، ومن اغتصاب تاريخ فلسطين من المنطقة، ومن موقفهم من المسلمين بصفة عامة.

هذه نصوص وغيرها كثير تفسر لنا هذا التعاطف، وهذا التضافر والتعاون التاريخى بين الحركة الصهيونية واليهودية والصهيونية الصليبية قد أضفى على القضية الفلسطينية نوعًا من الغشاوة أو الضباب، وعدم وضوح الرؤية فى نظر الساسة الغربيين وبعض المثقفين الغربيين، ولم يروا القضية على حقيقتها، وإنما رأوها من واقع الإعلام الصهيونى الذى تعاونت كل مؤسساته فى كل دول أوربا بلا استثناء على التعاطف مع القضية الصهيونية ضد القضية العربية والقضية الفلسطينية، واستطاعت الصهيونية العالمية بوسائل إعلامها المختلفة أن تهيئ العقلية الغربية بقبول فكرة دولة إسرائيل على أرض الميعاد وهى أرض فلسطين التاريخية.

وتضافرت جهود مؤسسى هذه الحركة مع رجال المال والصحافة والإعلام وقادة الرأى السياسى كى تنجح هذه الفكرة، واستطاعت بمضى الزمن أن تحول حلم الحركة الصهيونية العالمية إلى واقع، واقع يقف ضد حركة التاريخ. وقف العرب والمسلمون ضده، ولكن العالم الغربى تعامل مع القضية للأسف الشديد بمنطق القوة وليس بقوة المنطق، فاستطاعت أجهزة الإعلام أن تثبت هذه الأكاذيب فى العقلية والذهنية الغربية بصفة عامة، بعد أن تبنتها السياسة الأمريكية، وانطلاقًا من هذا التآزر الغربى الأوربى الأمريكى مع الحركة الصهيونية اليهودية بواسطة الصهيونية الصليبية وضعوا العرب والمسلمين فى مآزق كثيرة، وأوقفوا عجلة النمو والتطور فى المنطقة العربية كلها بل فى العالم الإسلامى كله، وزرعوا دولة إسرائيل

فى المنطقة العربية أشبه بالزرع غير الطبيعى، نمو غير طبيعى، دولة يهودية دينية عنصرية صليبية مائة فى المائة تطرد شعبًا بأكمله فتفصل بين شرق العالم الإسلامى وغربه وبين شماله وجنوبه، وتقف كحجر عثرة ضد النمو الاقتصادى والثقافى والاجتماعى لهذه المنطقة.

(٢)

ترتب على ذلك أن كل الاقتصاد المصرى توقف عن النمو وأصبح موجهًا لمواجهة إسرائيل فى الحروب التى بدأت من سنة ١٩٤٨ إلى الآن، وإسرائيل وراءها أمريكا وأوربا، والعرب لا سند لهم إلا الله. تحكم اليهود فى الدعاية العالمية، وفى المقابل لم يكن للعرب ولا للمسلمين أى جهاز دعائى فى الغرب ولا فى أمريكا.

وترتب على هذا أن الباطل الذى تدعو إليه الحركة الصهيونية أصبح حقًا فى نظر أوربا وأمريكا، وأن الحق التاريخى الذى يدعو إليه العرب وفلسطين والمسلمون أصبح باطلاً؛ لأنهم لا يملكون وسائل الإعلان ولا وسائل الدعاية العالمية التى تمتلكها الحركة الصهيونية.

ومن جانب آخر أصبح التحكم فى اتخاذ القرار فى بلدان العالم الإسلامى محكوما بالفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن، فأى قرار يتخذه العرب ويطرحوه على مجلس الأمن لصالح القضية الفلسطينية تبطله أمريكا بحق الفيتو.

هذه المواقف المتصلبة من أمريكا ضد العرب وضد فلسطين أنهكت الاقتصاد العربى والاقتصاد والإسلامى فوقفت عجلة النمو تمامًا، وبالتالى ظهرت مشكلات اجتماعية واقتصادية فى العالم العربى نتيجة توقف عجلة الاقتصاد وعجلة النمو الاقتصادى، فى الوقت الذى تقف فيه أمريكا باقتصادها كله ودول أوربا باقتصادها وراء الحركة الصهيونية ووراء إسرائيل.

ومن جانب آخر أخذت الحركة الصهيونية تخترق كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية بأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة عن طريق القنوات الفضائية، فاغتالت القيم الأخلاقية فى نفوس الشباب، وحطمت كل معنى نبيل فى عقول الشباب عن طريق الجاسوسية والصحافة والأندية والبث المباشر.

ترتب أيضًا على هذا الموقف أن كثيرين من أبناء الشعب الفلسطينى أكرهوا على ترك أرضهم وديارهم إلى أرض أقاموا فيها لاجئين؛ ولهذه اللحظة لم يستطع العالم أن يحل هذه المشكلة، ونجد أن نفس الحركة الصهيونية الآن تبذل كل جهد للقضاء على كل محاولة للتقدم والنمو فى العالم العربى، فضربت المفاعل النووى العراقى فى فترة حروبها مع إيران، وعارضت كثيرًا من صفقات الأسلحة التى تباع للدول العربية من قبل الغرب لتظل للحركة الصهيونية التفوق العسكرى على جميع البلاد العربية المحيطة بها؛ مع أن العرب منذ عام ١٩٧٣ بادروا بعملية السلام وأخذوا يمدون أيديهم للحركة الصهيونية بالسلام، ولكن كالعادة اليهودية ليس لليهود وعد ولا عهد ولا ذمة.

ترتب على هذا أيضًا أن الحركة الصهيونية أصبحت لها دولة واقعية على الخريطة الجغرافية للعالم، واعترف بها جميع البلاد الأوربية وأمريكا طبعًا، وأصبحت الدول العربية تحاول أن تحصل على بعض الحقوق المشروعة من هذه الدولة، لكن قد وقفت وتقف أمامها أمريكا سدًا منيعًا بحق الفيتو أحيانًا، وبالمراوغات السياسية أحيانا أخرى.

ولم تنته هذه الحركة إلى الآن، بل نجحت فى أنها صاغت ما يمكن أن يسمى بالحكومة الواحدة أو الحكومة التى تصدر قرارًا واحدًا تحكم به العالم من شرقه إلى غربه، فالذى يتأمل الواقع المعاصر لنا الآن يجد أن القرار الصهيونى أو القرار الأمريكى هو الذى يحكم حركة العالم من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه، وبذلك تحقق أمر لم يكن فى الحسبان وهو إقامة الحكومة الواحدة التى تحكم العالم بقرار واحد مصدره النفوذ الصهيونى فى أمريكا.

هذه بعض المسائل التى أردت أن أضعها أمامكم لكى نتبين موقع أقدام الشباب من الواقع التاريخى الذى نعيشه؛ لأن الإعلام المرئى والإعلام المسموع كثيرًا ما يكون فى جانب، وحقائق الأمور والوقائع التاريخية فى جانب آخر.

****

استراتيجية إسرائيل للتعامل مع العالم العربى بعد عام ١٩٧٣م

توقفنا فى لقاء سابق بالحديث عن الحركة الصهيونية، وأنها حاولت أن تسيطر على الإعلام العالمى، وقلبت حق العرب فى نظر العالم باطلاً وجعلت باطلها فى نظر العالم حقًا، والواقع الذى نعيشه الآن يملى علينا أن نطرح على حضراتكم الاستراتيجية الإسرائيلية التى وضعتها -كخطة طويلة الأجل- للتعامل مع العرب ومع القضية الفلسطينية؛ لأن الواقع أن مصر قد عقدت معاهدة صلح مع إسرائيل، وبدأ العالم العربى بفعل الضغط الأمريكى أن يتسابق فى عقد معاهدات صلح مع إسرائيل، وكم نتمنى أن يسود السلام فى العالم، وأن يسود السلام بين العرب وإسرائيل، لكن أن يكون سلامًا عادلاً، وليس على حساب الشعوب، وليس على حساب الحق والتاريخ.

توقفت المدافع والصواريخ لكن الخطط والاستراتيجيات التى وضعتها إسرائيل للتعامل مع المنطقة تؤكد لنا أن إسرائيل ليست على العهد الذى أبرمته مع العالم العربى أو مع مصر بالذات، وإنما وضعت هناك خططا للتعامل مع مصر ومع الدول المجاورة تحت شعار أن كل موضع تدوسه بطون أقدامكم هو لكم أعطاه الرب.

هذا الشعار يدين به كل جندى صهيونى يحمل السلاح فى أرض إسرائيل، أكرر لكم هذه العبارة مرة ثانية: هذا نص موجود فى الكتاب المقدس: «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطاه الرب، أو لكم أعطيت».

ولذلك نجد أن بعض القادة الإسرائيليين بعد نهاية كل معركة تاريخية مع العرب يقولون فى مؤتمراتهم: «إن هدف هذه الحرب هو الإعداد للحرب القادمة» وقد أعلن ذلك صراحة البروفيسور «ليبيوتيز» فى مؤتمره الصحفى فى ١٤ يونيه عام ١٩٨٢. يعنى: بعد معاهدة الصلح مع مصر بحوالى تسع سنوات، أعلن فى القدس أن هدف هذه الحرب هو الإعداد للحرب القادمة، وأعلنوا هذا شعار للتعامل التاريخى «كل موضع تدوسه بطون أقدامكم هو لكم أعطاه الرب».

لأن هذا هو مفهوم إسرائيل الكبرى وهذا هو الهدف الثابت والدائم للحركة الصهيونية السياسية التى بشر بها «هرتزل» فى عام ١٨٩٧، وهذا الهدف قد أعلنه الرئيس أو الجنرال الاحتياطى «جازيت» رئيس جامعة «بنجوريون» فى بئر سبع، وهو يذكر طلابه والحاضرين معه بالأهداف الجوهرية للحركة الصهيونية فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلى العربى، حيث قال:

«يجب أن تكون أرض إسرائيل يومًا ما بكاملها تحت السيطرة الإسرائيلية بل وأكثر من ذلك يجب أن تكون مندمجة فى دولة يهودية، وعلى إسرائيل أن تعترف بالضرورة الملحة لإيجاد حل راديكالى لمشكلة الوجود العربى على الأرض التاريخية لإسرائيل».

هذا ما أعلنه «جازيت» رئيس جامعة بنجوريون فى صحيفة «يديعوت أحرنوت» فى عددها الخامس عشر فى يناير عام ١٩٨٢ وأكد فى هذا التصريح أن طرد العرب من فلسطين داخليًا، والعمل على تمزيق البلاد العربية خارجيًا ينبغى أن يكون هذا وذاك جناحا للمشروع الصهيونى للمرحلة القادمة.

تأملوا هذه العبارة؛ لأنها تمثل جوهر الاستراتيجية الصهيونية أو الهدف الأساسى للمشروع الصهيونى فى المرحلة التى أسموها بالحرب الباردة، نحن نسميها فى عالمنا العربى مرحلة سلام؛ وبدأ البعض يتكلم عن ثقافة السلام ومشروع السلام العربى الإسرائيلى لكن هم يسمونها عندهم: مرحلة الحرب الباردة. إن جناحى هذا المشروع الصهيونى هما:

طرد الفلسطينيين الذين هم داخل إسرائيل وهم ما يسمون بعرب ٤٨ من أرض إسرائيل.

والجناح الثانى: هو تفكيك المنطقة العربية إلى ما يشبه بالفسيفساء، قطع صغيرة على الخريطة الجغرافية للعالم وهو ما يجرى تنفيذه الآن على أرض الواقع بواسطة الوجود الأمريكى بالمنطقة، يجرى هذا فى العراق، السودان، والفتن الطائفية تجرى فى المنطقة العربية كلها تمهيدًا لتنفيذ المشروع بأكلمه.

وقد نشر جازيت مقاله فى مجلة (كيفونيم) الذى نشره التنظيم الصهيونى العالمى بالقدس فى عدد ١٤ فبراير عام ١٩٨٢، لمح هذا الجنرال -وهو جازيت- رئيس

جامعة «بنجوريون» لمح فى هذا المشروع إلى نقاط على جانب كبير من الأهمية، سوف أطرحها على حضراتكم لأنها تنفذ الآن يومًا بعد يوم على أرض الواقع. يعرض استراتيجية إسرائيل فى المرحلة القادمة، وهذه الاستراتيجية -أيها الأخوة- أتمنى أن يقرأها العالم، وأن يقرأها كل شاب يريد أن يعرف حقيقة المنطقة وما يجرى فيها بين إسرائيل والعرب لأنها تعرى الكيان الصهيونى وتعرى السياسة الإسرائيلية وتعرى وتكشف عن زيف وتضليل الإعلانات التى يعلنها ساسة إسرائيل عن أنهم يريدون السلام مع العرب ومع فلسطين.

وفى هذه المقالة عرضت الخطوط العريضة للإستراتيجية الصهيونية للتعامل مع العرب وجاء فيها:

إن أحد الأهداف الرئيسية للاتحاد السوفيتى هو أن يلحق الهزيمة بالغرب -كانت هذه الوثيقة سنة ١٩٨٢- وذلك بأن يملك التحكم فى الموارد الهائلة للبترول فى الخليج الفارسى وفى جنوب أفريقيا، حيث تركزت أغلبية الموارد العالمية، ونحن نستطيع تصور أبعاد هذه المواجهة على مستوى البسيطة وهى المواجهة التى سوف نعيشها فى المستقبل، روسيا كانت -حسب ما يتصورون- تريد السيطرة على موارد النفط فى الخليج العربى فلا بد من العمل على حرمانها من الحصول على هذا الهدف، وقد وقع فعلاً، فعملوا على تفكيك الاتحاد السوفيتى، ووقعت حرب الخليج الأولى والثانية، ثم تم لهم السيطرة الكاملة على مواقع النفط وآبار النفط فى الخليج العربى، وقد يصل المشروع الصهيونى إلى نتائجه بعد أن تم لأمريكا تمامًا وضع يدها على العراق، وبالتالى على مواضع أو آبار النفط فى منطقة الخليج، وهذا كان يمثل الهدف الأول فى إستراتيجية الحركة الصهيونية فى المنطقة فى مرحلة ما بعد حرب ١٩٧٣ أو ما يسمى بالحرب الباردة، هذا بالنسبة إلى موقفهم من الاتحاد السوفيتى.

١- مصر:

نأتى إلى موقفهم من العالم العربى؛ من المعلوم أن مصر قد استعادت سيناء لكن هذا الموقف لم يرض الحركة الصهيونية فكان لا بد من العمل على استعادتها مرة ثانية ولذلك جاء فى هذه الوثيقة ما يلى:

«إن استعادة أرض سيناء بمواردها الراهنة هدف ذو أولوية، تحول دون الوصول إليه حتى الآن اتفاقية «كامب ديفيد» واتفاقيات السلام، وبذلك حرمنا من البترول ومن الموارد التي تصدر عنه وتحملنا نفقات باهظة في هذا المجال، ويجب علينا أن نعمل حتى نستعيد الوضع الذي كان في سيناء قبل زيارة أنور السادات للقدس والاتفاق التعيس الموقع عليه عام ١٩٧٩».

البند الثاني في هذه الاستراتيجية الإسرائيلية، هو موقفها من مصر، فقد نصت الوثيقة على ما يلي: إن الحالة الاقتصادية في مصر وطبيعة نظامها وسياستها القومية العربية سوف تسفر عن موقف يفرض على إسرائيل أن تتدخل، ومصر بفعل صراعاتها الداخلية لم تعد تمثل بالنسبة إلينا أية مشكلة استراتيجية، ولسوف يكون من اليسير أن نردها إلى الوضع الذي عاشته والذي كانت عليه عقب حرب يونيه ١٩٦٧ في أقل من ٢٤ ساعة».

يعني: يريدون أو يشيرون إلى ضرورة الاستيلاء على سيناء والوصول إلى قناة السويس مرة ثانية إذا لزم الأمر في أقل من ٢٤ ساعة، ثم يبررون ذلك بأن الأسطورة القائلة بأن مصر هي زعيمة العالم العربي قد فقدت هذه الأسطورة قيمتها في مواجهة إسرائيل خاصة بعد هزيمة ٦٧، وربما استطاعت أن تفيد على المدى القصير من استعادة سيناء ولكن ذلك لن يغير تغييرًا عميقًا علاقة القوة بمصر. فمصر من حيث هي جسد مركزي قد صارت جثة هامدة، ولا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار المواجهة التي تتزايد قسوتها بين المسلمين والأقباط، إن انقسامها إلى أقاليم جغرافية منفصلة يجب أن يكون هدفنا السياسي خلال التسعينيات، وخلال الألفية الثالثة.

انقسام مصر إلى إقليمين: جنوب وشمال، أو ديانتين مسلمين وأقباط، ولا يخفى على حضراتكم أن كل حركة تتصل بالفتنة الطائفية تقع في المنطقة العربية -عمومًا ولا أقول في مصر فقط- عليك أن تبحث عن أصابع الصهيونية وراءها.

ثم تكمل الوثيقة بما يلي: فإذا ما تصدعت مصر على هذا النحو وحرمت من أي سلطة مركزية في العالم العربي فإن بلادًا أخرى مثل ليبيا والسودان، وما هو

أبعد منهما كالجزائر وتونس والمغرب سوف تواجه نفس الانفصال، فإنشاء دولة قبطية في صعيد مصر، وإنشاء دويلات أخرى إقليمية ذات أهمية ضعيفة هو مفتاح التطور التاريخي الذي أرجأه حاليًا اتفاقية السلام في «كامب ديفيد» لكن ينبغي أن نعلم أن هذا أمر محتوم لابد منه على المدى الطويل.

٢- لبنان:

ثم ماذا؟ إذا انتقلنا إلى موقف الوثيقة من لبنان، ماذا تقول هذه الوثيقة؟

تقول: إن تقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم تعطينا -مقدمًا- صورة واقعية عما سوف يحدث في مجموع العالم العربي، فتفجير سوريا والعراق إلى أقاليم محدودة على أساس مقياس عرقي أو ديني يجب أن يكون هدفًا أساسيًا على المدى الطويل، وأن يكون هدفًا ذا أولوية بالنسبة لنا. والمرحلة الأولى التي لا بد أن نبدأ بها هي تدمير القوة العسكرية لدى هذه الدول.

٣- سوريا:

ثم ماذا بالنسبة لسوريا؟

تقول الوثيقة إن البنية العرقية لسوريا تعرضها لتفكك قد ينتهي بها إلى إنشاء دولة شيعية على طول الشاطئ، ودولة سنية في منطقة حلب، ودولة أخرى في دمشق، ثم وحدة درزية يمكن أن تطمح إلى إنشاء دولة لها ربما على أرض الجولان وهي تتكامل في كل حال مع شمال الأردن، إن دولة كهذه سوف تكون على المدى الطويل ضمانًا لسلام إسرائيل، وضمانًا للأمن في المنطقة، وهي هدف مقرر في موضع اهتمامنا. هذا بالنسبة لسوريا.

٤- العراق:

ماذا بالنسبة للعراق؟

تقول الوثيقة: أما العراق الغني بالبترول، وبالصراعات الداخلية العرقية والطائفية والدينية فهو على خط التسديد الإسرائيلي -كلمة التسديد أكثر من كلمة المواجهة، يعني: هو أمام أعيننا لا يغيب عنا- فتفكيكه بالنسبة إلينا أعظم أهمية

من تفكيك سوريا، لماذا؟ لأنه يمثل على المدى القصير أعظم تهديد بالنسبة إلى إسرائيل، ولذلك إن حربًا سورية عراقية سوف تفيد فى تذويبه من الداخل قبل أن يكون، بحيث يندفع فى صراع واسع ضدنا.

إن كل شكل من أشكال المواجهة بين العرب بعضهم وبعض هو يفيدنا كثيرًا، وهو يعجل بساعة التفجير، وبساعة الانتصار الأخير، ولقد تؤدى هذه الحروب الداخلية بين البلدان العربية بعضها وبعض، أو بينها وضد إيران إلى التعجيل بهذه الظاهرة المعبرة عن الاستقطاب وعن الانتصار الأخير لحركتنا الصهيونية والاستيلاء على أرض الميعاد.

لاحظوا معى أن الوثيقة تناولت البلاد العربية بلدًا بلدًا، أريد -أيها الإخوة- أن تطلعوا على هذه الوثيقة وأن تجعلوها أمام أعينكم لأنها تفسر لنا الآن ما يجرى فى الواقع العربى بالنسبة لإسرائيل وما تفعله أمريكا أو ما تفعله إسرائيل بالسلام الأمريكى وبالجند الأمريكى على الأرض العربية. فقد سقطت العراق فى سنة ٢٠٠٣ فى قبضة أمريكا بخديعة العالم أن العراق يحتضن الإرهاب العالمى.

٥- الجزيرة العربية:

ماذا تقول الوثيقة بالنسبة للجزيرة العربية؟ تقول الوثيقة: أما شبه الجزيرة العربية فهى مهيأة بأكملها لتحلل من هذا النوع، بفعل الضغوط الداخلية، وتلك هى بخاصة حال المملكة العربية السعودية، فإن تعاظم الصراعات الداخلية، وسقوط النظام هما جزء من منطق البنيات السياسية الراهنة، وقد تتيح لنا الحركة الداخلية فى شبه الجزيرة العربية بين سكان الولايات أو الإمارات بعضهم ببعض قد يؤجل لنا التدخل المباشر؛ لأنها قد يقضى بعضها على بعض، هذا بالنسبة للجزيرة العربية.

٦- الأردن:

أما الأردن: فهو هدف استراتيجى عاجل، وهو على المدى الطويل لن يكون بوسعه أن يشكل تهديدًا لنا، ولا بأس أن نرجئ موقفنا منه إلى نهاية الطريق، لأن فى النهاية قد نجده قد تحلل عرقيًا، فنهاية الملك حسين ونهاية الذرية الحسينية ونقل

السلطة إلى أيدى الأغلبية الفلسطينية الموجودة فى الأردن قضية تاريخية، إذا لم تتحقق الآن فإن التاريخ سوف يعجل بها فى المستقبل، وينبغى أن تتوجه إلى ذلك سياستنا الإسرائيلية، تتوجه إلى محاولة نقل السلطة من الأسرة الحسينية إلى الأغلبية الفلسطينية الموجودة فى الأردن. وهذا التغيير يعنى: حل مشكلة الضفة الغربية ذات الكثافة السكانية العربية، وبالتالى سوف يحل لنا مشكلة عرب ٤٨ القابعين فى أرض إسرائيل.

إن تهجير هؤلاء العرب إلى الشرق فى ظروف سلام أو على أثر حروب وتجميد نموهم الاقتصادى والسكانى فيه ضمان لنا، ويجب أن نعمل كل ما فى وسعنا لتعجيل هذه العملية، يجب أن نرفض خطة الاستقلال الذاتى وأية خطة قد تستتبع تسوية سلمية فى المنطقة، أو اشتراكًا فى الأراضى مع فلسطين أو تضع عقبة فى طريق انفصال الأمتين، وهى شروط لازمة لتعايش سلمى حقيقى.

هذه -أيها الإخوة- بعض الفقرات المتعلقة بالبلاد العربية التى يمكن أن نسميها بلاد الطوق المحيطة بإسرائيل كما ترون تناولتها الوثيقة بلدًا بلدًا، وفصلت القول فيما ينبغى على إسرائيل أن تفعله مع هذه البلاد أو تلك، وقد بدأت فعلاً بالعراق، والموقف العراقى يمهد منذ أوائل التسعينيات، ولعل حرب إيران والعراق كان مقدمة طبيعية لإنهاك القوتين لصالح إسرائيل، ولصالح الأهداف الصهيونية فى المنطقة.

ثم كان التدخل والاحتلال الأخير للعراق بداية لمرحلة استعمارية جديدة بدأت بها الألفية الثالثة فى المنطقة، ربما من وجهة نظرهم، تحقيقًا للنبوءات التى يدعونها، وربما لأهداف اقتصادية وراء البترول الموجود فى المنطقة، وربما لصالح الحركة الصهيونية العالمية. على أية حال نحن نقرأ فى الواقع أمامنا الآن تطبيقًا عمليًا لهذه الوثيقة التى وضعها «جازيت» رئيس جامعة «بنجوريون» والتى تعتبر بمثابة ورقة عمل للسياسة الإسرائيلية فى المنطقة الآن، أو إن شئتم الدقة: للسياسة الأمريكية التى تنفذ لصالح الحركة الصهيونية فى إسرائيل وفى العالم.

ثم تختتم الوثيقة بقولها: إن على العرب الإسرائيليين الذين هم أصلاً فلسطينيون أن يفهموا أنهم لن يكون لهم وطن إلا فى الأردن، وأنهم لن يعرفوا

باجتهاد من أجل سلام أورشليم القدس، وندعو الكنيسة أن تتوسط من أجل إسرائيل ومن أجل سكانها ومن أجل كل اليهود فى كل مكان، وندعو الكنيسة أن تعبر عن الحب والدعم لإسرائيل وللشعب اليهودى فى الفكر والكلمة والعمل حسب التوجيهات الذى أعطاها الرب.

هذه النصوص اقتبسها الإعلان من سفر أشعياء ٥٨، ٦٢ هذا الإعلان تبنته السفارة الصليبية فى القدس -كما قلنا سنة ١٩٨٨- كتعبير عن الموقف التاريخى والموقف النهائى والكنسى من إسرائيل، ومن احتلالها للأرض، ومن طردهم للشعب الفلسطينى، ومن اغتصاب تاريخ فلسطين من المنطقة، ومن موقفهم من المسلمين بصفة عامة.

هذه نصوص وغيرها كثير تفسر لنا هذا التعاطف، وهذا التضافر والتعاون التاريخى بين الحركة الصهيونية واليهودية والصهيونية الصليبية قد أضفى على القضية الفلسطينية نوعًا من الغشاوة أو الضباب، وعدم وضوح الرؤية فى نظر الساسة الغربيين وبعض المثقفين الغربيين، ولم يروا القضية على حقيقتها، وإنما رأوها من واقع الإعلام الصهيونى الذى تعاونت كل مؤسساته فى كل دول أوربا بلا استثناء على التعاطف مع القضية الصهيونية ضد القضية العربية والقضية الفلسطينية، واستطاعت الصهيونية العالمية بوسائل إعلامها المختلفة أن تهيئ العقلية الغربية بقبول فكرة دولة إسرائيل على أرض الميعاد وهى أرض فلسطين التاريخية.

وتضافرت جهود مؤسسى هذه الحركة مع رجال المال والصحافة والإعلام وقادة الرأى السياسى كى تنجح هذه الفكرة، واستطاعت بمضى الزمن أن تحول حلم الحركة الصهيونية العالمية إلى واقع، واقع يقف ضد حركة التاريخ. وقف العرب والمسلمون ضده، ولكن العالم الغربى تعامل مع القضية للأسف الشديد بمنطق القوة وليس بقوة المنطق، فاستطاعت أجهزة الإعلام أن تثبت هذه الأكاذيب فى العقلية والذهنية الغربية بصفة عامة، بعد أن تبنتها السياسة الأمريكية، وانطلاقًا من هذا التآزر الغربى الأوربى الأمريكى مع الحركة الصهيونية اليهودية بواسطة الصهيونية الصليبية وضعوا العرب والمسلمين فى مآزق كثيرة، وأوقفوا عجلة النمو والتطور فى المنطقة العربية كلها بل فى العالم الإسلامى كله، وزرعوا دولة إسرائيل

فى المطنقة العربية أشبه بالزرع غير الطبيعى، نمو غير طبيعى، دولة يهودية دينية عنصرية صليبية مائة فى المائة تطرد شعبًا بأكمله فتفصل بين شرق العالم الإسلامى وغربه وبين شماله وجنوبه، وتقف كحجر عثرة ضد النمو الاقتصادى والثقافى والاجتماعى لهذه المنطقة.

(٢)

ترتب على ذلك أن كل الاقتصاد المصرى توقف عن النمو وأصبح موجهًا لمواجهة إسرائيل فى الحروب التى بدأت من سنة ١٩٤٨ إلى الآن، وإسرائيل وراءها أمريكا وأوربا، والعرب لا سند لهم إلا الله. تحكم اليهود فى الدعاية العالمية، وفى المقابل لم يكن للعرب ولا للمسلمين أى جهاز دعائى فى الغرب ولا فى أمريكا.

وترتب على هذا أن الباطل الذى تدعو إليه الحركة الصهيونية أصبح حقًا فى نظر أوربا وأمريكا، وأن الحق التاريخى الذى يدعو إليه العرب وفلسطين والمسلمون أصبح باطلاً؛ لأنهم لا يملكون وسائل الإعلان ولا وسائل الدعاية العالمية التى تمتلكها الحركة الصهيونية.

ومن جانب آخر أصبح التحكم فى اتخاذ القرار فى بلدان العالم الإسلامى محكوما بالفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن، فأى قرار يتخذه العرب ويطرحوه على مجلس الأمن لصالح القضية الفلسطينية تبطله أمريكا بحق الفيتو.

هذه المواقف المتصلبة من أمريكا ضد العرب وضد فلسطين أنهكت الاقتصاد العربى والاقتصاد والإسلامى فوقفت عجلة النمو تمامًا، وبالتالى ظهرت مشكلات اجتماعية واقتصادية فى العالم العربى نتيجة توقف عجلة الاقتصاد وعجلة النمو الاقتصادى، فى الوقت الذى تقف فيه أمريكا باقتصادها كله ودول أوربا باقتصادها وراء الحركة الصهيونية ووراء إسرائيل.

ومن جانب آخر أخذت الحركة الصهيونية تخترق كثيرًا من البلاد العربية والإسلامية بأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة عن طريق القنوات الفضائية، فاغتالت القيم الأخلاقية فى نفوس الشباب، وحطمت كل معنى نبيل فى عقول الشباب عن طريق الجاسوسية والصحافة والأندية والبث المباشر.

«أن الرب أمر يشوع بحرب وحرق مدينة عاى، ورسم له خطة الحرب، وكيفية إعداده لكمين قوى يقتل فيه الرجال والنساء، وقد استجاب يشوع لهذه التعاليم ثم الاستيلاء على الأرض وتقسيمها مع طرد السكان أو قتلهم وأسرهم».

ورد فى سفر العدد حيث جاء: «وكلم الرب موسى فى عربات موءاب على أردن أريحا قائلاً: كلم بنى إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم، وتمحون جميع تصاويرهم، وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخرجون جميع مرتفعاتهم وتملكون الأرض، وتسكنون فيها؛ لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها وتقسمون الأرض بالقرعة حسب عشائركم، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم، ومناخس فى جوانبكم، ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها، فيكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم».

لاحظ النص يا أخى الكريم: «وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكًا فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم على الأرض التى أنتم ساكنون فيها». فكأن المطلوب بمقتضى الأمر الإلهى إبادة جميع السكان أو طردهم. إذن هى حرب عقائدية. هذا النص جاء فى سفر العدد إصحاح ٣٣ من ٥٠ إلى ٥٦.

«فإذا ما سلمت المدينة نفسها لكم فإن الحاكم مخير فى أمرها بين القتل والسلب والنهب والاسترقاق» يؤكد ذلك ما جاء فى الأسفار حيث ورد ما يلى: «الاستعباد حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك للصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، ثم قتل الرجال وحرق المدن والحقول واسترقاق النساء والأطفال، وأخذ الأموال غنائم فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتّلوا كل ذكر وملوك مديان، قتلوهم فوق قتلاهم، واسبوا نساءهم وأطفالهم، وانهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، واحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حقولهم بالنار، وخذوا كل الغنيمة وكل النهب من النساء والبهائم». هذا النص فى سفر العدد إصحاح ٣١ من ٨ إلى ١٢.

ثم التمثيل والوحشية حين القتل، حيث ورد فى سفر صموائيل: «وأخرج داود الشعب الذى فيها ووضعهم تحت المناشير، ونوارج من حديد وفؤوس من حديد، وأمرَّهم فى أتون وهكذا صنع بجميع مدن عمون» أتون -يعنى: فى أفران للحرق- ثم قتل الجميع الرجال والنساء والأطفال، ورد فى سفر العدد. وبذلك لا يرى اليهود أى حرج يحول بينهم وبين تحقيق أغراضهم ولا إهدار أى قيمة أخلاقية ولا إنسانية، لأنهم حسب هذه العقيدة ينفذون تعاليم الرب.

هذا -أيها الإخوة- هى العقيدة الأخلاقية للحرب التى تدين بها الحركة الصهيونية فى تعاملها مع أرض فلسطين ومع أهل فلسطين الآن؛ لذلك لا عجب أن ترى الجندى الإسرائيلى يقتل الطفل والمرأة ويحرق البيت، ويهدم البيت، ويخلع الزروع ويحرقها، ويوقدون النار فى منازل الفلسطينيين؛ لأنهم بذلك ينفذون تعاليم الرب.

والسؤال: هل يؤمن عقل أن هناك رب يأمر بهذه التعاليم ويجعلها عادة وعقيدة يدين بها عباده؟

أترك الإجابة لكم لكى نعلم أن القرآن الكريم حين يقص علينا أن التوراة حرفت وبدلت يأتى الواقع ليؤكد صدق ما قصه القرآن علينا.

(٢)

أنتقل الآن إلى الجانب الأخلاقى فى تعاملات اليهود: وأول ما نلحظه فى هذا الجانب أنها أخلاق فى تدين بالعنصرية، عنصرية العرق والدم والجنس لأنهم يؤمنون بمبادئ فى منتهى السوء، ويمكن إيجازها فيما يلى:

المبدأ الأول: أنهم يؤمنون بأفضليتهم على سائر البشر، وهذا المبدأ الذى يدينون به يستندون فيه إلى نصوص وردت فى أسفار التوراة، حيث ورد ما يلى:

جاء فى سفر التثنية فى الإصحاح السابع: «إياك قد اختار الرب إلهك لتكون شعبًا أخصه من جميع الشعوب -وهو شعب إسرائيل- الذين على وجه الأرض، ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم؛ لأنكم أقل من سائر الشعوب، بل من محبة الرب إياكم، وحفظه القسم الذى أقسم لآبائكم،

أخرجكم الرب بيد شديد وفداكم من العبودية، لما اصطفاهم ليس لأكثرية العدد ولا لأقلية العدد بل من أجل محبة الرب إياكم».

ثم جاء فى سفر الخروج ما يلى: «فإن لى كل الأرض وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة» هذه هى الكلمات التى تكلم بها الرب مع بنى إسرائيل «تكونون لى مملكة وكهنة وأمة مقدسة» ثم «وواعدك الرب اليوم أن تكون له شعبًا خاصًا به كما قال لك، وتحفظ جميع وصاياه، وأن يجعلك مستعليًا على جميع القبائل التى عملها فى الثناء وأن تكون شعبًا مقدسًا للرب إلهك». هذا فى سفر التثنية إصحاح ٢٦، ١٩ «واتخذكم لى شعبًا وأكون لكم إلهًا فتعلمون أنى أنا الرب إلهكم الذى يخرجكم من تحت أثقال المصريين».

ويمكن الرجوع -أيها الإخوة- إلى الأسفار المقدسة لتقرأوا فيها هذه النصوص التى لا حصر لها، والتى تدل وتنطق بالعنصرية القاتلة التى تجعل الأفضلية صفة مميزة لهذا الشعب على سائر شعوب العالم.

ومن المهم أن أشير هنا إلى نقطة أن الله -سبحانه وتعالى- قد ذكر فى القرآن الكريم أنه فضل إسرائل على جميع الشعوب حين كانوا يستحقون هذه الأفضلية، ولذلك نجد فى القرآن الكريم أن الله تعالى يذكرهم بهذه النعمة، ويقول لهم: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** [البقرة: ٤٧] لكن هل هذه الأفضلية خصوصية للعرق والدم والجنس أم أنها كانت جزاء لسلوك معين تضمن تنفيذ تعاليم الإله -سبحانه وتعالى- أمرًا ونهيًا؟ هذا هو السؤال.

ظن بنو إسرائيل خطأ أن هذه الأفضلية خصوصية ذاتية استحقوها وخصهم الله بها دون سائر شعوب الأرض وصارت خاصية لهم على طول التاريخ، وأخذوا من ذلك أنه يمكنهم أن يفعلوا ما يشاءوا مما يغضب الرب ومع ذلك يظلون أفضل الشعوب، لكن نجد القرآن الكريم يبين لنا أن هذه الأفضلية لها ثمن ولها أسبابها، وهو تنفيذ أوامر الله -سبحانه وتعالى-: **﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** نجد القرآن الكريم يبين لنا أن هذه الأفضلية لما زال سببها

زالت؛ لأنها ليست خصوصية لا لأمة، ولا لشعب، ولا لجنس، ولا لفرد، وإنما هى نتيجة لعمل فمن سارع بالعمل حاز هذه الأفضلية؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم: **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾** [النساء: ١٦٠]، ونجد فى القرآن الكريم: **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** (لماذا لعنوا) **﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** [المائدة: ٧٨] العصيان والظلم والاعتداء، ثم **﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾** [المائدة: ٧٩] فصار المنكر عرفًا والعرف منكرًا أو المعروف منكرًا، بدلوا وغيروا، فاستحقوا الطرد واللعن من رحمة الله -سبحانه وتعالى- فكأن الأفضلية كانت ميزة لهم حين استحقوها بعملهم، فلما نكصوا واعتدوا وظلموا وشاع بينهم المنكر والفاحشة طردوا من رحمة الله، كما قال تعالى: **﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾** ولذلك ليست هذه الأفضلية خاصية وإنما هى نتيجة لعمل كما قلت، من بادر بالعمل حاز الأفضلية يهودى أو غير يهودى.

(٢)

هذه النصوص انعكست على التلمود فوجدنا أن نصوص التلمود تصرح بما هو أخزى وأسوأ مما فى هذه النصوص السابقة، حيث نجد أن التلمود يحدد قرابة اليهودى لليهودى بأنها ميزة يجب أن يعامل من منطلقها معاملة أحسن من غير اليهودى. وترتب على هذا أننا وجدنا فى التلمود أن النطفة المخلوق منها اليهودى نطفة خاصة، أما النطفة التى خلقت منها بقية الشعوب هى نطفة حصان.

١- وعندهم أن الكلب أفضل من الأجنبى؛ لأنه مصرح لليهودى فى الأعياد أن يطعم الكلب، وليس مصرحا له أن يطعم الأجنبى، هذه نصوص موجودة فى التلمود، وقريب اليهودى هو اليهودى، أما باقى الناس فهى حيوانات فى صورة إنسان، هم حمير وكلاب وخنازير، فإذا ضرب أمى إسرائيليًا، فكأنه ضرب العزة الإلهية، إذا ضرب أمى إسرائيليًا فالأمى يستحق الموت، ولو لم يخلق اليهودى لانعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس، هذه أساطير فى نصوص يتعبد بها اليهودى فى تعامله مع غير اليهودى، ومعاملة الربا قال الرابى

مناحم: «أيها اليهود: إنكم من بنى البشر؛ لأن أرواحكم مصدرها روح الله، وأما باقى الأمم فليست كذلك لأن أرواحهم مصدرها الروح النجس». هذا أيها الإخوة موجود فى (الكنز المرصود فى الحديث عن التلمود).

٢- ومن مبادئهم أيضًا: أن الغاية تبرر الوسيلة؛ ولذلك نجد على طول امتداد الحركة الصهيونية أنهم لا يحترمون العهود ولا المواثيق، وقد صرح القرآن الكريم بذلك، وأكد الواقع هذه القضية، ونجد فى نصوص العهد القديم ما يؤكد هذا فلا اعتبار لخلق ولا دين عندهم؛ لأن الغاية -كما قلت- تبرر الوسيلة، ولذلك ظلموا الأنبياء والمرسلين ونسبوا إليهم أسوأ الأفعال وأقبح الأخلاق ولا نجد فى وصفهم لله وللبيهود وللأنبياء ما ينبئ عن ذرة من العقل أو مسكة من الخلق، فيزعم اليهودى أن إبراهيم قد تاجر بزوجته من أجل كسب مادى، وقد تكرر ذلك مرتين وأنه طرد هاجر بولدها لينال رضا سارة، وهذا موجود فى سفر التكوين، يزعم اليهود أن ابنتى لوط قد سقتا أباهما خمرًا من أجل الحصول على ولد منه -يعنى: ولد الزنا- وهذا موجود فى سفر التكوين آية ١٩.

لا أريد أن أطيل فى ذكر هذه النصوص، ولكن سوف أجتزئ بعض النصوص التى تبين أن ما يفعله الصهيونى المعاصر يفعله من واقع نصوص هو يؤمن بها ويدين بها ويعتقد صحتها، فعندهم: «أن يعقوب قد خدع أباه مستغلاً عماه لينال منه حق البكورية، وذلك بارتدائه جلد ماعز حول ذراعيه، وتقليد أخيه عيسو فى صوته ليتحقق له ما يريد» وهذا موجود فى سفر التكوين، إصحاح ٢٧ آية: ١٣.

٣- يؤمن اليهودى أن الفاحشة مع غير اليهودية لا تعد فاحشة؛ لأنها غير مؤمنة، بل عنده أنها غير إنسانة، وهناك نصوص وردت على ألسنة علمائهم تؤيد ذلك «إن لليهودى الحق فى اغتصاب النساء الغير مؤمنات» أى: غير اليهوديات، وعندهم: أن الزنا بغير اليهوديات ذكورًا كانوا أو إناثًا لا عقاب عليه؛ لأن الأجانب من نسل الحيوانات.

٤- لا ضير على اليهودى أن يكذب أو يحلف كذبًا إذا تعارض ذلك مع مصلحته من منطلق أن الغاية عندهم تبرر الوسيلة، لا ضير على اليهودى إذا قتل

غير اليهودى لأنه لا حرمة له، وقد حصر بعض الباحثين عدد من ذبحهم اليهود فى عيد الفصح فى بعض السنوات فوجدهم عددًا هائلاً جداً، وذكر البعض أن اليهود يتقربون إلى الله بقتل غير اليهودى، فجاء من نصوص التلمود: «اقتلوا الصالح من غير الإسرائيليين ومحرم على اليهودى أن ينجى أحدًا من باقى الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين، من العدل أن يقتل اليهودى بيده كل كافر، يعنى: غير اليهودى؛ لأن من يسفك دم الكافر يتقرب إلى الله».

هذه النصوص -أيها الإخوة- تؤكد لنا أن أخلاقيات التعامل بين اليهودى وغير اليهودى، من الغش والتعامل بالربا وارتكاب الفواحش، بل العمل على إشاعة الفاحشة بين الشعوب هم يقومون بها من منطلق فكر عقائدى وتنفيذًا لوصاياهم يؤمنون بها ويدعون أنها نزلت على أنبياء الله فى كتبهم المقدسة، وهذا كله دليل على التزييف والتبديل والتحريف وسبحان الله أن يقول شيئًا من ذلك، وحاشا لله أن ينزل وحيه على بعض أنبيائه شيئًا من ذلك، بل صدق الله حين يقول: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] ثم يقولون ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨] هذه حقائق -أيها الشباب- ينبغى أن نعرفها.

****

وسائل المواجهة

أنتقل بعد ذلك إلى النقطة الأخيرة فى هذا الموضوع، وهو طرح السؤال الآتى: وما العمل إذن وما هى وسائل المواجهة لهـذه التيارات وهذه المواقف الصهيونية من العالم الإسلامى ومن الإسلام؟

للإجابة على هذا السؤال: أرى أنه من الإنصاف أن نصارح أنفسنا بعيوبنا أولاً، وبعللنا وأمراضنا أولاً؛ لأن العالم الإسلامى يحتاج إلى من يكاشفه بعلله ويشخص أمراضه، فإذا ما صح وصف العلل وصدق تشخيص المرض، فهذا يختصر لنا الطريق للبحث عن العلاج الناجح[1].

أولاً: وحدة الإرادة:

وأول العلل والأمراض التى نواجهها هى حالة التشرذم والتفرق والتحزب التى يعيشها العالم الإسلامى، هذه الحالة ينبغى أن نواجهها بصدق وأمانة وبشجاعة نواجهها بما أمرنا به ديننا من الوحدة والاعتصام بأمر الله، فكل شىء فى ديننا يدعو إلى الوحدة، ليس القصد من الوحدة فى مواجهة الآخر، وإنما القوة الذاتية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] ففى الوحدة القوة، وفى الوحدة بداية عوامل النصر، وفى الوحدة مؤازرة ومناصرة لأصحاب الحقوق، وهذا ما أمرنا به ديننا، كل شعائرنا الدينية تدعونا إلى الوحدة، ففى صلاتنا نتجه إلى قبلة واحدة، فى صيامنا نصوم شهرًا واحدًا ونفطر فى وقت واحد ونمتنع عن الطعام والشراب فى وقت واحد، فى زكاتنا نتعامل بمعيار واحد فى كل شعائرنا رمز من رموز الوحدة، فلماذا لا نتحد كما أمرنا ديننا وكما أشارت به شعائرنا وطقوسنا الدينية؟ -أيها المسلمون- الاعتصام بأمر الله، وهذا هو بداية الطريق، الوحدة والعودة إلى الله ولابد من وحدة الإرادة قبل إرادة الوحدة. ووحدة الإرادة يعنى وحدة الهدف، وحدة المقاصد، وحدة الغايات. لأن توحيد الأهداف هو طريقه إلى إرادة الوحدة.

---

(١) راجع: كتاب خلل فى مسيرة الأمة للمؤلف. ط دار قباء الحديثة.

إسلامية القضية:

النقطة الثانية: أنه لابد من نقل القضية الفلسطينية من حيزها الفلسطينى وحيزها العربى إلى وضعها الطبيعى، فهى قضية إسلامية بالدرجة الأولى، ليست قضية إقليمية تخص شعبًا بمفرده -الشعب الفلسطينى- وليست خاصة بالأمة العربية وحدها، وإنما هى قضية إسلامية؛ لأنها تخص أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهى مقر ومعبد دينى: «لا تشد الرحال إلا ثلاث مساجد: المسجد الحرام، ومسجدى هذا، والمسجد الأقصى» لذلك فإن زيارة المسجد الأقصى شعيرة دينية يؤمن بها كل مسلم فى شرق العالم وغربه.

أخلاقيات اليهود:

النقطة الثالثة: ينبغى أن نعود إلى كتاب ربنا لنستقى منه أخلاقيات اليهود التى يعاملوننا بها الآن، والتى أكدها الواقع، والتى أكدتها المواثيق التى سبق أن أشرنا إليها، فإن من صفات اليهود ومن خصائص اليهود، ومن أخلاقيات اليهود التطاول على الله، والتطاول على الأنبياء، وتحريف كلام الله ووحيه، وعدم الوفاء بالعهود واحتقار الأمم الأخرى والعدوان عليها، ثم إثارة الفتن والقلاقل والحروب والإفساد فى الأرض: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤] ونحن كمسلمين نسالم من يسالمنا، ونمد يد السلام لكل من مد يد السلام إلينا، والواقع الذى نعيشه الآن أن العرب فى حالة سلام مع الحركة الصهيونية، لكن الوثيقة التى تلوتها عليكم تؤكد غير ذلك فأين إسرائيل من معاهدة السلام ومعاهداته.

هذه أمور ينبغى أن نضعها أمام أعيننا؛ لأن المواجهة تحتاج إلى سياسة النفس الطويل، وتحتاج إلى فقه الواقع الذى نعيشه ومشكلاته، ولا أريد أن أفصل الكلام أكثر من ذلك.

دور الشعوب:

النقطة الرابعة: على الشعوب العربية أن تعرف دورها بعيدًا عن موقف الحكومة، والأنظمة السياسية، وأن يتعلموا من الواقع أن للأنظمة الحاكمة دورا رسميا وللشعوب دورها وهو الأهم والأكثر فعالية فى حركة التاريخ، فما المانع أن تفعل

الشعوب العربية فى أمريكا وأوربا كما فعلت إسرائيل. لماذا لا تؤسس أجهزة إعلامية (مرئية ومقروءة ومسموعة) تتحدث إلى أوربا وأمريكا تبلغها وتنقل إليهم حقائق الموقف الصهيونى من العرب وتصحح لهم الأخطاء التاريخية التى قامت بها الصهيونية لتتعرف الشعوب الأوربية على هذه الحقائق الفظيعة ويكتشفوا لهم التزييف والتزوير الذى فعلته الصهيونية إننا نملك المال والعقول ولكن أين الإرادة العربية، وأين العزيمة.

حسن توظيف الثروة العربية:

إن الله قد أنعم على المسلمين والعرب بعوامل القوة التى حرم غيرهم، ولكن للأسف الشديد لم يحسن العرب توظيف هذه العوامل ولم يستثمروها كما يفعل غيرهم فإن العرب يملكون الأرض الصالحة للزراعة، وما زالوا يأكلون مما يزرع غيرهم، ويملكون الأيدى العاملة ولكن يلبسون مما يصنع غيرهم، ويملكون العقول المفكرة، ولكن طردوا من أوطانهم نتيجة الاستبداد السياسى، والظلم الاجتماعى فأثمرت عقولهم خارج أوطانهم علما وصناعة تنعم بها غيرهم.

ويملك العرب ثروة بترولية وطاقة غازية لا نظير لها فى بقعة أخرى فى العالم. ولكن لم يحسنوا الإفادة منها.

ومن الأمور التى تدعوا إلى الأسف أن كل هذه الأمور معروفة للخاصة والعامة، ولكن لما غابت أو غيبت الإرادة العربية عن الإفادة من هذه النعم صار أمر الإفادة أو تحول إلى غيرنا ليفيد هو بها وينعم بها وتتخذها سلاحا وشوكة فى ظهورنا وأصبح العالم العربى يستجدى من الآخر كل شىء ابتداء رغيف الخبز حتى الإبرة والصاروخ.

وذلك كله بسبب غياب أو تغييب الإرادة العربية فى النهوض بالأمة وحسن توظيف ثرواتها.

****

ملاحق

وثيقة رقم (١)

نداء نابليون إلى يهود العالم

من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذى لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومى، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبى مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن مقدرة الأنبياء مثل اشعياء ويوئيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه. إن أمامكم حربًا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم... لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلى عن حقكم، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز.

إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها.

يا ورثة فلسطين الشرعيين ...

إن الأمة الفرنسية التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء.

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفًا لأسبرطة وروما، ومعاملة العبيد التى طالت ألفى سنة لم تفلح فى قتل هذه الشجاعة.

سارعوا! إن هذه هى اللحظة المناسبة -التى قد لا تتكرر لآلاف السنين- للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة إلهكم يهواه، طبقًا لعقيدتكم، وافعلوا ذلك فى العلن وافعلوه إلى الأبد[1].

بونابرت

****

(١) انظر فى هذه الوثيقة كتاب: المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ص ٣١، ٣٢، تأليف: محمد حسنين هيكل، ط دار الشروق، القاهرة.

وثيقة رقم (٢)
المؤتمر الدولى
للقيادات النصرانية الصهيونية

فيما بين السابع والعشرين من آب (أغسطس) ١٩٨٥م عقد فى مدينة «بال» بسويسرا - فى القاعة التى عقد فيها قبل ثمانية وثمانين عامًا المؤتمر الصهيونى الأول برئاسة «تيودور هرتزل» ١٨٩٧م الذى أرست فيه الأسس النظرية والعملية التى تكفل إنشاء الدولة اليهودية بعد خمسين عامًا على وجه التحديد - المؤتمر الدولى للقيادات النصرانية - أتباع الكنائس النصرانية المؤيدة لقيام الدولة اليهودية، التى تعتبر قيام هذه الدول تحقيقًا لنبوءات الكتاب المقدس، وتنطلق من خلفية توراتية لدعم الدولة ونصرة اليهود - ولقد قام الدكتور عبد المنعم المشاط بترجمة الإعلان الصادر عن هذا المؤتمر الذى تألف من مقدمة، ومبادئ، وقرارات:[1]

المقدمة:

نحن الوفود المجتمعين هنا، من دول مختلفة، ونمثل كنائس متنوعة فى هذه القاعة الصغيرة نفسها التى اجتمع فيها منذ ثمانية وثمانين عامًا مضت الدكتور «هرتزل» ومعه وفود المؤتمر الصهيونى الأول، ووضعوا اللبنة الأولى لإعادة ميلاد دولة إسرائيل! جئنا معًا للصلاة، ولإرضاء الرب، ولكى نعبر عن ديننا الكبير، وشغفنا العظيم بإسرائيل الشعب، والأرض والعقيدة، ولكى نعبر عن التضامن معها، وإننا ندرك اليوم وبعد المعاناة المريرة التى تعرض لها اليهود، أنهم لا يزولون يواجهون قوى حاقدة ومدمرة مثل تلك التى تعرضوا لها فى الماضى.

وإننا كنصارى ندرك أن الكنيسة أيضًا لم تنصف اليهود طوال تاريخ معاناتهم واضطهادهم، وإننا نتوحد اليوم فى أوربا، بعد مرور أربعين عامًا على الاضطهاد لليهود (الهولوكست) لكى نعبر عن تأييدنا لإسرائيل، ونتحدث عن الدولة التى تم إعداد ميلادها هنا فى «بال» ونقول: أبدًا، لا رجعة للقوى التى يمكن أن تتسبب فى استرجاع أو تكرار (هولوكست) جديدة ضد الشعب اليهودى.

(١) انظر النص كاملاً فى: الخلفية التوراتية ص٢١٣ - ٢٢٤.

المبادئ التى أعلنها المؤتمر:

أولاً: نخاطب إخواننا النصارى: علينا أن نخلص أنفسنا من أى شكل من أشكال معاداة السامية -مستترًا كان أم معلنًا ضد اليهود- وأن نؤيد الشعب اليهودى بالحب القلبى والإخلاص والعمل، فى ضوء الكتاب المقدس، وفى ضوء العهد الذى قطعه الرب مع شعبه وأرضه.

ثانيًا: نهنئ الدولة إسرائيل ومواطنيها على الإنجازات العديدة التى تحققت فى فترة وجيزة تقل عن أربعة عقود (٤٠ سنة) ونحضكم أن تكونوا أقوياء فى الله، وعلى أن تستلهموا قدرته فى مواجهة ما تعترضكم من عقبات، ونناشدكم بحب أن تحاولوا تحقيق العديد مما تصبون إليه، وعليكم أن تدركوا أن يد الله وحدها هى التى ساعدتكم على استعادة الأرض، وجمعتكم من منفاكم طبقًا للنبوءات التى وردت فى النصوص المقدسة، وأخيرًا ندعو كافة اليهود فى جميع أنحاء المعمورة للهجرة إلى إسرائيل، كما ندعو كل نصرانى أن يشجع ويدعم أصدقاءه اليهود فى خطواتهم الحرة كلها التى يستلهمونها من الله.

ثالثًا: نناشد الدول، صديقة إسرائيل، التى تتراوح سياساتها ما بين التأييد الحقيقى واعتبارات الملاءمة السياسية، أن تنقل سفاراتها إلى القدس، وذلك للتأكيد على الربطة التاريخية بين الشعب اليهودى والمدينة التى وهبها الله له. وأن تعترف هذه الدول بـ«يهودا والسامرة» (الصفة الغربية) جزءًا من أرض إسرائيل.

رابعًا: نحذر الدول المعادية لإسرائيل -بما فيها الدول العربية، عدا مصر والاتحاد السوفيتى أن تتوقف عن عرقلة السلام فى الشرق الأوسط، وكذلك نحث الاتحاد السوفيتى أن يسمح دون تأخير لكل اليهود السوفييت بالهجرة إلى إسرائيل بدءًا بأولئك الذين تقدموا بطلبات هجرة وتأشيرات خروج، الذين يصل عددهم إلى أربعمائة ألف يهودى، وأن يمنح حرية دينية كاملة للمواطنين السوفييت كافة.

خامسًا: نطلب من الدول التى لم تعترف بعد بإسرائيل أن تسارع للاعتراف بها دبلوماسيًا، وتأييدها دوليًا، وأن تمتنع عن أية مقاطعة لإسرائيل أو وضعها فى أية قوائم سوداء.

سادسًا: وأهم من ذلك كله، وأشد إلحاحًا، فإننا نصلى من أجل مجىء ذلك اليوم الذى يعيش فيه شعب إسرائيل كله، وشعوب الشرق الأوسط والعالم كله بسلام وأمان كما وعدنا الله.

سابعًا: نصدر بصورة رسمية القرارات التالية التى يلتزم بها المؤتمر.

القرارات:

١- لا تنازلات للاتحاد السوفيتى طالما لا يستطيع اليهود السوفييت الهجرة إلى إسرائيل.

٢- يجب أن تمتد إسرائيل ويتم قبولها دوليًا.

٣- يجب على الدول كافة الاعتراف بإسرائيل.

٤- يجب على الدول كلها أن تعترف بأن «يهودا والسامرة» تتبعان إسرائيل.

٥- يجب على الدول كلها أن تنقل سفاراتها إلى القدس.

٦- ينبغى على الدول الصديقة أن تتوقف عن تسليح أعداء إسرائيل.

٧- ينبغى على الحكومات كلها أن تمتنع عن إيواء الإرهابيين.

٨- نعلن شجبنا معاداة السامية فى صورها.

٩- إننا ونحن نتذكر جميع صور الوحشية التى تعرض لها اليهود فى الماضى، نقرر ألا رجعة لمثل هذه الأمور مطلقًا.

١٠- إننا نشجع توطين اللاجئين فى إسرائيل، ونؤكد ضرورة توفير العدالة للاجئين اليهود.

١١- نلتزم بدعم إسرائيل اقتصاديًا، وننشئ صندوق استثمار دوليًا لمساعدتها.

١٢- يجب على الدول كافة أن تتوقف عن الخضوع لمقاطعة إسرائيل.

١٣- نناشد المجلس النصرانى الدولى أن يبحث فى الرابطة المقدسة بين الأرض والشعب.

١٤- نصلى جميعًا من أجل مملكة الرب القادمة.

ومما يجدر ذكره أن عدد أعضاء المؤتمر بلغ (٥٨٩) شخصًا، قدموا من سبع وعشرين دولة فى العالم كله، بناء على دعوة خاصة من السفارة النصرانية الدولية ومقرها باريس، وبلغ عدد المراقبين (٦٠٠) شخص، وقد حضره ممثلون من نيجيريا، وساحل العاج، وزائير، والهند وسرى لانكا، والصين.

وقد اتفق هؤلاء الأعضاء فى نهاية المؤتمر على أن يقوموا بحملة من أجل توظيف رؤوس أموال قدرها مائة مليون دولار أمريكى فى «إسرائيل» وتم إنشاء «صندوق دولى للاستثمار من أجل إسرائيل» مقره «أمستردام» ويرأسه رجل أعمال هولندى يدعى «كارل فان أورد» وستعطى الأولوية فى هذه الاستثمارات للتكنولوجيا المتقدمة.

واتفقوا كذلك على تنظيم مسيرة تضم خمسة عشر ألف شخص، يحملون الأعلام الإسرائيلية فى منتصف أيلول (سبتمبر) فى مدينة «نورمبرغ» بألمانيا الغربية، وذلك بعد مرور خمسين عامًا على «قوانين نورمبرغ العنصرية المعادية للسامية» لتكون بمثابة دليل واضح على ندم الألمان على المحارق التى تمت فى الحرب العالمية الثانية.

قالت مجلة «المنبر اليهودى» التى تصدر فى «باريس» فى عددها الصادر بتاريخ ١٢/ ٩/ ١٩٨٥ فى التحقيق الذى كتبته حول المؤتمر المذكور: (... وفى نهاية أعمال المؤتمر تم الاتفاق على برنامج عمل تحت عنوان: دعوة بال العقيدية؛ لتحديد مهمات الصهاينة النصارى بعد ثانية وثمانين عامًا على إعلان برنامج بال ١٨٩٧م... وقد حدد القس «كلود دو فرنو» الأسس اللاهوتية للالتزام النصرانى مع إسرائيل بـ: (وعود الرجوع إلى أرض الميعاد لأولاد إسرائيل وهى فى النصوص التوراتية....) وقالت أيضًا: (والنصارى الصهاينة الذين يقدر «فرنسوا ديلية» ممثل السفارة النصرانية فى فرنسا عددهم بأربعين مليونًا فى العالم يستطيعون القيام بدور حاسم على عدة أصعدة، وذلك من أجل اعتراف أسبانيا والفاتيكان بدولة إسرائيل[1].

****

(١) انظر فى هذه الوثيقة كتاب: الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى، ص٢١٣ - ٢٢٢، تأليف إسماعيل الكيلانى، ط المكتب الإسلامى، دمشق.

راجع عن الصهيونية

- الثقافة الإسلامية، تأليف أ.د. عبد الحميد مدكور وآخرين، جامعة قطر/ مراجعة أ.د. محمد السيد الجليند، وآخر انظر البحث القيم عن الصهيونية د. مدكور.
- تيارات فكرية معاصرة أ.د. محمد السيد الجليند.
- سقوط الأقنعة المشروع الصهيونى للسيطرة على العالم د. محمد والى طبعة مصر.
- عقائد وتيارات فكرية معاصرة أ.د. محمد السيد الجليند وآخرون انظر البحث القيم للدكتور: بكر زكى الخاص باليهودية.
- فلسطين أرض الرسالات السماوية/ جارودى ترجمة: أ.د. عبد الصبور شاهين.
- الخلفية التوراتية للموقف الأمريكى لإسماعيل الكيلانى، ط الكتب الإسلامى بدمش.
- الأساطير المؤسسة لإسرائيل رجاء جارودى.
- بروتوكولات حكماء صهيون. ترجمة محمد خليفة التونسى.
- جذور البلاء. عبد الله التل.
- الغارة على العالم الإسلامى. تأليف أ.د. شاسليه. ترجمة محب الدين الخطيب، مساعد البيافى.
- التنصير. خطة لغزو العالم الإسلامى. مجموعة بحوث لمؤتمر التنصير سنة ١٩٧٨ بولاية كلورادو بأمريكا. الترجمة العربية (٤٠) بحث. ط بدون بيانات.

التوراة تاريخها وغاياتها. ترجمة سهيل ديب. ط دار النفائس.

التوراة بين الوثنية والتوحيد. تأليف سهيل ديب. ط دار النفائس.

الفصل السادس

الماسونية

الماسونية معنًى، وتاريخًا:

ننتقل الآن بالحديث إلى الجناح الآخر من النشاط اليهودى العالمى فى العالم، هذا الجناح هو ما يسمى بالماسونية العالمية؛ لأن الماسونية والصهيونية هما وجهان لعملة واحدة، هى اليهودية، هى النشاط اليهودى العالمى، هى موقف اليهود من العالم ككل، من الآخر، من حركات التمرد العالمية التى دبرتها الصهيونية والماسونية العالمية ضد الحكومات المناوئه والمعارضة للفكر اليهودى، والفكر الصهيونى، والماسونية العالمية؛ ولذلك سوف نجد أن حديثنا عن الماسونية يشبه إلى حد كبير ما سبق أن قلناه عن الحركة الصهيونية العالمية.

فإذا كانت الصهيونية حريصة على أن يكون نشاطها محاطًا بنوع من السرية والكتمان أحيانًا، والإعلان والإفصاح أحيانًا أخرى، فإننا نجد الماسونية العالمية كل نشاطها محوط بالسرية والكتمان الشديد؛ لدرجة أن جميع المؤرخين بلا استثناء قد ساورهم الشك فى تاريخ هذا النشاط الماسونى، فلم نجد مؤرخًا يتفق مع مؤرخ آخر حول تحديد النشأة التاريخية للنشاط الماسونى العالمى، ولا من يعتبر أول من مارس هذا النشاط أو نظمه أو أعد له، وإنما هى كلها آراء تقريبية؛ لأن من شرط النشاط الماسونى نفسه هو الكتمان والسرية، وعدم الإعلان، حتى إننا نجد الماسونيين الملتحقين بالمحافل الماسونية أنفسهم لا يطلعون على أسرار الماسونية إلا بعد أن يجتازوا مراحل عدة، وينتقلوا من مرحلة إلى مرحلة حتى يسمح لهم بالإفصاح عن بعض الأسرار التى تتعامل بها الماسونية؛ ومن هنا نجد أن الكتمان والسرية والتخوف يمثل الغلاف الجوى لهذا النشاط الماسونى، وإذا أردنا أن نبدأ الطريق من أوله فلا بد من طرح سؤال: ما هى الماسونية؟ ما معنى كلمة ماسونية من حيث الدلالة اللغوية أولاً؟

(١)

نجد أن هذا المصطلح الماسونى ظهر فى تاريخ الحركة الماسونية فى القرن الثامن عشر، وبعضهم يحدد ظهوره فى سنة ١٧١٧ بالتحديد كما سوف نأتى على ذلك

فيما بعد، أما نشاط الماسونية قبل ذلك فكان يمارس تحت مصطلح آخر، اختارته اللجنة المؤسسة لهذا النشاط فى أول مجلس لها، أو فى أول عهدها بممارسة هذا النشاط، اختارت أن يكون نشاطها تحت مسمى «القوة الخفية» أما مصطلح الماسونية فهى كلمة فرنسية مركبة من مقطعين: المقطع الأول هو: ماسون، بمعنى عامل البناء، ومنه أخذت الماسونية، أى: البناءون وأضيفت إليها كلمة الأحرار، وهى -كما قلنا- اسم حديث أطلق نيابة أو بديلاً عن الاسم القديم الذى هو القوة الخفية، فمن حيث الدلالة اللغوية إذن نجد أن هذا اللفظ أصله فرنسى مركب من مقطعين، هو فرنك أو فرنت، التى تعنى فى اللغة الفرنسية الحاذق أو الصادق أو الحر، وماسون التى تعنى: البانى، وتصبح الدلالة اللغوية للكلمة بمقطعيها «الماسون» هو البانى الحر أو البانى الصادق، والجماعة الماسونية هم البناءون الصادقون أو البناءون الأحرار.

وقد يرد على الذهن -ولا بد أن يرد على الذهن- ما معنى كلمة «البناءون الأحرار»؟ هذا المعنى يصل بنا مباشرة إلى الهدف أو العمق التاريخى لهذا المصطلح؛ لأن كلمة البناءون والأحرار تطلق على الجماعة الذين عهد إليهم بناء أو إعادة بناء الهيكل السليمانى، أو هيكل اليهود، أو الهيكل الذى يقام فى أرض فلسطين مكان هيكل سليمان -عليه السلام- فكأن العلاقة التاريخية بين كلمة «ماسونية» وكلمة «الهيكل» علاقة تاريخية قوية جداً، فاسم «البناءون الأحرار» أو «الماسونية» أو «البانى الصادق» أو «البانى الحر» هى ممتدة تاريخياً لتنطلق من فكرة إعادة بناء الهيكل أو بناء هيكل سليمان -عليه السلام- هذا من الناحية اللغوية أو من ناحية اشتقاق الكلمة.

أما إذا أردنا الحديث عن الجذور التاريخية لهذه الحركة فنجد أن جميع المؤرخين -كما قلنا- وقعوا فى حيرة شديدة جداً، من حيث الحديث عن أول ظهور هذه الحركة التى كانت تسمى فيما مضى بالقوة الخفية، من هو الذى أسسها؟ ما هى الجمعية الأولى التى تولت تنظيم (البناءون الأحرار) أو الماسونية أو القوة الخفية؟ حول البحث عن هذه القضية نجد كثيراً من الآراء لا تتعارض لكن ربما تتكامل، ولا نجد بعضها ينفى البعض الآخر، وإنما نجد أن كل باحث قد وضع يده على ما

تحت يده من مراجع ومصادر تاريخية فمال إليها وأيدها، وكل هذه المصادر أو هذه المراجع تختلف حول النشأة والفترة التاريخية لهذه النشأة، وحول من هو المؤسس؟ وما هى الجمعية التى أسست هذا التنظيم؟ لكنها مع هذا الاختلاف الكبير تتفق فيما بينها على أنها نشاط يهودى، بدأ على أيد يهودية، وجمعيات يهودية، ومنظمات يهودية، بقصد إعادة بناء الهيكل أو بناء هيكل سليمان -عليه السلام- لذلك ليس من اليسير أن يعثر أى باحث على منطلقات تاريخية محددة تتصل بتأسيس هذه المنظمة، أو من هو أول من أسسها، أو التاريخ المحدد لهذه القضية؛ ولذلك سوف نتغاضى عن الآراء المشتتة والكثيرة التى دارت حول تأسيس ونشأة الحركة الماسونية، وسوف نكتفى بمصدر واحد ربما نميل إلى الوثوق به عن غيره من المواثيق أو المصادر الأخرى؛ لما يتميز به عن بعض الكتابات التاريخية التى تؤكد إلى حد كبير صحة ما جاء فيه، هذا المرجع هو ذلك الكتاب الذى ترجمه عن الفرنسية أحد المشتغلين بالبحث عن تاريخ الماسونية، وهو يسمى: عوض الخورى، هذا الرجل وضع كتابًا أسماه (تبديد الظلام) أو ترجم أحيانًا باسم (أصل الماسونية) وإن كان مترجم عن لغة فرنسية تحمل هذا العنوان (القوة الخفية) فكأن عوض الخورى ترجم الكتاب عن العنوان القديم أو عن المصطلح القديم الذى كانت تعمل تحته التنظيمات الماسونية وهو «القوة الخفية»، ترجمه من اللغة الفرنسية تحت عنوان: تبديد الظلام أو أصل الماسونية.

يقدم المترجم فى هذا الكتاب تاريخًا لنشأة الحركة الماسونية يختلف عن كثير من الآراء الأخرى، ويختلف عن الافتراضات التى تنقصها الموضوعية أحيانًا، وتحتاج إلى دليل تاريخى يؤكد صحة ما جاء فيها أحيانًا أخرى.

يعرض المترجم فى هذا الكتاب ما يدل دلالة موثقة على نسبة العمل الماسونى ومنظماته إلى اليهودية العالمية، ودورها فى مسخ وتشويه التاريخ الإنسانى كله، ومحاربة الأديان عمومًا، ابتداء من محاربتها لليسوعية أو المسيحية بعد ميلاد المسيح بنصف قرن تقريبًا؛ ولذلك سوف نجد أن فى هذه الوثيقة من أسباب تأسيس هذا التنظيم أو التفكير فى تنظيم يسمى القوة الخفية، أن من بين أسبابها هو القضاء على ما أسموه باليسوعيين، أو القضاء على المسيحية، أو على السيد

المسيح وأتباع المسيح، وتطورت هذه الفكرة من محاربتها للمسيحية إلى محاربة الأديان عمومًا.

ملخص ما جاء فى هذا الكتاب أن المترجم يقول: إن هذا الكتاب لا يرجع الفضل فيه إلى الجهد الجبار الذى بذلته، وإن كان هذا الجهد كبيرًا ومضنيًا، وإنما يرجع الفضل فيه إلى رئيس جمهورية البرازيل وهو الدكتور برودنتى، الذى كان مفوضًا إلى أسرار خاصة بالفكر الماسونى، وكتب عنهم كثيرًا، فهو الذى عرفنى هذا التاريخ، وعرفنى بهذا المخطوط الذى هو القوة الخفية، كان هذا المخطوط باللغة العبرية، وفى حوزة رجل يسمى لوران بن جورج، هذا اللوران بن جورج أحد أحفاد تسعة من الآباء الذين تسلسل نسبتهم من الأب الأول الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للمنظمات الماسونية، حتى ينتهى إلى «لوران» هذا باعتباره الابن التاسع للمؤسس الأول للحركة الماسونية. يقول: إن هذا الكتاب -الذى هو القوة الخفية- كان باللغة العبرية، وانتقل من الأب الأول إلى ابنه إلى حفيده إلى حفيده إلى حفيده حتى وصل إلى «لوران» هذا، وكان باللغة العبرية كما قلت.

ويحكى لنا عوض الخورى ناقلاً عن لوران هذا البداية التاريخية للنشاط الماسونى العالمى، يقول على لسان لوران بن جورج هذا: أنا لوران بن جورج بن صموائيل بن جوناس بن صموائيل لوران، الروسى الأصل، آخر حفيد أحفاد أحد أصحاب هذا التاريخ -هذا يطلعنا على أن الأصل العرقى لهذا التاريخ روسى- يقول لوران: ورثت عن أبى وأجدادى نسخة خطية، تأليف أجدادنا فى اللغة العبرانية، ومترجمة من أحدهم إلى اللغة الروسية، ثم ترجمها آخر منهم إلى الإنجليزية، ثم إن جدنا «جوناس» أدخل عليها بعض حقائق وأضاف ما وجبت إضافته بحيث أصبح هذا التاريخ مؤلفًا منه ومن أجداده، وكان يعرفه بعد أن رتبه بنوع ما، وقسمه إلى قسمين، وأراد أن يطبعه وينشره، ولكن حالت دون تحقيق رغبته موانع، منها صحية، ومنها مالية، ومنها سياسية، ثم مات متحسرًا؛ لعدم استطاعته تحقيق تلك الأمانى؛ لأنه هو وزوجته «جانيت» هما اللذان ابتكرا فكرة نشر هذا التاريخ ليعرفه العالم، لكنهما ما تمكنا من إبرازها إلى العمل فأوصيا بطبعه ونشره، أوصيا ابنهما -الذى هو جدى صموائيل، - الذى يتكلم هنا «لوران»

الذى ورثه عنهما، وهذا جدى صموائيل هو ابن جوناس بن صموائيل لوران، وها هو يخاطب ابنه والدى جورج- ثم يحكى لنا على لسانه خطاب لوران هذا الجد إلى جورج أبو لوران الحفيد الذى هو رقم ٩، ويحكى قصة هذا التنظيم، وأصله، وعدد الأشخاص الذين اشتركوا فيه، إلى أن يقول: أن جانيت -التى هى زوجة جده الأخير- تقول: اعلم يا بنى أن هذا التاريخ سيكون له أيضًا شأن عظيم عند المرأة؛ جانيت هذه تحكى وصيتها للمرأة التى تريد أن تنضوى، أو أن تعرف شيئًا عن هذا التنظيم، تقول: أيتها المرأة، بما أن لك أعظم التأثير وأعلى النفوذ فى الكون كما يشهد التاريخ بذلك، منذ أبينا آدم الذى كان سقوطه بالمخالفة بواسطة المرأة، وكما تشهد أقوال العلماء والفلاسفة والرجال العظماء، فمن قولهم: إن المرأة تهز السرير بيمينها وتهز العالم بيسارها، ومن قولهم: ما تريده المرأة يريده الله إن كان خيرًا، ويريده الشيطان إن كان شرًا، ومن قولهم: إن العالم قد هلك على يد المرأة، والله يحب أن يكون الخلاص للعالم على يد المرأة. ثم تسترسل إلى أن تقول: كما كنت أنا المؤثرة العظيمة على صاحبة بعلى «جوناس» بعد أن تنصر وتزوجنى، وكنت مبتكرة للفكرة الأولى لطبعة هذه الوثيقة ونشرها؛ فعليكن أنتن أن تنفذن بالقول والفعل، وتستعملن كل ما لديكن من الوسائل فى سبيل إقناع الرجال.

أن الماسونية يهودية بحتة، هى التى زعزعت أركان الكون.

وهى التى دكت عروش الملوك والسلاطين.

وهى التى حطمت التيجان.

وهى التى أذلت وحقرت الأديان.

وهى التى بدهائها اليهودى أسالت أنهر دم الأبرياء، واعلمن أن كل عمل مخل بالأديان إنما مصدره منها؛ لأنها بمبالغتها فى تفسير الكلمات الثلاث: حرية، مساواة، إخاء -قد أفلتت الأعنة إلى البشر، وهى التى بثت روح التمرد فى رءوس النساء غير الفاضلات.

ثم تقول: إننا نرى فى وسائر البلاد التى انتشرت فيها الماسونية، نرى مشاهد وأعمال قد لاشت الدين وأنهته، وتعرضت للشرف وقضت عليه، وقضت على

الأدب والذوق، تلك هى بلية عظيمة تهدد المجتمع الإنسانى . . إلى آخر ما تقول هذه الزوجة -التى هى جانيت- باعتبارها أسهمت إلى حد كبير فى طبع هذه الوثيقة، وعلينا أن نعلم أن النسخة الأولى كانت عبرية، ثم ترجمت إلى الروسية والإنجليزية والفرنسية، والذى ترجمها عوض الخورى كانت من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية. إذن هذا هو الأصل التاريخى الذى صرحت به أهم وثيقة بين أيدينا أو تحت أيدينا عن هذا التنظيم الماسونى العالمى.

(٢)

أما تاريخ نشأته متى وكيف بدأ؟ فإن معظم المراجع تختلف أيضًا فى تحديد التاريخ المعين، لكن كثيرًا من هذه المراجع يعود بها إلى تاريخ اليهود، وعلاقتهم بالسيد المسيح، وبالديانة المسيحية كان يسمونها باليسوعية، أو منذ نزل المسيح على الأرض داعيًا إلى المحبة وإلى السلام، ورأوا أنه جاء ليقضى على عرشهم، ويقضى على دولتهم، ورأوا فى مجىء المسيح إلى الأرض نهاية الملك اليهودى، ومن هنا فكروا فى تأسيس جمعية للقضاء على هذا الدين الجديد؛ ولذلك نجد أن بعض الماسونيين القدماء وهو «حيرام أبيود» هذا الاسم يتردد كثيرًا فى المصادر الماسونية؛ باعتباره علم أعلام الماسونية القدماء، وكان يعمل مستشارًا للملك «هيرودس أكريبا» يكشف عن البداية العملية والممارسة الفعلية لعمل الماسونية المنظم حين تم تأسيس الجمعية الماسونية، كان أول تأسيس فى أورشليم القدس فى يوم ٢٤ حظيران، فى سنة ٤٣ بعد ميلاد المسيح -عليه السلام- هذا التاريخ اتفقت حوله كثير من المصادر التى بين أيدينا، أن أول تنظيم للماسونية يرجع إلى هذا التاريخ، وسببه الأساسى هو مواجهة الديانة المسيحية الجديدة، التى ظن الماسون أنها جاءت لتقضى على اليهودية؛ فكان لا بد من عمل تنظيم يسمى القوة الخفية؛ للقضاء على هذه الديانة.

يقول «حيرام» هذا: لما رأيت أن رجال الدجال -والدجال هنا يعنى به: السيد المسيح -عليه السلام- أن رجال الدجال يسوع وأتباعهم يكثرون ويجتهدون بتضليل الشعب اليهودى بتعاليم كثيرة، مثلت أمام موالى جلالة الملك «هيرودس أكريبا» واقترحت عليه تأسيس جمعية سرية هدفها محاربة أولئك الضالين المضلين، على

أننا نبذل كل جهد ما عز وهان للقضاء عليه، ولأجل إحباط مساعيهم الفاسدة، وإبادتهم إذا أمكنا ذلك، فنلت فى عين الملك، وقال لى: تكلم يا «حيرام» فقلت: مولاى الملك، لقد تأكد لجلالتكم وللملأ أن ذلك الدجال يسوع استمال بأعماله وتعاليمه قلوب كثيرين من الشعب اليهودى -أى شعبكم- وما يظهر من أن أتباعه ينمون ويزدادون يومًا بعد يوم، فمنذ نشأته حتى موته ومنذ موته، حتى الآن: يعنى سنة ٤٣ ميلادية، لم نستطع سبيلاً إلى مقاومة أولئك الذين ينبغى أن نسميهم أعداءنا، وملاشاة كل ما يبثونه فى قلوب الناس من التعاليم التى نعتبرها نحن إلا فاسدة ومضلة، ومخالفة لديننا، وبدأ يتلو على الملك «هيرودس» كلامًا كثيرًا؛ ليشجعه على تأسيس هذه الجميعة الخفية لمقاومة الدين الجديد؛ ولذلك نجد فيما بعد فى تأسيس الجمعية الماسونية هذه أن الملك «هيرودس» أوكل إلى «حيرام» تأسيس الجمعية الأولى، وافتتحها الملك «هيرودس» بخطاب طويل، صرح فيه بأن مستشاره «حيرام» هذا أشار إليه بهذا التأسيس للجمعية أو الماسونية أو القوة الخفية؛ ليواجه المسيحية الجديدة التى أرادت أن تقضى على عز اليهود وملك اليهود، وأخذ يخاطب إخوانه بكثير من الأساليب التى تستحثهم للانضمام لهذه الجمعية إلى أن أنهى الاجتماع بتأسيس هذه الجمعية التى تسمى: جمعية القوة الخفية، وهى أول جمعية تأسست فى هذا التاريخ، وإليها ترجع جميع التنظيمات الماسونية وتنبثق عنها على امتداد التاريخ على إلى الآن.

فى آخر لقاء هذه الجمعية يقول حيرام: هل يحسن فى رأى سيدى وموالى -الذى هو الملك هيرودس- أن يكون اسم الجمعية: الاتحاد اليهودى الأخوى؟ فأجابه الملك: كلا يا حرام، لقد هيأت لها اسمها أمس، وهو «القوة الخفية» أفلا تستحسونه؟ فأجابوه جميعًا مستحسنين، وسجل الاسم، وبدأ هذا الاسم يشق طريقه فى التاريخ الإنسانى إلى سنة ١٧١٧؛ حيث تحول الاسم من القوة الخفية إلى الماسونية العالمية.

القسم الماسونى:

وبعد انتهاء هذه الجمعية الأولى اتفق الجميع على قسم يكون بمثابة دستور للتنظيم اليهودى، ولكل من يرغب فى الانضمام إلى التنظيم اليهودى، وصيغة هذا

القسم ما يلى: أنا فلان بن فلان، أقسم بالله، وبالتوراة، وبشرفى بأننى حيث قد صرت عضواً من التسعة الأعضاء المؤسسين لجمعية القوة الخفية -أتعهد ألا أخون إخوانى أعضاءها بشىء يضر بشخصيته، ولا بكل ما يعود لمقررات الجمعية، أتعهد أن أتبع مبادئهما وأتمم كل ما تقرره باتفاقنا نحن التسعة المؤسسين بكل دقة وطاعة وضبط، وبكل غيرة وأمانة، وأتعهد أن أجتهد بتوفير عدد أعضائها، أتعهد بمناهضة كل من يتبع تعاليم الدجال يسوع، ومحاربة رجاله حتى الموت، أتعهد ألا أبوح بأى سر من الأسرار المحفوظة بيننا نحن التسعة لأى كان، من الخارجين أو من أعضائها.

لاحظ معى: لا يبوح بالسر لا لمن هو خارج الجمعية ولا لأحد من أعضاء الجمعية، كأنهم أيضًا فيما بينهم يسرون أسرارهم عن بعضهم البعض -وإذا خنت بيمينى هذه، وثبتت خيانتى بأنى بحت بأى سر، أو بأية مادة من مواد قانونها الداخلى المحفوظ لنا ولخلفائنا؛ فيحق لهذه العهدة ولهذا العدد الثمانية رفقائى أن تميتنى بأى طريقة كانت -هذا هو الجزاء، جزاء من يبوح بالسر: أن يميتوا من يبوح بالسر بأى طريقة كانت- هذا القسم تلاه التسعة المنظمين أو المؤيدين أو أعضاء اللجنة التأسيسية للقوة الخفية، فى هذا التاريخ المتقدم من تاريخ الماسونية؛ وبذلك يكون قد تأسس أول محفل ماسونى فى أورشليم من هؤلاء التسعة، وبدأوا من هذا التاريخ يمارسون نشاطهم الماسونى فى العالم.

طبقات الماسونية:

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تنظيم الماسونى وطبقاته؛ لأن الماسونية حين وضع تأسيسها بهذا الشكل وضعوا تنظيمًا طويلاً جداً ومتعدد الخطوات، لا أريد أن أدخل فى تفصيلاته، وإنما فقط سوف نأخذ بكثير من الإيجاز الحديث عن الأركان الأساسية فى هذا التنظيم، ومن أهم هذه الأركان هو طبقات الماسونية.

الطبقة الأولى:

تنقسم الماسونية التاريخية إلى طبقات ثلاث: الطبقة الأولى تسمى: الماسونية العامة، أو الماسونية الرمزية، وهذا المستوى من التنظيم أو هذه الطبقات متاحة لجميع الأجناس، ولجميع الأديان والملل، وهى تبدو فى مظهرها على أنها جماعة

إنسانية تدعو إلى نشاط اجتماعى وخدمات اجتماعية، ومن أهم مظاهرها الإنسانية أنها تدعو إلى عدم الاعتداء على الغير بأى صورة من الصور العدوانية، وتتستر بالنشاط الاجتماعى والخدمى، وتظل هكذا متسترة بهذا النشاط الاجتماعى إلى وقت طويل جداً، ثم يبدأ المنظمون يضعون تحت الملاحظة أفراد هذا المستوى من التنظيم، من يصلح منهم لأن يرتقى إلى المستوى الآخر ومن لا يصلح.

وسميت هذه الجماعة بالرمزية؛ لأنها تضم فى مراسمها رموزاً كثيرة كلها تشير إلى أحداث تاريخية ورد ذكرها فى التوراة، والنظام المحفلى لهذه الجماعة الرمزية نظام إقليمى؛ فالمحفل الأعظم بفرنسا مثلاً كان يتبعه محفل الشرق الأعظم فى مصر، وهذا المحفل كان يتبعه عدة محافل فى المحافظات المصرية، والمحفل الأعظم فى تركيا مثلاً كان يتبعه بمصر المحفل الثالث الماسونى، والمحفل الأعظم فى إنجلترا كان يتبعه المحفل الأكبر الوطنى المصرى الذى كان يشرف على عدة محافل ماسونية فى المحافظات، وهذه المحافل فى تركيا وفرنسا وإنجلترا لا تتصل ببعضها البعض، وقد لا يعرف بعضها بعضًا، حتى إن أعضاء المحافل الإقليمية فى البلد الواحد -كما فى مصر مثلاً أو فى تركيا مثلاً- لا يعرف بعضهم بعضًا، وفى هذا المستوى من التنظيم الذى هو الماسونية الرمزية يبدأ العضو مبتدئًا، ثم يتحول بعدها إلى ما يسمى بشغال، ثم يرتقى إلى درجة أستاذ، ثم أستاذ محترم، ثم يبدأ توشيحه بالصليب الوردى، ثم بعدها يصعد إلى درجة الأستاذ المحترم الأعظم، وتتكون المراتب الماسونية فى هذا المستوى الرمزى الذى هو المستوى الأول من ٣٣ درجة، تتدرج صعوداً صعوداً صعوداً حتى مرتبة الأستاذ الأعظم التى هى رقم ٣٣، ومن يحصل على هذه الدرجة أو على هذه المرتبة يصبح عضواً فى العقد الملوكى.

هذا هو المستوى الأول من مستويات التنظيم الماسونى، الذى هو الطبقة الرمزية أو الماسونية الرمزية التى تنتهى بدرجة ٣٣.

الطبقة الثانية:

تسمى: الماسونية الملوكية أو العقد الملكى، وتعرف هذه الطبقة بالماسونية الملوكية أو العقد الملوكى، ويطلق على محافلها محافل العقد الملوكى؛ لأن

أعضاءها يكونون من جملتهم العقد الملكى الذى يرمز إلى أبطال للسبى اليهودى فى بابل، أرجو أن تتنبهوا إلى هذا: العقد الملوكى أعضاءه مكونون من أفراد يكون من جملتهم ما يسمى بالعقد الملوكى، الذى يرمز إلى إبطال السبى اليهودى فى بابل، ونحن نعرف السبى اليهودى فى بابل كان فى سنة ٥٩٧ قبل الميلاد، حين أغار «بختنصر» ملك القلدانيين فاستولى على أورشليم القدس ودمرها، وأحرقها، وهدم الهيكل، وأخذ ملكهم وأخذ خمسين ألف أسير إلى بابل، وسميت هذه الفترة فى التاريخ اليهودى بتاريخ السبى البابلى، يبقى المستوى الثانى من مستويات التنظيم، وسميت بالعقد الملوكى؛ وهؤلاء الأبطال فى نظرهم هم: نحميا، وعذرًا، ويوشع، وهناك أسماء كثيرة غيرهم هؤلاء يرمز بهم إلى الأبطال الذين شكلوا سبايا اليهود فى بابل؛ وعلى هذا نجد أن هذه الطبقة تأخذ شيئًا من التقديس؛ لأنها ترمز إلى هؤلاء الأبطال، وتقدس كل ما جاء فى التوراة؛ لأن معظم أعضائها من اليهود ولا يدخل هذه الطبقة إلى يهودى أو متنصر من المسيحية إلى اليهودية -يعنى: إما أن يكون يهودى الأصل، أو كان نصرانياً ثم ترك النصرانية واعتنق اليهودية- ولذلك هم يصطفون من الدرجة ٣٣ من المستوى الأول، ويرأس المحفل الملوكى الرفيق الأعظم، الذى يتوشح بالعقد الملوكى المقدم لأورشليم، وهذا العقد عبارة عن قلادة عليها عشائر الأسباط الإسرائيليين الذين أسروا فى بابل، وعليها أيضًا صورة بخيمة الاجتماع المقدس لدى اليهود.

ومن التعاليم السائدة لدى الماسونية الملوكية أن الهيكل فى المحفل الملوكى هو هيكل سليمان، والنور هو النور الذى كان يتجلى الله فيه لموسى -عليه السلام- وللبناية الحرة، أما البناية التى يرمز بها فى هذا المستوى فهى بناية الهيكل، والأنوار السبعة الموجودة فى هذه البناية هى السنوات السبع التى أتم فيها سليمان هيكله الذى يراد أن يعاد بناؤه. هنا نلاحظ أن هذه الطبقة -التى هى الطبقة الملوكية- تأخذ شيئًا من التقديس يتصل بالأعضاء الذين يشكلونها، وتأخذ شيئًا من التقديس لبعض نصوص التوراة، ويتخذون من بعض الرموز الماسونية شعارًا لشخصياتهم -

كما قلنا الآن: - شعار النور، وشعار البناية الحرة، والأنوار السبعة، هذه الأسماء لم نجدها فى الطبقة الأولى التى هى الماسونية الرمزية.

الطبقة الثالثة:

وهى الماسونية الكونية، وتعرف هذه الماسونية بالكونية؛ لأنها تتكون من رؤساء محافل العقد الملوكى، وهى محفل واحد جميع أعضائه من اليهود الصهاينة الخلص، وهؤلاء الأعضاء يتوشحون فى المحفل الكونى بالوشاح الصهيونى، والمحفل الكونى لا يعرف مقره ولا رئيسه الملقب بالحاخام الأعظم غير المشهورين فقط، لاحظوا حضراتكم فى هذا التسلسل التصاعدى من المحفل الأول حيث يكون أعضاؤه من الطبقة الرمزية إلى الطبقة الملوكية إلى الطبقة الكونية، يعنى فى تدرج من أدنى إلى أعلى. نجد أن أعضاء الطبقة الثانية هم صفوة الطبقة الأولى، وأعضاء الطبقة الثالثة هم صفوة الطبقة الثانية، والماسونية الكونية تضم حكماء بنى إسرائيل الذين يسمون بورثة السر الأعظم، وهم الذين يتصرفون بالمحافل الماسونية فى العالم كله عن طريق الشروق، تصرفًا يعود على اليهود وحدهم بالمصلحة وعلى غيرهم بما يسوء ويضر أحيانًا، وبما يصلحهم أحيانًا، غير أن الذى يراعى فى كل تصرف هو مصلحة اليهود ومصلحة الصهاينة، ويطلقون على الابتدائيين من جميع الأمم لفظ «عميان» ولفظ «صغار» وعلى الملوكيين الذين هم فى الطبقة السابقة الوسطى -التى هى الطبقة الثانية- «عميان كبار»، أما الطبقة الثالثة فهم الصفوة المختارة من جميع هذه الطبقات الثلاثة، ويعتبرون العميان الابتدائيين أحيانا بالماسونية الرمزية العامة، أحيانًا يطلقون عليهم رمز «عبيد الدرجات» ومع ذلك فهم معرضون لتجربة الترقى -يعنى يعرضونهم على امتحانات- فمن ثبتت سلامة قلبه وإخلاصه للماسونية يرقى إلى الدرجة التالية، ومن لا يثبت إخلاصه يستبعد وما إلى ذلك، هذه هى الطبقات الثالثة للماسونية وتنظيمها العالمى.

درجات الماسونية، ورموزها، وأهمية الدرجة:

وبعد ذلك يأتى نظام آخر يسمى نظام الدرجات، درجات الماسونية، أو درجات القوة الخفية فى عصر تأسيسها، وهى تسير بنفس الخط التدرجى الذى صار عليه نظام الطبقات:

الدرجة الأولى: يسمونها درجة جس النبض، ويعقبه تمهيد وتوجيه وتحرى وكتمان، التى هى مرحلة الاختبارات للشخص الذى تقدم للدرجة الأولى، يمر بالدرجة الأولى التى هى درجة الاختبارات.

الدرجة الثانية: يليها درجة أخرى تسمى شرح الأخطار أو الأسرار الخطرة، التى سيتعرض لها الهيكل إذا سادت المسيحية، فيأخذون الأعضاء الذين ينضمون إلى الدرجة الأولى، ويلقنوهم ويعلمونهم أن المسيحية إذا سادت العالم فإن الهيكل السليمانى فى خطر وسيزول؛ ولذلك لا بد من القضاء على المسيحية هذه هى الدرجة الثانية:

الدرجة الثالثة: أن يأخذوا عليهم العهود والمواثيق على ضرورة سحق المسيحية ولو باغتيال معتنقها، دون تفريق بين ذكر وأنثى، ورجل وامرأة، وطفل وعجوز. وأخذت درجة القوة الخفية على كل من يتقدم لهذا التنظيم؛ بحيث إذا مر بهذه المراحل الثلاثة يسمح له بالالتحاق من الطبقة الأولى.

وقبل أن أترك الحديث عن هذا الشكل التنظيمى للمحافل الماسونية، أود أن أضع تحت أيديكم أن الدرجة ٣٣ لها أهمية خاصة فى هذا التنظيم؛ ذلك أن المتنسب أو المنضم بعد أن يحصل على لقب الدرجة ٣٣ يأخذ لقب الأستاذ الأعظم، وبعد أن يمنح هذه الدرجة يطلب منه أشياء كثيرة جداً، منها أنه يقسم على التوراة، ويفوز ببراءة مخطوطة يأخذها من الأستاذ السابق عليه، ثم يطلب منه فى شكل عهد وميثاق أنه يقوم بالأمور التالية:

الأمر الأول: أن يؤمن بالتوراة ويكفر بما عداها، وما عدى التوراة طبعًا هو الإنجيل والقرآن، وليس هذا هو فقط، بل يؤمن بأن التوراة هى الكتاب الإلهى الوحيد الصالح لقيادة البشرية حيث أصحاب الأديان الوضعية.

الأمر الثانى: الإيمان بأن الإنجيل والقرآن مأخوذان من التوراة.

الأمر الثالث: الإيمان بأن المسيح -عليه السلام- وأن محمداً -عليه الصلاة والسلام- هما العدوان اللدودان لعقيدة الماسون، وأنهما وحدهما سوف يقضيان على الهيكل.

الأمر الرابع: يؤمن الطالب بموسى وهارون، ويعلن -والعياذ بالله- أن المسيح ومحمد عدوان لموسى، الإيمان بالرب هو رب إسرائيل فقط، وأن الرب لم يؤيد إلا موسى وإلا بنى إسرائيل؛ وبهذا يكون الحاصل على لقب ٣٣ قد نجح فى الامتحان إذا أعطى العهد والمواثيق على هذه الأشياء الخمسة، ثم يضاف إليها العمل على نشر هذه المبادئ الخمسة بين كل من يعرف.

بعد أن ينجح فى الامتحان ويفهم منه أنه يحفظ على السر وعلى قدر كتمانه، يحصل على هذه الدرجة التى هى ٣٣ ويبدأ من هذا يخاطب بلقب الأستاذ الأعظم، ويطلب منه أن يكون كفئًا لهذه الدرجة، فى سلوكه، وفى حرصه، وفى جهاده لخدمة الماسونية، ولا بد أن يسمعوا من الطالب أو من هذا العضو كلمة الموافقة بعبارة: نعم؛ سأكون كما تريد الماسونية.

ويكفى فى هذه الدرجة أن نعلم على سبيل اليقين أن التنظيم الماسونى بهذا الشكل هو عدو للمسيحية والإسلام أولاً، ولجميع الأديان مرة ثانية، إنها تستخدم أبناء المسيحية وأبناء الإسلام فى خدمتها ولا شك، وتعمل على تجريدهما من ديانتيهما؛ ليسير كل منهما خالصًا فى خدماته وجهاده لمصالح الماسونية، التى هى بالتالى صالح أو مصالح الصهيونية العالمية، وفى النهاية تصب كلها فى بوتقة المصلحة اليهودية العالمية.

بذلك نكون قد عرفنا فكرة موجزة عن تأسيس تنظيم الماسونى، عن طبقات التنظيم الماسونى، عن درجات التنظيم الماسونى، عن أهمية الدرجة ٣٣ التى يمنح الطالب بعدها لقب الأستاذ الأعظم، وهو يساوى ما يمكن أن يطلق عليه الداعية للمذهب، أو الداعية للفكر الماسونى، الذى هو آخر نظام الطبقة الأولى من الماسونية الرمزية.

موقف الماسونية من الأديان:

تحدثنا فى السابق عن موقف المؤرخين من تأسيس الماسونية العالمية، وتنظيماتها، وطبقاتها، وكان مما قلناه: إن الاجتماع الأول الذى تأسس فى سنة ٤٣ ميلادية، كما يجمع على ذلك كثير من المؤرخين ينبئ ويوضح فى أسباب نشأة هذا التنظيم

أنه نشأ مناهضًا للديانة المسيحية الجديدة، عدواً لها، محاولاً القضاء عليها؛ لأنه أخذ فى اعتباره أن هذا الدين الجديد اليسوعى إنما جاء ليقضى على أمجاد اليهود، ويقضى على الهيكل؛ ولذلك يتردد فى جميع الاجتماعات وفى القسم الذى يتردد على ألسنة الأعضاء الذين ينضمون إلى المحافل الماسونية القسم بالهيكل ومناصرة الهيكل، والعمل على إعادة الهيكل، والعداء الصريح لليسوعية، وبالتالى العداء الصريح للإسلام وللقرآن، وهذا يتطلب منا أن نأخذ بعض المواقف للماسونية العالمية؛ لنبين موقفها من العالم ككل، من الأديان، من الحضارة، من الإنسان.

(١)

ولنبدأ بموقفها من الأديان عمومًا: قلنا: إنها بدأت بالعداء للدين المسيحى، لكنها على فترات من التاريخ استطاعت أن تستقطب بعض أتباع الديانة المسيحية ليكونوا أعضاء فيها ومناصرين لمهمتها، فى الانتصار للقضايا اليهودية والصهيونية على حساب ما سواها من الأديان الأخرى. وفى العصر الحديث وجدنا أن المحافل الماسونية، وإن شئت فقل: المحافل الصهيونية؛ لأننا لا نجد فارقًا كبيرًا بين أهداف الصهيونية فى هذا الموقف وأهداف الماسونية، أعنى: الموقف من الأديان، نجد أن المحافل، خاصة محفل المشرق الأعظم الذى تأسس فى فرنسا، أخذ على عاتقه أن يلهم ويوجه المحافل الأخرى وجهة خاصة بموقف معين من الأديان عمومًا، ومن الإسلام بصفة خاصة؛ ولذلك وجدنا أن محفل المشرق الأعظم خرج على دستور ربما كان قد اتفقت عليه المحافل الماسونية فيما مضى، وهو ألا يبدءوا مواجهتهم للأعضاء الجدد بالحديث عن مناهضة الأديان أو محاربة الأديان، وأيضًا السياسة، يعنون أنه لا شأن لنا لا بالأديان ولا بالسياسة إلى أن يستوثقوا من العضو، يمكن أن يتحمل الأسرار الخفية المتعلقة برفض الأديان ومحاربة الأديان والسياسة أو لا، فإذا ما أمنوا جانبه بدأوا يبدون إليه بموقفهم الحقيقى من الأديان؛ ولذلك وجدنا أن هذا المحفل الذى هو محفل المشرق الأعظم بدأوا يصرخون على لسان بعضهم: بأن البنائين الأحرار أو الماسون هم أعداء للكنيسة، وأعداء للكثلكة، وأن كنيسة الماسون هى كنيسة الإلحاد، والرفض لكل دين، بل صرحت مجلة المشرق الأعظم فى سنة ١٨٨٥ بما يأتى -تلاحظون حضراتك أننى فى حديث عن الماسونية وعن

الصهيونية ألجأ إلى تلاوة المواثيق، لكى أؤكد ما قلته حتى لا يكون كلامنا مرسلاً؛ لأن هذا على جانب كبير من الأهمية - جاء فى مجلة المشرق الأعظم ما يلى: نحن البناءون الأحرار، يجب أن نقصد هدم الكثلكة هدمًا تامًا، ولا يقتصر المشرق الأعظم على مناصبة الكثلكة للعداء، بل هاجم كل المذاهب والنحل الدينية، وكل ضروب الإيمان الروحى، وقد قرر هذا المشرق الأعظم فى سنة ٤٩ اعتناق فكرة المهندس الأعظم للكون، وخلود الروح، حيث صرح بأن قاعدة البناء الحر هى الاعتقاد فى الله، وفى خلود الروح، وتضامن الإنسانية، هذا التحول فى الموقف كان بمثابة الخديعة؛ حتى يلتقطوا أعضاء معينين كان يشيرون إليها بالبنان؛ ولذلك لم يمض زمن طويل حتى حل محل هذا النص نصوص أخرى، وتخلصوا من هذه العبارة كلمة: الله وخلود الروح، وصرحوا بأن قاعدة البناء الحر هى حرية الاعتقاد التامة، وتضامن الإنسانية، وصرحوا بما يسمى بالدين الطبيعى الذى ينبغى أن يحل فيه الإنسان محل الله، ووجدنا أن صحيفة المشرق الأعظم تخطت خطوة خطيرة جداً؛ حيث جاء فيها: أن المهندس الأعظم الذى هو الله -حسب تعبيرهم- ليس إلا خيالاً وحديث خرافة خلقها الإنسان بعقله؛ ليقنع نفسه بما لا يقتنع به، وصرح المحافل الماسونية بإلقاء المطاعن الحادة فى الدين، أى دين، ولابد من نقضه وهدمه، والسخرية من مبادئه وشعائره ونظرياته.

وعلى سبيل المثال وجدنا أن أحد الماسون فى سنة ١٩٠٢ ألقى فى أحد المحافل خطابًا حماسيًا، شدد فيه النكير على النصرانية عمومًا، وعلى الكثلكة بصفة خاصة.

وجاء فى هذا الخطاب ما يلى: لقد استمر الظفر الخليلى عشرين قرنًا غير أنه أخذ يحتضر بدوره، واليوم يعلن ذلك الصوت الخفى الذى أعلن ذات يوم موت بان من البنائين الأحرار، نعلن موت ذلك الإله الدعى الذى وعد المؤمنين بعهد عدالة وسلام، ولقد استمرت الخرافة -كلمة الخرافة هنا المقصود بها الإيمان أو الاعتقاد بالغيبيات -عهدًا طويلاً، ولكن الإله الكاذب يختفى بدوره، ويذهب ليغيض فى عبار القرون الخوالى إلى جانب آلهة الهند ومصر واليونان وروما.

هذا نص ينبئ عن موقف الماسونية المعاصرة من الأديان عمومًا، ومن المذهب الكاثوليكى خصوصًا، وبالقطع أن موقفهم من الإسلام هو أشد وأنكى من ذلك،

لكننى فقط أردت أن أضع أمام حضراتكم أن الماسونية ليس موقفها هو الرفض للإسلام فقط، وإنما هو الرفض للأديان عمومًا، غير أنه للأسف الشديد نجد أن كثيرًا من إخواننا المسيحيين لم يتنبهوا إلى هذا، وظنوا أن الموقف هو موقف يهودية وإسلام أو ماسونية وإسلام، ونسوا أن ينقبوا فى النصوص التى تضطلع بها الدوريات التى تصدر عن المحافل الماسونية، وهى كلها تفوح بالكراهية والرفض المطلق للأديان عمومًا، وفى مقدمتها الدين المسيحى؛ لأن أصل النشأة للماسونية هو محاربة الديانة المسيحية.

هذا فيما يخص موقف الماسونية من الأديان.

وسو أقرأ على حضراتكم بعض النصوص أيضًا التى تؤكد أن كلامنا عن أن الماسونية هى فى صميمها حرب معلنة ضد الأديان ما يلى:

جاء فى كتاب (أسرار الماسونية) هذه النصوص: سوف نقوى حرية الضمير فى الأفراد بكل ما أوتينا من قوة، وسوف نعلنها حرب شعواء على العدو الحقيقى للبشرية الذى هو الدين، وهكذا سوف ننتصر على جميع العقائد الباطلة: المسيحية، والإسلام، وعلى أنصارهما، ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء الأديان، وعلينا ألا نألوا جهدًا فى القضاء على مظاهرها، إن زخر البشرية الذى لا يقدر بثمن هو عدم الاعتراف بأى حقيقة مقدسة، وأن الحقائق تنبثق من نظرة الإنسان إلى ذاته؛ فعليه لابد من المحافظة على هذه الحقيقة، وأن جمال الإلحاد هو فى هذا، فى إنكار الأديان، وأن هذه لهو أساسه إلحاد، من الواجب علينا تنشئة أخلاق تضاهى الأخلاق الدينية فى قوتها، وأن نلقنها للناشئة، إننا لا نكتفى بالانتصار على المتدينين، ولا على معابدهم، وإنما غايتنا الأساسية هى إبادتهم من الوجود، إن النضال ضد الأديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة، وسوف تحل الماسونية محل الأديان، وإن محافل الماسونية سوف تقوم مقام الكنيسة، ومقام المسجد، ومقام المعبد.

هذه نصوص -أيها الإخوة- تبين لنا أن الماسونية والدين عمومًا نقيضان لا يجتمعان أبدًا، وأن الجمع بينهما هو جمع بين النقيضين، والجمع بين النقيضين محال.

المبادئ المشتركة بين التنظيم الماسونى والصهيونية العالمية:

أنتقل بعد هذا إلى علاقة الماسونية بالحركة الصهيونية العالمية؛ لأننى وجدت علاقة قوية فى الأفكار والمبادئ والخطوات بين الحركة الماسونية وبين الحركة الصهيونية العالمية، وربما كانت وحدة الأهداف أساسًا فى هذا التنظيم وذاك، وموقفهم من الأديان عمومًا نجدها واحدة هنا وهناك، وهذا ما يدعونا إلى وضع يدنا على العلاقة التاريخية والضرورية بين التنظيم الماسونى والتنظيم الصهيونى العالمى.

(١)

أما عن علاقة الماسونية بالحركة الصهيونية. فليس بغريب علينا أن نكتشف هذه العلاقة بعد أن عرفنا أن فكرة تأسيس هذا التنظيم -إذا سميناه تنظيمًا- هى فكرة يهودية، وأن الذين أسسوا أو الجمعية الأولى لهذا التنظيم كان أعضاؤها جميعهم من اليهود، وأن أهداف هذه الجمعية عندما تأسست كانت لخدمة اليهود، ولإعادة بناء الهيكل، وللقضاء على المسيحية، وأعتقد أن هذه الأهداف هى فى صميمها نفس أهداف الحركة الصهيونية؛ ولذلك نجد أن علاقة الصهيونية بالماسونية إذا اختلفت الأسماء فإن الأهداف والوسائل والغايات لم تختلف.

وعلى سبيل المثال نجد أن هناك دعوة تسمى «الدعوة الروحية» وهذه الدعوة أخذت اسمًا جديدًا؛ لتتسلسل من خلاله إلى بعض المنظمات وبعض المؤسسات، وهى تحمل معها نفس الفكر اليهودى الصهيونى ونفس الفكر الماسونى، وهذه الجمعية اتضح أخيرًا أنها وليدة شرعية لجمعية «شهود يهوا» اليهودية، وأخذت تنشر أعضاءها فى المحافل الماسونية وتتبنى نفس الأفكار الماسونية وتلقحها بأفكار صهيونية، وظهرت بعض النشرات التى توضح وتجلى هذه العلاقة التاريخية التى يتبرأ منها بعض اليهود أحيانًا، ويتبرأ منها بعض الماسون أحيانًا أخرى، نجد أن بعض الماسونيين ينفون عنهم تهمة الولاء للصهيونية، وهذا كذب وافتراء. ونجد أن بعض اليهود ينفون عنهم تهمة الولاء للماسونية. وهذا أيضًا كذب وافتراء؛ ولذلك ربما كان أكبر رد وأكبر توثيق للعلاقة بين الصهيونية العالمية والماسونية العالمية، هى العثور على الوثائق التى تفضح أسرارهم ، والنشرات المتبادلة بينهم، من هذه

النشرات -على سبيل المثال- نشرة عثرنا عليها بعنوان: أساس للاعتقاد بعالم جديد، طبعت بالإنجليزية سنة ٥٣، وبالعربية سنة ٥٥ فى نيويورك، ومعروف أن نيويورك هى أكبر مركز لليهود وللحركة الماسونية والصهيونية أيضًا.

وأول ما يطالعنا فى هذه النشرة كلمات طبعت على الوجه الداخلى للغلاف جاء فيه: هل قلبك مريض؟

هل هو مثقل بالويلات الغامرة لهذا العالم القديم؟ هل يستريح؟

هل تخف آلامه إذا علمت أن نهاية القلق والخوف والشغب والحرب والمرض أمست قريبة عن الأبواب؟

هل عقلك حر؟ هل هو مستعد للاقتناع بالحق والصواب أم أنه مغلق عليه بالتعصب الوطنى أو الجنسى أو الدينى؟

ثم جاء فيها: وفى الواقع قام أحد دارسى التوراة، وحسب أن هناك ثلاثمائة واثنتين وثلاثين نبوة خاصة فى العهد القديم، قد تمت حرفيًا فى المسيح، وكما حدث تلك التتمات المدهشة للنبوة عن مجيء المسيح الأول منذ تسعة قرون، نرى نظيرها يحدث الآن فى وقت حضور المسيح الثانى، قام الناس فى محاولة عقيمة لتوطيد السلام على الأرض، وألفوا دوليتين هيئتين هما: عصبة الأمم، وهيئة الأمم المتحدة، ولكنهما فشلتا فى عمل ما يستطيع ملكوت المسيح أن تعمله، تأمل كيف تتم النبوة عن الأيام الأخيرة وحضور المسيح الثانى إتمامًا كاملاً بأحوال العالم اليوم؟ نعم، فى هذه الأيام الأخيرة من العالم القديم سبق يسوع فأنبأ، وسيقوم شهود يهوا ويبشرون وهم على أبواب عالم جديد بإنجيل الملكوت المؤسس، ويخبرون كيف أن هرمجدون -وهى معركة يهودا- ستنظف الأرض من الشر والإثم، وتفتح الطريق للسلام والسعادة والحياة، تحت شعار: (حرية، إخاء، مساواة).

(٢)

هذه الكلمات الثلاثة -أبنائى وأخواتى- هى شعارات الماسونية العالمية التى بشرت بها الجمعية الأولى التى بدأت التأسيس للنشاط الماسونى العالمى، أظن أن هذه الوثيقة كافية جداً لعلاقة الماسونية العالمية بالصهيونية العالمية.

ومن الدلائل على صلة جماعة شهود يهوا بالماسونية والصهيونية، أننا نجد أن أعضاء المحافل الماسونية الكبار على مستوى العالم يهود، بل صهاينة، وبالمقابل أعضاء الحركات الصهيونية ابتداء من المؤسس الحقيقى للصهيونية المعاصرة الذى هو «تيودور هرتزل» عضو أعظم أو أستاذ أعظم فى محفل المشرق الأعظم، يعنى من الدرجة الممتازة من درجات الماسون، هذا كله دليل على أن العلاقة المتبادلة بين الحركة الماسونية والحركة الصهيونية العالمية واحدة؛ للدلالة أيضًا على أن الهدف والغاية واحدة عند المدرستين، إذا أضفنا إلى ذلك أن الحركة الصهيونية الحديثة التى بشر بها ودعا إليها، وقاد أسلوب عملها «تيودور هرتزل» أرسى الكثير من قواعدها المأخوذة من التنظيمات الماسونية قديمًا وحديثًا، باعتبار أنها ظاهرة عدوانية فى التاريخ الحديث، كما كانت الماسونية القديمة ظاهرة عدوانية على المسيحية، وليس كما يدعى الفكر الصهيونى من أنها حركة تحرير للوجود اليهودى، لم يكن ليتاح لها إمكانية النفاد إلى مقدرات العالم فيما مضى. ومما يجدر ذكره أيضًا أن الجهود الخفية لليهودية العالمية كانت تبذل على الدوام فى دأب وجهد متواصل، لتحقيق هدف إمكانية العمل اليهودى المنظم؛ من أجل التجمع اليهودى العالمى، وتشكيل عناصر قوة فى شكل عمل موحد ومنظم للغاية، تحت شعارات: إخاء، حرية، مساواة.

كما نجد أن الحركات اليهودية المعاصرة مثل حركة المكابيين هى محاولة للتجمع اليهودى العالمى، كان من أهم أهدافها العودة المنظمة إلى أرض صهيون؛ لإعادة بناء الهيكل، وحركة «باركخية» كانت تحث اليهود على التجمع فى فلسطين، والعودة لإعادة بناء الهيكل، وحركة «موزس الكريتى» كانت هى الأخرى حركة سياسية ذات هدف فى تجميع اليهود فى أرض فلسطين، لماذا؟ لإعادة بناء الهيكل، وحركة «دافيد روبان» كانت من السذاجة فى الإعداد بحيث لم يهتم به أحد، ولم تشغل بال العالم يعنى يومًا ما، إلا أنها قامت بجهد كبير لنشر المبادئ الثلاثة الماسونية؛ ليجتمع حولها يهود شرق أوربا لإعادة بناء الهيكل، وحركة منشأة بنى إسرائيل، كانت هذه الحركة ذات أهداف خاصة تختلف عن غيرها، لكنها تتحد معها فى أن هدفها الأساسى هو إعادة بناء الهيكل، ثم علينا أن نراجع -أيها الإخوة- الشعار الذ رفعته الماسونية والذى رفعته إسرائيل أو الحركة الصهيونية

العالمية، نجد أن رمز الحركة الماسونية الغالمية هو: القدوم، والبرجل، والمثلث، الذى هو شعار البناء المحترم إشارة إلى -إعادة بناء الهيكل- نجد نفس الشعارات أخذت بها الحركة الصهيونية، وربما لو دققتم النظر فى النجمة السداسية الموجودة على العلم الإسرائيلى، ربما وجدتم أنها تشير إلى شىء من هذا القبيل.

ومن جملة المقارنات التى نجدها ونحن نبحث عن أوجه الشبه فى العمل التنظيمى لكل من الماسون والصهيونية العالمية، يتضح لنا أن جوهر العقيدة الماسونية والصهيونية منطلقها واحد؛ لأنها تستمد تعاليمها من بروتوكولات حكماء صهيون، التى يأخذون منها أوامرهم ونواهيهم، بل هى تمثل ورقة العمل التى يتطلعون به على العالم بأفكارهم وتنظيماتهم، وهذا يدعونا إلى أن نأخذ بعض العناوين والأفكار الأساسية التى يؤمن بها الفكر الصهيونى العالمى، وتؤمن بها الماسونية العالمية، بل تجعلها بمثابة ورقة عمل لتنظيماتها عمومًا، فمما يتفق عليه الماسون العالمى والصهيونى العالمى ما يلى:

المبدأ الأول: أن ما لنا من مال وثروة فى أنحاء العالم سوف نهدم به كل القوانين العالمية، وأننا سوف نحكم الدول كما تحكم الحكومات رعاياها. هذا واحد من المبادئ التى سوف أتلوها على حضراتكم التى تمثل محل اتفاق بين الماسونية العالمية والصهيونية العالمية.

المبدأ الثانى: علينا أن نختار من بين أفراد الشعوب رجالاً للإدارة يتصفون بما يلى: أن يكونوا على درجة واهية وضعيفة جداً من الخبرة فى شئون الحكم وشئون الإدارة؛ ليكون من السهل علينا أن نجعلهم كقطع الشطرنج.

المبدأ الثالث: إن مصلحتنا تقضى بانحلال الشعوب أخلاقيًا، وتهدف قوتنا إلى إبقاء العامل فى حال تافهة وعجز دائمين، لأننا بذلك نخضعه لمشيئتنا وإرادتنا، وما نريد أن نسر به إليه من معلومات.

المبدأ الرابع: إن الشعب باعتناقه الإيمان سوف يخضع لرجال الدين ويعيش فى سلام؛ ومن ثم يتحتم علينا أن نقوض أركان كل دين ونزعزع من عقل الخوارج الاعتقاد بالله، ونستعيض عنه بالأرقام الحسابية فى البنوك وبالمطالب المادية.

هذا محل اتفاق بين الفكر الصهيونى والفكر الماسونى العالمى. ثم علينا أن نرد على أى دولة تجرأ على اعتراض طريقنا بدفع الدولة المجاورة لها إلى إعلان الحرب عليها، ولكن إذا قررت الدولة المجاورة أن تتخذ ضدنا موقفًا فيجب علينا الرد بإشعال حرب عالمية.

المبدأ الخامس: لكى نظهر أن جميع حكومات غير اليهود فى أوربا خاضعة لنا، سوف نظهر سلطاتنا لكل حكومة منها عن طريق الجرائم، وعن طريق العنف، وعن طريق الانقلابات، وعن طريق الحركات الإرهابية التى لا تقع بأيدينا نحن.

أقرأ عليكم هذا المبدأ مرة ثانية لكى نظهر أن جميع الحكومات غير اليهودية فى أوربا خاضعة لنا، سوف نظهر سلطتنا لكل حكومة منها عن طريق الجرائم والعنف، أو الحركات الانقلابية، وعن طريق الفعل الإرهابى الذى لا يقع بأيدينا نحن.

المبدأ السادس: سوف تحل محل شعارنا الماسونى الذى يتسم بالتحرر: الحرية المساواة الإخاء، كلمات تعبر ببساطة عن فكرتنا وعن تصورنا، فتقول: وحق الحرية، وواجب المساواة، وفكرة الإخاء، وبذلك نقضى على الثورة، أى ثورة تناهض قضيتنا، وتقف ضد مصالحنا، فكأن المصطلحات الثلاثة: حرية، إخاء، مساواة، هى الشعار الذى يقذفون به فى وجه أى حركة أو أى صوت يقف ضدهم. إن مطامعنا غير محدودة وجشعنا وتعصبنا لأهوائنا ومقاصدنا، وحقدنا عنيف؛ ولذلك نتوقف إلى انتقام لا رحمة فيه ممن يقف ضد مصالحنا.

ومن بين ما جاء فى هذه الوثائق أو المبادئ التى يتفق عليها الماسون والصهيونية العالمية: أن الصحافة والأدب أهم دعامتين من دعائم التربية؛ ولهذا السبب سوف نشترى أكبر عدد ممكن من الصحف الدولية؛ حتى نقضى بهذا الشكل على الأثر السيئ للصحافة المستقلة، ونسيطر سيطرة كاملة على الروح البشرى والعقل البشرى، وفيه أيضًا عندما نصبح أسياد الأرض لن نسمح بقيام دين غير ديننا، ومن أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد، وإذا كانت النتيجة التى وصلنا إليها مؤقتًا قد أسفرت عن خلق جيل من الملحدين هنا وهناك، فإن هدفنا لن يتأثر بذلك، بل

يكون ذلك مثلاً للأجيال القادمة التى ستشيع هذه التعاليم بين معتنقيها، وستشبع، وتطلب المزيد من تعاليم موسى؛ لترفض هاتين الديانتين التاليتين لموسى -عليه السلام- وهى ديانة عيسى ومحمد النابتتين بين اليهودية فى بعض أقطار الأرض.

(٤)

هذه نماذج مما اتفقت عليه الصهيونية العالمية والماسونية العالمية.

أكثر من هذا سوف نجد أن من أهداف الماسونية العالمية أن يحكم العالم حكومة واحدة، وقد أشرنا فى حديثنا عن الصهيونية العالمية أن من أهداف الصهيونية أن يحكم العالم حكومة واحدة؛ ولذلك سوف نجد أن هذين التنظيمين -ويمكن كلمة تنظيم ليست دقيقة فى إطلاقها على الماسونية، ولكن أجد أن هذه الكلمة أقرب الألفاظ المعبرة عن هذا النشاط الماسونى -نجد أن المتتبع لأحوال العالم تاريخيًا، يشاهد أن الكثير من الحكومات الشرعية قد أسقطتها الحركات الصهيونية والحركات الماسونية بفعل تخطيط محكم، يبدأ التخطيط له فى المحافل الماسونية أو المحافل الصهيونية، ويبدأ تنفيذه إما بأيد صهيونية أو بأيد ماسونية، وليس أدل على ذلك أن معظم الانقلابات التى وقعت فى أوربا خلال القرن العشرين تمت بأيد صهيونية أو ماسونية، وربما كانت الثورة الفرنسية، وما أحاطها من أثر للماسونية العالمية وتدبير الماسونية العالمية فى هذه الثورة أكبر دليل على ذلك، فإن أصابع الماسونية العالمية، وخطر الماسونية العالمية، وأيضًا الصهيونية، كانت وراء الثورة الفرنسية فى القرن السابع عشر، ولهذا لا يخفى على أحد، وقد أظهرت السجلات التاريخية والوثائق التاريخية، التى ظهرت إما بلسان نابليون بونابرت أحيانًا أو وبلسان أحد أصفيائه وإخوانه أحيانًا أخرى، كلها تنبئ عن أن الماسونية العالمية كان لها دورها الفعال فى إشعال نار الثورة الفرنسية؛ ولذلك إذا تتبعنا أحوال العالم نشاهد أن كثيرًا من الحكومات الشرعية قد سقطت فعلاً بأثر وبتدبير إما الماسونية إذا كان الاسم مستترًا، أو الصهيونية إذا كان الاسم ظاهرا، كما حدث فى الثورة الفرنسية كما قلنا، وأيضًا نجد أن نابليون بونابرت قد سقط بعد أن استغله الماسون أبشع استغلال، وهو إن كان هاجم الماسونية فى أول عهده إلاَّ أنه ساعدهم فى كثير من الأمور، فانقلبوا عليه،وهم الذين أسقطوه ونصبوا له الشباك، مع أنه هو الذى

أدخل الماسونية فى مصر، أيضًا أدخل العلمانية فى مصر، ولكنه مع ذلك عملوا على إسقاطه والتخلص منه، سقوط الحكومة الشرعية فى إنجلترا كان بتدبير ماسونى صهيونى سقوط الدولة القيصرية فى روسيا، كان بتدبير صهيونى ماسونى.

وفضلاً عن ذلك هم الذين صنعوا «دارون» صاحب نظرية البقاء للأقوى، وهم الذين صنعوا «ماركس» صاحب الفكر الشيوعى، وهم الذين صنعوا «نتشه» الذى أعلن أن الله قد مات، وهم الذين خدعوا أتباعهم من الماسون على مستوى العالم برفع الشعار: الحرية، والمساواة، . والإخاء، وبعد الكشف عن وثائقهم قد تأكد تمامًا أن هذه الصيحة التى أعلنوها فى وجه العميان الذين كانوا يسمونهم ليست إلا من باب المخادعة للانضمام إليهم، فكانت بمثابة المصيدة التى تصيدوا بها عقول السذج من الناس.

(١)

مصادر المعتقدات الماسونية:

هذه التنظيمات لابد أن يكون وراءها فكر عقائدى، وكتاب مقدس، ونصوص يؤمن بها هؤلا حتى يصدرون عنها؛ لأن هذه الأفكار التى نتحدث عنها الآن أشبه بالعقيدة التى يموت الإنسان من أجلها، فمن أين استمد الماسون هذه الأفكار؟ ما هى المصادر الأساسية التى أملت عليهم هذه التنظيمات؟ والغاية والهدف من وراء هذه التنظيمات؟ والخطوات المتبعة، . والأيمان التى يتحالفون بها فيما بينهم من أين أخذوها؟

تكلم العلماء كثيرًا فى البحث عن المصادر الأساسية لهذا الفكر الماسونى، والذى اتفق عليه العلماء فيما بينهم حول هذه القضية أن أهم مصدرين أساسيين لهذا الفكر الماسونى يتمثل فى: التوراة أولاً، والتلمود ثانيًا، والتوراة باعتبارها الكتاب المقدس لليهودية، والتلمود باعتباره الشارح الوحيد للتوراة بقسميها فى العصور المتأخرة.

ويضيف البعض أن هناك مصادر أخرى استقت منها الماسونية بعض أفكارها.

فيرى البعض أن هرمس الهرامسة كان أحد المصادر التى استقى منها الماسون أفكارهم أو بعض أفكارهم، وهرمس هذا هو إدريس النبى -عليه السلام- وهو

المذكور فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧] زعم بعض العلماء أن معظم العلوم التى استقاها هؤلاء الماسون أخذوها من بعض تنظيمات فى مصر القديمة، وخاصةً من هرمس هذا، والبعض يشير إلى هرمس الثانى، وهو أول من بنى مدينة بابل التى سبى فيها اليهود فيما بعد فى عصر السبى البابلى.

والبعض يشير إلى هرمس الثالث، وهو مصرى، ويسمى المثلث بالحكمة؛ لأنه جاء ثالث الهرامسة الثلاثة: الذى هو هرمس الهرامسة، وهرمس البابلى، وهرمس المصرى القديم، والبعض يشير إلى «أبذقليس» الذى هو حكيم من حكماء اليونان، هؤلاء جميعًا وضعهم المؤرخون فى مقدمة المصادر التاريخية التى استقى منها الماسون عقائدهم.

لكن التلمود والتوراة محل اتفاق بين جميع المؤرخين؛ لأن الدارس لمصادر العقيدة الإسرائيلية اليهودية، والمتتبع للفكر الماسونى والفكر الصهيونى عبر مراحل التاريخ يلحظ بوضوح فكرًا واعتقادا دينيًا، وسلوكًا تطبيقيًا فى الحياة العامة عند اليهود، وعند الصهاينة، وعند الماسون، وهذا الفكر وهذا السلوك يرتبط بمصدر دينى مكتوب ومقدس عندهم، يسمى بالعهد القديم. وأيضًا من المصادر المضافة إلى ذلك مصدر التلمود.

وينبغى أن نأخذ فكرة عن هذين المصدرين؛ لأهميتهما فى تاريخ الحركة الماسونية والحركة الصهيونية العالمية؛ لأن التلمود أصبح عند الصهاينة وعند الماسون أهم من التوراة، وأكثر قداسة من التوراة، وتعاظمت التعاليم المبثوثة فى التلمود، وطغت على تعاليم التوراة؛ بحيث وجدنا أن كل عبارات التلمود تتكرر كثيرًا على ألسنة الحاخامات ورؤساء المحافل الماسونية، ولما تعاظم شأن التلمود فى نفوس الجماعات الإسرائيلية واليهودية على طول امتداد التاريخ؛ بحيث شملت كل تاريخ اليهود، وعقيدة اليهود، ومستقبل الجماعات الصهيونية، قرر كبار الحاخامات اليهود من رجال العقيدة اليهودية أن يسجلوا وصاياهم وتعاليمهم فى سجلات يحتفظون بها، وبدأت عملية التسجيل والتدوين لهذه الوصايا وهذه الخطب التى

كان يرددها الحاخامات فى مواقع متعددة، وتركزت عملية التسجيل والتدوين فى مكان مهم جداً، فى بابل أولاً، وفى فلسطين ثانيًا، وخاصة فى أورشليم.

ووجدنا أن التعاليم التى سجلت فى أورشليم أطلق عليها اليهود اسم المشناة، وهى تمثل قسماً مهماً جداً من التوراة، وقام بها علماء من أحبار اليهود كانوا يسمون الثنائى، كان أولهم شمعون الصديق، وقد قام هؤلاء العلماء بعد رجال المجمع الأكبر ابتداء من سنة عشرة إلى ٢٢٠ ميلادية بدأوا بتأسيس نصوص يضفون عليها شيئًا من القداسة؛ ولذلك سميت بالتعاليم الشفوية، وأطلقوا عليها اسم المشناة التى هى المصطلح الفنى لجزء كبير من التوراة، وهى خلاصة عن تعاليم شفوية ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والدينية، أقرها العلماء اليهود الكبار، والتى بدأها الحبر شمعون الأول، نسقها ورتبها وعاونه فى عملية التنسيق مجموعة من الأحبار اليهود، وظلت عملية التدوين والإضافات التى بدأت من سنة ١٦٦ حتى جاء القرن السادس الميلادى، فاكتملت تعاليم المشناة، وأصبحت مقسمة إلى عدة أقسام وعدة بحوث، يختص كل بحث وكل قسم منها بفكرة معينة بالزراعة، والخروج وسفر كذا، وسفر كذا... إلى آخره.

أما القسم الثانى أو الشق الثانى من مجموعة القواعد والآداب والتعاليم والتفاسير: سموها الجمارة، وهذا القسم من بين معانيه إتمام الشىء أو التكميل، أو الاكمال، وهى تقوم فى مجموعها على جملة من الروايات والأحاديث الشفوية المسموعة من الحاخامات على مدى أجيال متعاقبة، وهى أيضًا عبارة عن توضيح وشرح وتفسير لأجزاء من المشناة، هذان القسمان المشناة والجمارة يمثلان دائرة المعارف اليهودية، أو دائرة المعارف المقدسة، أو الكتاب المقدس، أو العهد القديم، ومن مجموعة ما تحتويه المشناة وما تشتمل عليه الجمارة يتكون المصدر الدينى المقدس الرئيسى عند الماسون، وعند الصهاينة، وعند اليهود عموما، وهو المسمى بالتلمود، الذى أصبح بين أيدينا الآن بعد مراحل طويلة مر بها، منذ ابتدأ تدوين الجزء الأول فى أورشليم وفى بابل، ثم الجزء الثانى الذى هو الجمارة، ثم التعليقات التى أضيفت إليهم ليأخذ اسمه الحديث التلمود، وطبع التلمود عدة طبعات، وانتشر فى بعض المؤسسات العلمية، وبدأ اليهود يحتفظون عليه فى كثير

من الأوقات؛ لأنه يشتمل على تعاليم ومبادئ مخزية، حتى إن بعض الأحبار سمح لنفسه أن يمد يديه إلى تعاليم التلمود ويحذف منها ما يراه مخلا بالآداب العامة، وبالذوق العام، وبالأخلاق، وبالأديان الوضعية والسماوية، مما يتصل بالأنبياء وبذات الله -سبحانه وتعالى- وبالأخلاق العامة.

(٢)

وينبغى أن نعلم أن التلمود يمثل عند اليهود، وعند الماسون عمومًا الكتاب المقدس، لا أقول الوحيد وإنما أقول الأهم؛ لأنه يفوق فى أهميته وقداسته، والتعلق به المصدر الدينى الأم الذى هو التوراة، ذلك يبين لنا أهمية التلمود بالنسبة للتوراة مع أن التوراة هى الكتب المقدس الذى نزل على موسى -عليه السلام- يعتبر فى المرتبة التالية بعد التلمود الذى يخفونه ويخفون تعاليمه عن كثير من الناس، مع أن التوراة -أيها الإخوة- هى التى نزلت على موسى -عليه السلام- والذى يقرأ بعض نصوص التلمود يدرك مدى التحريف الذى نال العقيدة اليهودية على يد أحبارها وصدق الله العظيم حين يقول عن اليهود بأنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقول: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [البقرة: ٧٩] وهذا هو ديدن اليهود وطابعهم العام.

وسوف أقرأ على حضراتكم بعض النصوص العقايدية التى وردت فى التلمود، وهى عبارة عن أمور مخجلة، امتدت يد بعض الحاخامات إلى بعض الطبعات للتلمود فحذفتها منه، لكنها موجودة فى بعض الطبعات؛ لأن التلمود قد طبع أكثر من مرة فطبع فى سنة ١٥٩٠ طبعة، وطبع ١٦٤٤، و١٧٩٩، وعلى سبيل العلم فإنه يوجد طبعة من هذا الكتاب فى مكتبة جامعة عين شمس بجمهورية مصر العربية، مما جاء فى هذا الكتاب توثيقًا لأهمية أقوال الحاخامات مما يدل على أنها أكثر قداسة من التوراة نفسها، من أقوال الأنبياء، جاء فى التلمود ما يلى، وهذا النص موجود فى الطبعة سنة ١٥٩٠ الذى أشار إليه أكثر من باحث، فأشار إليه الدكتور/ هلال فارحى فى كتابه (أساس الدين) وأشار إليه أسعد زروق فى كتابه (التلمود والصهيونية) صادر عن مركز الأبحاث التابع

لمنظمة الأمم المتحدة، وأشار إليه مطبوعات كثيرة صادرة عن المنظمة الفلسطينية جاء فيه ما يلى:

«اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء».

ومن قبله نجد فى طبعة حوالى ١٥٠٠ قال أحد الحاخامات: «إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمارة فليس له إله» جاء ذلك فى كتاب أسعد زروق وفى كتاب (الماسونية ذلك العالم المجهول) فى صفحة ١٧٠.

ولقد بلغ الغباء الدينى والتعصب العنصرى عند هؤلاء الماسون وهم يسجلون تفاسير دينهم ومعتقداتهم، أنهم اختاروا نماذج لنوع من الأساطير الخرافية، وحاولوا أن يدسوها عل هذا الكتاب، فمن الأخبار التى احتواها التلمود عن قداسة وعظمة الحاخامات اليهود ما يلى:

«إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها، ولا تغييرها ولو بأمر الله، وقد وقع الاختلاف يومًا بين الله وبين علماء اليهود فى مسألة ما، وبعد أن طال الجدل تقررت إحالة المشكلة إلى أحد الحاخامات الربيين، واضطر الله أن يعترف بخطئه بعد حكم الحاخام المذكور لصالح زميله» أرأيتم هذا العبث؟!

وأكثر من هذا يقول المناحم الربى، وهو من كبار الحاخامات: إن الله -تعالى عما يقولون علواً كبيراً- يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها فى السماء، وإنه يجب الالتفات إلى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى، وبقدر ما فى تعاليم التلمود من حث على التعصب ودعوى العنصرية اليهودية، والقول بأفضلية الشعب اليهودى، فإن فكرة الخرافة والأسطورة تشع بين جنبات هذا الكتاب؛ فنرى فيه عن مذلة اليهود وضياعهم، وتفتتهم وتشعبهم بين الأجناس والشعوب، أن الله يندم على تركه اليهود فى حالة التعاسة التى يعيشون فيها، حتى إنه يلطم ويبكى كل يوم، فتسقط من عينيه دمعتان فى البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى نهايته، وتضطرب الأرض فى أغلب الأوقات فتحصل الزلازل والبراكين. هكذا يؤمن الماسون والصهاينة واليهود بنصوص موجودة فى التلمود.

ثم ماذا؟ وأما عن نظرتهم لتعاليم الله -سبحانه وتعالى- ونظرة التلمود للحق سبحانه، ولصفاته وبما يجب له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من صفات النقص، ففى التلمود أن الله يخطئ ويصيب، لا بل إنه كثير الخطأ، وكثيرًا ما يطلب إلى القائمين على أمر التلمود أن يغفروا له أخطاءه، وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم فقط، وبينه وبين الذين جعلهم أكثر عصمة من خلقه كالأنبياء، بل إن أخطاء الله فى التلمود قد وقعت منه فى الكون الكبير حين خلقه، فهو مثلاً كما تقول آيات التلمود: قد أخطأ لكونه جعل القمر أصغر من الشمس، وعن هذه الخطيئة تسجل آيات التلمود أن حوارًا حدث بين الله والقمر، وأن القمر قال لله: أخطأت حيث خلقتنى أصغر من الشمس فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا إلي ذبيحة أكفر بها عن ذنبى؛ لأنى خلقت القمر أصغر من الشمس... إلى آخر هذه الخرافات التى امتلأت بها نصوص التلمود!

الماسونية حرب معلنة على الإسلام قديمًا وحديثًا:

لكن هناك قضية أحب أيضًا أن أتلوها عليكم؛ لأنها تفسر لنا ما يحدث بين المذاهب الفلسفية المعاصرة الآن، وتفسر لنا ما يفعله الصهاينة فى أرض فلسطين.

فمن بين دعوى العنصرية التى تفيض بها آيات التلمود: أن الإسرائيلى أفضل عند الله من الملائكة، فإذا ضرب أممى أو اعتدى على إسرائيلى فكأنه ضرب العزة الإلهية ذلك لأن اليهودى حسبما يملى عليه دينه التلمودى هو جزء من الله، وبما أن الابن جزء من أبيه؛ فإنه إذا ضرب أممى إسرائيليًا؛ فالأممى يستحق الموت؛ لأن اليهود لو لم يخلقوا لانعدمت البركة من الأرض؛ ولما خلقت الأمطار والشمس بل تقول عقيدة التلمود: لما أمكن لباقى المخلوقات أن تعيش، ومن أجل هذا الامتياز الاختيارى والاصطفاء الإلهى لليهود وللصهاينة، يؤمنون بأن الفرق بين درجة الإنسان العادى غير اليهودى وبين الحيوان كالفرق تمامًا بين اليهودى وباقى الشعوب غير اليهودية، ولعلكم تلاحظون حضراتكم أن هذه الدعاوى العنصرية يطفح بها الفكر الصهيونى، والفكر الماسونى، والفكر اليهودى عمومًا، أردت أن أقرأ على حضراتكم هذه النصوص؛ لأنها تمثل عقيدة أساسية فى الفكر الماسونى والفكر

الصهيونى، وهى فى نفس الوقت تمثل ورقة عمل للسلوك الصهيونى على الأرض وفى الواقع الآن، وفى علاقة الصهاينة بغيرهم من أمم الأرض.

هذه النصوص وغيرها كثير يؤكد لنا أن مداخل الماسونية ومداخل اليهود، ومداخل الصهيونية إلى استقطاب الآخرين وإلى محاربة الآخرين هى مداخل عقائدية بالدرجة الأولى؛ ولذلك تجدهم يركزون على أتباع المسيح -عليه السلام- بالتشكيك فى عقيدة المسيح، وأحيانًا بالتشكيك فى صحة نسبه، ويدخلون على المسلمين كذلك بالتشكيك فى عقيدتهم، وفى صحة قرآنهم.

نقطة مهمة ألفت النظر إليها: فإن أثر هذا التنظيم الماسونى، ألاحظه فى منهج بعض الفرق التى ظهرت فى التاريخ الإسلامى حيث نجد نوعًا ولونًا من التقارب بين الفكر الماسونى، والفكر الذى ظهر على أيدى كثير من الفرق التى غالت فى التأويل، كالباطنية مثلاً أجد عندهم بعض الأفكار الماسونية، الإسماعيلية، الكيسانية، الديصانية، بعض غلاة التصوف الذين قالوا بوحدة الوجود، أرى عندهم بعضًا من الأفكار الماسونية، فهل تسللت هذه الأفكار الماسونية عبر منافذ تاريخية تحتاج إلى بحث إلى بعض الفرق الإسلامية؟ هذا فرض يحتاج إلى تثبت، وأتركه للباحثين؛ ليبحثوا فيه، فى الفرقة الإسماعيلية، عند إخوان الصفاء، عند الباطنية، عند القرامطة، عند غلاة الصوفية، نجد هذا اللون من الأفكار.

العلاقة بين الماسونية، وبعض الفرق الإسلامية:

انتهينا بإشارة موجزة إلى لون من ألوان العلاقة بين الفكر الماسونى والتنظيم الماسونى، وبعض ما وجدناه لدى بعض الفرق الإسلامية، وبعض رجالات المتصوفة من فكر وآراء قد تتقارب فيما بينها إلى حد التشابه أحيانًا بينها وبين ما وجدناه عند الماسونية، ولا يخفى على حضراتكم أن الفكر الإسماعيلى يستخدم كثيرًا من الرموز التى لها أصول فى الفكر الماسونى، وأيضًا عند الباطنية ابتداءً من ميمون القداح -وهو يهودى الأصل- نجد رموزًا وتأويلات للقرآن فى شكل رموز موجودة عند الماسون، وكذلك عند البابية، بل إن التنظيم الماسونى نجد له شبهًا قويًا عند البغدادى فى كتابه «الفَرْق بين الفِرَق» وهو يشير إلى درجات الباطنية،

والتنظيم الباطنى، ومراتب الفكر الباطنى، نجد شبهًا قويًا بين هذا التنظيم الباطنى، وما أشار إليه البغدادى، وبين درجات الماسونى فى داخل المحفل، حتى إن كتمان الأسرار، وإخفاء معالم المذهب عند الماسونية نجدها هى هى عند الباطنية، فهل هناك علاقة تاريخية؟

أكثر من هذا نجد فى نصوص الماسونية حديثا عما يسمى بالدين الطبيعى -كما سوف نشير فيما بعد- ونجد عند الماسون ما يشير إلى ما يمكن أن يسمى بوحدة الوجود الذى وجدناه عند بعض غلاة الصوفية، وأحيانًا نجد عند الماسون ما يفهم منه معنى الحلول، وإن كانت المنطلقات مختلفة، لكن وجود هذا التشابه يلقى ظلالاً كثيفة على سلوك وتاريخ بعض الفرق المغالية فى الإسلام، ويطرح السؤال التالى:

هل هناك علاقة بين الماسونية وهذه الفرق؟

هل تسللت الماسونية إلى هذه الفرق؟ أنا لا أستبعد ذلك، وأترك التثبت والتيقن للباحثين؛ لأن القضية تحتاج إلى وضع اليد على كل جزئية فى التنظيم والفكر الماسونى، وما يقابها فى التنظيم والفكر الباطنى وغلاة الصوفية والإسماعيلية، ومن له دراية بالثقافة الإسلامية وفروعها وبثقافة هذه الفرق لا يغيب عنه هذا التشابه الكبير، وأنا أسميه تشابهًا كبيرًا، بل تماثلاً فى بعض الأحيان؛ ولذلك أستطيع أن أقول بأمانة: إن الماسونية لبست ثوبًا جديدًا يتشح أحيانًا ببعض السمات الإسلامية؛ حيث تسللت إلى هذه الفرق وظهرت معالم هذا التنظيم على لسان كثير من أتباعه، فعلى سبيل المثال: فرقة الخابطية، والحدثية، والمعمرية، والمردارية، والثومامية، والأفطحية، والناوسية، والبابية، حتى البهائية المعاصرة، هذه كلها فرق تدعى نسبًا إلى الإسلام، وفى صميم أفكارها نجد أصابع الفكر الماسونى تتحرك فى مسارها التاريخى.

كذلك عند بعض غلاة الصوفية كما نجد عند الحلاج فى قوله بالحلول والاتحاد، نجد نفس الفكرة موجودة عند الماسون، فلا أستبعد أن يكون هذا لونا من التأثير الذى سرى من المحافل الماسونية إلى بعض مفكرى الإسلام، أو بعض الفرق الإسلامية، على أية حال هى قضية أطرحها؛ لأننا نجد الشبه قويًا، ولا أستطيع أن

أمر على هذه القضية دون أن أتعرض لها، كما أنكرت الماسونية فى بلاد الغرب وتنكرت للمسيحية، وأيضًا تنكرت للأديان الوضعية نجد أن كثيرين من أتباع هذه الفرق التى تأثرت بالفكر الماسونى -كما أزعم- تنكرت لتعاليم الإسلام، وقد كتبنا سابقًا أن فرقة الباطنية والقرامطة تحللوا تمامًا من التكاليف الشرعية، وليس أدل على ذلك من أبيات شاعرهم الذى يقول:

خذى الدف يا هذه والعبى ... وغنى هذا ربك ثم اطربى

تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب

فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام ولم يتعب

إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوّموا فكلى واشربى

هذا حدث فى القديم، على يد أتباع الماسونية أو المتأثرين بالماسونية القديمة من الباطنية والقرامطة والإسماعيلية، وفى الماسونية المعاصرة نجد أمثال هذا، فقد صرح بعض الماسونيين الذين يحملون أسماء إسلامية بما يشير إلى التحلل تمامًا من التكاليف، فعلى سبيل المثال جاء فى مجلة «المشرق» صفحة: ٦٧ وصفحة: ٢٧٨ لإبراهيم اليازجى ما نصه -وهو شاعر- يقول:

الخير كل الخير فى ... هدم الجوامع والكنائس

والشر كل الشر ما ... بين العمائم والقلانس

ما هم رجال الله فيكم ... بل هم القوم الأبالس

يمشون بين ظهوركم ... تحت القلانس والطيالس

هذا لون من الدعوة إلى التحلل والتمرد على الأديان، يناظرها ويساويها تماما دعوة القرامطة القدماء، وهذا ماسونى، وأولئك أيضًا نجد عندهم هذه الآثار الماسونية.

ويتفرع عن هذا الموقف من الأديان: أن الماسونية بدأت تدعو منذ منتصف القرن السابع عشر إلى ما يسمى بالدين الطبيعى الذى يتمثل فى شرحهم للمبادئ الثلاثة التى اتخذوها شعارًا لهم، وهى: حرية، ومساواة، وإخاء، فقد شرحوا هذه

المصطلحات الثلاثة شرحًا يؤدى إلى تمويع، أو تمويه، أو حذف المسافات بين الله الإنسان، وبين الإنسان وأشياء الطبيعة، حتى إن بعضهم يصرح قائلاً: ليست الماسونية سوى نكران جوهر الدين الذى نزل من السماء، وإن قال الماسون بوجود الإله فإنه يريد به الطبيعة وقواها المادية التى تتحد به فى جسده، أو يريد به أن يجعل الإنسان والله شيئًا واحدًا.

تأمل معنى الفقرة الأولى، أو الجملة الأولى اتحاد بالطبيعة، والفقرة التالية اتحاد بالله، فكأن الإنسان هو الطبيعة، والطبيعة هو الإنسان، فإذا أراد الإنسان أن يعبد فعليه أن يعبد الطبيعة، وفى الفقرة الثانية: أن يجعل الإنسان إلهًا والإله إنسان، فى الأول بداية لتوجيه عبادة الطبيعة، وفى الثانى توجيه لفكرة الاتحاد.

فى العصر الحاضر:

أنتقل بعد ذلك إلى العصر الحاضر؛ لأقترب من واقعنا الذى نعيش فيه؛ لكى أقترب أيضًا من العالم العربى، والنشاط الماسونى فى العالم العربى، ولكن قبل الحديث عن الماسونية فى العالم العربى أود أن أضع أمام حضراتكم تصورًا مجملاً عن الماسونية المعاصرة؛ لأن الماسونية فى عصرنا الحاضر ربما أخذت أشكالاً مختلفة غيرت أساليبها، وربما بعض أسمائها عن الماسونية القديمة التى تحدثنا عنها بمصطلحات فنية نوعًا ما، فإذا كانت الماسونية فى العصر الماضى تأخذ شكلاً أقرب إلى الخفاء والكتمان وعدم الظهور فإننا نجد الآن المحافل الماسونية بدأت تظهر فى العلن، ولا تميل إلى الكتمان، والإعلان عن أن هنا محفلا ماسونيا، وهناك محفلا ماسونيا، فلم تعد الأمور محاطة بالكتمان الذى تواصى به الماسون القدماء، لو وضعنا أمامنا خريطة العالم لنعرف النشاط الماسونى على مستوى الخريطة الجغرافية سوف نجد أن أكبر عدد من الماسون فى عصرنا الحاضر يتواجدون فى أمريكا الشمالية، فى كندا، والولايات المتحدة الأمريكية، والمكسيك؛ لأن من يقرأ تاريخ هذه المنطقة يعلم أن معظم رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية من الماسون، ويهتمون بالماسونية، ويهتمون بالعمل على نشرها وتشجيعها ماديًا.

إذا انتقلنا إلى بريطانيا سوف نجد أن النسب الماسونى فى بريطانيا يعد شرفًا عظيمًا يسعى معظمهم إلى التشرف به؛ ولذلك وجدنا مثلا زوج الملكة إليزابث ماسونيا، ومعظم الطبقة السياسية من الماسون، ومعظم الطبقة التى تشكل المؤسسة الحاكمة طول القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر فى بريطانيا من الماسون.

أما فى روسيا بعد الثورة البلشفية نجد أنها وقفت موقفًا عدائيًا للماسونية، وألغت معظم المحافل الماسونية فى روسيا، وإن كانوا يتسللون إلى مراكز ومناصب المسئولية والحكم تحت مسميات مختلفة.

إذا انتقلنا إلى فرنسا نجد أن النشاط الماسونى فى فرنسا على قدم وساق من أيام نابليون بونابرت إلى الآن، حتى إن الماسونية الفرنسية قد توسعت وانتشرت فتوجهت مع مستعمراتها شرقًا وغربًا، فكل مستعمرة فرنسية أسست فيها محافل ماسونية؛ لذلك نرى طبقة كبيرة من رجال السياسة الفرنسيين ينتمون إلى التنظيمات الماسونية كما وجدنا فى أمريكا تمامًا، ولا يخفى على الجميع أن القوة الماسونية الآن فى العالم قوة فاعلة، فاعلة على أكثر من صعيد، فاعلة فى التنظيمات الصهيونية، وفاعلة فى التنظيمات الماسونية، وفاعلة فى النوادى الروتارى والليونز، وفاعلة فى أجهزة الإعلام بمسميات مختلفة، هذا بالنسبة للخريطة الماسونية فى دول أوربا وأمريكا.

الماسونية فى مصر:

إذا انتقلنا إلى الشرق نجد أن الشرق -كما لا يخفى على الجميع- هو مهد الحضارات الإنسانية لا شك فى هذا ابتداء من القدماء المصريين حتى الحضارة الهندية، والفارسية، والصينية القديمة، والبابلية، كلها حضارات شرقية، فليس بغريب أن نقول: إن الشرق هو منبع الحضارات، وبالإضافة إلى ذلك هو مركز الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية، المسيحية، الإسلامية، وإذا كان هو مركز الأديان السماوية الثلاثة، ووجدنا أن الماسونية فى حقيقتها هى حرب على الأديان فينبغى أن نتوقع قصة صراع مريرة بين أتباع الأديان السماوية، وبين الفكر الماسونى والصهيونى فى المنطقة، ولعل هذا يفسر لنا أن هذه المنطقة من العالم لم تهدأ أبدًا

منذ فجر التاريخ، وإنما هى فى شبه صراع مستمر بين طرف خفى لا تعرف مصدره، وبين أهل الأديان عمومًا، نلتقى فى الشرق ببلاد بابل، وبلاد ما وراء النهر، ونلتقى بوادى النيل، ونلتقى بحضارة الفرس، والحضارة الآشورية، حتى إذا تقدمنا فى الزمن بعض الشىء نجد أن الحضارة العربية الإسلامية بدأت تظلل المنطقة منذ خمسة عشرة قرنًا من الزمان، ولو تتبعنا العلاقة بين الماسونية وأهل الأديان فى الشرق سوف نجدها ترتبط بتاريخ الإسلام منذ فجر تاريخه، منذ عبدالله ابن سبأ إلى الآن، ولا نريد أن ندخل فى هذه القضية؛ لأننا قد تحدثنا عنها فيما مضى؛ ولذلك سوف أنتقل مباشرة إلى النشاط الماسونى المباشر فى الشرق، النشاط الذى ظهر تحت اسم الماسونية.

هذا المصطلح -أيها الإخوة- لم يظهر فى الشرق إلا فى مصر أول ما ظهر، وكان ذلك على يد نابليون بونابرت حين جاء بحملته الفرنسية إلى مصر، وقد أشرنا فيما مضى أن نابليون كان قد رعى الماسونية، وأفاد منها، وحمته، ونصرته فى مختلف الفرق فى داخل الجيش وفى نظام الحكم، ولما وصل نابليون إلى مصر، واحتلها كان فى معيته بعض رجال الجيش، وبعض رجال العلم والمعرفة الذين هم فى حقيقتهم يمثلون درجات عليا من درجات المحافل الماسونية فى باريس، وكان على رأسهم الجنرال كليبر لما استقرت الأمور فى مصر، وهدأت الثورات بعض الشىء، وقبل أن يرحل نابليون من مصر اتفق مع كليبر هذا ومع عدد من ضباط الجيش الفرنسى المنتمين إلى الماسونية على أن يؤسسوا محفلا يجتمعون فيه يسمى: «محفل ممفيس» سنة: ١٧٩٨م وفعلاً تأسس هذا المحفل فى أغسطس من نفس العام ١٧٩٨: وأطلقوا عليه هذا الاسم: «محفل إيزيس» ويعمل وفق طريقة دعيت: «طريقة ممفيس» قاصدين بذلك هدفًا سياسيًا، وهو: جمع أعيان البلاد ووجهاء القوم، وأغنياء المنطقة تحت سلم الماسونية على اعتبار أن هذا التنظيم يمثل جوهر الحضارة المصرية القديمة، فلأن اسم ممفيس ليس غريبًا عن المصريين، ولكى يظهر نابليون بونابرت أنه هو ورجاله يقفون فى خندق واحد مع أغنياء البلد ومع وجهاء القوم تحت اسم ممفيس، استمر العمل فى هذا المحفل فترة طويلة، طول فترة الاحتلال الفرنسى لمصر، استمرت تقريبًا حوالى ثلاث سنوات،

ولما غادر نابليون مصر -طبعًا تحت ضغط الثورات الشعبية- وبعد أن قتل كليبر هذا توقف العمل فى هذا المحفل، وانحلت عراه تمامًا.

والجدير بالذكر: أن أحد أعضاء هذا المحفل من المصريين -ويدعى: صموائيل حنس- قد أعجبته مبادئ الماسونية ومال إلى نشرها؛ فسافر إلى فرنسا سنة: ١٨١٤م وأسس فيها محفلاً على الطريقة المفسية فى إبريل سنة: ١٨١٥م بمساعدة بعض أصدقائه فى فرنسا، وفى سنة: ١٨٣٠م جاء إلى مصر بعض الإيطاليين الماسون، لكن الماسون الإيطاليين جاءوا على الطريقة الأسكتلندية، فأسسوا فى الإسكندرية محفلاً قانونيًا يجتمعون فيه دون إعلان عنه؛ خوفًا من الاضطهاد، واستمروا فى هذا العمل الماسونى حتى كثر عددهم. .

أيضًا لما ترك الفرنسيون مصر -على أثر الثورات الشعبية التى قامت ضدهم- نجد أن نفس الفكر الذى زرعه نابليون فى محفل ممفيس كان قد تأثر به بعض الإخوة الروم المقيمين فى الإسكندرية؛ ولذلك فى سنة: ١٨٤٥م وجدناهم يؤسسون فى الإسكندرية تحت رعاية الشرق الأكبر الفرنسى محفلا آخر اسمه: «محفل الأهرام» وانضم إلى هذا المحفل عدد كبير من المصريين الذين أعجبوا بهذا الفكر الماسونى، وكان معظمهم من الروم أو من الأقباط، وفى سنة: ١٨٦٤م تأسس فى الإسكندرية محفل آخر بواسطة الإيطاليين، ثم فى سنة: ١٨٥٦م تأسس محفل جديد.

وبدأت المحافل تتأسس فى مصر واحدًا تلو الآخر، فانتشروا فى الإسكندرية، وفى بورسعيد، وفى السويس، وفى وسط هذا الازدهار الماسونى الملموس عمدت الهيئة العليا الفرنسية إلى إنشاء محافل تابعة لطريقتها، فتم لها ذلك فى الإسكندرية، وتولى الخديوى توفيق رئاسة أحد هذه المحافل، وساعد فى إنشاء محافل أخرى كثيرة فى مناطق أخرى فى مصر، وتبع ذلك المجلس العالمى المفيسى الذى تأسس سنة: ١٨٥٦م ثم المجلس العالى الأسكتلندى الذى تأسس فى: ١٨٦٤م ثم توحدت هذه المحافل كلها فى محفل واحد يسمى: «المحفل الأعظم الوطنى المصرى» وساعد على توحيد هذه المحافل تحت هذا الاسم الكبير الخديوى إسماعيل باشا؛ لأنه نشطت الماسونية فى عهده، وساعدها هو بأساليب

كثيرة، وخلال اجتماعه مع الأستاذ الأعظم للشرق الأكبر المصرى قبل حماية العشيرة الماسونية، شرط ألا تتعاطى أمرًا مخالفًا لصالح الأمة وللدولة والوطن، وألا تتدخل فى السياسة، قبل هو أن يحمى هذه العشيرة أو هذا المحفل، وأن يكون رئيسًا له، هذا المحفل الذى قبل رئاسته هو الذى سمى -فيما بعد- بـ«المحفل الأعظم الوطنى فى مصر» ثم فى سنة ١٨٨٨م: أسس الخديوى توفيق محفلاً جديدًا آخر، وأناب عنه فى إدارته حسين فخرى باشا، وتعددت بعد ذلك المحافل فى كثير من البلاد العربية، كانت تأخذ صك تأسيسها إما من المحفل الأعظم الوطنى فى مصر، أو من محفل الشرق الأكبر فى فرنسا.

(١)

الماسونية فى البلاد العربية:

وإذا انتقلنا من مصر إلى العالم العربى سوف نجد أن معظم البلاد العربية قد تأسس فيها محافل ماسونية بعد أن وطئ الاستعمار الفرنسى والبريطانى أرض هذه المنطقة، بحيث إذا استقرأنا التاريخ لم نجد قبل الحملة الفرنسية أى إشارة لهذا المصطلح فى أى بلد من البلاد العربية -هذا فيما أعلم، والله أعلم- لكن بعد أن جاءت الحملة الفرنسية، وبعد أن احتلت فرنسا: سوريا، ولبنان، والمغرب، وتونس، والجزائر، وبعد أن احتلت بريطانيا: مصر، والسودان، والعراق، والأردن- وجدنا بعد هذا التاريخ أن المحافل الماسونية انتشرت فى هذه البلاد بسرعة البرق، كما يقولون: كانتشار النار فى الهشيم، وإذا تتبعنا نشأة المحافل الماسونية فى البلاد العربية سوف نتتبعها تاريخيًا؛ لنرى أن التسلسل التاريخى يبين لنا أن هذه المحافل ارتبطت بوجود الاستعمار الإنجليزى والفرنسى فى مصر.

ولعل أول محفل ماسونى يؤسس فى بيروت فى سنة: ١٨٦٢م ثم تأسس محفل فلسطين، وهو أول محفل ماسونى فى منطقة الشام عمومًا؛ لأن هذه المنطقة كلها كانت تسمى بلاد الشام -يعنى: فى سوريا ولبنان- وكان تابعًا للمحفل الأسكتلندى، أسسه وترأسه قنصل بريطانيا فى بلاد الشام، وهو مستر أولدرج.

فى سنة: ١٨٦٣م ترأس إسماعيل باشا عرش مصر، وانتعشت معه الماسونية، وعمل على انتشارها فى معظم البلاد العربية.

فى سنة: ١٨٦٨م توقف محفل فلسطين الذى أشرنا إليه فيما مضى، ثم تأسس محفل آخر يسمى: «محفل بيروت» تابعًا للشرق الأعظم الفرنسى.

أيضًا نجد فى فلسطين نفسها فى سنة: ١٨٧٣م أسس محفل «سليمان المملوكى» ثم توالى بعده على مدى ثلاثين عامًا التالية مد النشاط الماسونى حتى غطت الشبكة جميع مدن فلسطين تقريبًا كما يحكى مؤلف كتاب: الماسونية فى المنطقة ٢٤٥ ويشير إلى أن أهم هذه المحافل هو المحفل الذى تأسس فى القدس، والذى رأسه وهبة تمارى، يسمى: «محفل هيكل سليمان» وتأسس نظيره فى يافا، ثم أسس فى غزة محفل «سيناء» ومحفل فلسطينى آخر كان يعقوب نزهة رئيسه، ثم نجحت محاولة توحيد هذه المحافل تحت اسم واحد وضم جميع الأعضاء، وفى النصف الأول من القرن العشرين تتابع فى العراق تأسيس محافل كثيرة فى معظم المدن العراقية، فتأسس فى البصرة محفل بابل برقم: ٣٢٦، وتأسس محفل آخر باسم: «محفل صدق الوفاء» وفى بغداد تأسس محفل: «دار السلام» وفى الفيجاء تأسس محفل اسمه: «محفل الفيجاء» ثم «محفل العراق» برقم: ٤٤٧١ وتعددت المحافل فى داخل الأرض العراقية، وكانت كلها تعمل تحت إشراف أحد الضباط البريطانيين الموجودين من الاستعمار البريطانى على أرض العراق.

(٢)

وبعد الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد بعد نكبة فلسطين سنة: ١٩٤٨م وبعد ضم الضفة الغربية من نهر الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشمية -نشطت المحافل الماسونية على الأرض الفلسطينية لصالح القضية الصهيونية، ونشطت المحافل الماسونية فى مصر بالتعاون مع الحركة الصهيونية العالمية، وكذلك نشطت المحافل الماسونية فى العراق وفى الأردن، كلها بدأت تتعاون فيما بينها -إن سرًا وإن علنًا- لصالح الحركة الصهيونية العالمية، وضد مستقبل القضية الفلسطينية، فلما قامت الثورة المصرية فى سنة: ١٩٥٢م تنبه رجال الثورة إلى هذا الخطر الداهم بالنسبة للقضية الفلسطينية ونشاط الماسونيين فى العالم العربى تجاه هذه القضية، فأصدرت الحكومة المصرية قرارًا بغلق المحافل الماسونية الموجودة على الأرض المصرية، وكان لهذا القرار صدى قويًا فى الرأى العام فى مصر، وفى البلاد العربية الأخرى؛ لأن الماسونية فى مصر كانت أقوى منها فى أى بلد عربى آخر، وكان نفوذها يمتد إلى

جميع المحافل الماسونية فى الشرق العربى، وربما كان أهم أثر لهذا القرار المصرى بإغلاق المحافل الماسونية هو ما حدث فى الأردن بالذات؛ حيث أصدر الماسونيون فى الأردن بيانًا نشروه فى الصحف، وكان أهم ما جاء فى هذا البيان اعتراف الماسونيين فى الأردن باستغلال الصهيونية العالمية للماسونية العالمية استغلالاً مجرمًا فى أبشع صورة عرفتها الإنسانية، وجاء فى البيان أيضًا: أن العرب لا يجوز لهم أن يخرجوا من الماسونية ويتركوها للصهيونية يفعلون بها ما يشاءون، وإن من واجبهم الدينى والقومى ألا يتركوا هذا الميزان خاليًا من صوت العرب؛ حتى لا ينفرد الصهاينة فى بث دعاياتهم المضللة ضد الأرض الفلسطينية وضد أبناء فلسطين؛ ولهذا قرر الماسونيون الأردنيون أن يؤسسوا منظمة خاصة بهم تحت اسم: «الحركة الماسونية العربية» هدفها: التعاون مع المحافل الماسونية المتعاطفة مع القضية الفلسطينية فى مختلف أنحاء العالم؛ من أجل إنصاف عرب فلسطين، ومن أجل إطلاع العالم كله على مأساة اللاجئين، وكان هذا البيان الذى أصدره الماسون الأردنيون كان موقعًا من قبل القطب الأعظم -وهو عبد المجيد مترضى وهو السكرتير الأعظم للمحفل الماسونى الأردنى- وكان كذلك موقعًا عليه من الدكتور سليمان البستانى.

وعلى إثر هذا البيان أصدر المفتى العام فى الأردن فتوى طويلة جوابًا عن استفتاء ورد إليه عن الحكم الشرعى فى الماسونية، جاء فى البيان ما يلى: إن الماسونية هى من بدع اليهود، وأن مبدأها هو تقديم الأخوة الماسونية على الأخوة الدينية أو الأخوة القومية، وأن هذا يتضمن الموالاة للإخوان اليهود، وأن الله تعالى نهى عن موالاة أعدائه؛ ولذلك فإن إجابة الفتوى هى عدم جواز الدخول أو الالتحاق بالمحافل الماسونية تحت أى اسم كان، وفى أى بلد كان، ولأى غرض كان.

(٣)

ومن المفيد أن أشير هنا إلى بعض المواقف الماسونية العربية تجاه القضية الفلسطينية، فمن هذه المواقف ما حدث فى سنة: ١٩٢٢م حيث وجهت الهيئة العامة للمحفل الأكبر الوطنى المصرى برئاسة الأستاذ الأعظم إدريس راغب باشا النداء التالى إلى المحافل الفلسطينية فى فلسطين وإلى عموم الأهالى جاء فيه:

باسم الحرية والإخاء والمساواة التى هى الشعار المقدس للماسونية، يتقدم المحفل الوطنى الأكبر فى مصر إلى أئمة الدين الحنيف، وحفظة الشرع الكريم، الذين يستمع إليهم عرب فلسطين، إلى رؤساء الأديان الأخرى، إلى أهل العقول الراجحة والبصائر النيرة الذين يصدعون بالحق، وفى الحق لا يخشون لومة لائم، إلى أرباب الأقلام والصحف الذين يقتدى بهم، إلى أكابر المسلمين وأعيانهم الذين يغارون على مجد أسلافهم الكرام، أولئك الأسلاف الذين سبقوا الناس كافة، فشرعوا للإنسانية حرية الفكر، وحرية القول، وحرية العمل، إلى أصحاب المناصب، وذوى الحل والعقد، والمسئولين أمام خالقهم وأمام ذمتهم عن حفظ السلام العالمى، والمسئولين عن إقامة القسطاس بين جميع المواطنين فى فلسطين، إلى التجار، إلى العمال، إلى أصحاب المزارع، إلى الشباب الناهض، إلى الذين يسوقون قومهم الساذجين إلى العبث بذمة العرب وأموالهم، وارتكاب الإثم والعدوان فيهم، ثم إلى الأمة الفلسطينية كلها، كبيرها وصغيرها، بلا تمييز بين الأجناس والأديان، نقول للجميع بلسان الماسونية المصرية، وبلسان الإنسانية: اذكروا أن الفرنساويين والإنجليز فى بلاد كندا يتألف من عنصريهما المختلفين جنس واحد، وسلالة واحدة، وأمة واحدة، يعيش أفرادها جنبًا إلى جنب بسلام وأمان فى كندا، اذكروا أن الألمان والفرنساويين والطليان تتألف منهم بلاد سويسرا أمة واحدة متجانسة، يا أهل فلسطين، تذكروا أن اليهود قد ركبوا متن الغربة فأفلحوا ونجحوا، ثم هم اليوم يطمحون للرجوع إليكم لفائدة وعظمة ووطن مشترك بما أحرزوه من مال وبما اكتسبوه من خبرة وعرفان، اسمعوا وعوا هذا الصوت الذى تناشدكم به مصر شقيقتكم الكبرى، إنها تدعوكم إلى السلام والوئام لمصلحتكم، ولمصلحة الشرق، هذا الصوت المنبعث عن أرض تفاخر وتباهى بصلاح الدين.

هذا البيان -أو هذا النداء- صدر عن المحفل الماسونى فى مصر فى إبريل سنة: ١٩٢٢م وتسرب سرًا إلى المحافل الماسونية فى أرض فلسطين، ولم يعلم به ساسة مصر، ولا مثقفو مصر، ولا أصحاب الرأى فى مصر إلا بعد أن نشرته الصحف السيارة فى هذه البلاد، وتنكر له أصحاب الأقلام الحرة فى مصر، وأصحاب الفكر، وعلماء الدين، وأصحاب القرار السياسى. هذا البيان يبين لحضراتكم

تعاطف المحافل الماسونية مع الفكر الصهيونى، ومع القضية الصهيونية ضد عرب فلسطين، وضد القضية الفلسطينية.

(٤)

لقد اختفت كلمة «الماسونية» فى بعض البلاد وحل محلها أسماء جديدة، أسماء نوادى لها نفس النشاط، ولها نفس الأهداف، وتعمل لتحقيق أهدافها وأغراضها سرًا كما كانت تعمل الماسونية تمامًا، فتحت شعار: العمل الاجتماعى، والخدمة الاجتماعية -نجد أن نوادى الروتارى ونوادى الليونز تعمل من تحت الأرض لتحقيق بعض الأهداف التى دعت إليها الماسونية العالمية، وكذلك جماعة البهائية المنتشرة فى كثير من البلاد العربية، كلها تعمل تحت شعار: الخدمة العامة، أو الخدمة الإنسانية، أو الخدمة الإقليمية، وتحاول أن تستقطب علية القوم من الرجال، وتحاول أن تستقطب سيدات الوطن الذى تعمل فيه، وزوجات الرجال المسئولين، وخاصة سيدات رجال كبار الشرطة، وكبار الجيش، وكبار الإعلام، ومعظم سيدات الوزراء والمسئولين، هؤلاء جميعًا يحاول المسئولون عن نوادى الروتارى ونوادى الليونز أن يشكلوا منهم أعضاء ومجالس إدارة هذه النوادى، ويستفيدون من مناصبهم، ومن مناصب أزواجهم، ومواقعهم القيادية فى هذه البلاد، ربما يلتقطون منهم بعض الأخبار السيارة، أو بعض الأسرار المهمة، ومجرد الحصول على عضوية هؤلاء فى هذه النوادى يعتبر مكسبًا كبيرًا لهذه النوادى ولتحقيق أهدافها فى هذه البلاد.

أعلم تمامًا المعاناة التى يعيشها الباحث عن حقائق التنظيم الماسونى، وعن مبادئه، وعن استكشاف الحقيقة الواضحة بين الرأى والرأى الآخر فى مبادئ الماسونية وقوانينها ودستورها، وخروجًا من هذا المأزق؛ لأن الكلمة الأخيرة لم تقل فى هذه الأمور إلى الآن، وهى كلها اجتهادات بين الرأى والرأى الآخر، ولعل الكتاب الذى عثرت عليه والذى قدمته لحضراتكم، وهو الكتاب الذى ترجمه عن اللغة الفرنسية عوض الخورى، والذى كان يسمى: (القوة الخفية) لعله -أقول: لعله- أصدق وثيقة بين أيدينا الآن عن تاريخ التنظيم الماسونى، وفيه اكتشفنا العلاقة القوية بين الماسونية والصهيونية، وأهداف هذين التنظيمين.

****

مراجع فى الماسونية

- أسرار الماسونية: د. حكمت المر ط. دار الكاتب العربى ص١١، وما بعدها، ١١٥-١٢٣، ١٢٢.
- الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية: شاهين مكاريوس ص ١٠٧ وما بعدها، لشاهين مكاريوس.
- الجمعيات السرية والحركات الهدامة فى الشرق: للمؤرخ الكبير محمد عنان، ص ٢١٤ وما بعدها.
- الماسونية العالمية: د. عابر منصور. ط الأمان سنة ١٩٨٨ ص١٨، ١٩، ٦٦-٧١ وما بعدها، ٢٢٨، ٢٣٨.
- الماسونية ذلك العالم المجهول: صابر طعيمة ص ١١٥- ١٦٤، ١١٧، ١٢٥، ١٣١، ٢٥٣، ١١٧، ٢٢٦-٢٣٣، ١٤٦-١٥٠، ٢٦٧، ١٤٦، ١٧٩-١٨٩، ١٦٤-١٧٢، ٦٣-٧٠، ٢٠ وما بعدها، ٢٢٦ وبعدها.
- الماسونية عقده المولد وعار النهاية محمود ثابت الشاذلى ط مكتبة وهبة.
- الماسونية. سعيد الجزائرى. دار الجيل.

الماسونية فى منطقة ٢٤٥ أبو إسلام ط الزهراء للإعلام العربى.

- الماسونية منشئة ملك إسرائيل. د. محمد على الزعبى ط المكتبة الثقافية.
- الآداب الماسونية. شاهين مكاريوس ط دار مارون عبود.
- الماسونية بين الانحراف والأصولية. مجموعة بحوث ترجمة يوسف صوميط ط/ بيروت سنة ١٩٨٦م.
- الماسونية فى العراء د. محمد على الزعبى ط دار الجيل بيروت.
- الدستور الماسونى العام شاهين مكاريوس ط بمصر سنة ١٩٠٧م.

●●●

الفصل السابع

البهائية
النشأة والتاريخ

لقد ظهر فى العقود الأخيرة بعض البهائيين الذين يطالبون بحق البهائية فى مباشرة نشاطها والإعلان عن نفسها فى مصر، والمعروف أن هذه الفرقة -إن جاز تسميتها بذلك- ليست من أصحاب الأديان السماوية الثلاثة الرسمية التى يعترف الدستور المصرى بوجودها على أرض الوطن -اليهودية المسيحية والإسلام- كما أن هذه الفرقة ليست تابعة للإسلام، ولا هى من الفرق المذهبية التاريخية التى عرفناها كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية أو الشيعة والخوارج، كما أنها ليست مذهبًا سياسيًا يريد الإعلان عن مبادئه فى ظل الدستور المصرى وحمايته، وإنما هم جماعة من بقايا البهائيين فى مصر الذين صدر ضدهم كثير من الأحكام القضائية، وأصدرت الثورة المصرية إبان قيامها فى أول النصف الثانى من القرن العشرين قرارًا ثوريًا بوقف نشاطها فى مصر وتأميم ممتلكاتها لصالح الأمة؛ وذلك لما لاحظته الدولة من نشاط سياسى مشبوه، واتصالها بالصهيونية ومعاونتها لها خلال حرب ١٩٥٦م.

ولا شك أن كثيرًا من شباب الجيل لا يعرفون شيئًا. وربما القليل عن البهائية وظروف نشأتها وسيرتها التاريخية فى المنطقة العربية، وقد حاولت أن تطل برأيها فى الآونة الأخيرة مستغلة ظروف الأزمات الراهنة التى يعيشها العالم الإسلامى، ومستعينة فى ذلك بالضغط الأمريكى الصهيونى على مصر، والعالم العربى؛ لتعمل على تفتيت الوحدة الإسلامية والوطنية فى مصر بالذات كهدف استراتيجى للنشاط الصهيونى فى المنطقة. وإحساسًا منا بخطر هذه اللحظة التاريخية، وما يدبره الأعداء لمصر خصوصًا وللأمة العربية عمومًا وجب علينا التعريف بنشأة البهائية ونشاطها وعلاقتها بالاستعمار الصهيونى ودورها فى المنطقة العربية، فما هى البهائية، وما هى الظروف التاريخية التى أفرزتها، وما هى عقائدها، وما علاقتها بالإسلام من جانب وعلاقتها بالاستعمار الصهيونى من جانب آخر.

النشأة وظروفها التاريخية:

لقد تأسست البهائية فى طهران فى القرن التاسع عشر الميلادى فى ظروف سياسية وثقافية ساعدت على إفراز كثير من الحركات الدينية المنحرفة التى خرجت كلها من عباءة الشيعة الغلاة حيث الحضن الطبيعى لكل فكر متطرف ومنحرف، فهناك تجد فى الجو الثقافى الشيعى المغالى كثيرًا من المعتقدات التى تبرأ منها المعتدلون من الشيعة مثل: عقيدة الرجعة، والوصية والعصمة، والوحى، وادعاء النبوة، وعقيدة المهدى، وادعاء الألوهية، وقائم الزمان... إلخ.

ساعد على شيوع هذه المعتقدات التراث الفارسى نفسه وامتلاء البيئة الجغرافية بكثير من الخرافات التى تروج على العوام، وتسد فراغًا دينيًا يعيشونه صباحًا ومساءً فى طقوسهم وشعائرهم التى فرضتها عليهم عقيدة الرجعة، أو ظهور الإمام الغائب الذى ينتظرونه ويقفون على باب قبره، ويدعون له بالفرج، وأن يعجل الله ظهوره.

وفى هذا الجو المشحون بالخرافات ظهر رجل يسمى (أحمد الإحسائى)، وأخذ يكثر الحديث عن الإمام الغائب، وأن وقت ظهوره قد أوشك، وأخذ يعمل على تهيئة العقول لاستقباله وساعده على ذلك استعداد الناس ذهنيًا وعقليًا لتقبل هذه الخرافات، فالتف حوله مجموعة من الأتباع أطلقوا على أنفسهم أتباع الشيخ أحمد أو «الشيخية» بحيث أصبح لقب الشيخية علمًا على هذه المجموعة من الأتباع، وأخذ جماعة الشيخية يقفون عند عتبة السرداب الذى اختفى فيه الإمام الثانى عشر من الشيعة وهو (محمد بن الحسن العسكرى) ويبكون ويدعون له بسرعة الفرج والظهور.

ورغم ما قيل عن شخصية (أحمد الإحسائى)، وهل هو مسلم شيعى أو قسيس نصرانى، فإنه قد ترك أثرًا كبيرًا فى نفوس أتباعه، خاصة فيما يتصل بعقيدة الحلول، وعقيدة الرجعة أو الظهور، وعقيدة التناسخ. وأخذ يعلم الناس أن الإمام الغائب قد حلت روحه فى أحد الأتباع كما حلت روح الله فى جسد المسيح، وراجت هذه الأفكار بين فرقة الشيخية، وكان من بينهم (ميرزا على) الذى كان من أكثرهم نباهة ونشاطًا، والذى اعتنق دعوة الشيخية، وأخلص لها، وأفاد منها

فى الدعوة لنفسه، وتلقب بالباب، وظهر بين أتباع الشيخية باعتباره الوارث لمنصب (أحمد الإحسائى) ثم مؤسس الفرقة الجديدة التى قامت على أنقاض الشيخية، وهى فرقة البابية نسبة إلى مؤسسها (الباب: ميرزا على). وهنا ينبغى أن نتلمس البداية التاريخية لفرقة البابية والبهائية على سواء، فإن الباب (ميرزا على) قد تربى فى أحضان الشيخية، ونهل من عقائدها، فضلاً عن تأثره بالمناخ الفكرى العام السائد فى البيئة الشيعية، وكان من أبرز هذه الأفكار شيوعًا فكرة الظهور للإمام الغائب، وما يحيط بها من معتقدات تتصل بشخص هذا الإمام، ويجب أن نعلم أن البابية والبهائية توأم لأم واحدة هو الفكر الشيعى المغالى الذى جسدته فرقة الشيخية.

الباب والبابية:

يعود ظهور مصطلح الباب تاريخيًا إلى فرقة الإسماعيلية الذين كانوا يستعملون لفظ الباب على المعلم باعتباره بابًا للوصول إلى العلم، عملاً بالحديث القائل: «أنا مدينة العلم وعلى بابها». والنصيرية يطلقون لفظ الباب على سلمان الفارسى، والدروز يطلقون على الوزير الروحانى الذى يتمتع بالعقل الكلى[١].

شاع استعمال مصطلح الباب فى التراث الشيعى بصفة عامة لأن كثيرًا منهم كان يدعى أنه باب العلم الخاص بالأئمة، وأن (ميرزا على) قد أطلق على نفسه هذا المصطلح، وسمى أتباعه بالبابية؛ لأن ادعى أنه باب العلم الذى يختص به الإمام الغائب، الذى ينتظره الشيعة، وأنه المظهر للحقيقة الإلهية.

مولده ونشأته:

ولد ميرزا على محمد فى شيراز، إحدى مدن جنوب إيران، يوم ٢٠ أكتوبر ١٨١٩، كان أبوه يعمل فى التجارة، وعلى جانب من الثراء، لكنه توفى وابنه مازال طفلاً فكفله خاله الذى كان يشتغل بالتجارة أيضًا، وتربى الطفل فى أحضان خاله حيث تعلم القراءة والكتابة وحصل على قدر من التعليم الأولى، ثم اشتغل بالتجارة مع خاله فى مدينة «بوشهر» على شاطئ الخليج العربى، ثم تزوج فى

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ٣/ ٢٢٧، وانظر: البابية د. إبراهيم الجبوشى ١/ ١٦.

الثانية والعشرين من عمره، ثم أعلن عن نفسه كداعية لتأسيس فرقة البابية، وزعيمًا لها، وهو فى الخامسة والعشرين، حيث ادعى أن الله قد اختاره لمقام البابية «كواسطة للفيوضات من شخص عظيم محتجب خلف ستار العزة، ومتصف بكمالات لا تعد ولا تحصى، وأنه متحرك بإرادته، ومتمسك بحبل ولايته»[1]، وكان الاعتقاد السائد بين جماعة الشيخية هو قرب ظهور الموعود الإلهى (الباب)، وما أن أعلن الباب عن نفسه حتى التف حوله جماعة الشيخية، وأطلقوا على أنفسهم اسم البابية، وبدأت شهرة الباب تنتشر فى أرجاء إيران، شرقًا وغربًا، وانتهى بظهوره تاريخ الشيخية تمامًا لتحتل مكانها طائفة البابية.

وجمع الباب حوله ثمانية عشر من أتباعه، أخذ يرسلهم إلى النواحى المختلفة للإعلان عنه وعن دعوته، وفى هذه الفترة أراد أن يذهب إلى الحرمين الشريفين فى موسم الحج؛ ليعلن عن نفسه أمام الحجاج الذين يفدون إلى تلك البلاد من شتى أنحاء المعمورة؛ وليكون ذلك ظرفًا مناسبًا للإعلان عن دعوته بين الحجيج، وقيل إنه وصل إلى هناك فى شهر ديسمبر سنة ١٨٤٤م، وأعلن عن نفسه أمام الناس، وكانت هذه المرحلة بمثابة الإعلان الرسمى عن دعوة الباب، فقام العلماء فى إيران وفى غيرها بمهاجمته، وبيان ما فى دعوته من الكفر والخروج عن الملة الإسلامية، وقد حوكم وسجن، وانتهى به الأمر إلى مقتله يوم ٩ يوليو ١٨٥٠، ولم يبلغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، وقتل باعتباره مرتدًا عن الإسلام داعية إلى الإلحاد والكفر. وبعد موته قتلاً، نقل أتباعه رفاته إلى مكان سرى حتى يختفى عن أعين الرقباء، ثم نقلوه بعد ذلك إلى عكا، ودفن فى جبل الكرمل، واتخذوا قبره مزارًا للتبرك به إلى الآن.

ترك الباب وراءه بعض الصحائف والمؤلفات التى نسبها أتباعه إليه، وكانوا يعتبرونها وحيًا سماويًا، ولقد نقل المستشرق (أ- أسلمنت) نصوصًا من مؤلفاته التى تدور فى معظمها حول تفسير وتعليقات على بعض الآيات القرآنية، وبعض المواعظ والأخلاقيات التى كان يبشر بها أصحابه على أنه «حرف من ذلك الكتاب

---

(١) انظر: مقالة سائح: ص ٢، تأليف (الباب نقلاً عن بهاء الله للبروفيسود) أ- أسلمنت، وهو وثيقة تاريخية ألفها صاحبها عن البابية والبهائية، وراجعها قراءة على عبد البهاء الابن الأكبر للبهاء فأجازها ورضى عنها، وهى من أصدق الوثائق عن البهائية.

الأعظم، وقطرة من ذلك البحر الذى لا ساحل له، وعند ظهوره تظهر حقيقتى وبواطن أسرارى، وألحانى، وينمو جنين هذا الدين فى مراتب الوجود والعلا، وأنه جاء مبشرًا برسول يأتى بعده، وأنه جاء لتهيئة الطريق وتمهيده لشخص أعظم يأتى بعده، وكان ينادى بقرب ظهوره العظيم، وأن شمس الحقيقة ستظهر للناس فى الهيكل البشرى بالعظمة والإجلال»[1].

ومن أهم مؤلفاته كتاب «البيان» الذى أودعه عقائد البابية وطقوسهم وشعائرهم فى أسلوب ركيك ينقض آخره أوله، وتدعى البهائية أن هذا الكتاب لم يتم تأليفه فى أيام الباب، وأن البهاء هو الذى أكمله، وأودع فيه عقائد البهائية أيضًا، وأن الكتاب قد تم فيه تعديلات بالحذف والإضافة بعد وفاة الباب، وهذا الكتاب قد جاءت فيه نصوص كثيرة تبشر بظهور البهاء، بعد مقتل الباب مما يدل على ما فيه من الأكاذيب المفتراة، والذى يدعو إلى الدهشة حقًا ما جاء من حديث الباب عن نفسه، حيث قال: «كنت فى يوم نوح نوحًا، وفى يوم إبراهيم إبراهيم، وفى يوم موسى موسى، وفى يوم عيسى عيسى، وفى يوم محمد محمدًا، وفى يوم على عليًا، ولأكونن فى يوم من يظهره الله الآخر الذى لا آخر له قبل أول الذى لا أول له، كنت فى كل ظهور حجة الله على العالمين»[2].

وتفوح رائحة الكفر من تعاليمه وتأويلاته الباطنية للقرآن وللعقائد الإسلامية، فلقد تأول القيامة على أنها قيامة الحقيقة الإلهية، وظهورها فى مظهر بشرى جديد وهو الباب، والبعث هو الإيمان المطلق بألوهية هذا الظهور الإلهى فى البشر، ولقاء الله يوم القيامة على أنه لقاء الباب؛ لأنه هو الله، والجنة هى الفرح الروحى الذى يشعر به المؤمن بالمظهر الإلهى فى البشر، والنار هى الحرمان من معرفة الله فى تجلياته فى مظاهره البشرية[3]. كما جعل الباب القبلة إلى البيت الذى ولد فيه بشيراز، ومدة الصوم عنده تسعة عشر يومًا، ويباح للصائم خمسة أيام من اللهو قبل شهر الصيام يفعل فيها ما يشاء من تحصيل لرغباته وأهوائه، كما ألغى نظام

---

(١) راجع هذا النص وغيره: بهاء الدين: ص ٢٧، ٢٨ وبعدها للمؤلف أ- اسمنت نقلا عن صحيفة الباب ص: ٣٤٩.

(٢) راجع البهائية: عبد الرحمن الوكيل، ص ١١٨، بهاء الله، ص ٢٧، ٢٨.

(٣) بهاء الله: ص ٢٥١، البهائية: عبد الرحمن الوكيل، ص ١١٩.

المواريث، واخترع نظامًا جديدًا يقتصر الإرث فيه على سبعة أنواع فقط من الوارثين، وأعلن نسخ جميع الأديان بدين البابية الجديد، وبعث برسالة إلى الشيخ محمود الألوسى صاحب التفسير المشهور (روح المعانى) يعلنه بدينه الجديد الذى يدعو إليه بقوله: إن من لم يدخل فى دين الله (أى دينه الجديد) كمثل من لم يدخل فى دين الإسلام. وكل من كان على شريعة الإسلام كان ناجيًا إلى ليلة القيامة، (وهى ليلة الخامس من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٦٠هـ) وهى الليلة التى أعلن فيها أنه القائم والمظهر الإلهى الجديد؛ ولهذا حرم على أتباعه قراءة القرآن من هذا التاريخ.

وأعلن على أتباعه أنه أفضل من النبى محمد، وأن قرآنه أفضل من قرآن محمد، وإذا قال محمد بعجز البشر عن الإتيان بسور القرآن، فأنا أعلن عجز البشر عن الإتيان بحرف مثل حروف قرآنى، إن محمدًا كان بمقام الألف، وأنا بمقام النقطة، والنقطة تمثل عنده الأصل، والألف تمثل الصورة أو المثل[١].

وقد أوصى الباب قبل وفاته أن يتولى الدعوة من بعده (ميرزا حسين) ابنه الأكبر الذى لقب فيما بعد بالبهاء، وجعل وصيته له فى الباطن ثم عهد إلى أحد إخوانه وهو يحيى (الملقب بصبح الأزل): فى الظاهر حتى لا يقتتل الأخوان على رئاسة الفرقة.

وبهذه الوصية انتقلت الرئاسة الفعلية لطائفة البابية إلى (ميرزا حسين) الملقب بالبهاء بعد مقتل الباب، وأصبح لقب البهائية هو الاسم الجديد الذى استعمله المؤرخون علمًا على هذه الفرقة نسبة إلى البهاء (ميرزا حسين على).

البابية وعلاقتها بالاستعمار الروسى:

حاول الاستعمار الروسى أن يجد له أعوانًا فى البيئة الإيرانية، لكى يستعين بهم فى بسط سلطانه على الدولة الفارسية، وهذا مطلب روسى تكرر القيام به فى محاولات كثيرة عبر تاريخ القيصرية الروسية وعلاقتها بإيران، وكان ظهور البابية بدعوتها الجديدة بمثابة الثغرة التى حاول أن ينفذ منها الروس للاستيلاء على الباب

---

(١) تاريخ البابية: ٣/ ١٦٥، البهائية: عبد الرحمن الوكيل: ص ١٢٠، ١٢١.

وأتباعه، واتخاذهم وسيلة سهلة لتنفيذ أغراضهم فى بلاد الفرس، ولقد أثبتت الوثائق التاريخية التى دونها (المؤرخ الروسى كيتارذ الغووروكى) فى مذكراته أنه كان واحدًا من المكلفين بالبحث عن وسائل يسلكها الروس لإثارة الاضطرابات فى إيران، وأنه وجد ضالته فى طائفة الشيخية، ثم فى البابية من بعدهم، يقول هذا المؤرخ: إنه كان يبحث عن وسيلة يضرب بها المسلمون بعضهم بعضًا، تكون عاملاً فى إثارة الفتنة والفرقة بين صفوف مسلمى إيران، وأن إثارة المشكلات الدينية وإثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية هى أيسر الطرق إلى ذلك، فكانت البيئة الثقافية لطائفة الشيخية والبابية مناسبة لذلك، وكان أهم قضايا الخلاف التى أثارها هى معجزة الإسراء والمعراج، المهدى المنتظر، البعث، القيامة، وكانت الأسئلة التى يدور الحديث حولها تتعلق كلها بهذه القضايا، وكان (ميرزا على محمد) الباب كثير الاستماع إلى هذا الرجل فى حواره مع الشيخية، ومع الرجل يسأل عن المهدى المنتظر أين هو..؟ فأجابه (الإحسائى) زعيم الشيخية: لعله موجود بيننا الآن.. ففكر الرجل طويلاً ثم نظر إلى الباب مبتسمًا، وتهلل وجه الباب. يقول المؤرخ الروسى فابتسمت له ابتسامة الظافر المنتصر، وعقدت عزمى أن أجعل من هذا الرجل المهدى المنتظر، وبدأت من هذا اليوم، لا أجد فرصة تسمح بالحديث معه إلا ألقيت فى روعه أنه ذلك الرجل، أنه الموعود، أنه المهدى، أنه قائم الزمان، وأخذت من يومها أناديه: يا صاحب الأمر، يا صاحب الزمان، وكان يظهر التأفف فى أول أمره، لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى كان يتهلل بشرًا وسرورًا كلما ناديته بذلك، وحين مات الإحسائى، وجدت الميرزا على محمد يراسلنى ويدعونى إلى اتباع مذهبه الجديد، وأنه الباب، وفجأة جاءنى خطاب منه فى مايو ١٨٤٤م، يدعونى إلى متابعته، فأجبته وأنا أول المؤمنين به[١].

وقد نقل الدكتور إبراهيم الجبوشى فى كتابه عن البهائية نصوصًا كثيرة يثبت بها دور الروس فى تأسيس البابية وعلاقتهم بالباب، وأنهم استعانوا برجل إيرانى كان يعمل فى بلاط الشاه ليمد الباب بالأموال التى يحتاجها للدعوة إلى مذهبه[٢].

---

(١) البابية: إحسان إلهى ظهير: ص ١٦٤-٤٦٥، نقلا عن البهائية: د. إبراهيم الجبوشى: ١٧٤.

(٢) راجع نفس المصدر: ص ٣٤-٣٩.

وقد نشرت مذكرات هذا المؤرخ الروسى سنة ١٩٢٤- ١٩٢٥، وحملت إلينا أسرار العلاقة القوية بين الباب والاستعمار الروسى، وقد عقب المؤرخ الروسى على مذكراته بقوله: الحمد لله أن سعيى لم يضع هباء، وأن جهودى التى أنفقت فيها الجهد والمال، قد أثمرت ثمرتها، وآتت أكلها[1]، مما يدل على أن الرجل كان مكلفًا بمهمة شاقة، بذل فى سبيل تحصيلها المال والجهد والوقت، وتعتبر هذه المذكرات وثيقة تاريخية هامة فى التعرف على حركة البابية، وعلى مؤسسها.

البهاء والبهائية:

كان مولد البهاء (ميرزا حسين على) فى يوم ١٢ نوفمبر ١٨١٧ (٢ محرم ١٢٣٣هـ) فى طهران، وكانت أسرته على شىء من الثراء وشغلوا مناصب عليا فى إيران فكان أبوه يشغل منصب وزير بالدولة، كما كان أفراد عائلته يشغلون مناصب فى المصالح الحربية، ولم يكن له حظ كبير من التعليم، فلم يذهب إلى المدرسة ولا إلى الكلية، بل تلقى تعليمه البسيط فى المنزل على يد أبيه، مات والده وهو فى سن الشباب، وعهد أبيه بشئون أسرته وأخواته، وعرضت عليه وظيفة الوزارة ليشغلها مكان والده فرفض، وأراد أن يتفرغ لدعوته الجديدة[2].

وكان البهاء قد اعتنق البابية وهو فى السابعة والعشرين من عمره، وأصبح أحد المعروفين بالإخلاص والدعوة إليها، وصاحب كلمة نافذة فى سياستها، وحاول أن يكيد للشاه فدبر مؤامرة لاغتياله، وانكشف أمره، وحوكم بهذه الجريمة، وأودع السجن، وجرد من أملاكه، ولم يخرج من سجنه إلا بواسطة السفير الروسى الذى تبرع بشهادة زور أمام الشاه أعلن فيها أن ميرزا حسين على طاهر اليد، ولا علاقة له بهذه المؤامرة، فأصدر الشاه قرارًا بالعفو عنه، ونفيه إلى العراق.

وفى العراق لم يستقر به المقام فترة طويلة بسبب نزاع بينه وبين أخيه يحيى على زعامة الطائفة، وفر هاربًا من العراق إلى السليمانية واشتغل فيها فترة بأوراد الصوفية، حتى جمع حوله بعض الأتباع، وكان يعيش فيها فى حالة فقر مدقع، ثم عاد ثانية إلى بغداد بناء على طلب بعض الأتباع.

(١) البابية والبهائية: د. إبراهيم الجبوشى: ٢/ ٤٨-٥٣.

(٢) بهاء الله: ص ٣١.

وفى عودته الثانية إلى بغداد بدأ يدعو إلى نفسه زاعمًا أن وحيًا نزل عليه فى هجرته إلى السليمانية، وطلب منه نسخ بعض شرائع البابية، فثار عليه البابيون، مما جعل البهاء يخفى ما أعلنه على الناس فى دعوته الجديدة، ولجأ إلى الأسلوب السرى فى الدعوة، وأخذ يعمل على تنظيم لقاءات مع أتباعه فى أماكن بعيدة عن أعين الرقباء، وكان يملى على أتباعه بعض الخطب والمواعظ بدعوى أنها وحى نزل إليه فى خلواته.

ولما سنحت الظروف للبهاء للجهر بدعوته أعلن على الناس ما كان يخفيه وخاصة أمام الذين اشتدت صلتهم به ووثق بهم، فأعلن أنه الموعود بالظهور، الذى بشر الباب بظهوره. يقول (أ. أسلمنت): واهتم اليهود والنصارى والزرادشتيون بالبهاء كاهتمام المسلمين به وبرسالته الجديدة، ولما علم قنصل إيران بنشاط البهاء ودعوته الخبيثة فى بغداد أرسل إلى الشاه يخبره بواقع الحال التى عليها البهاء وأتباعه، وأنهم بمعاونة اليهود والنصارى والزرادشتيون يعملون على الإضرار بالديانة الإسلامية، وأن ذلك سوف يكون له الأثر السيئ فى إيران، وطلب من الشاه أن يعمل على نفى البهاء إلى مكان بعيد عن إيران[1].

وفى هذه الفترة من تاريخ حياة البهاء، كتب بعض المؤلفات، ومن أهمها كتاب (الإيقان) الذى كتبه من (١٨٦٢-١٨٦٣)[2]، ثم طلبت الحكومة التركية أن ينتقل إليها البهاء بناء على رغبة من حكومة إيران، وقبل رحيله إلى تركيا، وبالتحديد فى الفترة من ٢١ أبريل ١٨٦٣م، إلى ٣ مايو ١٨٦٣، اجتمع البهاء بأفراد أسرته فى حديقة أطلق عليها «حديقة الرضوان»، وأعلن على الحاضرين جهارًا أنه الموعود بالظهور الذى بشر به الباب، وقد بشر به جميع الأنبياء السابقين، وسميت هذه الحديقة التى أعلن فيها دعوته «بحديقة الرضوان» تيمنًا بجنة الرضوان، وعرفت هذه الفترة التاريخية التى أعلن فيها دعوته (٢١ أبريل - ٣ مايو) بعيد الرضوان، واتخذه البهائيون عيدًا يحتفلون به كل عام، واستمرت رحلته إلى تركيا أربعة أشهر، وكان يتنقل فيها من مكان إلى مكان يدعو لنفسه وإلى دعوته إثناء

(١) بهاء الله: ص ٣٤، ٣٥.

(٢) نفس المرجع: ص ٣٧.

رحلته إلى تركيا، فكلما مر بقبيلة أو مجموعة من الشيعة دعاهم إلى مذهبه الجديد إلى أن وصل إلى تركيا، وأقامته الحكومة مع أسرته فى «أدرنة» مدة أربع سنوات ونصف، وهناك أظهر دعوته للعوام، وظهر لقب البهائيين كمصطلح خاص بالبهاء وأتباعه[1]. وكان اختيار مصطلح البهاء والبهائية من عمل الصهيونية التى بدأ نفوذها يعلو ويسيطر على مقاليد الأمور فى الدولة العثمانية؛ لأن البهاء كان قد لقب نفسه بألقاب كثيرة قبل ذلك، ورضى أصحابه بهذه الألقاب مثل (الذكر، الطلعة المباركة، الجمال المبارك، جمال القدم)؛ ذلك أن لفظ البهاء قد تردد فى التراث الصهيونى والشيعى كثيرًا، فإن بهاء الله صفة من صفات الجمال الإلهى، وفى سفر المزامير وسفر أشعيا، وترددت ترنيمات كثيرة حول بهاء الله، وقد لقبته الصهيونية بهذا اللقب إرضاء له وتوددًا إليه، وإشارة إلى القدر المشترك بين دعوته وتراث الصهيونية المقدس.

ولما ضاقت الحكومة التركية بنشاط البهاء نفته إلى عكا هو وأتباعه سنة ١٨٦٨، وكان اختيار المنفى (عكا) بواسطة الصهيونية أيضًا.

وفى أرض فلسطين، أرض الميعاد كما تدعى الصهيونية نزل البهاء، وكان معه سبعون رجلاً من أتباعه، وبدأت الصهيونية تنسج خيوطها العنكبوتية حول الرجل وحول ابنه من بعده (عبد البهاء) وحول دعوتهما الجديدة، فلم يمض على إقامته فى عكا أربعة أشهر حتى استطاعت الصهيونية أن تفك أسره مستعينة فى ذلك بالرشوة لحكام إقليم عكا، وكان أول ما فعله البهاء بعد فك أسره أن أطاح بالجنود والأتباع الذين كانوا رقباء عليه من قبل السلطة، ولما افتضح أمره وانكشفت جريمته أودعته السلطة مع أسرته فى منزل بعكا، وظل مقيمًا فيها إلى أن أصابته حمى وهو فى الخامسة والسبعين من العمر ومات بها فى ٢٨ سنة ١٨٩٢، حيث دفن جثمانه فى عكا بجبل الكرمل على مقربة من المكان الذى دفن فيه الباب من قبل، وبذلك يكون جبل الكرمل فى عكا قد ضم رفات كل من الباب والبهاء، وهذا يفسر لنا مكانة عكا عموما، وجبل الكرمل خصوصًا فى تاريخ البهائية ومقدساتها.

(١) نفس المرجع: ص ٣٨.

وصية البهاء لابنه:

قبل أن يموت البهاء كتب لابنه (ميرزا عباس) عهدًا بوصيته، وأشار فى كتابه (الأقدس) أن ابنه عبد البهاء (عباس) أكبر أبنائه هو خليفته من بعده، وأخذ يخلع على ابنه ألقابًا تضفى عليه أوصافًا مقدسة تثبيتًا لهذه الوصية والبهاء ما زال حيًا. فسماه: مركز العهد، الغصن الأعظم، والفرع المنشعب من الأصل القديم، وأحيانًا كان يدعوه باسم المولى، وطلب من الجميع أن يعاملوه باحترام، وأن يطيعوه فى أمره ونهيه[1]، وبعد وفاة البهاء أخذ ابنه مباشرة مهام خلافته من بعده، وقد دون البهاء وصيته فى مجموعة من الألواح أمضاها وختمها بخاتمه، ولم تفتح هذه الألواح إلا بعد وفاته بتسعة أيام بواسطة ابنه الأكبر (عباس)، وبحضور أفراد أسرته، وعرفت هذه الألواح بين أفراد الأسرة باسم العهد البهائى، وبمقتضى هذا العهد أصبح ابنه عباس مسئولاً عن تفسير أقواله وشرح آرائه، وتجديد مسيرة الدعوة البهائية[2].

الثقافة البهائية:

لقد ترك البهاء أقواله وتعاليمه مدونة فى صحائف ومؤلفات صغيرة أشبه بالرسائل والمتون الموجزة، التى يحتاج كل واحد فيه إلى شارح عارف بمصطلحات البهاء، وآرائه، ولذلك تعددت حوله الشروح والتفسيرات، وكان من أهم مؤلفاته كتاب (الإيقان)، و(كتاب الأقدس).

١- وكتاب الإيقان عبارة عن مجموعة مقالات ورسائل وضعها البهاء ليؤيد فيها دعوة الباب، ويشير إلى مكانته العالية، فهو قائم الزمان، وهو المهدى المنتظر، وهو المظهر للحقيقة الإلهية، وهو النبى، إلى آخر هذه الدعاوى التى خلعها الباب على نفسه وأيده فيها البهاء.

٢- وله كتاب «الأقدس» بالفارسية، وهو أهم كتبه، وأكثرها شهرة، قد كتبه بلغة رمزية ملغزة، وبأسلوب أقرب إلى لغة المتصوف الفارسى الغنوص، حشد فيه كثيرًا من أفكار الإسماعيلية والزرادشتية، وإخوان الصفا، والباطنية، هو خليط من ثقافات مختلفة، أسلوبه ركيك العبارة، يصعب الوقوف على المعنى المراد منه، إلا لمن تدرب على لغة الرجل وتعرف على آرائه، ورموزه وألغازه.

(١) بهاء الله: ص ٦٠.

(٢) نفس المرجع: ص ٤٧.

وقد ألف هذا الكتاب تلبية لرغبة أتباعه، بعد أن ادعى الألوهية، فرأوا أن يترك لهم كتابًا كما فعل جميع الأنبياء قبله، وكما أنزل الله على موسى وعيسى ومحمد كتبًا مقدسة بين لهم تعاليمه فيها، فيجب عليه أن يترك لأتباعه كتابًا يبين لهم تعاليمه فأسرع بوضع هذا الكتاب وسماه الأقدس.

٣- وترك مجموعة من الألواح والرسائل الصغيرة أطلق عليها أسماء عديدة فهى أحيانًا تعرف بالألواح، وأحيانًا الإشراقات، الكلمات الفردوسية، الهيكل، العهد، وكان يكتب أحيانًات بالفارسية، وأحيانًا بالعربية الركيكية، وأحيانًا كان يكتب للزرادشتية، وأحيانًا للفرس، وأحيانًا للعرب.

ولقد اهتم أتباعه من بعده بنشر تعاليمه وآرائه وساعدهم على ذلك صلتهم بالصهيونية والاستعمار البريطانى بواسطة ابنه (عبد البهاء) من بعده، كما تولى عباس شرح ذلك فيما بعد، ثم كثرت الشروح، والتعليقات من بعده، وحاول أتباعه أن يعملوا على خلق علاقة بين هذه التعاليم البهائية ورسالات الأنبياء، عليهم السلام، وبين دور البهائى، ودور الأنبياء، وأن الرسالات لم تنقطع بموت محمد ﷺ، بل هى مستمرة، وكل رسول يأتى لينتسخ شريعة من قبله، ويضع شرعًا جديدًا مناسبًا حسب حاجات الناس ورغباتهم.

عبد البهاء:

هو ابن البهاء الأكبر، ووصيه من بعده، وخليفته فى أمر الدعوة الجديدة، ولد بطهران ليلة ٢٣ مايو ١٨٤٤، وهى نفس الليلة التى أعلن فيها الباب دعوته، امتاز بالدهاء والذكاء وعرف ذلك عنه منذ سن الصبا، وأدرك فى سن مبكرة المنزلة التى تنتظر والده فى تاريخ البابية، وعرف أن ولده هو الموعود الذى ينتظره البابيون، وقد سجل بنفسه ذلك كتابة فى يومياته فقال: إنى عبد للجمال المبارك (يعنى البهاء)، ففى بغداد كنت طفلاً وهناك علمنى الكلمة فاعتقدت فيه، وبمجرد أن أعلن لى الكلمة ترامت على قدميه المقدستين، وتضرعت له أن يقبل دمى فداء فى طريقه. فأى فخر أعتقد أعظم من أن أرى عنقى مسلسلاً من أجل أبى، أو أن

أرى هذه الأقدام مقيدة لأجل محبته، فلو تكون حقيقة أحباءه الصادقين فيلزمنا أن نضحى حياتنا وهيكلنا على عتبته المقدسة[1].

كان دائم الصحبة والملازمة لوالده، وكان يتولى إجابة بعض الأسئلة نيابة عنه، فقد سأل بعض الصوفية والده عن الحديث المشهور (كنت كنزًا مخفيًا فأردت أن أعرفه فخلقت الخلق فبه عرفونى) فأحال البهاء الصوفى إلى ابنه عباس وهو فى سن الخامسة عشر فأجابه برسالة مطولة مشهورة بين أتباع البهائية.

تولى شئون البهاء بعد وفاة والده فكان هو المفسر والشارح لتعاليم البهائية، أقام فى عكا بسفح جبل الكرمل، وكان يتردد على مساجدها، ويحاور روادها، ويلقنهم تعاليم البهائية، وساعده فى ذلك ذكاؤه وطول صحبته لأبيه، وكان من فرط ذكائه يحاور الملحد والوثنى والزرادتشى والإسماعيلى فيمدح صاحب كل نحلة، ويظهر له أنه على دينه فالتف حوله أصحاب النحل، والمذاهب المتضاربة كالبوذى والبرهمى، والزرادشتى والباطنى والإسماعيلى؛ لأنهم وجدوا عنده بغية كل طالب، وفى الحقيقة فإن تاريخ البهائية يبدأ مرحلة جديدة على يد البهاء، مرحلة تتسم بالنشاط السياسى والعلاقات الاستعمارية الصهيونية،وحاول العمل على زعزعة أركان العقيدة الإسلامية فى نفوس أبنائها؛ ولذلك فإن مرحلة التأسيس للبهائية قد تمت على يد الباب والبهاء، أما مرحلة النشاط السياسى والاجتماعى فقد بدأت بظهور عبد البهاء كزعيم روحى للبهائية، فلقد وضع عبد البهاء يده فى يد الصهيونية مستعينًا بها على نشر أفكاره المسمومة الداعية إلى محاربة الإسلام المعارضة له فى أركانه وأصوله وفى أحكامه وشرائعه.

عبد البهاء والصهيونية:

بدأ النشاط السياسى للبهائية على يد عبد البهاء، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا. فالصهيونية كانت على بينة بالبهائية من أول أمرها، وهى التى خلعت لقب البهاء على مؤسسها وهى التى أشارت على الخليفة العثمانى بنفى البهاء إلى عكا فى فلسطين وفى عكا توطدت هذه الصلة، وتعمقت دراسة الصهيونية بنفسية البهاء ونفسية ابنه من بعده، وكشفوا عن بواطن الأمور التى يخفونها ويتحلون أمام الناس

(١) يوميات ميرزا: يناير ١٩١٤، عن بهاء الله، ٥٨.

بأضدادها، تعرفت الصهيونية على طبيعة عبد البهاء، ونفسيته التواقة إلى حب الظهور والشهرة وحديث الناس عنه فى الصحف والمجلات، وعرف الاستعمار المداخل الطبيعية للاستيلاء عليه، وحسن توظيفه لتحقيق أهدافه بواسطة دعوته، وربما وجدت الصهيونية أن بينهما قاسمًا مشتركًا، ووحدة فى الهدف، فلماذا لا يتعاونان معًا لتحقيق أهداف كل منهما، لم يمض وقت طويل على نفى عبد البهاء إلى عكا حتى بدأ يباشر نشاطه هناك فبدأ يشيد على جبل الكرمل بعض الغرف التى أعدها لاجتماعات البهائية ومجالس لأذكارهم، وبنى فوق الجبل ضريحًا للباب، ونقل وفاته إليه، وقد ورد ذكر جبل الكرمل هذا فى الأسفار اليهودية مما جعل له قداسته فى تراث اليهود، وجمع له الاستعمار أموالاً طائلة لمساعدته فى هذه الأبنية، وبدأت الصهيونية تفتح أمام البهاء أبواب السفر إلى أوربا وأمريكا للإعلان عن نفسه هناك، وأخبرته بأن المناخ الأوربى مستعدا لاستقبال دعوته والترحيب به، وبدأ عبد البهاء رحلاته إلى دول أوربا وأمريكا بمساعدة اليهود والاستعمار الأوربى. ومما ينبغى أن يعرفه المسلمون عن علاقة البهائية بالحركة الصهيونية العالمية أن مرحلة التأسيس الأولى للبابية كانت تضم بين طفولتها يهودًا من أقطار شتى، فكان بين أعضائها ١٥٠ يهوديًا من طهران، ١٠٠ يهودى من همدان، ٨٥ يهودياً من كلياكيان، ٥٠ يهودياً من كاشان، ولا شك أن وجود هذا العدد من اليهود بين صفوف البابية كان له تأثيره البالغ فى التوجيه الفكرى والعقائدى لها، وقد أشار بعض الباحثين أن دخول هذا العدد فى صفوف البابية كان تحت شعار وحدة الأديان الذى كانت تنادى به الماسونية العالمية، التى كانت تتخذ من هذه المنطقة الجغرافية مركزًا لنشاطها فى الشرق، وأن اختيار عكا وجبل الكرمل كمقر لنشاط البهائية، ومقبرة لزعمائها كان أمرًا مقصودًا لذاته، بحى يجعل من هذا المكان كعبة وقبلة للبهائية فيما بعد، وقد تحقق لهم ذلك، فإن عكا كانت هى المركز الرئيسى للنشاط البهائى على مستوى العالم، وإليها يفد السائحون من جميع الأقطار الأوربية لزيار هذا المعلم السياحى البهائى.

وبدأ عبد البهاء رحلاته إلى أوربا بدعوة من الإنجليز فذهب إلى سويسرا سنة ١٩١١، ونزل فندق يطل على بحيرة جنوا، وعقد له مؤتمر صحفى تكريما لوفادته

إلى أوربا، وأعلن فى هذا المؤتمر دعوته إلى وحدة الأديان فقال مخاطبًا الحضور (. . . ألستم أفنانًا وأوراقًا من دوحة واحدة، ألستم مشمولين بلحظات أعين الرحمانية، يا قوم البدار البدار إلى الألفة. . البهائى يحب جميع العالم كأنهم إخوته، فإذا ضربه أحد فلا يعامله بالمثل. . . لقد نسى الناس تعاليم بنى إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمى الأديان فجددها البهاء. . إن مغناطيس حبكم هو الذى جذبنى إلى هذه المملكة، أنا عرفت الأمة الإنجليزية والذين قابلتهم هم أنفس طيبة يشتغلون للسلام والاتحاد. . ثم أشار فى خطبة له أخرى أن لندن ستكون مركزًا لنشر البهائية، وسافر إليها ومكث بها شهرًا.

وفى إحدى محاضراته فى أوربا نال من المسلمين والعرب، وقد أعجب ذلك رؤساء الكنائس الحاضرين، وأخذ رئيس كنيسة ستى تميل يعقب على محاضرة عبد البهاء فى الكنيسة فقال: إنها فى روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التى تسمعونها كل أسبوع، ولقد تصافح هذه الليلة الشرق والغرب فى هذه الكنيسة.

وحضر هناك مؤتمر الأجناس فى لندن، وقال فيهم: إن أفكار بهاء الله الغريبة مختلفة عن أفكار الأنبياء السابقين. . وقد أصبحت المدنية الغربية متقدمة عن المدنية الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين. . ولم تكن المدنية الشرقية يومًا ما أرقى من المدنية الغربية، إلا أيام بوذ وزرادشت، ثم بدأت الأوهام والخرافات تفسدان على الشرقيين معتقداتهم على حين كان الغربيون يجتهدون فى الترقى نحو النور[1].

وكان عبد البهاء يعقد جلسات له ولأتباعه هناك ليجيب عن أسئلتهم، ويشرح لهم علاقة البهائية بالأديان الأخرى، وقد توجه إليه أحد الحاضرين بسؤاله التالى: أليس من المستحسن أن أظل على الديانة التى كنت عليها طول حياتى. .؟ قبل مجيئك إلى أوربا؟ فأجابه عبد البهاء: ينبغى لك ألا تنفصل عنها فاعلم أن الملكوت السماوى ليس خاصًا بجمعية مخصوصة، فإنك يمكنك أن تكون بهائياً مسيحياً، وبهائياً ماسونياً وبهائياً مسلمًا[2].

---

(١) خطابات عبد البهاء: ص ٣١ وما بعدها، وانظر: البهائية، د. عبد الرحمن الوكيل: ص ١٦٥ - ١٧٠.

(٢) نفس المرجع: ١٧٣.

ثم زار مقر البراهمة فى لندن، وقرر لهم أنه لا خلاف بين البراهمة والبهائية، ثم سافر من لندن إلى باريس، وخطب فى كنائسها، وهناك وصف المسلمين فى الحروب الصليبية بأنهم كقطاع الطرق يقتلون وينهبون ويخربون الديار.

ثم زار أمريكا سنة ١٩١٢، وخطب فيهم فى أماكن مختلفة، ففى نوفمبر ١٩١٢، خطب فى ولاية (أوهايو)، وكان يتغنى بأمجاد أمريكا، ويقول: إن أمريكا أمة مجيدة، وهى حاملة لواء السلام فى العالم، وتستنير فيها جميع الآفاق... إن أمريكا والحمد لله هى فى سلام مع جميع دول الأرض، وتستحق أن ترفع علم المحبة والسلام الدولى العام. فإذا ارتفع نداء السلام العام فى أمريكا تصبح كل ملل الأرض قائلة: نعم، نقبل وستنضم إليها جميع الملل فى اتباع تعاليم بهاء الله والتى نادى بها منذ خمسين عامًا[١]، وأعلن فى خطابه لأمريكا أنه هو الله المقدس الذى يجب على أمريكا أن تتبعه، ولقد سجل ذلك صراحة فى كتابه (الأقدس) فقال: ... يا ملوك أمريكا ورؤساء الجمهور فيها، اسمعوا ما تغنى به الورقاء على غصن البقاء، أنه لا إله إلا أنا الله الباقى الغفور الكريم، أجبروا الكسير بأيادى العدل، وكسر الصحيح الظالم بسياط أوامر ربكم الآمر الحكيم[٢].

ولا نريد أن نستطرد فى تفصيلات الوثائق التى دارت بين البهاء وابنه عبد البهاء من جانب وأوربا والصهيونية العالمية من جانب آخر؛ لأن علاقة هذه الطائفة بالصهيونية العالمية لا تحتاج إلى دليل، أو براهين، فإن التعاليم والعقائد التى دونوها فى ألواحهم كافية وحدها لترسيخ هذه العلاقة، فإن معظم آراء البهائية وعقائدها منسوخة من النصرانية المحرفة، ومن مبادئ الماسونية الصهيونية، ومن تعاليم بوذا ومانى وزرادشت؛ ولذلك لا يعجب المرء أن يجد عبارات المدح والثناء لكل هؤلاء فى تعاليم البهائية.

ولقد عبر الإنجليز عن احتفالهم بعبد البهاء، وأنهم يحفظون له دوره الذى قام به فى الحرب العالمية الأولى أنه بعد أن استولت بريطانيا على عكا وحيفا فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٨م، احتفل الإنجليز بذلك الانتصار، وطلب رؤساء الوحدات

---

(١) انظر: خطب ومقالا بهاء الله وعبد البهاء فى: بهاء الله.أ. أسلمنت. ص ٢٣٠- ٢٣٦.

(٢) بهاء الله: أ. أسلمنت، ص ٢٣٥.

العسكرية أن يقابلوا عبد البهاء، وتم لهم ذلك، وكان إعجابهم به بالغًا، ولقد أنعم عليه رئيس الوحدة العسكرية البريطانية بنيشان الإمبراطورية البريطانية فى احتفال كبير بحديقة الحاكم العسكرى لحيفا فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٢٠، ولم يعمر بعدها طويلاً، فقد وافته منيته يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢١م.

ولقد حاولت الصهيونية أن تتخذ من البهاء قناعًا تتستر خلفه لتحقيق مكاسبها فى أرض فلسطين، فلقد أوهموا البهاء أن الأسفار القديمة بالتوراة قد بشرت بظهوره، وأن ملك بنى إسرائيل لن يستقر إلا بعد ظهوره، وأن سلطان بنى إسرائيل إلى زوال إلى أن يظهر البهاء؛ لأنه هو الرب الموعود عندهم، وأنه الذى سيظهر على الجبل ويطلع من الشرق، وبشارات الأسفار تقول لهم: يظهر الرب القدير. ويطلع من المشرق جماله، وينزل فى الأرض المقدسة، ويرتفع نداؤه من الجبل المقدس (جبل الكرمل) فيجتمع حوله شتات بنى إسرائيل ويجلبهم من بين شعوب العالم... فيصيرون مبروكين بعدما كانوا ملعونين، وغالبين بعد ما كانوا مغلوبين[١].

وعُرف أن الصهيونية تعتبره أحد المخلصين لإسرائيل؛ ولذلك خلعت عليه لقب بهاء الله، ولا شك أن التفاف الصهيونية الصليبية حول البهائية، واحتفالها بتعاليمها فى شيكاغو بأمريكا يؤكد هذه الصلة التاريخية كما يوضح دور البهائية فى زلزلة أركان الدولة العثمانية، وليس احتفاؤه بانتصار بريطانيا على الخلافة العثمانية إلا مظهرًا واضحًا لذلك.

عقائد البهائية:

يجتمع البابية والبهائية حول مجموعة من الآراء التى اعتقدوها وجعلوها دينًا جديدًا يدعون إليه بدعوى أن كل نبى جاء لينسخ شريعة ما قبله من الأنبياء، وهم فى سبيل ترسيخ هذه الآراء فى نفوس أتباعهم لفقوا آراءهم من بعض الأحكام الدينية من اليهودية والمسيحية والإسلام، كما اقتبسوا كثيرًا من آراء الإسماعيلية والزرادشتية والبوذية وأحيانًا من الغنوص المسيحى، وأحيانًا من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، ومزجوا هذه الآراء ببعض العقائد الفارسية القديمة ليخرجوا على أتباعهم

---

(١) الحجج: ص ١١٢، ١١٣، عن البهائية والوكيل، ص ٣٢٧.

بالفكر البهائى المزيج من كل هذه الآراء وقد ساعدهم على ذلك أن البيئة الثقافية التى ظهروا فيها كانت تربة خصبة لإثبات مثل هذا الهجين الفكرى الذى يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً، كما رفضته اليهودية الصحيحة والمسيحية الصحيحة أيضًا.

١- ادعاء النبوة ثم الألوهية:

لقد تدرج الأمر بزعماء هذه الطائفة (ابتداء من الباب فالبهاء فعبد البهاء) فادعوا النبوة ثم الألوهية، وأحيانًا حلول الله فيهم يقول البهاء عن نفسه، وعن ابنه فى اللوح الخاص بالعهد[١]: إن لسان القدم يبشر أهل العالم بظهور الاسم الأعظم الذى أخذ عهده بين الأمم، إنه نفسى ومطلع ذاتى وتشرق أمرى وسماء موهبتى وفجر إرادى ومصباح هدايتى.. من توجه إليه فقد توجه إلى وجهى، واستضاء من أنوار جمالى، واعترف بوحدانيتى، وأقر بفردانيتى، ومن أنكره إنه محروم من سلسبيل حبى، وكأس رحمتى.. ولا يطلع عليه إلا من علمته ما نزل فى الوحى المكنون، وإذا أراد الإنسان أن يعرف الله فعليه أن ينظر إلى عبد البهاء، أو البهاء فمن مراياهم تنعكس شمس الحقيقة الإلهية[٢]، ومن هنا كان البهائيون يقدسون البهاء، ويقدسون ابنه من بعده، فله يدعون وإلى قبره يحجون؛ لأنه قال لهم فى كتابه الأقدس: من توجه إلىَّ فقد توجه إلى المعبود، أما الذين يتوجهون إلى الله بعاداتهم فإنما يتوجهون إلىَّ وهو وظنون[٣].

٢- القول بوحدة الأديان:

يعتبر البهاء أن الخلاف القائم بين الأنبياء حجر عثرة فى سبيل وحدة الأديان، وأنه بعث ليرفع هذا الخلاف؛ لأن ما يأمر به واحد من الأنبياء يحرمه الآخر، فكيف يكون جميعهم على صواب، أو كيف يعبرون فى ذلك عن إرادة الله الواحدة التى هى الحقيقة الواحدة؛ ولذلك يرى البهاء أن آراءنا القديمة تتبدل كلما مر الزمان بالفهم الصحيح والإدراك السليم، وقد مثل البهاء لذلك بأن الطفل

(١) انظر: بهاء الله: ص ٧٤، (ترجمة عن الفارسية: ميرزا ولى الله خان).

(٢) نفس المرجع: ص ٩٥.

(٣) البهائية د. الجيوشى: ص ٥١.

يتلقى اللبن فى أول عمره، حتى إذا ما ترقى وشب عن الطوق لا يصح له اللبن، وإنما يصح له الغذاء؛ كذلك طفولة البشرية تترقى فى عمرها، ولا يصح لها الآن من الشرائع ما كان يصح لها فى طفولتها، وإنما ينبغى أن تترقى الشريعة من نبى إلى نبى حتى تناسب رقى البشرية، وأن البهاء هو الذى جاء بشريعة راقية ناسخة لما قبلها من الشرائع. يقول البهاء (ففى تعاليم موسى ترى أكمام الزهر وفى تعاليم عيسى ومحمد نرى الزهر متفتحًا، وفى تعاليم البهاء تقطف الثمرة فى الزهرة، ولأننا قصد بين الزهور، فدين الله واحد، وكل منها يتمم الآخر)[١].

عباداتهم:

١- الصلاة المفروضة عندهم تسع ركعات فقط يصلونها صباحًا ومساء، وظهرًا أى وقت طلوع الشمس، ووقت الغروب، ووقت توسطها فى السماء، لأن الصلاة عندهم ترتبط بحركة الشمس، وقد ورد النص بذلك فى كتابهم الأقدس، فقد (كتب الله الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال، وفى البكور، وفى الآصال)، ولا نقرأ الفاتحة فى الصلاة بل يرددون أدعية، أوصى بها البهاء فى قوله: «أى رب اجعل جمالك غذائى، وحضورك شرابى، وعلى وفق إرادتك اعتمادى، ووفق إرادتك أعمالى، إلهى: اجعل خدماتى مقبولة عندك، أشهد يا إلهى أنك خلقتنى لعرفانك وعبادتك.. إلهى يا ربى الرءوف خلقت جميع البشر من أصل واحد، تابعين لدوحة واحدة، فالكل عبيد لحضرتك المقدسة.. إلخ»، والصلاة عندهم ليست مقصورة على صيغة معينة للدعاء بل إنهم يرددون أدعية أخرى نص عليها البهاء فى كتاب الأقدس[٢].

٢- تقديس العدد ١٩: يقدس البابية العدد ١٩ لأنه يساوى حروف الباب، بينما تقدس البهائية العدد؛ لأنه يساوى حروف البهاء.

٣- كل شىء عندهم طاهر؛ لأنه حلت فيه روح الله.

٤- القبلة عندهم هى قبر البهاء فى عكا، وكان بيته هو القبلة أثناء حياته.

(١) بهاء الله: ص ١٢٧.

(٢) بهاء الله: ص ١٠٢، ١٠٣.

٥- الصوم عندهم تسعة عشر يومًا فقط.

٦- الحج إلى قبر البهاء، وليس إلى بيت الله الحرام.

٧- القيامة عندهم نوعان: قيامة صغرى، وهى ظهور الروح الإلهية فى شخص الأنبياء السابقين موسى وعيسى ومحمد، وقيامة كبرى، وهى ظهور الروح الإلهية فى شخص البهاء.

٨- الملائكة هم أئمة الهدى، أو أئمة الضلال، والملائكة المذكورون فى القرآن فى الآية الكريمة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر ٣٠] هم التسعة عشر رجلاً الذين كفروا بالبهائية واتبعوا أخاه (يحيى الملقب بصبح الأزل).

٩- وحدة الوجود: يؤمنون بوحدة الوجود، وأن الأشياء المادية فى كل مستوياتها ليست إلا مظهراً من مظاهر الحقيقة الإلهية: «لأن للحقيقة الكلية والهوية اللاهوتية الظهور فى جميع المراتب والمقامات؛ لأن هذه المراتب ساطعة البرهان؛ فما حقائق الوجود المادى إلا حروف وكلمات للحقيقة الإلهية؛ ولأن الحقيقة الإلهية غيب فلابد أن تتعين فى الموجودات المادية.

الوحى: هو انبثاق المعانى من قلب البهاء المظهر للحقيقة الإلهية بواسطة روح القدس فى هيئة كلمات يفهمها الناس، بألفاظ بشرية والوحى عندهم لم ينقطع بوفاة الرسول محمد ﷺ بل ما يزال ينزل على البهاء ثم على ابنه من بعده.

ولا أريد أن استطرد فى ذكر معتقداتهم الفاسدة، ولكن كان لابد من تجلية الموقف الحقيقى لهم أمام الشباب حتى يعلموا أن هذه الطائفة خارجة عن الإسلام، ولا تدين به؛ لأن عقائدهم الباطلة تحكم عليهم بذلك، وليس هناك من وسائل تثقيفية تنهض بدورها فى تبصير الشباب بأمورهم، وبيان خطرهم على الأمة؛ لأنهم يتسمون بأسماء المسلمين ويقولون -كما سمعناهم- إننا نؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، وكذبوا فى ذلك؛ لأن من آمن بنبوة محمد يفهم يقينًا أنه خاتم الرسل، وأن القرآن آخر وحى نزل من السماء، وأنه ﷺ قال: «لا نبى بعدى..» وهم لا يؤمنون بكل ذلك جملة وتفصيلاً.

نسخ شريعة الإسلام:

صرح البهاء، وابنه بأن البهائية جاءت لتنسخ شريعة الإسلام، وما قبلها من أديان، فإن الإسلام فى نظر البهاء يرتكز على القرآن الشريف كمصدر تشريعى لأحكامه، والقرآن فى نظر بهاء «لا يزيد عن مجلد واحد كتبه محمد فى ثلاث وعشرين سنة، ومحمد كان من قريش، وهم أعظم العرب فصاحة، وبلاغة، حتى عد أكثر العرب فصاحة بيانه، وبلاغة كلامه معجزة.. ولكننا فندنا هذا الرأى فى كتبنا، وهكذا يقول عبد البهاء، والإسلام لم ينتشر فى رأيه إلا فى القرن الثانى والثالث، لكن البهائية انتشرت فى أول أمرها، وأن الصحابة الذى صحبوا الرسول محمداً ﷺ كانوا كذبة مرتشون دنسو الذمم[1].

ويصرح البهاء بقوله بنسخ الإسلام قائلاً: «لقد طويت سماوات الأديان، وارتفعت سماوات البيان وأنزل لكم ما تبقى به أذكاركم وأسماؤكم فى كتاب لا يأخذه المحو ولا تبدله شبهات المغرضين، ضعوا ما عند القوم وخذوا ما أمرتم به من لدن آمر قديم؛ الله سبحانه وتعالى قد قدر محو كل دين وإبطال كل ملة عند ظهوره فى صورة البهاء»[2].

من هذه النصوص التى قصدت الاعتماد عليها فى هذه الدراسة يتبين لنا بوضوح أن نحلة هذه الطائفة لا تمت لأى دين سماوى بصلة، وإنما هى نتاج عقلية مريضة أصابها العفن، فأخذت تمزج فى فكرها بين المعقول واللامعقول لتظهر على الناس بمظهر النبى أحيانًا، والحقيقة الإلهية أحيانًا، وهذا ليس جديداً على تاريخ الثقافة الإسلامية، فإن تاريخ البهائية ليس غريبًا عن الفكر الباطنى والإسماعيلى، وليس غريبًا عن الغنوصية المسيحية، وليس غريبًا عن الديانات المجوسية السابقة عن الإسلام، فهى خليط من هذه وتلك، ولكن ظروف البيئة التى ظهرت فيها هذه الخرافات ساعدتها على رواج فكرها بين أصحاب العقائد المشوهة، واعتبر الاستعمار ذلك فرصة سانحة ليجعل البهاء وابنه بطلاً وفارسًا يدعو إلى المحبة والسلام، والإخاء الإنسانى رافعًا بذلك شعار الماسونية العالمية.

---

(١) صحائف الحجج لعبد البهاء: ص ١١٩، ١٢٠، نقلاً عن البهائية د. الوكيل: ص ٢٤٨.

(٢) نفس المرجع: ص ٢٥٣.

اجتماعيات البهائية:

وضع البهاء مجموعة من التعاليم التى يجب أن يتبناها أتباعه حتى يكونوا مؤمنين به، فتاوى بتعليم المرأة، وعدم القسوة عليها فى البيت، ومنع تعدد الزوجات، وجعل الزواج متوقفًا على رضا الطرفين فقط، ويمتنع الطلاق عندهم إلا للضرورة القصوى، ولا يكون إلا بمعرفة المحفل البهائى.

ويتخذ البهائية يوم ٢١ مارس من كل عام عيدًا لها؛ لأنه عيد ظهور البهاء، وتبتدئ السنة البهائية فى نفس اليوم ٢١ مارس، ويبدأ التقويم البهائى بها، وهو أيضًا تاريخ ظهورالباب ٢١ مارس سنة ١٨٤٤، وأود أن ألفت النظر بهذه المناسبة إلى العادة التى بدأت أجهزة الإعلام فى مصر تتخذها عيدًا للأسرة المصرية وهو يوم (٢١ مارس) من كل عام، وهو يوم عيد البهائية،وليس له علاقة بأى أسرة مصرية، أو مسلمة، حتى تتخذه عيدًا لها، وإنما هو تقليد أعمى للبهائية يتم عن أحد أمرين:

أ- إما الجهل والتقليد الأعمى للبهائية، وهذا يجب أن تتخلى عنه الأسرة المسلمة، حتى ولو اتخذه الإعلام عيدًا.

ب- أو العلم به ومحاولة نشر الفكر البهائى والعادات البهائية، بين الأسر المصرية من خلال تقليدهم، وهذا ليس من خلق المسلم، والأولى أن نبحث عن تاريخ أمجادنا نساء ورجالاً لنتخذه عيدًا للأسرة المصرية، بدلاً من هذا العبث الذى يدعو إليه.

وتحاول البهائية نشر دعوتها شرقًا وغربًا وبناء الهياكل الهندسية لتكون قصرًا لممارسة طقوسها، وقد اتخذت أسماء للشهور والأيام، تختلف عما هى عليه فى التقويم الميلادى، والهجرى، والشهر عندهم تسعة عشر يومًا.

ويتصف رؤساء المحافل عندهم بصفات كثيرة من العلم وسعة الثقافة، والنشاط الاجتماعى، والسياسى، ويتم انتخابه من ٣٨ عضوًا يتم انتخابهم من الأعضاء المنتمين لهذا المحفل أو ذاك، ويطلقون على المحافل اسم (مشرق الأذكار)، ولعل أشهر محفل بهائى يوجد الآن فى ولاية كاليفورنيا، بأمريكا.

البهائية فى مصر:

بدأت البهائية تتسلل إلى مصر خلال فترة الاستعمار البريطانى التى امتدت ثمانين عامًا، حيث كان اليهود يمثلون عنصرًا من عناصر الوجود الاستعمارى فى مصر، وكان لهم حضور قوى فى حركة رأس المال والاقتصاد المصرى، ومن خلال العنصر اليهودى وبمساعدة الاستعمار نفذت البهائية إلى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وتشير المصادر التى بين أيدينا إلى شخصيات بعينها كانت سببًا أساسيًا فى الدعوة إلى البهائية، والعمل على انتشارها فى مصر بمساعدة الأمير محمد على أحد أبناء الأسرة الحاكمة فى مصر.

فتذكر الوثائق التاريخية أن أحمد فائق راشد، سكرتير الأمير محمد على، وملا على التبريزى، وعبد الكريم الطهرانى (نسبة إلى طهران) والميرزا أبو الفضائل الداعية المعتمد للبهائية فى مصر، وقد عاش هذا الرجل فى مصر فترة طويلة يعمل سرآ على نشر البهائية، وأعلن الدعوة إليها جهارًا حين أعطاه الاستعمار الضوء الأخضر، وأعطاه وعدًا بالمعاونة على نشر دعوته، وعدم التعرض له، فبدأ يكتب فى الصحف، ويلقى المحاضرات، وجعل من جريدة المقتطف لسان الدعوة الجديدة، وأخذ يلتقى بالعلماء والمثقفين، المشتغلين بالإعلام، والعمل الجماهيرى، كالفنون والمسرح، واستطاع الرجل بذكائه أن يخدع كثيرًا من المثقفين حتى أن الزعيم مصطفى كامل أثنى عليه فى صحيفة اللواء، ولكن لم يطل أمر الرجل طويلاً، وسرعان ما اكتشف أمره الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، وبدأ يكتب فى الصحف والمجلات كاشفًا عن حقيقة هذا الرجل، ويحذر من دعوته الخبيثة، ودوره فى تشويه صورة الإسلام، واكتشف العلماء فى الأزهر أن الرجل داعية إلى وثنية جديدة، فوقف العلماء له بالمرصاد، وقد بدأت دعوته تتسلل إلى بعض أبناء الأزهر الذين اكتشف أمرهم فى عهد الشيخ حسونة النواوى، فأصدر أوامر بطردهم من الأزهر. وفى سنة ١٩٢٥، بعد سقوط الخلافة الإسلامية بعام واحد اكتشف أمر مجموعة أخرى من الأكراد التحقوا بالأزهر، فأمر الشيخ الجيزاوى بطردهم وتحويلهم إلى المحاكمة أمام القضاء المصرى، ولكن تدخل الإنجليز وأصدروا أمرًا بالعفو عنهم والاكتفاء بنفيهم من مصر، غير أن هذا

القرار لم يتم تنفيذه، وظلوا بمصر يعملون على نشر البهائية بتشجيع من الاستعمار الإنجليزى، الذى شجعهم على بناء محفل بهائى يكون مركزًا للدعوة فى مصر، وقد تم لهم ذلك فأقاموا مركزًا كبيرًا لهم بالقاهرة عند مستشفى الدمرداش بالعباسية، وظل هذا المركز قائمًا يباشر نشاطه إلى أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وحين وقفت الثورة على نشاطهم واكتشفت خطرهم الدينى والاجتماعى أصدرت أمرًا بوقف نشاطهم، والاستيلاء على المركز وتحويله إلى دار لتحفيظ القرآن الكريم تحت إشراف الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم، وقضت الثورة بهذا القرار على نشاطهم رسميًا، وأصبح أى نشاط لهم جرمًا يعاقب عليه القانون المصرى[(١)].

وقد قام عبد البهاء بزيارة مصر وزار الإسكندرية والتقى بكثير من علمائها، وكان بعضهم يحسن الظن به فى أول أمره، ولكن قد تغير موقفهم منه، ومن دعوته بعد أن كشف الشيخ رشيد رضا حقيقة أمره، وبدأ العلماء يحذرون الناس منه، ومن دعوته.

ولم يكن للبهائية أن تجد لها موضع قدم فى مصر لولا تشجيع الاستعمار لها؛ لأنه كان يستعين بها فى العمل على تمزيق الصف، وإثارة الفتنة، والخلاف بين العلماء، واستطاعوا أن يفيدوا من تشجيع الاستعمار فاستصدروا قرارًا من المحكمة الأهلية بجلسة ١٤/١١/١٩٣٩، بعقد شراء بعض العقارات لصالح المحافل البهائية بمصر، ثم بدأت المشاكل الاجتماعية لهم تطفو على السطح بعد أن تقدم أحدهم لتوثيق عقد زواجه فى المحكمة حسب النظام البهائى، وكان يقصد بذلك أن ينتزع اعترافًا رسميًا من المحكمة بالزواج البهائى، لكن امتنعت المحكمة عن توثيق العقد ولم تعترف به، ثم تقدم أحدهم لإحدى المحاكم وهو مصطفى كامل عبد الله بدعوى قضائية طالبًا الاعتراف بهذا الزواج البهائى سنة ١٩٥٢، فحكمت المحكمة برفض الدعوى بجلسة ٢ مايو سنة ١٩٥٢.

ثم بدأ الأزهر الشريف يتخذ موقفًا رسميًا من هذا النشاط البهائى فأصدر مجمع البحوث الإسلامية العديد من الفتاوى بشأن خروج البهائية عن الإسلام وأنها فرقة

(١) البهائية: الوكيل: ص١٧٧هـ٢.

مرتدة، وأن أتباعها ليس لهم من الإسلام نصيب، حتى وإن تسموا بأسماء الأنبياء، كما أصدرت المحاكم المصرية كثيرًا من الأحكام ضد نشاطهم فى مصر، وكتب كثير من العلماء الأجلاء يبينون للناس ضلال هذه الفرقة وأسباب خروجهم عن الإسلام، ويحذرون العامة من الانخداع بكلامهم المعسول، وسوف أضع أمام القارئ بيان مجمع البحوث الإسلامية، وبعض الفتاوى والأحكام التى صدرت ضدهم فى مصر.

ومن المهم أن ننبه هنا إلى أن الإسلام لا يكره واحدًا منهم على الإسلام أو البقاء على الإسلام، فإن القاعدة الأساسية فى ديننا ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ولكن الغرض من ذلك أن ننبه إلى أن تعاليم وعقائد هذه الفرقة ليست من الإسلام فى شىء، وأن اعتقادها أو الإيمان بها، أو الدعوة إليها، يعتبر ارتدادًا عن الإسلام، وخروجًا على العقيدة الإسلامية. وبهذا نحذر الشباب من الانخداع بدعوتهم تحت ستار أنهم مسلمون، ومن حق الدولة، ومن سلطاتها وجهات الأمن بها أن يتخذ من القرارات ما يحفظ به أمن البلاد وينظم به أمورها.. فموقف الإسلام من عقيدتهم شىء وهو الرفض المطلق، وموقف الدولة منهم شىء آخر لأن ذلك يخضع للنظم والقوانين والدستور الذى ينبغى أن يخضع له كل من يستظل بسلطان الدولة.

بيان مجمع البحوث الإسلامية:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فقد ظهرت البابية أو البهائية فى بلاد فارس بدعة نشرها نفر من الخارجين على الإسلام بل وعن سائر الديانات السماوية الأخرى، وقد حمل وزرها رجل يدعى (ميرزا على محمد الشيرازى) الذى أطلق على نفسه لقب (الباب) أى الواسطة الموصلة إلى الحقيقة الإلهية، وكان هذا اللقب شائعًا عند الشيعة التى ظهرت بينها هذه البدعة مأخوذة من حديث الترمذى: «أنا مدينة العلم وعلى بابها».

ومن ثم أطلق على هذه البدعة (البابية).

ثم كان من خلفاء هذا المبتدع رجل اسمه (حسين نورى) أطلق على نفسه لقب (بهاء الله)، وأطلق على هذه البدعة اسم (البهائية).

وكان من آخر زعمائها وأشهرهم (عباس أفندى عبد البهاء) المتوفى عام ١٩٢٣م، ثم (شوقى أفندى الربانى) المتوفى عام ١٩٥٧م، ولقد كان مصير صاحب هذه البدعة الأول القتل فى عام ١٨٥٠م، بمعرفة الحكومة الإيرانية القائمة فى ذلك الوقت، استجابة لآراء العلماء والفقهاء الذين أفتوا بردته عن الإسلام.

كما نفت حكومة إيران خليفته ميرزا (حسين على نورى) إلى تركيا حيث انتقل إلى أرض فلسطين، ومات فيها ودفن فى عكا عام ١٨٩٢م.

والبابية أو البهائية فكر خليط من فلسفات وأديان متعددة، ليس فيها جديد تحتاجه الأمة الإسلامية لإصلاح شأنها وجمع شملها، بل وضح أنها تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمار فهى سليلة أفكار ونحل ابتليت بها الأمة الإسلامية حربًا على الإسلام وباسم الدين.

ومبادئ هذه البدعة كلها منافية للإسلام، ومن أبرزها:

١- القول بالحلول:

بمعنى: أن الله سبحانه وتعالى بعد ظهوره فى الأئمة الاثنى عشر، وهم أئمة الشيعة - ظهر فى شخص اسمه (أحمد الإحسائى) ثم فى شخص الباب ثم فى أشخاص من تزعموا هذه الدعوة من بعده.

ولقد ادعى بهاء الله أولاً: أنه الباب، ثم ادعى أنه المهدى، ثم ادعى النبوة الخاصة، ثم ادعى النبوة العامة، ثم ادعى الألوهية، وذلك كله باطل ومخالف لنصوص القرآن الكريم.

فالله سبحانه منزه عن المكان، وبالتالى عن الحلول، وادعاء النبوة تكذيب للقرآن الكريم أو جحود له إذ قال الله سبحانه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ**﴾ [الأحزاب: ٤٠].

٢- جحود البهائيين بـ(يوم القيامة):

ويقولون: إن المراد به ظهور المظهر الإلهى، وإن الجنة هى الحياة الروحانية، وإن النار هى الموت الروحانى.

٣- ادعاء بعضهم نزول الوحى عليهم، وأن بعضهم أفضل من سيدنا محمد ﷺ ووضعهم كتبًا تعارض القرآن، والادعاء أن إعجازهم أكثر من إعجاز القرآن.

وتلك قضايا يضللون بها الناس، ويصرفونهم عما جاء به القرآن فى شأن كل أفاك أثيم.

٤- ادعاء أن بدعتهم هذه بتطوراتها منذ نشأت ناسخة لجميع الأديان.

٥- الإسراف فى تأويل القرآن والميل بآياته إلى ما يوافق مذهبهم، حتى شرَّعوا من الأحكام ما يخالف ما أجمع عليه المسلمون، من ذلك أنهم:

١- جعلوا الصلاة تسع ركعات والقبلة حيث يكون بهاء الله، وهم يتجهون إلى عكا بدلاً من المسجد الحرام، مخالفين قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة: ١٤٤].

إذ صارت قبلة المسلمين هذه أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، لا يحل لمسلم إنكاره أو التحول عن هذه القبلة، وكذلك عدد الصلوات ومواقيتها، وركعاتها، وسجداتها وما يتلى فيها من القرآن، وما يبدى فيها من دعاء، كل ذلك مجمع عليه من المسلمين بعد ثبوته ومعلوم من الدين بالضرورة.

٢- إبطال الحج إلى مكة، وحجهم حيث (بهاء الدين) إلى عكا، مخالفين بهذا صريح القرآن الكريم فى شأن فريضة الحج.

٣- تقديسهم العدد ١٩، ووضع تفريعات كثيرة عليه، فهم يقولون: الصوم تسعة عشر يومًا، بالمخالفة لنصوص القرآن فى الصوم، وأنه مفروض به صيام شهر رمضان.

ويقولون: إن السنة تسعة عشر شهرًا، والشهر تسعة عشر يومًا، مخالفين قول الله سبحانه: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**

والأرض ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقول الله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ومخالفين الأمر المحسوس المحسوب أن الشهر القمرى إما تسعة وعشرين يومًا وإما ثلاثين يومًا، وهو أيضًا ما أنبأ به الرسول محمد ﷺ.

٤- إلغاؤهم فريضة الجهاد ضد الأعداء الثابتة بصريح القرآن، وصحيح السنة النبوية، ودعوتهم هذه قضاء على الأمة الإسلامية، بل وعلى كل دولة من دولها، إذ فى الاستجابة لها قضاء على روح الكفاح ودعوة إلى الاستسلام للمستعمرين والمغامرين، وهذا ما يؤكد انتماءهم للصهيونية العالمية، بل وأنهم نبت يعيش فى ظلها وبأموالها وجاهها.

مقاومة المجتمع الإسلامى لهذه البدعة:

لقد عارض الشعب الإيرانى وعلماؤه وحكومته هذه البدعة حين ظهورها، وناظروا مبتدعها الأول (الباب) وحكم عليه بالردة، وأعدم فى تبريز فى شهر يوليو سنة ١٨٥٠.

وحين وفدت البهائية إلى مصر قاومتها كل السلطات على الوجه التالى:

١- أفتى الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر بكفر (الميرزا عباس) زعيم البهائيين، ونشرت هذه الفتوى فى جريدة مصر الفتاة فى ٢٧/ ٢/ ١٩١٠ بالعدد ٦٩٢.

٢- صدر حكم محكمة المحلة الكبرى الشرعية فى ٣٠/ ٦/ ١٩٤٦م، بطلاق امرأة اعتنق زوجها البهائية باعتباره مرتدًا.

٣- أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر فى ٢٣/ ٩/ ١٩٤٧م، وفى ٣/ ٩/ ١٩٤٩، فتوتين بردة من يعتنق البهائية.

٤- صدرت فتاوى دار الإفتاء المصرية فى ١١/ ٣/ ١٩٣٩م، وفى ٢٥/ ٣/ ١٩٦٥م، وفى ١٣/ ٤/ ١٩٥٠، بأن البهائيين مرتدون عن الإسلام.

٥- وأخيرًا أجابت أمانة مجمع البحوث الإسلامية على استفسار نيابة أمن الدولة العليا عن حكم البهائية، بأنها نحلة باطلة لخروجها عن الإسلام للإلحاد والكفر، وأن من يعتنقها يكون مرتدًا عن الإسلام.

ثانيًا:

عندما سجل البهائيون محفلهم فى المحاكم المختلطة برقم (٧٧٦) فى ٢٦/ ١٢/ ١٩٣٤م، حاولوا أن يوجدوا لهم صفة الشرعية، لكن الحكومة قاومتهم، ويتضح هذه مما يلى:

١- قدم المحفل الروحانى المركزى للبهائيين بمصر والسودان طلبًا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لتسجيله، وقد رفض هذا الطلب بناء على ما رأته إدارة قضايا الحكومة فى ٥/ ٧/ ١٩٤٧، كما رفض طلب صرف إعانة له من هذه الوزارة.

٢- رأت إدارة الرأى بوزارتى الداخلية والبلدية والقروية فى ٨/ ١٢/ ١٩٥١ أن فى قيام المحفل البهائى إخلالاً بالأمن العام، وأنه يمكن لوزارة الداخلية منع إقامة الشعائر الدينية الخاصة بالبهائيين.

وقد تأيد بما رآه مجلس الدولة فى ٢٦/ ٥/ ١٩٥٨، من عدم الموافقة على طبع إعلان دعاية لمذهب البهائية؛ لأنه ينطوى على تبشير غير مشروع، ودعوة سافرة للخروج على أحكام الدين الإسلامى وغيره من الأديان المعترف بها، ورأى منع ذلك لمخالفته للنظام العام فى البلاد الإسلامية.

٣- حكمت محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة فى مصر فى القضية رقم ١٩٥ بتاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٥٢م، برفض دعوى أقامها بهائى، وجاء فى تسبيب هذا الحكم تقريرها أن البهائيين مرتدون عن الإسلام.

٤- صدر القرار الجمهورى رقم ٢٦٣ لسنة ١٩٦٠، ونص فى مادته الأولى على أنه: تحل المحافل البهائية، ومراكزها الموجودة، ويوقف نشاطها، ويحظر على الأفراد والمؤسسات والهيئات القيام بأى نشاط مما كانت تباشره هذه المحافل والمراكز.

ونص فى مادته الأخيرة على تجريم كل مخالف وعقابه بالحبس وبالغرامة.

٥- وتنفيذًا لهذا القرار بقانون أصدر وزير الداخلية قراره برقم ١٠٦ لسنة ١٩٦٠م، بأيلولة أموال وموجودات المحافل البهائية ومراكزها إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم.

٦- حكم بالحبس والغرامة في القضية رقم ٣١٦ لسنة ١٩٦٥م، على عناصر من أتباع البهائية لقيامهم بممارسة نشاطهم في القاهرة، كما قبض على غيرهم في طنطا في سنة ١٩٧٢، وكذلك في سوهاج.

٧- قبض على مجموعة منهم أخيراً في فبراير سنة 1985 برئاسة أحد الصحفيين، وقد اعترفوا بإيمانهم برسولهم بهاء الله وكتابهم المقدس، وإن قبلتهم جبل الكرمل بحيفا في إسرائيل.

وقد وجهت إليهم تهمة مناهضة المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم في البلاد، والترويج لأفكار متطرفة بقصد تحقير وازدراء الأديان السماوية الأخرى.

٨- أوصى المؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية بتحريم هذا المذهب وتجريم معتنقيه.. وبعد...

فإن فيما تقدم تعرية للبهائية وكشفًا لخطوطها الفكرية الموجهة نحو العقيدة الإسلامية وجحودها بل وحربها الدائب منذ أكثر من قرن من الزمان على الإسلام والمسلمين، وأنها تظاهر أعداء الأمة الإسلامية وتناصرهم في القضاء على هذه الأمة وعلى الإسلام.

إن البهائيين (ودعوتهم هذه التي مرت بهذه التطورات ووُجهت بتلك المقاومة في البلاد التي نبتت فيها (إيران) حيث أعدم مبتدعها بوصفه مرتدًا عن الإسلام، ونفي خليفته).. مازالوا مثابرين عليها.

وفي مصر صدرت الفتاوى من علماء الإسلام، والأحكام من جهات القضاء المختلفة ثم الفتاوى القانونية المتعاقبة، وكل أولئك قد أثّموا هذا المذهب وحكموا ببطلانه.

ثم صدر القرار الجمهوري الذي حظر نشاط البهائية دون أن يجرمها بعقاب رادع، يتساوى مع خطورتها على عقيدة الناس الإسلامية بل وعلى العقائد السماوية الأخرى بوجه عام: اليهودية والمسيحية.

ومن ثم أطلت الفتنة برأسها مرة أخرى في وقت تزاحمت فيه الأفكار الموفدة الفاسدة التي ساعدت على بروز طوائف من الجماعات كل له فكر شارد، بل وادعى بعض الناس النبوة -ومانزال محاكمة هذه وذاك تسير الهوينا، وما زال المجتمع يترقب ما تسفر عنه هذه المحاكمات.

إن مصر -وفيها الأزهر- الذي انعقدت لها به راية زعامة العالم الإسلامي ينبغي أن يطارد فيها كل فكر منحرف عن الإسلام بكل حزم حتى تظل في مكان القيادة والريادة الإسلامية.

إن هذا المذهب البهائي وأمثاله من نوعيات الأوبئة الفكرية الفتاكة يجب أن تجند الدولة كل إمكاناتها لمكافحته والقضاء عليه.

إذ إن عقيدة الإسلام وصيانتها لا تقل في مرتبتها عن حماية الأجساد من الأوبئة المرضية التي تسارع الدولة لعلاجها بالحزم والحسم، بل العقيدة أولى؛ لأن صحتها نقاء الحياة وعبادة الله.

إن الأمة إذا فقدت عقيدتها انمحت ذاتيتها وغلبها أعداؤها..

إن مصر يجب أن تذكر دائمًا أنها قامت بالدفاع عن الإسلام، وعن أرض المسلمين منذ دخلت فيه، وأنها سبق أن استردت القدس، وحررت فلسطين باسم الإسلام، ولنذكر أن مصر إنما حاربت في رمضان سنة ١٣٩٣هـ أكتوبر سنة ١٩٧٣م، تحت نداء الإسلام: «الله أكبر»، وبهذا النداء وتحت لوائه انتصرت، وأن عليها أن تطهر أرضها من هذه الأرجاس، وأن تنفي عنها هذا الخبث ليستقيم بها الأمر، وتظل باسم الإسلام، رائدة ناهضة.

والأزهر يقرر:

أن الإسلام لا يقر أي ديانة أخرى غير ما أمرنا القرآن باحترامه فلا ينبغي، بل يمتنع أن تكون في مصر ديانة غير الإسلام، ثم المسيحية واليهودية؛ لأن كل ديانة أخرى غير مشروعة ومخالفة للنظام العام.

وإن الأزهر ليهيب بالمسئولين في جمهورية مصر العربية أن يقفوا بحزم ضد هذه الفئة الباغية على دين الله، وعلى النظام العام لهذا المجتمع، وأن ينفذوا حكم الله

فيها، ويبنوا القانون الذى يستأصلها ويهيلوا التراب عليها، وعلى أفكارها، وحماية للمواطنين جميعًا من التردى فى هذه الأفكار المنحرفة عن صراط الله المستقيم.

إن هؤلاء الذين أجرموا فى حق الإسلام والوطن يجب أن يختفوا من الحياة لا أن يجاهروا بالخروج على الإسلام.

إن الأمر جد يدعو إلى المسارعة النشطة من السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية لإعمال شئونها ولنذكر دائمًا أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

إن هذه الفتنة لم تحظ بالاهتمام المناسب مع أنها جريمة الجرائم، من الكبائر، فلنبادر بالدفاع عن حقوق الله التى تنتهك وتستباح، وعن دين الله الإسلام الذى يفتن الناس عنه بباطل من القول وزورا، وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم.

ألا هل بلغ الأزهر..

اللهم فاشهد..

شيخ الأزهر

ورئيس مجمع البحوث الإسلامية

(جاد الحق على جاد الحق)

****

الفصل الثامن

مشاريع الإصلاح

بداية المشروع العلمانى:

يكاد يجمع الدارسون والمهتمون بعوامل النهضة الحديثة على أن بداية هذه النهضة ارتبطت بعصر محمد على من جانب، وبالحملة الفرنسية من جانب آخر، فإن محمد على قد وجه اهتماماته إلى النهوض بمصر زراعيًا، فشق الترع وأقام الجسور والسدود والقناطر، واجتماعيًا وثقافيًا، فأرسل البعثات إلى أوربا، وشجع التعليم، فأقام المدارس ونشر أبناؤه رياح التعليم من بعده فى ربوع مصر.

ومن جانب آخر، فإن معظم الدارسين لهذه القضية يربط بدايتها بالحملة الفرنسية، ويجعل مطبعة نابليون التى جلبها إلى مصر بداية عهد جديد فى مصر، يسمى عصر التنوير، لأن الشرق العربى لم يكن له عهد بالمطابع قبل حملة نابليون على مصر.

ونحن من جانبنا ندعو إلى التحفظ فى تقبل هذه الأحكام على إطلاقها، ذلك أن مسيرة التاريخ فى مصر وقراءة عوامل نهضة عالمنا العربى عمومًا كانت تسير فى خطها الطبيعى، وإن بدا هذا بطيئًا، لكنه كان يسير فى اتجاه مخالف فى الأهداف والمقاصد لمن أرخوا لعصر النهضة المصرية بدخول الحملة الفرنسية مصر، ولا أشك فى أن محمد على قد خطا خطوات ملحوظة فى مسيرة هذه النهضة وبعث عواملها، كما لا نشك فى أهمية الاحتكاك الثقافى الذى حصل بين رجال الحملة الفرنسية والمجتمع الشرقى عمومًا فى مصر وفى عكا، لكن لا ينبغى أن نبالغ فى هذه القضية فنجعلها بداية لعصر النهضة فى الشرق عمومًا وفى مصر خصوصًا، فإن المطبعة التى جلبها نابليون إلى مصر لم تكن هى أول مطبعة عرفها الشرق. كما يدعى أصحاب هذا الرأى، بل إن الشرق قد عرف المطبعة وتعامل بها قبل حملة نابليون بما يقرب من قرن كامل، فإن مقر الخلافة فى الأستانة قد عرف الطباعة بتجميع الحروف البارزة التى اخترعها «جوتنبرج» الألمانى، بفضل أحد أبناء السلطنة، والذى قدم للسلطان أحمد الثالث تقريرًا يبين فيه أهمية الطباعة وضرورة الاستعانة بها فى المكاتبات ونشر الثقافة، وبدأت السلطنة تعتمد

عليها ابتداء من سنة ١٧٢٨م[1]، كما أن مطبعة بولاق بدأت نشاطها الثقافى فى مصر من عام ١٨١٩، أو ١٨٢٢م، وأصبحت مطبعة بولاق من هذا التاريخ ركيزة أساسية لنشر أمهات الكتب الثقافية فى مصر والعالم العربى، فلماذا يعول الدارسون على مطبعة نابليون ويجعلونها رمزًا حضاريًا لبداية النهضة فى مصر، ويهملون دور مطبعة الخلافة ومطبعة بولاق؟ ولماذا الإصرار على ربط بداية نهضتنا بالحملة الفرنسية فقط؟ إن هذا الموقف يحتاج من الدارسين إلى مراجعة أمينة وقراءة التاريخ بعين العربى المسلم، لا بعين الأوربى المستشرق.

ومهما يكن من أمر، فإن التيار العلمانى فى مصر بدأ فى أواخر القرن التاسع عشر، واشتد عوده فى مصر إبان عصر الاحتلال، ولا زال يدندن حول قضايا التغريب إلى الآن، مستعملاً فى ذلك ألفاظ الغرب ومصطلحاته مثل التنوير -التقدمية- العلمانية.

وأنشئت فى مصر مؤسسات ثقافية حرسها الاستعمار، وسهر على تغذيتها بالأقلام والعقول التى أخذت عن الاستشراق منهجه فكرًا وثقافة، وجاءت هذه العقول إلى المنطقة لتبث أفكارها وتنشر آراءها خلال نشاط هذه المؤسسات، وحاولوا بطرق مختلفة نقل المشكلات التى مثلت بؤرة الصراع بين الكنيسة والعلم فى العصور الوسطى بأوربا بملابساتها وظروفها إلى مصر والعالم الإسلامى، واستوردوا لها نفس الحلول التى تخلص بها العلماء من سطوة الكنيسة فى الغرب، دون أن يفطنوا إلى أن الإسلام فى موقفه من العلم، ليس هو الكنيسة فى موقفها من العلم، وأن المجتمع الإسلامى ليس هو أوربا فى عصورها المظلمة.

فنادوا -ولا يزالون- بفصل الدين عن الدولة، كما فصلت أوربا السلطة السياسية عن السلطة الدينية ناسين أو متناسين أن السلطة الدينية ليس لها فى الإسلام مكان ولا مكانة، لا على خريطته الأصولية، ولا على خريطته التاريخية.

ونادوا -ولا يزالون- بالدولة المدنية التى ينبغى أن لا تخضع للإسلام فى شىء. لا فى الحكم، ولا فى الثقافة، ولا فى شئون الحياة الاجتماعية والمدنية. فنادوا بأن

(١) راجع الإسلام المعاصر: د. على مراد بالفرنسية، ترجمة محمود على مراد ص ٤١ ن ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤.

يكون التعليم مدنيًا لا دينيًا، وأن يكون الحكم لا دينيًا، وأن يكون شعار الدولة الرسمية هو اللادينية. هكذا نادوا فى الماضى ولا يزالوان فى الحاضر.

كما نادوا -ولا يزالون- بأن تحذو المرأة فى مصر حذو المرأة فى أوربا، خاصة فى فرنسا حذو القذة بالقذة فى العادات والتقاليد.

كما نادوا -ولا يزالون- بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث تطبيقًا لمبدأهم اللادينى، وليس ببعيد عن العقلية المصرية ما جرى على صفحات الجرائد والمجلات من السباب والشتائم والاتهامات، واستدعاء السلطات على من كتب تقريرًا علميًا ينقد فيه مؤلفات بعض العلمانيين الذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث، ولقد قامت الدنيا ولم تقعد إلى الآن بسبب هذا التقرير الذى انتصف فيه صاحبه لدينه ولوطنه.

وتمخض نشاط العلمانيين فى نهاية القرن الماضى وأوائل هذا القرن عن مجموعة من المؤلفات التى مثلت المرجعية الفكرية للعلمانيين المعاصرين، فألف قاسم أمين كتابيه عن المرأة «تحرير المرأة»، و «المرأة الجديدة»، وألف سلامة موسى كتابه: «ما هى النهضة»..

وألف على عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» وألف طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر»، وكتابه «فى الشعر الجاهلى»، لكنه رجع عن آرائه فى هذين الكتابين فيما بعد.

كما ألف كرومر المستشار الإنجليزى للاحتلال فى مصر كتابه «مصر الحديثة»، وجسدت هذه المؤلفات وغيرها مطالب العلمانيين فى الوطن العربى التى نوجزها فيما يلى:

١- أن يحذف من الدستور النص على أن الدين الرسمى للدولة هو الإسلام لتصبح دولة علمانية لا دينية، وأن يحذف من القوانين كل ما يتصل بالإسلام كعقيدة وشريعة.

٢- أن تنقى برامج التربية والتعليم من المواد الدينية، فيحذف من مناهجها كل ما يتعلق بالإسلام، والتربية الإسلامية، ليصبح التعليم علمانيًا لا دينيًا.

٣- ليس هنالك شىء مقدس فوق النقد، ولا بد أن تخضع النصوص الدينية (الكتاب والسنة) للنقد العقلى، فما قبله العقل منها يؤخذ به؛ وما لم يقبله العقل لا يعمل به.

٤- مساواة المرأة بالرجل فى الإرث الشرعى، وفى حق القوامة على الرجل، والعصمة، وكما سمعنا فى مؤتمر السكان سنة ١٩٩٢م من تكوين الأسرة غير التقليدية، يعنى المعاشرة الجنسية بدون رباط الزوجية، ولقد وقف شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق معلنا رفضه لقرارات هذا المؤتمر كما رفضها كذلك أجهزة الدولة الرسمية.

والمؤلفات التى سبق ذكرها تجسد هذه المطالب وتعبر عن هذا المشروع فى نواحيه الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أصحاب هذه المؤلفات قد رجع بعضهم عن آرائه فى أواخر أيامه، لكن ما زال أثرها حيا فى عقول تلامذتهم، يحركهم، ويتغنون بما فيها على أن فيه الخلاص وبه النهوض، ولم يعلم أصحاب هذه الأصوات أن مؤلفى هذه الكتب التى يحتفلون بها قد رجعوا عن آرائهم فيها، بل إن بعضهم قد صرح بنقيض ما ذهب إليه فى هذه المؤلفات.

واقتداء بالغرب، فكما أبعدت السلطة الكنيسة عن الحياة وشئونها قام فى مصر من نادى بضرورة فصل الدين وإبعاده عن شئون الدولة، وألف على عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» استعار فيه آراء المستشرقين، خاصة القساوسة واليهود، حاول المؤلف جاهدًا أن يقول فى هذا الكتاب: إن الإسلام دين لا دولة، وأن حديثه عن توحيد المؤمنين به إنما هو حديث عن الوحدة الدينية، وليس حديثًا عن الوحدة السياسية، وأن ولاية الرسول ﷺ على المسلمين، ولاية روحية فقط، أما ولاية الحاكم فهى ولاية مادية، وجهد المؤلف نفسه فى تلمس الأدلة التى حاول أن يؤيد بها دعواه فى الفصل بين وظيفة الرسول ﷺ ووظيفة الحاكم، ولم يحاول أن يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] ولسنا فى مجال الرد على هذا الرأى أو ذاك، وإنما نعرض فقط تاريخ الموقف العلمانى وتسلسل الأحداث وارتباطها، اللاحق منها بالسابق.

وقد شكلت لجنة من علماء الأزهر لتفنيد دعاوى هذا المؤلف والرد عليها، لكن ما زالت الأصوات -حتى يومنا هذا تنادى بالدولة المدنية العلمانية وتنحية الإسلام عن شئون الحياة العملية، ولم يعلموا أن على عبد الرازق قد رجع عن رأيه ١٩٤٦م، بعد أن تبين الحق له، وقال بأن الإجماع أصل من أصول التشريع الإسلامى، وأن الإمامة ثابتة بإجماع الأمة.

٣- والتقت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربى حضارة ومدنية، فكرًا وثقافة، علاقات اجتماعية، ونظام حياة ووضع سلامة موسى كتابه «ما هى النهضة» يطالب فيه المجتمع المصرى إذا أراد أن ينهض كما نهضت أوربا فعليه أن يحذو حذوها فى العادات والتقاليد، فى المأكل والمشرب، فى الفكر والثقافة، فى التخلص من الأديان، كما تخلصت أوربا، ويصرح بأنه لا سبيل لنا إلى النهوض إلا بالتخلص من الغيبيات، وأن نجعل هذه الحياة الدنيا هى الهدف والغاية، يجب أن نعمل لها لا لغيرها، فليس وراءها ما يستحق أن نعمل لأجله، وأن الإيمان بأن هناك دارًا نعمل لها غير هذه الدار الدنيا محض خرافة وعين الجهل، ولم تتقدم أوربا إلا حين رفضت هذه الخرافات، ومحاربتها لهذه الجهالات، وكتاب سلامة موسى يقوم كله على أساس هاتين الفكرتين:

الأولى: أن نجعل الغرب قبلتنا فى كل شىء فنحذو حذوه، وكرر نفس القضية طه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» ولا زالت العوة مستمرة إلى وقتنا هذا.

الثانية: إنكار الأديان، والعمل من أجل الدنيا، إذ ليس وراءها شىء يجب أن نعمل له، والحديث عن اليوم الآخر هو حديث خرافة، ويترتب على هذه النقطة الثانية ضرورة التخلص من كل فكر دينى، أو عقيدة تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر.

بدأت هذه الفكرة سافرة فى كتابات سلامة موسى، وما زالت أصداؤها تتردد حتى يومنا هذا فى كتابات دعاة التنوير، والذى يتابع ما ينشر فى صفحات الجرائد

اليومية، واستعمال كلمات الجهل -الخرافية: الرجعية، ويتعرف على المقصود بهذه الكلمات يدرك تمامًا أن المسلسل ما زال مستمرًا، قد ينشط أحيانًا ويشتد عوده، وقد يخبو ويذبل أحيانًا أخرى، حسب الظروف السياسية والعلاقات الدولية وأثرها فى ذلك.

وكان بين الأساليب التى سلكها أصحاب هذا الاتجاه فى تمجيد الحضارة الغربية . تهجين الحضارة الإسلامية، وتصوير الماضى كله على أنه تخلف وظلام وفساد وإفساد، وأن العودة إليه أو الدعوة إلى إحيائه بالإفادة منه هى -عندهم- عين التخلف والجهل، فإذا دعا داع إلى التمسك بالكتاب والسنة كمصدرين للتشريع اتهموه بالتخلف، ووصفوه بالجهل، وإذا نادى مناد بوحدة المسلمين، كما اتحدت دول العالم تحت مسميات مختلفة اتهموه بالتعصب والطائفية، وإذا قرئ عليهم ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١] قالوا: إنها دعوة إلى الحياة الذاتية التى كان يعيشها إنسان الصحراء.

وكانت قضايا المرأة وعلاقتها بالرجل موضع اهتمام وبحث، ورددوا ما قاله المستشرقون الذين يقرأون القرآن بعين عوراء، فلا تبصر إلا ما يحلو لها بصره فقط، فأثاروا مشكلات لا أصل لها فى ثقافتنا الإسلامية وظهرت مصطلحات غريبة ليس للمسلمين عهد بها «مثل تحرير المرأة، وحقوق المرأة» «مساواة المرأة بالرجل»، ومن يقرأ هذه المصطلحات يخيل إليه لأول وهلة أن المرأة فى الإسلام مسترقة، ضائعة حقوقها، يستلبها الرجل أموالها، وهذه كلها مشكلات وافدة علينا ليست وليدًا شرعيًا لديننا ولا ثقافتنا، ولكنهم هكذا أرادوا شغل المثقفين عن مصير بلادهم والاشتغال عن عظائم الأمور التى تجرى فيها بالانشغال بالأمور التافهة التى يطول الجدل حولها، ويشتد الصراع فى بؤرتها، لتبقى النار مشتعلة بين المسلمين فلا يبصرون من مشكلاتهم إلا هذه الأمور الزائفة، أما المشكلات الحقيقية، التى تهتز لها الأوطان، وتنهض بها الأمم. فهم فى غيبوبة عنها، لأنه لا يراد لهم أن ينشغلوا بها، والقرآن والسنة تفيض نصوصها بحقوق كل من الرجل والمرأة قبل الآخر، وواجبات كل منهما نحو الآخر، بل كانت

نصوص القرآن والسنة فى جانب المرأة أكثر من جانب الرجل، ويكفى ذلك وصايا الرسول ﷺ بالمرأة فى خطبة الوداع حين قال: «**استوصوا بالنساء خيرًا**»، وقال ﷺ: «**ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم**»، ولا يجوز علميا ولا منهجيًا حمل أخطاء المسلمين على الإسلام فكم من المبادئ الراقية شوهت معالمها على يد الأتباع عند التطبيق.

****

المشروع الإسلامى

تمهيد:

يختلف بالضرورة المنطلق الذى يصدر عنه الإسلاميون فى مفهوم التنوير وفى التاريخ له عن المنطلق العلمانى.

ذلك أن المفهوم العلمانى للتنوير كما سبق توضيحه مفهوم غربى استشراقى فى وسائله ومقاصده، أما مفهوم التنوير فى المشروع الإسلامى فهو ينطلق من الركائز الأساسية لأى حركة تنويرية أو نهضوية كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

فعلى المستوى الثقافى: كان منطلقهم، العلم وسيلة وغاية، والعقل لغة وإدراكًا.

وعلى المستوى الاجتماعى: كانت الحرية فريضة دينية وكان مبدأ المساواة شعيرة من شعائر الإسلام.

وعلى المستوى السياسى: كان مبدأ العدل أساسًا لنظم الحكم ووسيلة لأداء الحقوق وقضاء الأمانات، وكان نظام الشورى وسيلة ومسلكًا لإقرار مبدأ العدل بين الرعية.

وهذه المرتكزات الأساسية يعتبرها الإسلام واجبات دينية، وأسسًا اجتماعية وفرائض سياسية، يتعلق بها استقرار الحكم، وحسن سياسة الأمة، وإهمالها أو الاعتداء على واحد منها يحدث بالضرورة خللاً فى النظام العام للبنية الاجتماعية للأمة.

ومن الجدير بالذكر أن مفهوم التنوير فى هذا المشروع الإسلامى يفتح الأبواب على مصراعيها للحوار والأخذ عن الآخر أيًا كانت ديانته وثقافته وحضارته، ويأخذ عنه النافع والمفيد من كل فن وعلم، ويجعل ذلك فريضة إسلامية وواجبات عليه، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها وينفتح على الغرب لينهل من علمه ومعارفه ما يساعده على التقدم ويحقق له أهدافه وغاياته، وليس صحيحًا ما يروجه العلمانيون أن الاتصال بالغرب أو الأخذ عنه أو الحوار معه أمر محرم

شرعًا عند الإسلاميين، أو هو مرفوض عندهم (إن هذا محض افتراء) ومن باب التلوث الثقافى الذى سمم الأجواء العقلية والفكرية فى بلادنا.

إن التنوير ينبغى أن يكون إسلاميًا فى أصوله ومنابعه، وفى وسائله ومناهجه، فى أهدافه ومقاصده، وهذا المنهج التنويرى يفتح أبوابه للنافع والمفيد من كل أمة شرقية كانت أو غربية كما سبق، هذا من ناحية مفهوم التنوير.

أما الأمر الآخر الذى يذهب إليه الإسلاميون فهو رفض التاريخ للنهضة المصرية بالحملة الفرنسية، إنهم يعترفون بدورها فى بعث الإحساس والحاجة إلى المزيد والمزيد من العلم والمعارف الغربية.

لكن لا ينبغى أن تفهم أن أبناء مصر كانوا قبل هذه الحملة فى عماء وجهالة، حتى جاء نابليون فابصرهم بعد عمى، أو هداهم بعد جهالة. لا، فإن ذلك لم يكن هدفًا من أهداف حملة نابليون. حتى وإن أقسم الاستشراق على ذلك، لم يأت نابليون ليوقظ مصر من سباتها، أو ليبعث فيها النهضة أو... أو... كما يروج لذلك المستشرقون ويتابعهم فى ذلك بعض العلمانيين، من يصدق هذه الأكذوبة فقد فاته الوعى بالتاريخ وإدراك أحداثه، نعم كان للحملة الفرنسية آثارها الثقافية فى الكشف عن حجر رشيد وكان للمطبعة التى جلبها نابليون دورها، هذا أمر لا ينبغى أن ينكر أثره، لكن أن يكون ذلك بداية للنهضة المصرية، فهذا أمر ينبغى التحفظ فى قبوله. أو أن نابليون جاء لينهض بالشرق فهذا تزييف للتاريخ.

إن العالم الإسلامى قد أدرك مفكروه أنهم فى حاجة إلى يقظة تخرجهم مما هم فيه من ركود، ولقد ظهرت بواكير هذه اليقظة فى وقت مبكر قبل الحملة الفرنسية، بل إنهم يرون أن الحملة الفرنسية قد عملت على إجهاض هذه اليقظة ووأدها فى مهدها، خاصة أن الغرب كله كان إبان هذه الفترة متربصًا بالخلافة العثمانية، يعد العدة للانقضاض عليها. والتاريخ والواقع ربما أكدا هذه الحقيقة.

فمن ناحية نجد أن بواكير النهضة قد بدت ملامحها بظهور المطبعة فى عاصمة الخلافة بالآستانة منذ عام ١٧٢٨م.

ومن جانب آخر وجدنا الثورات الإصلاحية قد انتشرت فى أرجاء العالم الإسلامى شرقًا وغربًا بهدف الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى والنهضة العلمية، والذى يقرأ تاريخ إبان القرن السابع عشر -وهو بداية عصر النهضة الأوربية- سوف يتأكد أن بواكير النهضة قد بدأت فى الشرق فى هذه الفترة المبكرة، وكانت هذه البداية متزامنة مع بداية النهضة الأوربية مع اختلاف الوسائل والمناهج والمقاصد. وهذا أمر لا بد أن يكون واضحًا وفى الحسبان حتى لا تتوه معالم الأمور أمام الشباب.

ففى الهند شرقًا ظهرت حركة أحمد شاه ولى الله سنة ١٧٠٢- ١٧٦٢م ليعلن حربه على الاستعمار الإنجليزى، كما ظهرت بعده حركة أحمد خان ١٨١٧ - ١٨٩٨م وفى وسط الجزيرة العربية ظهرت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩١) لتصحيح عقائد الناس ويقضى على الجهل والخرافات.

كما ظهرت فى إفريقيا حركة عثمان دان فوديو (١٧٥٤-١٨٩١م).

وفى السودان ظهرت الثورة المهدية ووقفت فى وجه الاستعمار الإنجليزى.

وفى ليبيا ظهرت الحركة السنوسية، وفى مطلع القرن العشرين كانت دعوة الأفغانى ومحمد عبده فى مصر وابن باديس وعبد القادر الجزائرى فى شمال إفريقيا والكواكبى فى الشام وكلها دعوات إصلاحية نهضوية تنويرية.

وينبغى أن نعيد قراءة التاريخ الحديث، لكن بعين إسلامية كما سبق أن أشرنا وليس بعين المستشرقين الغربية، ينبغى أن نقرأ موقف الغرب من هذه الحركات الإصلاحية، كيف تآمر على وأد هذه الثورات وأن تتعرف على وسائل فى محاربتها.

لقد كانت القرون الثلاثة الأخيرة تمثل حدة الصراع الحضارى بين الشرق والغرب، وكان الغرب قد دخل عصر الصناعة، وقفز فى ذلك قفزات هائلة فسخر كل وسائله للسطو على مقدرات العالم الإسلامى والقضاء على هذه الثورات، وشاع بين دول أوربا مصطلح الخطر الإسلامى وتعبيرًا عما أحسه الغرب من بواكير نهضة الشرق التى ينبغى أن يقضى عليها وألا يسمح لها بأن تمارس دورها فى حركة التاريخ.

إن ظهور مصطلح الخطر الإسلامى فى الغرب أمر له دلالته التاريخية فى التربص بالشرق وحضارتهم، وإعداد العدة لمجابهة هذا الخطر والقضاء عليه، إننا إذا استطعنا أن نتجرد من آثار قراءة المستشرقين لتاريخنا وقرأنا بعين العربى المسلم تاريخ المنطقة العربية فى بداية القرن السابع عشر -وهو تقريبًا بداية عصر النهضة الأوربية- نجد أن أبناء المنطقة النابهين فى كل قطر قد خالجهم الإحساس بضرورة التغيير والبدء فى نهضة علمية تواكب ما بدأته أوربا وتسير معها جنبًا إلى جنب.

فلقد أحس النابهون من أبناء كل قطر عربى بنوع من الخلل فى مسيرة العلوم، وإن هناك اهتمامًا ملحوظًا بالعلوم النظرية أو التى تسمى بالعلوم الإنسانية على حساب العلوم العلمية، ولا بد من تدارك هذا الخلل ومن هنا قامت مجموعة من العلماء يعملون على ترشيد مسيرة العلم، وإيقاظ الهمم نحو النهوض بخطى وئيدة.

وإذا تأملنا مقاصد هؤلاء الأعلام وأهدافهم نجد أنها لم تكن مقتصرة على الإحياء اللغوى والأدبى فقط، كما لم تكن مقتصرة على الإحياء الدينى والعودة الصحيحة إلى مصادره الأولى الصافية من كل تأويل، بل بالإضافة إلى ذلك كله كانت مقاصدهم تتجه نحو النهضة العلمية بالمعنى المعروف، فإن شخصية مثل الجبرتى الكبير والد الجبرتى المؤرخ بالإضافة إلى كونه فقيها حنيفيًا عالمًا باللغة والكلام، كان أيضًا إمامًا فى العلوم الأخرى، فبعد أن تصدر للإفتاء ولى وجهه نحو تحصيل هذه العلوم الكونية وانقطع لها من سنة ١٧٣١م فجمع كتبها وقضى فى تحصيلها عشر سنوات (١١٤٤- ١١٥٥هـ) حتى ملك ناصيتها وبرز فيها، فى الهندسة، والكيمياء، والفلك، والصنائع الحضارية، حتى التجارة والحدادة والسباكة والخراطة والسمكرة والتجليد والنقش والموازين، وأصبح بيته زاخرًا بأدوات الصناعة ومقصدًا لكل طلاب هذه الفنون، حتى أنه علم خدمه فى بيته كل هذه الصناعات، يقول الجبرتى المؤرخ عن أبيه:[1] وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك فى سنة ١١٥٩هـ ١٧٤٦م وأهدوا إليه من صنائعهم أشياء نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت،

(١) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: محمود شاكر، ط دار الهلال.

وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه.

ويقول الشيخ محمود شاكر معلقًا على هذه الفقرة من تاريخ الجبرتى: ولا شك أن هؤلاء الإفرنج هم المستشرقون الذين سبقوا حملة نابليون على مصر، وكانوا عيونه عليها ومستشاريه بها، وكان هؤلاء المستشرقون هم عيون الاستعمار وجواسيسه، والمخططون له لكى يجهز على هذه الحركات فى مهدها حتى لا تنهض. لأن الاستعمار ما زال ماثلاً فى ذهنه سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح، الذى فتح أبواب أوربا المسيحية أمام المد الإسلامى، وهؤلاء يعملون جاهدين على تقليم أظافر الخلافة وتقطيع أوصالها فى الأطراف وفى القلب على سواء.

ولذلك فقد تآمرت أوربا كلها شرقًا وغربًا على وأد هذه الحركات قبل أن تنهض، وتفتيت وحدة الخلافة العثمانية، وعقدوا من أجل ذلك المؤتمرات والندوات، ووضعوا مائة مشروع أوربى للقضاء على الخلافة العثمانية ووأد هذه الحركات النهوضية، لقد لفت البيان العربى شكيب أرسلان أنظار المسلمين إلى هذه المؤتمرات الأوربية فى تعليقاته على كتاب حاضر العالم الإسلامى لمؤلفه الأمريكى لوثروب استودارد، فكتب بحثًا مستقلاً عن هذه المؤتمرات بعنوان مائة مشروع لتقسيم تركيا الإسلامية ولعل تاريخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هو الوعاء الزمنى لتنفيذ هذه المؤتمرات بحيث جاء القرن العشرون والعالم الإسلامى كله واقع فى قضية الاستعمار شرقًا وغربًا، ولم يمض الربع الأول من هذا القرن إلا وقد شهد سقوط الخلافة رسميًا سنة ١٩٢٤م تنفيذًا لهذه المخططات.

ومن الإنصاف أن نقارن بين المنطقة العربية وأوربا فى بداية عصر النهضة لنجد التقارب واضحًا بين المنطقتين والسبق الأوربى كان من السهل جداً اللحاق به، كما يقول الأستاذ محمود شاكر لولا سياسة أوربا تجاه هذه المنطقة، لولا السطو المسلح على خبراتها ونهب كنوزها، وسرقة خزائن الكتب والعلم فيها، والفارق بين النهضتين يومئذ هو أن يقظة العالم الإسلامى كانت هادئة سليمة الطوية انبعاثها ذاتى، مقاصدها نبيلة، أهدافها أخلاقية، هو تحقيق سعادة البشرية فى حدود تعاليم

الإسلام، فكانت طبيعية فى مسيرتها غير متوجسة ولا متربصة بأحد من أهل الأرض، أما يقظة الغرب فكانت أشبه بالقفز الأعرج الخائف، منفجرة بحقد دفين من آثار فتح أوربا أمام الإسلام على يد محمد الفاتح مقاصدهم الفتك والسطو على أطراف هذه الخلافة واستئصالها، والضرب فى القلب والمقتل فى دار الإسلام، بالمدفع والقنبلة إن تيسر، وبالدهاء والمكر والخداع إن كان ذلك مطلوبًا، وأثبت التاريخ وصدق الواقع ما نقول به، كان الثأر والفتك مقصداً وغاية، لذلك كانت بدايتهم النهوضية تركز على تضبيع الأسلحة الفتاكة التى تحقق لهم غايتهم من اليقظة التى بدأوها.

نعم لقد كانت يقظة العلماء فى الشرق بشيرًا بنهضة حقيقية كاملة، وإحياء صحيح لماض تليد، وانطلاقًا صادقًا نحو مستقبل مأمول، لولا ما كان من موقف الغرب من العالم الإسلامى، لقد اجتمعت كلمة أوربا رغم ما بينها من خلافات - على تمزيق أطراف العالم الإسلامى واستنزاف خبراته، وبدأوا هذه المؤامرة بالهند البعيدة عن مركز الخلافة، وكانت شركة الهند البريطانية طليعة هذه المأساة، ثم بدأ الصراع بين فرنسا وإنجلترا على الاستيلاء على خبرات العالم العربى، وتفصيل القول فى ذلك له مكان آخر. لكن هنا أمور أحب أن أضعها أمام القارئ الكريم.

إن كنوز العرب والمسلمين العلمية والأدبية والتاريخية قد سطا عليها المستعمر، وكان ذلك من أول أهدافه ومن أهم مقاصده -والذى يزور المتحف البريطانى ومكتبات فرنسا ويحصى ما فيها من الآثار العلمية الإسلامية لا بد له أن يتساءل. لماذا ركزت الحملة الفرنسية فى مصر على سلب هذه الكنوز ونقلها إلى بلادهم؟

لماذا دأب نابليون منذ دخول القاهرة غازيًا على قتل خمسة أو ستة من خيرة علماء مصر كل يوم وتعليق رؤوسهم على الرماح والطواف بها فى شوارع القاهرة؟

لماذا حرص على اقتحام الأزهر بخيوله بالذات مع أن هناك مساجد تهفوا إليها قلوب العوام من الناس كمسجد الحسين والسيدة زينب وغيرها؟

ومما يلفت النظر ويثير العجب ما جاء فى شروط الصلح للجلاء عن القاهرة، فقد نصت الشروط التى وضعها نابليون على مايلى:

«أن الفرنسيين» يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم التى اشتروها من مصر، ومما يلفت النظر أيضًا أن نابليون بعد أن دخل مصر أصدر قرارات من الحكومة فى ١٦/٦/١٧٩٨م يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف نابليون بونابرت المهندسين والفنانين وغيرهم من أعضاء الهيئات التى تخضع لإشراف وزارة الداخلية وكذلك الأشياء التى يريدها لحملته.

والجبرتى المؤرخ يسجل لنا فى تاريخه لهذه الحملة وثائق تحتاج إلى إعادة قراءتها بعين مصرية لا بعين فرنسية، حتى ينصف المصريون أنفسهم وينصفوا التاريخ معهم.

لقد استطاعت الحملة أن تجمع علماء مصر فى كل فروع المعرفة وتجندهم إجباريًا تحت إمرة الحملة الفرنسية، ينهلون من معارفهم ويقفون على علومهم، وخصصوا لهم مكانًا محددًا أشبه بالمعسكر الإجبارى الذى يجتمع فيه الجنود تحت إمرة قائدهم، ويقول الجبرتى «وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم والرياضة كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين: حارة الناصرية» ليجتمعوا فيها ويكونوا تحت طلب الحملة وقوادها يستشيرونهم ويتعلمون منهم واتخذوا دار حسن كاشف جركسى مقرًا لهم وقد وصف الجبرتى ما وجده عندهم من الكتب الإسلامية الكثيرة التى شاهدها مترجمة بلغتهم، يقول: رأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف، كما وجد عندهم بردة البوصيرى وترجموها وغير ذلك من الفنون اللغوية والأدبية[١].

والغريب حقًا أن بعض الباحثين يقرأ ذلك عند الجبرتى ويحاول أن يفسر ذلك بأن الحملة الفرنسية قد أحضرت هذه الكتب معها من باريس لكى تنشر ما فيها من علم تنويرى بين أبناء مصر ولذلك جمعوا لها العلماء والأدباء. أرأيت أكثر من هذا مثيرًا للعجب. وهل أبناء مصر كانوا يجهلون هذه الكتب حتى يتعلموها من الحملة الفرنسية؟ أليس الأكثر قبولاً فى العقل أن يقال العكس، أن هذه الكتب التى جمعوها هى الكتب التى سرقوها من مكتبة الجبرتى الكبير وكلها كتب علمية

(١) عجائب الآثار ٣٥١٣ ط مصر ٢، ١٣هـ راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا كتاب محمد عبده ص ١.

من الآثار والتراث المصرى القديم، والمثير للدهشة إصرار الحملة الفرنسية الشديد على تجريد القاهرة من كل مصادر المعرفة والعلم. أليس ذلك أمرًا مثيرًا للعجب حقًا؟ إن هناك عينًا أخرى تقرأ تاريخ العلاقة بين الاستعمار والمسلمين وهى تختلف فى قراءتها للتاريخ وتفسيرها لأحداثه عن تلك العين الاستشراقية التى قرأت تاريخنا وفسرته تفسيرًا هوائيًا لتجعل الشرق موطنًا طبيعيًا للتأخر، ولتجعل الحملة الفرنسية منطلقًا لحضارة مصر الحديثة. ومن المؤسف أن يتابعها فى هذا التفسير تلاميذ الاستشراق فى العالم العربى[١].

إن هناك قراءتين لتاريخ العالم العربى المعاصر:

قراءة علمانية غربية استشراقية أورثها الاستشراق لتلاميذه من بعده. وهذه القراءة يمثلها أمثال رينان الفيلسوف الفرنسى، وورثها عنه الكثير من العلمانيين فى بلادنا وتتلخص هذه القراءة فى أن أسباب تأخر المسلمين هو الإسلام. ما يعتنقه المسلمون من قيم الإسلام، وما يدينون به من عقائد غيبية، ولقد جسد رينان رأى أصحاب هذه القراءة الاستشراقية فى محاضرة ألقاها بجامعة السوربون فى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣م وتحدث فيها عن علاقة الإسلام بالعلم والروح العلمية[٢] وكانت هذه المحاضرة مملوءة بالاتهامات بالنسبة للإسلام كدين وعقيدة وبالنسبة للبلاد التى تدين به وأن كل ما فعله الإسلام بأهله كان هو التأخر الحضارى ومحاربة العلم، وهذه القراءة قد انتقلت كما قلنا -إلى كثير من المشتغلين بالثقافة، وأخذوا يدندنون حولها ويطالبون ليلاً ونهارًا وسرًا وجهارًا، بالتخلص من الإسلام لكى تنهض كما نهضت أوربا.

أما القراءة الثانية:

فيرى أصحابها أن العالم الإسلامى كان يسير فى اتجاه التطور الطبيعى نحو منطق العصر، لغة وحضارة، وثقافة، وعلما، كان يسير بخطى هادئة غير متشنجة، فى كل فروع المعرفة الإنسانية، وأثمرت جهود أبنائه وأفاد من جهودهم معظم بلاد العالم

(١) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا. محمود شاكر.

(٢) راجع الإسلام المعاصر. د/ على مراد ترجمة محمود على مراد، ص ٦١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، والمؤلف أستاذ بالسروبون.

مدرسة الإصلاح فى مصر

أ- الأفغانى:

وجه المصلحون فى مصر اهتمامهم نحو الرد على افتراءات المستشرقين على الإسلام وإزالة الشبهات التى يثيرونها حوله. وحاولوا أن يوضحوا للعامة والخاصة أن هجمة المستشرقين على الإسلام إنما هى جزء من مخطط استعمارى كبير، يقصد به تفريغ المسلم أولاً من الولاء لعقيدته وتشكيكه فيها بدعوى أنها سبب فى تأخر الشرق، لكى يصبح العقل والقلب صالحًا لتقبل ما يلقى عليه من أفكار يروج لها الاستشراق فى العالم، وليتقبل عنهم مزاعمهم وآراءهم حول الإسلام وأنه من أسباب تأخر المسلمين، وعن الغرب وسبب تقدمه. وأهمها أن الغرب لم يتقدم إلا بعد أن تخلص من الأديان. كان هذا أخطر ما فى هذ الحملة الاستشراقية فى مطلع هذا القرن.

فبدأ جمال الدين الأفغانى بكتابه «الرد على الدهريين» وكتب محمد عبده عن «الإسلام والمدينة» وحاول الأفغانى فى منهجه أن يحلل واقع المجتمعات المتدينة وما تتمسك به من قيم ومبادئ، وأثر ذلك فى النهوض بالمجتمع، وإن يقارن بين واقع هذه المجتمعات المتدينة والمجتمعات الأخرى اللادينية، وما يحكمها من غرائز البقاء فيها للأقوياء، شأن الحيوان فى الغابات.

إن المجتمع المتدين يتميز بسمات أخلاقية على مستوى الفرد والجماعة لا توجد فى المجتمع اللادينى، ذلك أن الإيمان بالأديان يجعل صاحبها ذا هدف سام ينشده، غاية نبيلة أخلاقية يسعى إليها، والتزام بها، من اعتقاده بالله واليوم الآخر. وركز فى هذا الجانب على ثلاثة أمور أكسبها الدين لأبنائه بينما افتقدها الملحدون عمومًا.

أولاً: أن الدين يجعل المتدين سيد عالمه، أنه ملك يمشى على الأرض وهو أشرف خلق الله فى ملك الله فلقد كرمه الله فى كتابه الكريم بالخبر الصادق فى قوله. . . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] واستخلفه الله فى هذا الكون

لإعماره وتسخيره لمصالحه، والإنسان المتدين هو الوحيد الذى يشعر بهذا التكريم الإلهى، والإنسان المتدين هو الوحيد الذى ينبغى أن يتصرف فى الكون من هذا المنطلق، إنه سيد الكون. وإن الكون مسخر لخدمته، إنه مسئول عن إعمار الكون وإحيائه، ويدفعه الاعتقاد الدينى إلى الشعور بالتقصير والتعرض للحساب إن هو أهمل الأخذ بهذه الأسباب أو قصر فيها.

ثانيًا: إحساس المتدين بأن أمته أشرف الأمم وأعرقها، وأكثرها حرصًا على إعمار الكون والإفادة منه، وأن غيره فى غى وضلال، ومن واقع إحساسه بهذين الأمرين عليه أن يتحمل مسئولية كبرى نحوه غيره من الأمم والأفراد، إنها مسئولية الدعوة إلى دينه والهداية إليه، إنها مسئولية إعمار الكون والإفادة منه.

ثالثًا: إيمان المتدين بأن هذه الحياة ليست غاية فى ذاتها وإنما هى طريق يجتازه الإنسان إلى العالم الآخر، إنه ورد إلى هذه الحياة لتحصيل الكمالات الأخلاقية الدينية التى تؤهله للعروج إلى عالم أفضل وأوسع من هذا العالم، إنه إذن كالمقدمة التى يجب أن يحسن المرء ترتيب مفرداتها ويحسن توظيفها ليحصل على أفضل النتائج المطلوبة، إن إيمان الفرد والمجتمع بهذه الأمور الثلاثة تجعله يتأبى على الدنيا من الأفعال والرذائل، ويرتفع عن انتهاك محارم الأخلاق أو التدنى فى السلوك، فيصير المجتمع فى نهايته مدينة فاضلة وتلك نهاية السعادة، هذا الاعتقاد هو، الزاجر الوحيد للإنسان عن افتراس حقوق الآخرين وأشد مانع له عن ممارسة الرذائل. وإلا فحدثنى بربك ما أكثرها القوانين وما أشد أنواع العقوبات وتنوعها على اللصوص ومقترفى الرذائل، مع ذلك فما أكثر الجرائم وأشدها فتكًا بالإنسان، وإن شئت فارم بنظرك إلى قوم يعتقدون فى أى دين ويرون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات، أو متطور عن نوع منهم كما يرى الملحدون، ثم انظر ماذا يفعلون ببنى الإنسان، وإن هذا الاعتقاد كما يرى الأفغانى هو أبلغ قائد إلى طريق العلا وقامات الشرف، فكيف يقول المستشرقون إن تمسك الشرق بالإسلام هو سبب تأخرهم، إن اعتقاد المتدين فى ربه وفى اليوم الآخر يورثه خصالاً هى عمدة السلوك الحضارى وأسسه وأهم هذه الخصال:

١- فضيلة الحياء:

هى التى تتولد فى النفس عن مراقبة الإنسان لربه، الذى يعتقد بمعينه فى كل وقت حتى وإن غاب عنه الناس، فهو رقيبه فى غيبة الآخرين، وصفة الحياء يلازمها شرف النفس، وهى عمدة السلوك فى الترفع عن كل رذيلة. وكل مجتمع فَقَدَ صفه الحياء فَقَدَ فاته من أساسيات السلوك الحضارى الكثير والكثير، لأن هذا مما يدور عليه معاملات الناس وعلاقتهم بالآخرين.

٢- الأمانة:

وهى ركيزة التعامل بين الناس وروح المعاملة والمعارضة، فإن ضاعت الأمانة فى مجتمع ما فقد فسدت زوح المعاملات واختل نظام المعيشة، إذا تطرق هذا الخلل إلى المسئولين بأن ضاعت الأمانة بينهم، فقد اختل الهيكل الأساسى للحكومة التى تدبر شئون الدولة وهذا أول باب الخلل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وبداية انهيار الأمم وسقوط نظامها فى أعين الرعية، ولابد أن يئول أمرها إلى الانقراض والفناء، لأن سقوط هذه الخصال بين المتحاكمين فيه معاندة للعدل ومعارضة للحقوق، وهما قطبا الرحى فى بناء أو انهيار الأمم وسقوط الحكومات.

٣- الصدق:

الذى هو صنو الأمانة ووليد الحياء، وهذه الأمور الثلاثة لا غنى عنها لمجتمع إذا ما أراد أن ينهض كلها محروسة فى الإسلا بالأوامر والأحاديث النبوية، ومرعية فى مجتمع المسلمين بالاعتقاد القوى الجازم.

إن الأفغانى هنا يبرئ الإسلام من تهمة المستشرقين له بأنه سبب فى تأخر المسلمى، ليعود بالملوم على المسلمين أنفسهم، وبما تفشى بينهم من خرافات وأباطيل وبعد عن الدين.

لقد تحدث الأفغانى عن الإسلام فقال: إنه فى مقدمة الأديان السماوية التى نزلت لإسعاد لبشر، لأنه يفضل الأديان الأخرى فى كثير من الأمور. إنه يصقل العقل بصقال التوحيد، يطهر الاعتقاد من رجس الأوثان بشرية كانت أو غيرها كما يعتقد الأخرون، إن الإسلام محا كلية جرثومية التعصب والتفرقة بين الأجناس،

لأن قاعدته الأساسية فى المفاضلة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم إن قاعدته فى الاعتقاد هو الإقناع والبرهان وليس التبعية والتقليد، ولذلك فإن دعوة الأفغانى الإصلاحية وإن بدت فى ظاهرها دعوة سياسية، إلا أن مضمونها وجوهرها هو الإصلاح الدينى الذى لخصه فى عبارته المحدودة «... أرجو أن يكون سلطان جميعهم -جميع المسلمين- القرآن، ووجهه وحدتهم»، إن علة تأخر المسلمين عنده ترجع إلى التساهل فى تطبيق تعاليم الإسلام، اجتماعياً، علمياً، وأخلاقياً: فإن الأصول الدينية الحقة المبرأة من الابتداع والاختلافات تنشئ الأمم، وتقيم الحضارات، وللأسف الشديد، فإن المسلمين قد اكتفوا من الإسلام باسمه ورسمه، دون مضمونه وروحه، أن القرآن حىٌّ لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، أن الأفغانى ينادى فى العالم الإسلامى هاكم «كتاب الله لم ينس فارجعوا إليه، وحكموه فى أفعالكم وأحوالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون».

إنه يصحح للعامة والخاصة فهمهم الخاطئ للإسلام، واعتقادهم فيه. حين يقول: «إن حركتنا الدينية بالدعوة إلى القرآن- كناية عن الاهتمام بقلع ما رسخ فى أذهان وعقول العوام ومعظم الخواص من لهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الصحيح، مثل فهمهم نصوص القضاء والقدر على معنى أنهم لا يتحركون إلى طلب المعالى والمحامد، ويركنوا إلى الدعة والخمول... إنه لابد من بعث القرآن ليحيى هذه النفوس، وليصحح هذه العقائد، فلقد سعد بالإسلام سلفنا وسادوا، فلماذا نشقى به ونستعبد؟

إنه ينعى على المسلمين تخلفهم، ودينهم يدعو إلى التقدم.

إنه ينعى على المسلمين تفرقهم، ودينهم يدعو إلى الوحدة.

إنه ينعى المسلمين جهلهم بعلوم الكون، ودينهم يدعو إلى العلم.

إنه ينعى على حكام المسلمين الظلم والاستبداد، ودينهم يدعو إلى العدل.

إنه يدعو العلماء إلى تصحيح عقائد الناس فى دين الله ليصير القرآن حياً متحركًا لا ساكنًا فى النفوس، يتلى للتبرك، ويكتب للتعاويذ فقط، ولقد أكد رشيد رضا

نفس المعنى فكتب يقول: «لقد جفت الأقلام وخفقت الأصوات من كثرة ما كتبنا وخطبنا فى كل موضوع. شقاء المسلمين بدينهم الذى سعد به أسلافهم، وبينا أن علة الشقاء فى إبداعهم فيه لا اتباعهم له وفى لبسه كما يلبس الفرو مقلوبًا»[1].

لقد كان الإسلام والتدين الحى ركيزة المنهج الإصلاحى لدى كل من الأفغانى ومحمد عبده، ورشيد رضا وابن باديس والكواكبى وحسن البنا، بل إن من أسباب تأخر المسلمين عند هؤلاء جميعًا هو عدم الفهم الصحيح للإسلام وروحه الحية الوثابة، وليس كما قال: «رينان» وتبعه فى ذلك كثير ممن تأثروا به.

ولقد جسد هؤلاء المصلحون علة تأخر المسلمين فى أمور محددة حاول كل منهم أن يعالجها بطريقته الخاصة. وأهم هذه الأسباب:

١- التخلى تدريجيًا عن روح الإسلام ونقص أو انعدام الإحساس كلية بروح الإسلام، والاكتفاء منه بمظهره وشكله دون أن يعيشوا روحه ومضمونه.

٢- سوء فهم المسلمين لكثير من نصوص الإسلام، خاصة المتعلقة منها بموضوع التوكل والقضاء والقدر، مما ترتب على ذلك مواقف سلبية قاتلة تجاه كثير من القضايا الكبرى فى تاريخ المسلمين وحاضرهم.

٣- عدم الإقبال على دراسة العلوم الطبيعية وعدم الإفادة منها بنفس الهمة التى يقبلون بها على العلوم الشرعية.

٤- الرفض المطلق للغرب، ومحاولة قطع العلاقات معه بسبب موقف الغرب المعادى للإسلام والمسلمين، وخاصة فى عصر الاستعمار، وترتب على هذا الموقف النظر إلى علوم الغرب بحساسية وعداء، ولم يستطع كثير من المفكرين أن يفرق بين العلم فى ذاته وكونه مطلبًا شرعيًا، وأصحاب هذا العلم حتى وإن كانوا أعداءنا.

٥- الاستبداد السياسى لأنظمة الحكم فى العالم الإسلامى، هذا الذى قتل فى الشعوب نخوة الرجولة وأفقد الكثير منهم الإحساس بهموم الوطن والتفكير فيها، وتحويل البلاد إلى قطعان من الأتباع لا يملكون من أمورهم إلا قولهم للسادة سمعنا وأطعنا.

---

(١)(المنار جـ ٣ ص ٣٤٤) الإسلام المعاصر ص ٦٧.

٦- التفرق الذى نجح الاستعمار فى زرع أسبابه بين صفوف الأمة، فظهرت الخلافات المذهبية والعرقية والقومية، وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وانشغل المسلمون بهذه الخلافات التافهة وتركوا مصائر بلادهم ومستقبل حياتهم يتحكم فيها غيرهم، ويملى عليهم الاستعمار ما يشاء فصاروا كما قال الشاعر:

كم صرفتنا يد كنا نصرفها ... وبات يملكنا شعب ملكناه

وهذه الأسباب تختلف قوتها شدة وضعفًا من وطن إلى وطن آخر، لكنها فى مجموعها فرضت نفسها على المصلحين وشغلتهم.

كيف نقضى على أسباب الفرقة بين المسلمين؟

كيف نوحد صفوف الأمة؟

كيف ندخل العصر من أوسع أبوابه؟

كيف تعرف الشعوب بحقوقها لدى حكامها...؟ كيف...؟ وما أكثرها فى هذا الوقت.

لقد نادى الكواكبى فى بلاده بالشام بالدستور كنظام لتحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، ووضع نظام عام للدولة، ونادى الأفغانى ومحمد عبده بالجامعة الإسلامية لتحل الخلافة العثمانية، وردد نفس النداء ابن باديس فى الجزائر لقد كانت هذه القضايا هى الشغل الشاغل للمصلحين.

نعم لقد كان هؤلاء المصلحون جميعًا على قلب رجل واحد فى أن أسباب تأخر المسلمين متعدد ومتنوعة و،مختلفة من قطر إلى قطر، إلا أن مفتاح الإصلاح لكل هذه الأسباب يكمن فى الإصلاح الدينى وإحيائه فى القلوب أولاً.

فإن صحة الاعتقاد تفرض على المسلمين طلب العلم الصحيح والآخذ بمناهجه، وصحة الاعتقاد تطلب من المؤمن محاربة الجهل والتخلف والخرافات.

وصحة الاعتقاد تطلب منهم أن يعطوا الحاكم حقه من السمع والطاعة فى غير معصية الله، ويطالبوا بحقوقهم من العدل والشورى وأداء الحقوق والأمانات ولذلك كانت قاعدتهم الأساسية التى ركز كل منهم على البدء منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، آمن بهذه القاعدة الأفغانى ورددها محمد عبده من بعده، وأخذ بها الكواكبى، وابن باديس، ومازلنا نقولها اليوم، الإصلاح ينبغى أن يبدأ من القواعد أولاً فهى البداية الصحيحة لكل حركة إصلاحية. قد يطول عمرها ويمتد إلى جيل أو جيلين. لكن ذلك ليس شيئًا مذكورًا فى حركة التاريخ، نعم قد يطول عمرها إلى أن تأتى ثمرتها، لكنها إلى الخلود تسير، إن إصلاح التدين هو مفتاح طبيعى لكل حركة إصلاحية؛ لأن به إصلاح النفوس وهى مناط كل إصلاح، هكذا كان الأفغانى، وتلك قضيته.

ب- محمد عبده:

ويسير فى نفس الاتجاه الإمام محمد عبده، فأخذ بنفس المنهج الذى سلكه أستاذه الأفغانى فى تفسيره لأسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، لكنه يرى أن أهم أسباب تأخر المسلمين يرجع إلى التقليد وترك الاجتهاد، ويرجع إلى ما أصاب الإنسان المسلم من جمود على تقليد الآراء دون فحص لمضمونها، وهل هو صحيح عقلاً ونقلاً أم لا؟ لقد كان التقليد الأعمى للمتقدمين دينًا وطبعًا مألوفًا لدى المشتغلين بالعلوم الدينية، دون أن يرجعوا بأنفسهم إلى الكتاب والسنة ليروا فيهما من علاج للمشكلات المطروحة، كان الواحد منهم يكتفى فى ذلك بما قاله شيخه، أو ما قرأه فى متن من المتون، أو حاشية من الحواشى، لذلك كان أول ما فكر فيه محمد عبده أن يعمل جاهدًا على تحرير العقول من أمر التقليد للآراء وفهم الدين فهمًا صحيحًا من المصدرين الأساسيين الكتاب والسنة، كما كان على ذلك سلف الأمة قبل ظهور الخلافات المذهبية والفرق الكلامية، لقد نادى محمد عبده، كما نادى بذلك من قبل كل من الأفغانى، وابن تيمية بضرورة العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله لكسب المعارف الدينية، باعتبار أن هذين المصدرين هما النبع الصافى للمعارف الدينية التى يتآخى ويتعاون فى اكتسابها العقل مع النقل، واعتبار هذه المعارف ضمن موازين العقل باعتبار أن العقل، ربيب للنقل ووزيره ومعاونه.

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الإصلاحى كانت ثورته على مناهج الأزهر، ودعوته لإصلاح هذه المناهج، بحيث تشتمل ضمن خطتها على علوم الكون (كالطبيعة، والكيمياء، والرياضة، والفلك، والطب)، باعتبار أن ذلك مطلب شرعى يعيش به المسلم شئون عصره ولا يتخلف عن عالمه. ووضع لذلك برنامجًا

إصلاحيًا متكاملاً مزج فيه بين علوم الدين وعلوم الدنيا، باعتبار أن تحصيل النوعين مطلب شرعى ينبغى الاهتمام بهما معًا.

وطالب فى هذا البرنامج بإصلاح اللغة العربية وأساليبها سواء كان ذلك فى المخاطبات أو المراسلات أو دواوين الحكومة.

أما الأمر المهم الذى شغل حيزًا كبيرًا من حياة الإمام محمد عبده، فهو اهتمامه بالإصلاح السياسى للدولة، وعلاقة الحاكم بالأمة وإدارة شئونها، لقد طالب محمد عبده بتحسين علاقة الخديوى بالشعب، وكما أن للحاكم حقوقًا على شعبه، فكذلك للشعوب حقوق على حاكمها، ولاينبغى أن يطالب الحكام بحقوقهم من الأمة ويذيقوا الشعوب الويل والثبور والإذلال وينسوا تمامًا حقوق الشعب عليهم. يقول محمد عبده: هناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جمعيًا فى عمى عنه، ولكنه الركن الركين الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة، نعم كنت، ممن دع الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهى لم يخطر لها هذا الخاطر على بال... دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته فهو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وإنه لا يرده عن خطأه ولا يقف طغيان شهوته إلا بأن تنصح الأمة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له، أى عبيد.

كانت ركائز دعوته تعتمد على إصلاح الفهم الخاطئ للدين ومسائله وإصلاح اللغة والإصلاح السياسى. وكان منهجه يختلف عن منهج أستاذه الأفغانى فى تنفيذ هذه الإصلاحات، حيث كان الأفغانى يفضل أسلوب الثورة كمنهج للتغير، خاصة أنه كان يعانى فى بلاده من ظلم الإنجليز واستعمارهم للهند. فكانت الثورة المسلحة وسيلته المفضلة لتنفيذ منهجه فى الإصلاح. أما محمد عبده فكان يفضل أسلوب التربية والتعليم والتوسع فيها، ليتعرف الشعب على حقوقه لدى الحكومة ويشق طريقه بالعلم نحو النهضة، لذلك كان منهجه تربويًا دينيًا.

لقد رأى أن أى محاولة للإصلاح فى مصر بالذات ما لم تبدأ بالدين فهى محكوم عليها بالفشل، ذلك أن نفسية الإنسان المصرى ومزاجه يرتبطان بالدين، ويتأثران به سلبًا وإيجابًا، وتلك ظاهرة عامة فى مصر شملت المسلم والمسيحى على امتداد التاريخ إلى اليوم، ولقد تمسك محمد عبده بهذا المنهج فى الإصلاح وملك عليه حياته العلمية كلها. لذلك نراه يجلس فى المساجد ليفسر القرآن بمنهج جديد، ويضع شرحًا لنهج البلاغة، وللعقائد العضدية، ويضع رسالته فى التوحيد، كل هذه نماذج وضعها ليسير عليها العلماء من بعده، لكى يتركوا التقليد ويباشروا الاجتهاد والتجديد، إن التمسك بالقرآن وإحياء تعاليمه وإقامة أحكامه كان سر تقدم المسلمين، ولا حيلة فى إصلاح وضعنا الراهن إلا بالعودة إليه، لابد أن تقرع صيحته أعماق القلوب لكى تتحرك، ولابد أن تزلزل هزته رواسى الطبع لكى تتغير، ولابد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد إليه لغة العرب وطرائف تعبيرهم ليستجاب له كما استجاب له رعاة الإبل، والقرآن قريب لطالبه، متى كان عارفًا بلغة العرب وقواعدهم أيام نزول الوحى.

بمثل هذه البساطة والبعد عن التكلف كان الإمام محمد عبده يضع منهجًا جديدًا فى التفسير والتجديد. ولقد اهتم محمد عبده بتجديد الفكر الإسلامى فى ضوء الرجوع إلى المصادر الأولى والينابيع الصافية خالية من خلافات المتكلمين والفقهاء، ليفسح بذلك الطريق أمام عقول المعاصرين ليجتهدوا فى تخريج مشكلات عصرهم على ضوء الفهم المناسب للقواعد الشرعية، كما فعل أسلافهم من قبل، فالسلف اجتهدوا واختلفوا فى اجتهاداته، وخرجوا مشكلات عصرهم بحلول شرعية مناسبة لهم، فلماذا لا يجتهد أبناء العصر ويخرجوا مشكلاتهم بحلول شرعية مناسبة لعصرنا، بدلاً من الوقوف عند رأى فلان أجاز، وفلان منع. إن الرجوع إلى الكتاب والسنة فيها الغناء عن كل هذ الآراء.

ويرى الإمام محمد عبده أن القصور والتقصير فى التعليم الدينى كان سببًا أساسيًا فى تردى الوضع الراهن الذى يعيشه المسلمون، وذلك إما بإهمال التعليم الدينى كلية، كما فى بعض البلاد، أو بالسلوك إليه من غير طريقه القويم، كما فى بعض البلدان الأخرى، أما البلاد التى أهمل فيها التعليم الدينى كلية، فلم يبق

فيها من الإسلام إلا اسمه ورسمه دون روحه وجوهره، كما أن فهم المسلمين قضية القضاء والقدر فهمًا خاطئًا بعث فيهم روح التواكل والسلبية، وربطوا بين الإيمان بالقضاء والقدر، وكون الإنسان مجبرًا فى أفعاله، مما أوقع المسلمين فى محاذير عاقت عن التقدم والعمل ومواكبة العصر، والركون إلى الراحة والدعة، لقد حاول محمد عبده تصحيح مفهوم القضاء والقدر، حتى عمل جاهدًا على فك الارتباط بين الإيمان بالقدر والقول بالجبر، وينطلق المسلم من قيود القول بالجبر متمتعًا بحريته التى منحها الله فى حدود أوامر الشرع ونواهيه.

كما سلك محمد عبد مسلك الأئمة الكبار الذين سبقوه فى القول بأن النص الدينى الصحيح لا يتعارض أبدًا مع العقل الصريح، كما فعل ذلك ابن رشد وابن تيمية والأفغانى، ثم جاء محمد عبد ليجدد المسيرة على نفس الدرب، فنصوص الكتاب والسنة تأمر بضرورة النظر العقلى فى هذا الكون من سمائه إلى أرضه؛ لأنه آية على خالقه، فلابد من النفاذ إلى دقائق هذا الكون لاكتشاف قوانينه والوقوف على العلاقات المتبادلة بين الأسباب والمسببات فى ظواهره، تحصيلا لليقين ومحاربة للتقليد؛ لأن التقليد مضرة يعذر فيها الحيوان، ولا تليق أبدًا بحال الإنسان.

إن النظر العقلى فى الإسلام فريضة دينية فلماذا جمد المسلمون عند حدود قال فلان بالحظر، وقال فلان بالإباحة، لقد قصر المسلمون فى حق أنفسهم من ناحيتين:

الأولى: إهمالهم النظر فى الكون، وما يتعلق به من علوم.

الثانية: جهلهم أن ذلك تعطيل لوظيفة الكون نفسها عن أن تؤدى دورها فى حياة الإنسان، ذلك أن الكون له وظيفتان، الأول أنه آية دالة على خالقه، ولهذ جاء الأمر الإلهى بالنظر فيه، والاعتبار بسننه وقوانينه، وبقدر ما نكتشف من القوانين ودقائق الصنعة تزداد معرفة بالصانع وخشية له.

وهذا هو دور العلوم الكونية التى أهملها المسلمون فى هذا العصر مع أنها عصب النهضة وعنوانها. من هنا تأخرنا وتقدم غيرنا، والآيات القرآنية التى تحث على النظر والاعتبار فى الكون أكثر من الآيات التى تأمر بالعبادات والشعائر، لكن المسلمين أهملوا كلية جانب النظر الكونى واكتفوا بالأوامر والشعائر.

أما الوظيفة الثانى -فهى تسخيره لصالح الإنسان، وقضية التسخير لا يملك الإنسان ناصيتها، إلا بعد التعرف على هذا الكون.

وخصائص مفرداته، والعلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها.

ولا يستطيع الإنسان أن يملك زمام هاتين الوظيفتين للكون، إلا بسلاح العلم، وإلى العلم فقط يرجع القول الفصل فى ذلك: وهو مطلب شرعى وأمر إلهى. ولعل هذا يعطينا مفتاح السر أن فى أول آية نزلت من القرآن أمرت بقراءة الكون. وأن تكون القراءة باسم الخالق، ليكون الرباط محكمًا ووثيقًا بين الكون المخلوق والرب الخالق، باعتبار أن هذا الكون آية دالة على خالقه. فهذا هو شأن العلم ودوره فى رحاب الإسلام قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

إن هذه المهمة أخذت من الإمام محمد عبده وقتًا وجهدًا لكى يظهر أن الإسلام لا يحارب العلم، ولا يعارض العقلانية؛ لأن العقل عون على فهم الدين، والدين سراج يضىء العقل ما ندعه. و... فالدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد. العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه... وما وراء ذلك نزعات شيطانية أو شهوات سلاطين... (فالوحى بالرسالات نور من نور الله لهداية البشر، والعقل فى جوهره نور مع نور الله مع البشر، ومحال أن يصادم النور نورًا، وإنما هو نور على نور، فكلاهما يهدى الإنسان إلى الطريق المستقيم فى الحياة وإلى الفوز فى الآخرة.

وإن بدا أن هناك خلافًا بينهما فى مجالات التطبيق أو فى مفردات الحياة اليومية، فينبغى أن نبحث عن خطأ وقع من المسلم فى فهم النص أو فى دعوى العقل؛ لأن طبيعة الوحى ووظيفة العقل لا تتعارض؛ لأن غايتهما واحدة، ومصدرهما واحد، وهو الكامل كمالاً مطلقًا، ومحال أن يكون مصدرهما الكمال المطلق، ويقع بينهما تعارض، فعلينا إذن أن نبحث عن أسباب التعارض فى عقلية الباحث وليس فى جوهر العقل بما هو عقل أو يقينية النص الصحيح.

ومحاولة بعض المشتغلين بالعلم تحريف الكتاب المنزل ليوافق مذهبًا معينًا أو رأى من يقلده الباحث عن حد الاستقامة فى طلب الحق لذات الحق. وهذا ما أشار إليه

كل من ابن رشد فى رسالته «فصل المقال» وابن تيمية فى «درء تعارض العقل والنقل» وطبقه الأفغانى فى رده على الدهرين، فالسلسلة متصلة، والطريق موصول، بين كل حركات الإحياء التى كان هدفها العودة بالمسلمين إلى أصولهم الأولى، والتخلى عن منطق المذهبية وصراع الخلافات والآراء التى تنتصر للهوى وليس للحق.

ويرى محمد عبده أن التعصب للحق ليس إلا التمسك به والمطالبة به؟ وهل معنى السلبية واللامبالاة إلا عدم التمسك بالحق وعدم المطالبة به؟ إن الفارق الأساسى بين الإنسان الملتزم بالقيم والمعتصم بالمبادئ والإنسان المتحلل من كل قيمة وعقيدة هو الالتزام والتمسك بالحق والمطالبة به، وإذا كان التمسك بالحق والمطالبة به يسميه الغرب تعصبًا لكى ينفر منه، فلا ينبغى أن نترك المطالبة بحقوقنا، سواء كانت شرعية أو وطنية إرضاء لأهواء الغرب منا ومطامعه فينا، أو إرضاء لمن زرعهم بين صفوفنا يرددون شعاراته دوم مقاصدة منها.

إن الغرب كما يقول محمد عبده -أشد أمم أهل الأرض تعصبًا لدينه وتعصبًا لجنسه، وتعصبًا لقوميته. فما بالهم يحرمون علينا ما يحللونه لأنفسهم.

وما بالهم يجعلون التصعب لهم من شيم الوطنية والتحضر والمدنية، ويجعلون تمسك صاحب كل دين بدينه أو وطنه وحقوقه تعصبًا يطالبون بمقاومته وإبادته؟ هل هذا هو منطق العدل يدندنون حوله، هل هذا هو حق الشعوب فى ممارسة عقائدهم والتمتع بحريتها.

ثم يتساءل الإمام: هل التمسك بالإسلام والالتزام به هو الذى يصد العلماء ويمانعهم من الولوج إلى عصر المدنية والحضارة، كما يدعى هؤلاء؟.. لقد زعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به من نصوتهم وتضافرهم لدفع ما يلم بهم ويلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم، ومن رأى أولئك المثقفين أن لا سبيل إلى درء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية، ومحو أثرها وتخليص العقول من سلطان العقائد، وكثيرًا ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم، وكذب الخراصون، إن الدين

أول معلم ومرشد وقائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف، وأرحم مؤدب وأبصر مروض لطبع الأرواح على الآداب الحسنة والأخلاق الكريمة، ويقيمها على الاعتدال فى كل شىء، وفى كل الأحوال فى الرضا والغضب، فى البغض والسخط، مع من نحب ومن نكره، مع أبناء ملتنا، ومن لا يدين بديننا.

إن التعصب الذى لا يفرق بين ما هو حق وما هو باطل ليس له مجال فى تاريخ الإسلام، لا على مستوى الفكر والنظر، ولا على مستوى التطبيق والواقع، بل إن تاريخ المسلمين لغير المسلمين مسجل بأحرف من نور يحق لكل مسلم أن يفخر به، أما الأمم الغربية التى اندفعت على بلاد المسلمين فأحرقت الأخضر واليابس، ليس لها هدف إلا المحو والإبادة والفتك، كما فعل الأسبان بالمسلمين واليهود فى بلاد الأندلس، وكما فعل صاحب السلطان المسيحى، حيث جمع اليهود والمسلمين فى القدس وأحرقهم، وهذه أمور لم يعهدها تاريخ المسلمين فى أى بلد فتحوها، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول. فإن أصحاب الملل المختلفة مازالوا يتمتعون بالحياة الكريمة بين أبناء الملة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، كان المسلمون إذا فتحوا بلدًا يحفظون على أهل الملل أديانهم ومعابدهم أما الأمم الأوربية فقد أرغمت المخالف لهم على تغيير دينه، وأحيانًا أجبرته على تغيير اسمه.

إن المشكلة الكبرى أن الغرب قد تأكد لديه أن أقوى رابطة بين المسلمين هى رابطة الدين وصلة العقيدة، وأدركوا أن سر قوتهم تكمن فى العصبية الدينية، وللغرب مطامع فى بلاد المسلمين، وله ثأر فى دماء المسلمين، فتوجهت عناية الغرب إلى بث هذه الأفكار الساقطة بين أبناء الملة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم عراها لينقضوا بذلك بناء الأمة الإسلامية ويمزقوها كل ممزق، فإنهم علموا -كما علمنا وعلم جميع العقلاء- أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا الإسلام، رابطتهم فى دينهم واعتقادهم الذى هو رمز وحدتهم وروح قوتهم، وصمم الغرب على تمزيق هذه الوحدة وقطع الصلات، وكان أحد مداخله وأهم وسائل فى ذلك هو التفسير من العصبية الدينية، ويتبعهم فى ذلك بعض السذج من المسلمين، جهلاً وتقليدًا فنقضوا هذه الرابطة الدينية ولم يستبدلوا بها

رابطة أخرى؛ لأن الإسلام لا يعرف العصبية القبلية ولا العصبية الجنسية؛ لأنها من دعوى الجاهلية التى حاربها الإسلام وقضى عليها، فأصبح المسلمون بذلك كمن هدم بيتًا بدعوى استبداله بآخر، ولما لم يجد هذا الآخر بقى فى العراء فلم تعد بين المسلمين رابطة الدين قوية، كما كانت من قبل، بينما تناجي غيرهم بأوهى الروابط وشد من أزرها، فبات قويًا وأصبحنا ضعفاء، هذا أسلوب من الدهاء أجادته أوربا فى تعاملها مع العالم الإسلامى، ولم تعدم صيدها فى البلاد الإسلامية، فاستعملت الكثير منهم فى بلوغ مآربها وتحقيق مقاصدها.

إن الإمام محمد عبده يناشد المسلمين جميعًا ألا يغتروا بهذه الأكاذيب، ويقول: «أيتها الأمة المرحومة، هذه حياتكم فاحفظوها. ودمائكم فلا تريقوها.. هذه صفة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم وفيها عزتكم ومنعتكم فلا توهنوها، ولكن عليكم أن تخضعوا لسيطرة العدل، فالعدل أساس الكون، وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، ولا يجعلونه منهجًا لعلاقتهم مع أنفسهم ومع الآخرين»[(١)].

هذه لمحة موجزة سريعة عن فلسفة المشروع التغريبى للتنوير وأبعاده السياسية والاجتماعية، أردنا بها ضبط مفهوم المصلطح «التنوير» ومضمونه التغريبى وموقف رواد الإصلاح الدينى من هذا المشروع ورفضهم له وتحذيرهم منه وذلك حتى يكون الشباب على بينة من الأمر، وحتى لا تختلط الأوراق فى يد القارئ. وإن كان ذلك شيئًا مقصودًا من أصحاب المشروع العلمانى.

هذا: وما أريد إلا الإصلاح. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

****

(١) راجع الكتاب التذكارى عن محمد عبده -المجلس الأعلى للثقافة ٤٠٠- ٤٠٣.

رأينا فى اتجاهات الإصلاح المعاصرة

١- من هنا نبدأ أولاً: إصلاح خلل المسيرة

ارتبطت نشأة العلوم الإنسانية بظروفها التاريخية والاجتماعية التى يرجع بعضها إلى طبيعة الاحتكاك الثقافى بالحضارات المجاورة من فارسية وهندية أولاً ثم بالحضارة اليونانية فيما بعد.

لقد أدت الظروف التاريخية والاجتماعية التى عاشها المجتمع الإسلامى إلى نشأة مجموعة من العلوم التى قصد بها خدمة النص القرآنى والسنة النبوية المطهرة بطريق مباشر أو غير مباشر، ويمكن أن نميز فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الأمة بين مجموعتين من العلوم قصد بهما تحقيق هذا الهدف النبيل هما:

أ- علوم القرآن.

ب- علوم السنة، وتشتمل على مجموعتين.

تشتمل المجموعة الأولى على علوم التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأحكام القرآن والحكمة والمتشابه وما يتصل بها من علم النحو واللغة والبيان.. إلخ.

كما تشتمل المجموعة الثانية على علوم الحديث من الجرح والتعديل ومصطلح الحديث وعلم الرجال، ومن يتأمل فى ظروف النشأة التاريخية لكل من هذه الفنون يجد لها ظرفًا تاريخيًا ارتبطت به وكان سببًا مباشرًا للتفكير فى هذا الفن أو ذاك.

وقد يؤكد لنا ذلك أن نشأة كل فن من هذه الفنون قد ارتبط باسم علم من أعلامه الكبار يمثل نقطة البدء فى الاهتمام بالفن والاشتغال به، يأتى من بعده أعلام فيسيرون على منواله يطورون المسيرة، ويضعون لها القواعد، والأسس النظرية التى حولت فيما بعد إلى أصول وقواعد لتعلم هذا الفن وضبط مسائله، حدث ذلك فى علم التفسير والحديث والنحو. وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

ويأتى علم الكلام فى مقدمة هذه العلوم، وربما كان أسبق فى تاريخ نشأته من كثير منها، فيرتبط فى نشأته بموقف تاريخى معين وظروف تاريخية عاشتها الأمة الإسلامية فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى، وهذا الظرف يرتبط تاريخياً بقصة الخروج على الخليفة الراشد على بن أبى طالب من جانب ونشأة الخوارج من جانب آخر، حيث تأسس مذهبهم على قاعدة أن مرتكب الكبيرة كافر تنتفى عنه صفة الإيمان وأنه مخلد فى النار، لا يدفن فى مقابر المسلمين، لا يصلى عليه، ولا يتوارث. وجميع مؤرخى علم الكلام يتفقون -فيما أعلم- على أن بحث هذه القضية فى مجلس الحسن البصرى (ت ١١٠هـ) كان سببا فى تجلية موقف الخوارج فى هذه المشكلة، وإظهاره لعامة المسلمين، كما تأسس فى هذا الموقف أنصار رأى المعتزلة وقولهم بالمنزلة بين المنزلتين، واعتبروا أن مرتكب الكبيرة لا يصدق عليه اسم كافر؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله كما لا يصدق عليه حكم المؤمن؛ لأنه ارتكب ما يوجب عليه خلوده فى النار من وجهة نظرهم، وكان هذان الرأيان (رأى الخوارج والمعتزلة) فى جانب، ورأى الحسن البصرى ممثل أهل السنة والجماعة فى جانب آخر حيث اعتبر مرتكب الكبيرة مؤمنًا عاصيًا، إن تاب تقبل توبته وتسرى عليه جميع أحكام المكلفين بالإسلام، هذه واقعة تاريخية ارتبط بها نشأة علم الكلام، شأنه فى ذلك شأن جميع العلوم الإسلامية التى ارتبط كل منها فى نشأته بموقف معين نتج عنه الاهتمام بهذا العلم وتأسيس قواعده، هذا أمر نحسبه على درجة كافية من الوضوح، علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله.

وإذا عدنا بذاكرتنا إلى تاريخ علم الكلام سوف نجد أن مسائله وقضاياه لم تنشأ كلها مرة واحدة، ومن يتتبع تاريخ القضايا الكلامية التى شكلت المادة العلمية لهذا الفن يعلم تمامًا أن كل مسألة من مسائله بدأ الحديث عنها بسبب يختلف عن المسائل الأخرى، فمثلاً: إن الحديث عن مسألة القضاء والقدر تختلف زمانًا وربما مكانًا، عن بداية الحديث عن مشكلة خلق القرآن، وهذه بدورها تختلف عن بداية الحديث عن الجوهر والعرض والذات والصفات، وعلاقة الذات بالصفات.. إلخ، وهذا البعد التاريخى الذى ارتبطت به مسائل علم الكلام وقضاياه يفرض علينا العلم بتاريخية هذا الفن وأنه خضع فى نشأته وتاريخه لظروف الاحتكاك الثقافى

بين المسلمين، وأهل الأديان الأخرى، والتفاعل الحضارى مع الأمم والشعوب التى وصل إليها الإسلام، فكلما نبتت مشكلة تتصل بالعقيدة أو بركن من أركان الإسلام قام من علماء الأمة من يتولى الدفاع عنها وتوضيح الرأى بما أتيح له من دلائل العقول وما تيسر له من النصوص قرآنا وسنة.

وفى أواخر القرن الثانى وخلال القرنين الثالث والرابع، ونتيجة طبيعية لاحتكاك المسلمين بثقافة الفرس والهند واليونان حدث نوع من التلقيح الثقافى بين هذه الحضارات الجديدة والحضارة الإسلامية الناهضة وظهرت مصطلحات وآراء ومعتقدات لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل فأضاف ذلك عبئًا جديدًا إلى مهمة علماء الكلام، والذى يتتبع مسائل هذه العلم ومفرداته ومصطلحاته يلحظ بوضوح البعد الزمنى لظهور هذه المفردات، وتلك المصطلحات، وعلى سبيل المثال فإن مصطلح العرض والجوهر لا نجده فى القرنين الأول والثانى، بينما نجد مصطلح القضاء والقدر، ومصطلح خلق القرآن لا نجده فى القرن الأول بينما نجده فى أواخر القرن الثانى وفى الثالث بوضوح. وهكذا نجد أن قضايا علم الكلام لم تكن واحدة فى كل جيل بل كانت تتنوع وتختلف حسب زمانها وملابساتها التاريخية والاجتماعية، وكان من المفروض أن يتابع هذا العلم واقع المسلمين وقضاياهم التاريخية فى العصور التالية لكنا وجدنا هذا الفن يتوقف تمامًا فى القرن الخامس الهجرى عند الاشتغال بقضايا بعينها أضفى عليها المتكلمون شكل المصطلحات الفنية (إلهيات -نبوات- سمعيات)، وأخذت بحوث المشتغلين بهذا الفن تدور حول هذه القضايا الثلاثة فى ضوء المذهب الذى ينتمى إليه كل منهم فكريًا ومنهجيًا، فهذا معتزلى وذاك أشعرى وثالث ماتريدى، ورابع سلفى، فضلاً عن المذهب السياسى الذى ينتمى إليه وهل هو الأخذ بمبادئ التشيع أو الأخذ بمذهب الخوارج، وأخذ كل واحد من المنتمين لهذه المذاهب ينتصر لمذهبه بما شاء من أدلة وبراهين يدفع بها حجج خصمه أكثر مما يبين بها وجه الحق فى مذهبه.

ولقد أشار الغزالى إلى ذلك فى «المنقذ من الضلال» وانتهى إلى هذه الحقيقة: أن كل حزب بما لديهم فرحون، وأخذت الأجيال التالية تتوارث هذا العلم جيلاً بعد جيل (نفس القضايا -نفس المفردات والمصطلحات- نفس المنهج). وهذا الموقف قد أضفى على علم الكلام وقضاياه لونًا من القداسة التاريخية بحيث إذا

رمت إضافة قضايا جديدة أو التخلص من قديم بدا ذلك فى نظر البعض خروجًا عن الاستقامة وابتداعًا فى دين الله ما ليس فيه، ولو أنصفنا أنفسنا وأنصفنا مهمة علم الكلام لوجب علينا أن نفعل نفس ما فعله المتكلمون الأوائل، الذين كانوا يتابعون أحداث عصرهم، وكلما جدت مشكلة تتصل بالعقيدة نهضوا لمعالجتها بالمنهج القرآنى الذى يجمع فى براهينه بين نور العقل ونور الشرع، ولم يتوقفوا أبدًا عند قضية بعينها ليجعلوا منها هم المسلمين الأول والوحيد كما هو شأن المشتغلين بعلم الكلام اليوم.

إن قراءة سريعة لما يدور فى أروقة الدرس الأكاديمى لعلم الكلام اليوم تكشف عن هوة سحيقة بين واقع المسلمين اليوم وما يعج به من مشكلات دينية وثقافية وما يلقى على طلبة العلم من دروس دينية تتصل بعلم الكلام، هذا العلم الذى كان يمثل خط الدفاع الأول والحصن ضد حملات التشكيك فى الإسلام وعقائده والذى أصبح الآن أشبه بالمتحف الثقافى الذى يتعرف الطالب من خلاله على آراء وأقوال وحجج الأقدمين التى واجهوا بها حملات التشكيك والتى اعترضت سبيل الدعوة فى عصرهم، فيدرس الطالب أصول المعتزلة، من العدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتفريعات هذه المسائل وسلسلة الحوارات المتبادلة بين أوائل المعتزلة والمتأخرين منهم وبينهم جميعًا والأشاعرة ثم بين أتباع المدرسة الأشعرية ومن شايعهم فى الرأى، وأصبح مقياس المستوى العملى للطالب مرتبطًا بمدى حفظه لآراء هذه المدرسة، أو تلك وكيفية إبطال هذه الحجة أو الانتصار لها ونسج على نفس المنوال شيوخ المذاهب المعاصرين لنا الآن فى قاعات الدرس العلمى فلم يهتم المعلم بفتح أبواب التفكير أمام طلبة العلم؛ لينظروا فى قضايا عصرنا كما نظر القدماء فى قضايا عصرهم وليكتشفوا حلولاً لمشكلات عصرنا الراهنة -وما أكثرها- وإنما عكفوا على التأليف والدرس والتمحيص لآراء الأقدمين. وأصبح ذلك هو مجال التنافس بين المشتغلين بعلم الكلام أساتذة وطلابًا على السواء.

والواقع الذى عليه عصرنا يختلف ضرورة عن الواقع الذى عاشه القدماء والمشكلات التى نعيشها فى واقعنا اليوم تختلف ضرورة عن المشكلات التى عاشها القدماء، والثقافات التى نتحاور معها الآن اختلفت كثيرًا عن الثقافات التى حاورها

القدماء بالأمس. وكل هذا يتطلب من علماء الكلام المعاصرين أن يقوموا بمراجعة شاملة لعلم الكلام الذى كانت -ولا زالت- مهمته الأساسية تتمثل فى الدفاع عن الملة الإسلامية ضد خصومها، والبرهنة على عقائدها بالأدلة البرهانية والعقلية منها والنقلية على سواء.

إن قضايا علم الكلام ومفرداته ومسائله قد تناولها القدماء لأنها كانت تمثل مشكلات واقعية فرضت على المجتمع الإسلامى خلال احتكاكه بالحضارات المجاورة له.. فهى ليست مشكلة عقلية تجريدية مطلقة لا علاقة لها بالواقع -ولكنها تمثل واقعًا ثقافيًا يعيش القدماء همومه فى صباحهم ومسائهم، وفى مجالسهم العلمية، وعليك أن تراجع تاريخيًا مشكلات علم الكلام، وكيف ظهرت فى البيئة الإسلامية؛ لتعرف أن علم الكلام كان مرتبطًا بالواقع ومشكلاته الدينية والثقافية، ولم يكن رفها عقليًا: مشكلة القضاء والقدر، مشكلة الإمامة، مشكلة خلق القرآن، مشكلة الذات والصفات، وما تفرع عن هذه المسائل الكبرى من جزئيات وتفريعات لم تكن منفصلة عن واقع المسلمين أبدًا، ولم يكن القصد من بحثها فى نشأتها الأولى إلا الكشف عن الحلول القرآنية لهذه المشكلات التى واجهوها من أصحاب الملل الأخرى، كاليهودية والمسيحية، والمجوسية ... إلخ، ولكن طرأ على المسيرة التاريخية لهذه الفرق كما أشرنا سابقًا تغير فى المنهج والهدف أدى إلى تحول الحوار بين المتكلمين وخصومهم فى الملة إلى حوار بين المتكلمين أنفسهم، تحول الحوار من حوار مع الخارج إلى حوار مع الداخل تمثل فى الحوار بين أصحاب المذهب ومخالفيهم فى المذهب وتطور هذا الحوار فى لغته ومسائله، فبعد أن كان حوارًا بين الداخل والخارج، وبين علماء الكلام المسلمين وخصومهم من أهل الملل الأخرى، أصبح حوارًا بين الداخل والداخل، وبعد أن كان مصطلح الخصوم يراد به أهل الملل الأخرى أصبح يطلق على المخالفين من الداخل أصحاب المذاهب الأخرى، وتطور الحوار شيئًا فشيئًا إلى ما يشبه الصراع الداخلى بين الفرق الكلامية، ولم يعد محاورة الخصوم فى الخارج هدفا ولا غاية بقدر ما أصبح الانتصار على الخصوم فى الداخل هو المقصد الأسمى لكل فريق، ولم يعدم تاريخ علم الكلام فى هذه المسيرة التى انطلقت منذ نهاية القرن الثانى الهجرى إلى الآن أن يستعين بعض رجاله

بالنفوذ السياسى؛ ليحققوا بذلك نصرًا على مخالفيهم من الداخل من أصحاب المذاهب الأخرى. بدلاً من أن يستعينوا به على الأعداء فى الخارج، وأصبح الانتصار للمذهب هو المجال الأرحب الذى يتبارى فى ساحته المتنافسون من علماء الكلام معتزلة أو أشاعرة على سواء، وتولد عن ذلك لون من التعصب الممقوت لدى أتباع كل مدرسة، وانعكس ذلك كله على جغرافية العالم الإسلامى من شرقه إلى غربه.

فتستطيع بسهولة ويسر أن تعرف أن هذا القطر أو ذاك يدين بالمذهب المعتزلى أو الأشعرى أو الماتريدى أو السلفى، ولا تعدم أن تجد بين هؤلاء وأولئك من يجد نفسه وحظه ووضعه الاجتماعى فى الانتماء إلى مذهب معين، وتأليب أصحاب الكلمة والنفوذ على مخالفيه فى الرأى والانتماء.

لعل مما يجب التنبيه عليه اليوم قبل غد خطورة هذه الفرقة والتشتت الذى يعيشه العالم الإسلامى بسبب هذه العصبية المذهبية التى أورثها علم الكلام لأتباع المذاهب، وهذه الفرقة فى صميمها تتناقض تمامًا مع أهداف علم الكلام؛ ومقاصده العليا من توحيد الكلمة، وتوحيد الصف أمام الأعداء، فهذا مطلب أساسى من مقاصد عقيدتنا. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

الاعتصام بحبل الله فى مواجهة مشاكل عصرنا نحن، بفكرنا نحن وعقولنا نحن، وليس بفكر القدماء ولا بعقلية القدماء، ولا بمناهج القدماء، إن مسائل العقيدة الإسلامية تتمتع باليسر والسهولة والقرب من الفطرة لا تحتاج فى إثباتها إلى ما ورثناه فى علم الكلام من تعريفات وتجزيئات التى تنأى بقارئها عن منطلق الفطرة وسهولة المأخذ بل قد تثير أحيانًا من الشبهات والشكوك أكثر مما تدعو إلى اليقين والاعتقاد.

ومن هنا فإن علم الكلام الذى ندعو إليه الآن يتجاوز هذه الأصول الإيمانية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، فيتناول بالإضافة إليها الاهتمام بمقتضياتها ولوازمها من العمل والسلوك الاجتماعى ونظام الدولة فى الإسلام، من المعلوم لدى الخاصة والعامة -فى المجتمع الإسلامى أن هذه المسائل الأصول تمثل قواعد الإسلام، وأسس بنائه، ولم يعد هناك خلاف

على أهمية هذه الأصول لدى المسلمين، لكن المشكلة التى تعيشها الأمة الإسلامية فى عصرنا هذا تتمثل فى تخلى الأمة وعدم اهتمامها بمقتضيات العقيدة الإيمانية من الالتزام بها والسلوك بمقتضاها والعمل على تحويلها، إلى واقع يعيش المسلم فى ظله ويحتمى بحماه وينعم بالأمن والأمان فى كنفه، نعم: المجتمع كله يؤمن بهذه الأصول، ويؤدى -فى معظم الأحوال- الأركان والشعائر. لكن ليس هذا فقط هو الإسلام، بل هو الجانب الغيبى الاعتقادى كما فى الإسلام. لكن ما يخص الجانب السلوكى والاجتماعى من الإسلام قد تخلى عنه المجتمع وأصبح فى حاجة إلى من يربطه ويصله بعقيدة المسلم؛ لأن الجانب السلوكى العملى هو المظهر الوحيد للالتزام بالعقيدة وصلاحها. لصحة الإيمان أو التطرق بخلل إليه، فليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العقل.

إن الاعتقاد النظرى ما لم يتحول على يد أتباعه إلى سلوك وعمل فلا فائدة منه، ولا فائدة له فى المجتمع؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يذكر الإيمان منفصلاً عن العمل الصالح أبداً، وكان فى كل موارده يذكر العمل قرينًا للإيمان؛ لأنه عنوانه ومظهره وآيته الدالة عليه، ومن يوم أن تخلى المسلمون عن العمل بمقتضى العقيدة الإسلامية أو تحويلها إلى سلوك واقعى فى حياتهم اليومية فقد تنازلوا عن أهم الخصوصيات التى تجعل منهم أمة وقوة تصنع التاريخ، ولا تعيش على هامشه، وآثروا أن يعيشوا تبعا بعد أن كانوا متبوعين.

إن الأمة الإسلامية فى حاجة الآن إلى علم كلام جديد فى أهدافه ومناهجه، يخاطب الداخل أولاً لكى يصل ما انقطع فى مسيرته التاريخية، يخاطب الداخل لكى يبين له أهمية العلم بمقتضيات العقيدة؛ ليصح له اعتقاده فى الله ورسوله يخاطب الداخل بالحلول الإيمانية لمشكلات عصرنا التى نعانيها ونبحث لها عن حلول هنا وهناك دون أن نعرج على حلولها من قيمنا وبمقتضى عقيدتنا.

نحن فى حاجة إلى علم كلام نخاطب به الداخل؛ لنتبين أن الحرية فى الإسلام فريضة تحتاج إلى من يدافع عنها ويبرهن على أنها فريضة دينية، وأن العبودية لله لا تتحقق إلا إذا تحرر العبد من عبودية العباد.

نحن فى حاجة إلى علم كلام جديد يبين للداخل أن العدل أساس الحكم، وأن الخلل فى انهيار الحضارة الإسلامية يرجع إلى الخلل الذى أصاب مبدأ العدل فى نظام الحكم، نحن فى حاجة إلى علم كلام جديد يخاطب الداخل بمبدأ المساواة، وأنه فريضة دينية كالعدل والحرية وبالثلاثة تستقيم أمور الممالك وتنتظم الحكومات، نحن فى حاجة إلى علم كلام يخاطب الداخل أولاً، بأن مبادئ الاجتماع البشرى المسلم ينبغى أن تؤسس على قيم الإسلام ومبادئه من الصدق والعفة والأمانة والوفاء، وأن هذه الأسس الأربعة ينبغى أن تكون أصولاً اجتماعية للكيان البشرى الذى يقوم على المحبة والمودة والإخلاص، والتسامح، وأن هذه الأسس الأربعة ترتبط بصحة الاعتقاد؛ لأنها علامة امتلاء القلب بصحيح الإيمان وآيته عليه ناهيك عن شعب الإيمان الأخرى التى تحدث عنها الرسول ﷺ. فى قوله الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأن شعب الإيمان كلها هى المظهر الخارجى لسلامة الاعتقاد، وصحيح الإيمان. فإذا ما صح لنا الحوار مع الداخل يكون الحوار مع الخارج أيسر وأسهل؛ لأن أصول العقيدة الإسلامية فى بساطتها لا تحتاج إلى تكلف ولا مشقة فى الدفاع عنها، ويكفى للإقناع بها تجليتها للآخر بمنهج سليم يمثل أحد جناحيه العقل جناحيه الصحيح، ويمثل الجناح الآخر النقل الصحيح، ويكون التطبيق العملى للسلوكيات الإسلامية مظهراً للاقتناع بما يعتقد فيكون قدوة للآخر بالتزام المجتمع بما تمليه عليه عقيدته.

إن الذى نلفت النظر إليه هنا جزء لا يتجزأ من العقيدة ومقتضياتها، فإن الإيمان لم يذكر منفرداً عن العمل مطلقًا بل اقترن به العمل فى كل موارده وآياته.

وسواء كان ارتباط العمل بالإيمان شرط كمال أم شرط صحة فإن الخلاف لا يقلل من أهمية الالتزام بالتطبيق لمقتضيات العقيدة واعتبارها جزءًا مكملاً للدرس العقيدى فى قاعات المحاضرة، والكتاب المدرسى، ونحن لا نريد أن نعرض هنا لمشكلة تأخير العمل عن الإيمان وعلاقة ذلك بالقول بالإرجاء أو عدم القول به لكننا على يقين أن إهمال هذه الجانب فى دروس العقيدة قد أدى إلى نوع من الانفصام فى الذهنية الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، انفصام بين الإيمان والعمل، انفصام بين الاعتقاد والتطبيق، ومع طول العهد بذلك الانفصام نشأ فى

المجتمعات الإنسانية نوع من الاكتفاء بالاعتقاد النظرى الذى يكتفى فيه المجتمع باعتقاد القلب ونطق اللسان، وإن أراد طلبًا لكمال إيمانه فلا بأس من مباشرة الطقوس والشعائر الدينية التى هى أركان الإسلام. من الصلاة والصيام والزكاة والحج، ووقر فى ذهنية المجتمعات الإسلامية أن ذلك هو الإسلام الذى ارتضاه الله لعباده دينا يجمع بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، دينا يجمع بين عمارة الأرض بمنهج الله ونشدان الآخرة بعبادة الله. دينا يجعل من عمل الفلاح فى حقله والعامل فى مصنعه والعالم فى محراب علمه والطالب فى درسه يجعل ذلك كله عبادة لله وتعبدًا له.

لقد غاب عن ذهنية المجتمعات الإسلامية أن الإسلام يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، وأن صلاح دنياهم باب ومدخل لصلاح أخراهم.

لقد نزلت أول آية فى الذكر الحكيم لتأمر الرسول ﷺ وتأمر الأمة من بعده بقراءة الكون وتصفح آياته المبثوثة فى مفردات عالم الطبيعة من الإنسان والحيوان والنبات ليجعل منها المفكر والعالم زاده العقلى فى مواجهة أى انحراف عقائدى يعتمد على شبهات العقل أو شكوكه جعل تصفح أفراد الموجودات واستجلاء ما فيها من عناصر الغائية والسببية والحكمة مداخل عقلية للوصول إلى إثبات الحقائق الدينية التى خاطبنا بها القرآن الكريم فى شكل قضايا مطلقة وحقائق كلية لا تخضع للمشاهد الحسية، ولكنها ثابتة بمنطق العقل واستقراء التجربة، وعليك أن تقرأ الآية الكريمة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق:١] مرات ومرات وتسأل نفسك أين مفعول الفعل ﴿اقْرَأْ﴾ لتعرف أنه المقروء هنا هو ﴿الَّذِى خَلَقَ﴾ هو الكون بما فيه من آيات آفاقية وآيات نفسية، وإذا رجعت ببصرك وبصيرتك إلى الذكر الحكيم كله لتجمع مفردات هذه الآية ﴿الَّذِى خَلَقَ﴾ سوف تعلم أن هذه المفردات قد ذكرها القرآن الكريم مجملة أحيانا ومفصلة أحيانا أخرى فى آياته المكية؛ ليجعل منها الزاد والدليل على إثبات مقاصد القرآن، وتحقيق أهدافه الكبرى من إثبات الحقائق الغيبية التى ربما ضل عنها العقل فى متاهات المصطلحات الفنية التى ازدحمت بها مصنفات علم الكلام، وقد تجد فى كثير من الأحيان أن مقاصد المتكلمين ونتائجهم قد عارضت مقاصد القرآن وأهدافه بسبب اهتمام المتأخرين

بتحرير عبارات المتكلمين أكثر من اهتمامهم بتحرير مقاصد القرآن واستجلاء أهدافه.

إن منهج القرآن فى الاستدلال بمعنى الحقائق الدينية يبدأ من عالم الشهادة من استقراء الآيات الكونية، يبدأ من الواقع الذى يحيط بالإنسان بل من الإنسان نفسه، وليس من الفروض العقلية المجردة التى فرضتها العقلية اليونانية بمصطلحاتها ومفرداتها على تراث المتكلمين.

نعم قد يكون العذر واضحًا فى اهتمام المتكلمين بهذه المصطلحات الفنية واستعمالهم لهذه المفردات. فقد يتحاورون مع نمط من العقليات المشبعة بهذه الثقافة المستوردة، وكان مطلوبًا منهم أن يظهروا للخصم أنهم على مستوى التحدى فكرًا وثقافة، ولكن السؤال ما هو عذر الأجيال التالية فى إصرارهم على التمسك بنفس المصطلحات ونفس المفردات، وقد تغير الزمن، واختلفت وتغيرت المشكلات، فالقضايا ليس هى هى، وليس المخاطب هو هو: فلماذا لا تخاطب المحاور المعاصر بمفرداته ومصطلحاته، كما خاطب الأقدمون محاورهم بمصطلحاته.

إن المحاور المعاصر يتسلح بالعلم الحديث، ومنهجه التجريبى، ولا شك أن العطاء العلمى لعصرنا قد كشف لنا عن أسرار من الكون كان يجهلها الأقدمون، وهذا يفرض على عالم الكلام الجديد أن يتسلح بلغة العلم يتدرب على منهجه ويحسن توظيف أدواته فى الإقناع والبرهنة بادئا بما بدأ به القرآن. وهو النظر إلى عالم الشهادة.

يحسن من المسلم التعلم منه ويتقن العلم به، وهذا يتطلب منه النظر فى علوم العصر والإفادة منها -الفيزياء وقوانينها- الكيمياء والفلك والجيولوجيا، والتشريح، علوم النفس؛ لأن هذه العلوم فى مجموعها قد كشفت عن أسرار ودقائق تحدث عنها القرآن كثيرا، ولم يكن لنا العلم بها لولا الاكتشافات العلمية، وهذا باب واسع يجب الإفادة منه وتوظيفه فى مجال الدراسات الكلامية، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن مؤلفات أمثال زغلول النجار، ومن على شاكلته يجب أن تحتل مكانتها فى الدراسات الكلامية؛ لأنها تخاطب الإنسان المعاصر بلغته التى يفهمها، ومن

هنا فأنا ألفت النظر إلى ضرورة الإفادة من فكر هذا العالم، وأمثاله فى الدرس الأكاديمى لعلم الكلام فى الأزهر ودار العلوم، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التفصيلات والبسط فى القول حتى تتضح الفكرة للقارئ قبل أن يبادر بالرفض والاعتراض شأننا فى عدم تقبل كل جديد.

.ومن الأمور التى يجب الاهتمام بها فى الدرس الكلامى ما أشار إليه القرآن من الاعتبار بقوانين السببية على مستويين رئيسين:

المستوى الأول: السببية الطبيعية التى تحولت فى كتابات الماديين إلى ما أسموه بالحتمية الطبيعية والحتمية التاريخية إعلانًا منهم برفض الإيمان بالمسبب الأول وإيمانًا منهم بفاعلية الأسباب بذاتها، إن هذه القضية على جانب كبير من الأهمية حيث تحتاج من المتخصصين فى هذا الفن إلى تجليتها وتوضيح الفروق بين الإيمان بها من منطلق القرآن والوحى، وأن ذلك قانون الله فى كونه، وأنه لا يتخلف أبدًا إلا لتقع المعجزة على يد النبى، لقد ترتب على رفض الماديين للإيمان بالمسبب رفضهم للإيمان بالغيب.

أما القضية الثانية فهو علم السنن وهذا يتطلب الوقوف على فاعلية السنن الإلهية فى المجتمعات الإنسانية وانتظام أحوالها، وأن هذه السنن قائمة مقام قانون السببية فى عالم الطبيعة، ومتى توافرت لها أسباب وقوعها فإنها لا تتخلف أبدا، فتلك سننه فى الكون الطبيعى، وهذه سننه فى المجتمع، البشرى، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

لقد غاب عن المسلمين أثر هذين القانونين فى مسيرة الأمة وبسبب ذلك غاب الاهتمام بها فى قاعات الدرس الأكاديمى فى حين قد اهتم بهما الغرب ودرسوها تحت ما يسمى بالحتمية التاريخية، فأفادوا من هذين القانونين وأعرض عنهما المسلمون فلم يفسحوا لهما مكانًا لا فى الدرس الأكاديمى، ولا فى البحث الدينى مع أنهما (علم السنن -قانون السببية) عمادا نهضة الأمة، أى أمة.

إن هذين القانونين (الغائية والسببية) ينبغى أن لا يفصل بينهما وبين الدرس العقائدى بسبب من الأسباب؛ لأن الإيمان بهما مظهر من مظاهر الاعتقاد بحكمة الخالق فى خلقه وعنايته به. كما أن الإيمان بقانون السببية على مستوياتها

الاجتماعية والكونية يثير ويوضح للعقل البشرى قانون الله فى كونه وسنته الماضية فى تاريخ الوجود البشرى، وكم قص القرآن علينا قصص السابقين لنعرف هذه السنن ونفيد منها فى نهضتنا وانتظام حياتنا، ومن المهم هنا أن نطرح بعض التصورات المنهجية لتناول علم الكلام بمنهج جديد وقضايا جديدة.

وهذا لا يعنى التقليل أو النيل من علم الكلام وتاريخه؛ وإنما هى محاولة أن نقتفى أثر السابقين من علمائنا، وأن نقتدى بهم فنعيش مشكلات عصرنا كما عاشوا مشكلات عصرهم، ونتناول المشكلات والشبهات التى تتعرض للإسلام وقداسة القرآن والسنة النبوية كما تعرضوا لها، وأن نفيد من معطيات العلم فى عصرنا كما أفادوا من معطيات عصرهم، وألا نكتفى بترديد أقوالهم وقضاياهم التى عاشوها هم فى عصرهم هم، ولم يعد لها وجود فى عصرنا، فليس ذلك يمثل وفاء لهم بقدر ما يمثل جمودًا وتحجرًا فى مسيرة الأمة الذى حذرونا منه ونبهونا إلى خطورته.

ويتضمن هذا التصور أن نتناول دراسة العقيدة على مستويات متعددة ومتدرجة من الإجمال إلى التفصيل.

المستوى الأول: فى مراحل التعليم الابتدائى:

ويمكن أن نطرح فى هذه المرحلة قضية الإيمان بالله ورسوله وكتبه والملائكة واليوم الآخر، وأنه سبحانه خالق الكون والإنسان، وأمره بالعمل الصالح ليكون وسيلة لدخول الجنة، بأسلوب بسيط مدعوم بالآيات والأحاديث التى يحفظها الطفل فى هذه السن.

وفى المرحلة الإعدادية: يتناول بعض قضايا الألوهية:

دلائل وجود الله من القرآن الكريم، التوحيد ودلائله من القرآن الكريم.

فى الثانوى: قضية النبوة:

الأنبياء: صفاتهم وكتبهم، ووحدة الدين الإسلامى، الوحى، المعجزة، صفة الحكمة، مظاهرها، الغائية، قانون السببية، وعلاقته بالسنن بالإلهية فى الكون الطبيعى، وفى انتظام أحوال المجتمع، لا بأس أن تدرس فى هذه المرحلة علاقة

العلوم الطبيعية (الفيزياء، الكيمياء، الفلك، الجيولوجيا، الطب) بقانون السببية من جانب، وأنهما وسيلتنا لإعمار الأرض تنفيذًا للأمر الإلهى من جانب آخر، وأن ذلك جزء من عقيدتنا.

وفى الجامعة نتناول لمشكلات معاصرة التى تتصل بعقيدة المسلم ومقتضيات هذه العقيدة، من:

أ- مسئولية الإنسان وحريته.

ب- دور الراعى فى إصلاح الرعية.

ج- الرد على الشبهات المثارة ضد الإسلام من أعدائه فى الداخل والخارج، ومن المفيد أن نستلهم عطاء العلم الحديث فى تناولنا لكل هذه القضايا حتى يشعر الدارس أنه ليس منفصلاً عن الواقع الذى يعيشه، وأنه يهتم بما يملك من أدوات ووسائل متاحة فى بناء المجتمع من خلال درسه العقيدة، ومما ينبغى أن نهتم به فى ذلك الدرس الكلامى أن نربط بين العقيدة وسلامتها، ومقتضيات هذه العقيدة التى تتمثل فى شعب الإيمان الكثيرة التى حدثنا عنها الرسول ﷺ فى قوله: «الإيمان بضعة وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». إن هذا الربط بين العقيدة ومقتضياتها تخلق لدى المسلم إحساسًا قويًا وشعورًا متدفقًا أن كل عمل يقوم به فى حياته اليومية هو عبادة لله، وهو من صميم الإيمان ليستقر فى ذهنية المجتمع كله أن الإسلام دين ودنيا، وليس عقيدة نظرية قاصرة على الاعتقاد والقلب دون سند لها من العمل والسلوك كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فجمعت الآية بين الإيمان والعمل واليوم الآخر؛ لينتظم فى ذهن المسلمين أن الإيمان بمستوياته الثلاثة (الاعتقاد القلبى والعمل السلوكى واليوم الآخر) لا ينفصل واحد منها عن الآخر، وهذا ما نود أن نغرسه فى قلوب الناشئة منذ الصغر.

وسوف أشير هنا إلى بعض مظاهر الخلل فى مسيرتنا التاريخية لعل المسئولين يجدون سبيلاً إلى إصلاحها.

****

خلل فى فقه الاعتقاد

[١]

من الأمور التى كان لها دور كبير فى واقع الأمة الإسلامية هذا الخلل الخطير الذى أصاب الأمة فى فهم عقيدتها، والوقوف بهذه العقيدة عند مجرد ترديد الشهادتين وإقامة الشعائر الدينية دون ترجمة لهذه العقيدة ولا لمفرداتها إلى واقع يعيشه المسلم فى صباحه ومسائه، يحيا به المسلم سحابة نهاره وسواد ليله، وكيف اقتصر حظ المسلم من دينه على هذه الأمور النظرية والمظهرية معًا، دون أن تملأ هذه العقيدة على المسلم حياته كلها، فتشغل قلبه وتحرك جوارحه، تحت مظلة الاعتقاد الصحيح علمًا وعملاً، اعتقادًا وسلوكًا، على نحو ما كان عليه المسلمون يوم أن سادوا نصف الكرة الأرضية فى أقل من قرنين من الزمان. ولا تحسبن يا أخى أن نهضة الأمة وحضاراتها -أى أمة- سادت أو قامت دون أن يكون الدافع والمحرك لها فى نفوس أبنائها وفى عقولهم عقيدة واعتقاد، إن هذا الأمر لم تخل منه حضارة أى أمة على ظهر الأرض؛ مهما كان اعتقادها وعقيدتها صحيحة أو باطلة، مقبولة فى العقل أو مرذولة فإن العقيدة ودورها فى نهضة الأمم سنة من سنن التاريخ، وعليك أن تدور بناظريك فى الحضارة الإنسانية قديمها وحديثها، لا تجد أمة نهضت وقامت لها حضارة إلا كان الدافع لذلك والمحرك له اعتقاد أبنائها، وإياك أن تغتر بزخرف القول الذى يردده البعض عن الحضارة الأوربية أنها حضارة علمانية لا دين لها، ولا عقيدة، فإن ذلك من خلل الرأى الذى استقاه البعض من ظواهر شكلية تطفو على السطح أحيانًا فى الكتابات والإعلام الأوربى، والواقع أن هذه الحضارة مسكونة بعقيدة تحركها على محاور متعددة؛ لتحقق بذلك مقاصد وغايات تبنتها الحضارة الأوربية قديمًا، ولا زالت تحركها إلى الآن، ولعل أبرز هذه المقاصد الأوربية:

١- التفوق والعنصرية الآرية الذى صرح به أفلاطون وأرسطو قديمًا، وصرح به ريبنان ووزير خارجية إيطاليا حديثًا.

٢- مركزية الحضارة الإنسانية الذى طفحت بالتعبير عنه كتابات المستشرقين.

٣- نفى الآخر، وعدم الاعتراف به.

وهذه الركائز الثلاث تتبناها السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وجسدتها فى قالب العولمة الذى تروج له الآن، والحضارة الإسلامية ليست بدعًا فى ذلك، فإن المحرك الأساس لبنائها ونهضتها كانت وستظل هى العقيدة الإسلامية باعتبارها العامل المحرك للمسلم ليعمل ويكد، وللعالم المسلم ليبحث ويكتشف، وللحاكم المسلم ليقيم العدل ويسوس بالحق، وللغنى المسلم ليأخذ بيد الفقير والمسكين؛ لأن الكل يستظل بعقيدة تجعل منه خليفة الله فى أرضه، وأمينا على كونه يعبده العالم فى محراب العلم، كما يعبده الساجد فى محراب الكعبة، ويوم أن فقه المسلمون عقيدتهم على هذا النحو سادوا الدنيا، وعمروها، سادوها بالعلم وعمروها بالعلم، فهل لنا أن نفقه عقيدتنا على نحو عملى كما كان عليه الأولون دون الاكتفاء منها بالشكليات والمظهر.

●●●

خلل فى فقه الاعتقاد

[٢]

ومن مظاهر الخلل الذى أصاب مناهجنا التعليمية قضية الفصل بين القضايا العقدية وتطبيقها على مستوى الدرس والتعليم وعلى مستوى السلوك والعمل، مما ترتب على ذلك انفصال فى ذهنية الدارس بين الاعتقاد والعمل، بين المبدأ والسلوك. إن هذا الفصل -مع اعترافنا بأنه مدرسى- قد خلق نوعًا من الانفصال، وإن شئت فقل الانفصام بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والعمل، بين المبدأ والتطبيق وتحولت مسائل الاعتقاد إلى نوع من التطبيق القلبى الذى لا يمتد أثره إلى تحريك الجوارح؛ لتعمل تطبيقًا لهذا الاعتقاد القلبى، وهذا بالتالى قد أدى إلى نوع جديد من الإرجاء الذى زحزح العمل والسلوك عن مكانته الطبيعية فى ضرورة الارتباط والاقتران بالتصديق القلبى، هذا الارتباط الضرورى الذى عبر عنه الرسول ﷺ فى قوله: «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» فجعل عمل الجوارح علامة وآية دالة على صدق ما فى القلب، ولعل ما نشاهده فى حياة الناس وسلوكهم من الخلل الواقع فى الاكتفاء من الإيمان بالشكل دون المضمون، وبالظواهر الشكلية دون الوصول إلى الجوهر يرجع فى أساسه إلى الخلل المنهجى الذى دأبت عليه مناهجنا الدراسية والتعليمية فى الفصل بين القضية العقيدية، وما يترتب عليها فى السلوك والواقع.

ولقد تنبه إلى خطر هذه القضية الإمام أبو حامد الغزالى، وأشار فى مقدمة كتابه إحياء علوم الدين إلى الخطر الذى يعانى منه الفرد المسلم، من الانفصال الواقع بين الاعتقاد والسلوك، وألف كتابه العظيم وسماه (إحياء علوم الدين) لينبه بذلك إلى أن عقيدة المسلم ما لم يحولها المرء إلى واقع وسلوك فهى عقيدة ميتة لا تنتج أثرًا، ولا تنهض بالمجتمع؛ ولذلك جعل مقدمة كتابه بابًا مستقلاً عن قواعد العقائد أو أصول الدين ثم أخذ يشرح فى ثنايا كتابه المفردات والمسائل الجزئية التى تتفرع وتبنى على هذه القواعد الكلية، وهذه المسائل الجزئية تشكل فى مجموعها

الدائرة الكبرى التى ينبغى أن يسير فى فلكها المسلم لينفع بذلك نفسه كما ينفع مجتمعه، كما يظهر مدى حرص الإسلام على أن تكون حياة المسلم ذات هدف وغاية تستمد قيمتها من قيمة الإنسان نفسه باعتباره خليفة الله فى كونه؛ لتتحول حياة المسلم إلى حركة وعمل دائب، وبالتالى يتحول المجتمع كله من حالة السكون والموات إلى حركة نابضة بالحياة، وما لم يتحول المجتمع المسلم من حالة السكون التى يعيشها ويحول عقيدته من مستوى الإيمان القلبى إلى سلوك وواقع، يعيش فى ظله الفرد والمجتمع لن تنهض الأمة من كبوتها؛ لأن قانون النهضة مرتبط بالأخذ بالأسباب، وكفانا تمنى بدون عمل.

●●●

خلل فى المنهج والتوصيف

[٣]

لئد شغل الكثيرون من علماء الأمة بالتأليف فى تصنيف العلوم وتوصيفها، فعل ذلك الفلاسفة الكبار أمثال الكندى والفارابى، وابن سينا، والخوارزمى وابن خلدون، وجاء توصيفهم للعلوم فى معظمه على نحو يقسم العلوم إلى علوم شرعية وغير شرعية، أو علوم دينية ومدنية أو علوم الحكمة، أما العلوم الشرعية فتشمل العلوم التى تتصل بخدمة الكتاب والسنة وسماها البعض علوم الوسائل مثل: النحو والصرف وعلم اللغة والتفسير والعلم بأسباب النزول والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات، وكذلك ما أطلق مجموعة (علوم الحديث) مثل مصطلح الحديث وعلوم المتن والسند... إلخ: وعلم الفقه والأصول وعلم الكلام أو علم أصول الدين.

ويتضح من تاريخ نشأة هذه العلوم أنها كلها قد نشأت استجابة لحاجات دعت التأويل القرآنى مخالفًا فى بعض جوانبه ما أثر عن الرسول وصحابته، فهذه العلوم فى جملتها نشأت فى أحضان الكتاب والسنة ولخدمة النص القرآنى تفسيرًا وتأويلاً وضبطًا لألفاظه -ومن هنا فضل المصنفون أن يطلقوا عليها (علوم الشريعة) فى مقابل مجموعة العلوم المدنية، وترتب على هذا الوصف «شرعية» فهم خاطئ نشأ فى أذهان المسلمين أن ما عدا هذه العلوم لا يوصف بأنه علم شرعى ولا يستحق هذا النسب الشريف. وبالتالى فإن الاشتغال بهذه العلوم المدنية يكون عملا غير شرعى بل ربما نسبه البعض إلى البدعة، ومعلوم أن العلوم المرتبة حسب هذا التصنيف هى علم الفلك والطب والرياضة والهندسة والكيمياء والفيزياء.. إلخ، مجموعة العلوم الكونية التى نبغ فيها علماء كبار فى تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال البيرونى وابن الهيثم والخوارزمى وجابر بن حيان.. وغيرهم من رواد هذه المدرسة العلمية، وكان نصيب هذه الكوكبة من العلماء الغمز واللمز والنيل من عقائدهم؛ لأن بعض المشتغلين بالعلوم الشرعية وجدوا فى مؤلفات هؤلاء أقوالاً

وآراء لم يكن لهم علم بها، وليس لديهم من الكتاب والسنة دليل صحتها. وترتب على ذلك أن نشأ نوع من الزهد والعزوف عن الاشتغال بهذه العلوم حتى أن أبا حامد الغزالى (حجة الإسلام) يقول: كنت أدخل القرية أو المحلة فأجد فيها أربعين فقيهًا، ولا أجد بها إلا طبيبًا واحدًا من أهل الذمة، ولعل هذا كان بسبب التوصيف لهذه العلوم بأنها ليست مندرجة ضمن العلوم الشرعية. وهذا خطأ منهجى ينبغى أن يتدارك ويصحح؛ لأن العلوم الكونية جديرة بالوصف «الشرعى» مثل نظيراتها تمامًا، وأولى بالمشتغلين به أن يوصفوا بأنهم يمارسون عملاً شرعيًا دينيًا ندب إليه الشرع وأمر به، وقد جاء القرآن الكريم لينبه إلى أهمية وضرورة الاشتغال به فأمر به وجعل الرسول طلبه فريضة؛ لأن العلم الكونى هو المدخل الطبيعى للتعرف على الله والتعرف على صفاته، وهو النافذة الوحيدة لتسخير الكون لمصالح الإنسان وتحقيق خلافة الإنسان على أرض الله، وهو المفتاح العلمى لتحقيق خشية الله: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] أى بهذه العلوم السابقة فى الآية الكريمة، فانظر كيف جعل القرآن هذه العلوم مدخلاً عمليًا لخشيته سبحانه فى عبارة بلاغية قاصرة عن خشية الله على العباد بصنعته.

●●●

تجديد علم الكلام

[٤]

تأسس علم الكلام الإسلامى للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد مخالفيها من منكرى الأديان أو منكرى النبوات، فأسس منهجه على أدلة العقل وبراهين المنطق فى الدفاع عن صحيح العقيدة مستعينًا فى ذلك بنصوص القرآن وصحيح السنة المطهرة، وقد أبلى المتكلمون فى ذلك بلاء حسنًا، وقد أدوا دورهم التاريخى فى الذب عن العقيدة الإسلامية ودحض الأباطيل والأوهام التى كان يرددها المخالفون، والذى يقرأ تاريخ هذا العلم الرائع يجد أنه كان يهتم بقضايا ومشكلات عقائدية أفرزتها طبيعة الاحتكاك الثقافى بين الحضارة الإسلامية وأصحاب الحضارات الأخرى والقضية معروفة لا داعى لتفصيل القول فيها.

وفى مطلع القرن الثالث الهجرى وجدنا مشكلات علم الكلام تظهر الواحدة تلو الأخرى مثل مشكلة خلق القرآن، مشكلة حرية الإنسان، مشكلة الذات والصفات. وكلما ظهرت مشكلات عقائدية كان يتصدى لها علماء الأمة -رضى الله عنهم أجمعين- بالتحليل العقلى والتفنيد والشرح وبيان ما فيها من خطأ وتدليس ثم يوضحون الرأى الصواب الذى يؤيده العقل ويدل عليه الشرع بالحجة الواضحة والدليل المعقول، فأدوا رسالتهم كما فرضها عليهم دينهم. أما الأجيال التالية ونحن منهم، فقد توقفنا حيث وقفوا هم، وأخذنا نحلل ونفند ونشرح ونوضح المشكلات التى طرحت عليهم هم، والتى عاشوها فى عصرهم، وأهملنا تمامًا المشكلات التى نعيشها نحن فى عصرنا، والتى تحتاج منا أن نحللها، ونشرحها، ونتولى تفنيدها وبيان وجه الحق فيها، وأن نجعل ذلك جزءًا من مهامنا العلمية حتى ننهض بواقعنا كما نهضوا بواقعهم، بدلاً من أن نكتفى باجترار آرائهم وتكرار أقوالهم، لا يظن أحد أننى بذلك أقلل من شأن علماء الكلام أو أقلل من جهدهم كما قد ظن ذلك بعض إخواننا، ولكننى أنعى على علماء عصرنا هذا السكون العقلى، وأنبه إلى وجوب أن نفعل كما فعل الأقدمون، وأن

نعيش مشكلات واقعنا كما عاش علماء الأمس مشكلات واقعهم، وقاسوها بمقياس العقل والشرع معًا، فأخذوا منها وردوا عليها، وقبلوا من غيرها وأعطوا، فلماذا لم نفعل مثل ما فعلوا هم؟ إن واقعنا المعاصر مزدحم بالمشكلات التى لها أثرها فى عقول الناس، وفى سلوكهم، فلماذا لم نهتم بها، ونجعلها جزءًا من مفردات مناهجنا الدراسية ليتعلم الشاب من ذوى الاختصاص وجه الحق فيها، ولكى نصحح مفهومها عند الناس، خذ مثلاً بعض المشكلات التى طفحت على السطح الثقافى مثل القول بتاريخية الأديان، تاريخية القرآن، تاريخية الأحكام الشرعية، كالميراث مثلاً، فقه الجهاد، الغلو والتطرف. . . الإنسان ومكانته، الحرية. . . إلخ، هذه المشكلات تحتاج إلى بحث دقيق وتحليل ونقد وتقديم الرأى الدينى العقيدى فيها، إن مشكلات علم الكلام القديمة قد ظهرت فى ظروف تاريخية تشبه تمامًا واقعنا المعاصر، لقد طرح الغرب علينا مشكلات معاصرة تحتاج منا أن نجعل منها منهجًا فى قاعات الدروس الأكاديمى ضمن برامجنا الدراسية ليتعرف الشباب على أصول المشكلات ومصادرها وظروفها الثقافية التى أفرزتها وكيف ولماذا وفدت إلينا وما هى الأهداف والمقاصد التى يبتغيها الغرب من طرح هذه المشكلات على العالم الإسلامى. حتى نكون أوفياء لعلم الكلام وتاريخه فى الدفاع عن العقيدة.

●●●

عقيدة السببية

[٥]

من عوامل الخلل فى مسيرتنا التاريخية أننا أغفلنا تمامًا عقيدة الأخذ بقانون السببية أو الاعتقاد بالسببية، على أنها دين وعقيدة وسنة من سنن الله فى الكون، وأن القرآن الكريم قد نبه إلى أهميتها وضرورة الإيمان بها على أنها نظام ثابت فى الكون ونظام مطرد، ولا يتخلف أبدًا إلا لتحقيق مشيئة الخالق سبحانه وتعالى عند إظهار المعجزة على يد النبى تصديقًا له وتأييدًا لرسالته، ألا فليعلم المسلمون أن عصر الرسالات قد انتهى، وختم بإرسال نبينا ومعلمنا محمد ﷺ. وليعلم المسلمون أيضًا أن عصر المعجزات قد انتهى بوفاته ﷺ، ومن دلائل الإيمان به والتصديق برسالته أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن سنن الله ماضية ومطردة، لا تتخلف، وأن من طلب النهضة بغير الأخذ فى أسبابها فقد طلب المستحيل؛ ولذلك أنبه هنا إلى أهمية الأخذ بالأسباب كمدخل ضرورى للوصول إلى الغايات وتحصيل المقاصد، بل إننى أقترح أن تحتل عقيدة السببية مكانتها ومكانها فى مناهجنا الدراسية كجزء أساسى من مفردات المنهج الدراسى حتى ينشأ الجيل، وهو مؤمن بهذه القضية كإيمانه بالله وبسننه المطردة، ومما نلفت النظر إليه أن عقيدة السببية ثابتة ومطردة فى عالم الطبيعيات كما هى ثابتة ومطردة أيضًا فى عالم الاجتماع البشرى، ولا فرق فى ذلك بين نتائج القانون فى العالمين الطبيعى والبشرى.

فإن ذلك يخضع لعقيدة السببية التى عبر عنها القرآن الكريم بالسنة والسنن، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧] وللأسف الشديد فإن المسلمين قد أهملوا تمامًا الإيمان بعقيدة السببية، فلم يعتبروها فى مسيرتهم التاريخية، ولم يعتبروا بسنن الأولين كيف قامت الحضارات، ولماذا اندثرت؟ وكيف قامت الممالك، ولماذا انهارت؟ لغيابهم عن الاعتقاد بأن سنة الله جارية لا تتخلف أبدًا، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن عقيدة الأسباب محايدة لا تعرف المجاملة ولا المحاباة، فمن أخذ

بأسباب النصر لابد أن ينتصر حتى ولو كان غير مسلم، ومن أخذ بأسباب النهضة لابد أن ينهض مهما كان دينه واعتقاده حقًا أو باطلاً، صوابًا أو خطأ، ومن أهمل هذه العقيدة، فلم يأخذ بها لابد أن يجنى ثمار هذا الإهمال تخلفًا وهزائم وهوانًا ومذلة.

وأخيرًا فانظر بطرفك فى الأمم الناهضة فى عصرنا؛ لتتعلم كيف أخذت بأسباب النهضة فنهضوا مع أن منهم من يعبد البقر -حتى الآن-، ومنهم من يعبد النار -حتى الآن-، ومنهم من لا دين له؛ لنعلم من ذلك أن عقيدة السببية دين والتزام نبهنا إليها القرآن، وحذر من إهمالها، فإذا أردنا النهضة فعلينا أن نبحث عن أسبابها النفسية والروحية والمادية، لتستقيم مسيرة النهوض.

●●●

خلل فى إرادة النهوض

[٦]

مما لا ريب فيه أن واقع الأمة الإسلامية المعاصر يمثل منعطفًا تاريخيًا لم يحدث أن عاشته الأمة من قبل؛ تفرقًا فى الرأى والهدف، واختلافًا فى الأهواء والانتماءات، وبالتالى تحزبًا وتعصبًا، إذ كل حزب بما لديهم فرحون، مما يسر لعدوهم أن يلتهم أوطانهم بلدًا وراء الآخر، بعد أن حدد مواقف الأقطار الأخرى مستعملاً معهم سلاح الترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا الواقع المؤلم قد طرح على عقول المفكرين أسئلة عديدة: كيف ولماذا وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى هذا الواقع المتردى، مع أنها تملك وسائل النهوض التى حرم منها كثير من البلاد الأخرى، إن الأمة الإسلامية تملك الأرض والماء، وتملك الثروة والطاقة، وتملك العقول وأصحاب الرأى، ومع ذلك ما زالت معظم البلاد الإسلامية تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما ينسج غيرها، وتستعمل الآلات التى صنعها غيرها. فأين الخلل إذن، ولماذا وإلى متى سيظل العالم الإسلامى يحيا على هامش التاريخ بعد أن كان صانعًا له، ولعل من أهم الأسباب التى أوصلت الأمة إلى هذا الواقع المؤلم افتقاد الإنسان لإرادته وذاتيته، وخاصة أهل الرأى والفكر فى كثير من البلاد الإسلامية، فإن إرادة النهضة لا يجسدها فى الواقع إلا عقول هؤلاء العلماء ولا يترجمها إلى حياة يعيشها الإنسان إلا فكر هؤلاء العلماء، وعلى يدهم يتم النهوض بالأمة؟

وهنا يأتى السؤال التاريخى: هل هيأت الأمة الإسلامية لعلمائها ومفكريها البيئة النفسية والمناخ الفكرى الصالح لكى يشغلوا بقضايا الأمة، عليك أن تدور بناظريك فى موقف الأمم الناهضة من علمائها ومفكريها وقضايا البحث العلمى، وقارن ذلك بموقف الأقطار الإسلامية من علمائها ومفكريها لتجد الإجابة على السؤال المطروح.. كيف ولماذا وصل واقع الأمة الإسلامية إلى هذا الوضع المتردى، وأظن أنه من غير المقبول هنا التذرع بالأوضاع الاقتصادية للدولة الإسلامية؛ لأن من بين هذه الدول الإسلامية من يملك من الثروة ما لا نظير له فى البلاد الناهضة، ولكن هم عرفوا كيف وأين تنفق الأموال وتستثمر الثروات، أما نحن فقد تاهت ثرواتنا فى أضابير النزوات والأهواء الشخصية، ويقينى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

أثر الاستبداد السياسى فى إعاقة النهضة

[٧]

أعنى بالاستبداد هنا المعنى الجامع لكل مظاهر الطغيان الذى يمارسه فئة من البشر نصبوا أنفسهم وكلاء عن الله فى توزيع ثوابه وعقابه على من يريدون من الناس بدون ضوابط ولا معايير إلا التنفيس عن رغبة جامحة وهوى متبع، وليس البلاء فى ذلك قاصراً على نظام حكومى معين بل هو شائع فى معظم المؤسسات الاجتماعية والحكومية فى شتى بلاد المسلمين. ولقد عرف الكواكبى هذا النوع من الاستبداد بأنه «تصرف يقوم به فرد أو جماعة فى حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعة»، أو هو تصرف الحكومة التى لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون.

وفشو ظاهرة الاستبداد فى العالم الإسلامى قد أثر فى نهضة الأمة تأثيراً سلبيّاً، لقد قتل الهمة والإرادة والعزيمة فى الإنسان، فالإنسان حين يخالجه الإحساس بضياع حقوقه وامتهان كرامته ومحاصرة عقله، وفكره ورأيه واستلابه حق التعبير والمشاركة فى تدبير شئون وطنه، فإنه ذلك كله ينعكس على الأمة حيث ينسحب المفكر وصاحب الرأى من ساحة العمل الوطنى، وقيادة الأمة، ليحتل مكانه صاحب الهوى، وذو الثقة، فيستند الأمر إلى غير أهله والويل كل الويل لأمة أسند الأمر فيها إلى غير أهله، عند ذلك تسود النزعات الفردية ويحل الظلم والطغيان محل العدل والمساواة، وهذا هو النذير العريان فى خراب العمران وسقوط الدول.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣]، وهذه إحدى سنن الله فى إقامة الممالك وانهيارها، فإن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت

مؤمنة، فهذا قانون عام فى انتظام الملك أو انهياره، ولا علاقة لهذا القانون الإلهى بدين أو ثقافة، فمتى وجد الظلم والاستبداد فى أمة فانتظرت نهايتها المؤلمة، واعلم أن ذلك مؤذن بخراب الدولة. يقول ابن خلدون: (فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران): «اعلم أن العدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن مصيرها وغايتها انتهاؤها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم فى اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعى فى ذلك، وعلى قدر الاعتداء على الرعية، يكون انقباض الرعايا عن السعى والاكتساب، وإذا أجبر المرء على العمل تحت سيف الظلم فإنه لا ينتج إلا مقتله للوقت والجهد».

* * *

الهزيمة النفسية

[٨]

يعيش المسلم المعاصر حالة من الانهزامية النفسية يستشعر خلالها نوعًا من الإحساس بالدونية إذا ما قارن واقعه المعاصر بواقع الأمم الناهضة، وهذه الهزيمة النفسية تمثل هدفًا مقصودًا وغاية منشودة يسعى العدو إلى زرعها فى المجتمع المسلم بصفة عامة، والأمة العربية بصفة خاصة، وقد يستعين على تحقيق هدفه الخبيث ببعض الأقلام التى تربى أصحابها على موائد الاستعمار ليكونوا وكلاء عنهم وسماسرة لترويج فكرهم الانهزامى بين شباب الأمة، وقد يسعون إلى ربط هذا التخلف الذى يعيشه المسلمون بتراثهم ودينهم وقرآنهم، ويجعلون من الدين سببًا فى إعاقة النهضة، كما قال، ويقول ذلك كثير من المستشرقين. ولاشك أن الشعور بالدونية والإحساس النفسى بالانهزامية مرض خطير ينبغى اقتلاعه من بين صفوف الأمة؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى شيوع روح اليأس بين الشباب؛ فيقعدهم عن العمل والنهوض والانكفاء على الذات، وعدم المبادرة وقتل روح الابتكار والإبداع، وينبغى محاربة هذه الظاهرة والقضاء عليها بقراءة تاريخ الأمة ومعرفة النوازل التى مرت بها، وحاولت إعاقة حركتها وكيف حول المسلمون هذه النوازل إلى منطلقات لحركة الأمة لتواصل مسيرتها من جديد، وهذا يقتضى من المفكرين أن يعملوا على بث روح القوة والاعتزاز بالذات، ومعرفة أن للحضارات أعمارًا، وأن سنة التدافع ماضية بين البشر، وهى التى تحرك التاريخ وتصنعه، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وإرادة الأمة للنهوض لابد لها من قوة دافعة، تحركها لتحقيق غايتها المقصودة، وهذا لا يتم إلا بالقضاء على هذه الروح الانهزامية والإحساس بالدونية، والأهم من ذلك أن يعى الجيل الدرس المستفاد، ويأخذ العبرة من الواقع، ولا يترك الأحداث تمر فى غفلة منه دون أن يتساءل عن الأسباب، إن عقدة الإحساس تمثل عاملاً خطيرًا يعوق إرادة النهضة ويقضى على روح المبادرة، فلا تنهض النفس للحركة، ولا يكون لها نزوع إلى العمل والتغيير، بل تكون أقرب إلى الخمول ومحبة الكسل، وتفضيل القعود على النهوض، ولقد حذر كثير

من مؤرخى الحضارات من خطر هذه الظاهرة النفسية التى تنتاب الشعوب المهزومة، ما يترتب على ذلك من حدوث خلل واضطراب، فى إرادة الأمة يترتب عليه محاولة الاكتفاء بتقليد المغلوب للغالب، واتخاذ المنتصر مثالاً وقدوة للمهزوم، وما بالك إذا كان الغالب فى زماننا هو الذى يفرض علينا ضرورة تقليده ومتابعته حذو القذة بالقذة، إن تغيب إرادة الأمة للنهوض نتيجة هذا الإحساس بالدونية يشكل نذيرًا بفناء الأمة، وانمحاء شخصيتها وفقدان هويتها، وقتل خصوصيتها.

ومن أكبر مظاهر الإحساس بالهزيمة النفسية تفشى ظاهرة التقليد الأعمى لكل ما هو غربى، وعليك أن تسير فى شوارع القاهرة، وتقرأ اللغة التى كتبت بها اللافتات على وجه المحالات التجارية، هل لغة الوطن أم لغة مستوردة، ولاحظ ما يحاول البعض أن يتحلى به من استعمال اللغة الأجنبية فى خطابه العام والخاص، إعجابًا بنفسه، وأنه من طبقة المستنيرين، أليس هذا من مثيرات الأسى والألم؟

* * *

خلل فى صلتنا بكتاب الله

[٩]

لقد نزل القرآن الكريم على العرب، وهم أمة أميَّة تعيش فى جاهلية عمياء فأعاد صياغتها من جديد: نفسياً وعقلياً ووجدانياً، حتى كانت المعجزة التى أذهلت العالم حيث استطاع النبى ﷺ أن يفتح بهذه القلة القليلة فى العدد والعدة بلاد الفرس والروم، وأن ينشر دعوة الإسلام شرقًا وغربًا؛ لأنه أحسن بناء الإنسان وأجاد تربية الأمة التى صاغها القرآن صياغة جديدة فحملت حضارة القرآن إلى العالم كله؛ لأنهم حين قرأوا القرآن وفقهوا مقاصده وغاياته تحولوا تلقائيًا من عصبية القبيلة إلى الشورى، ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، قال أبو عبدالرحمن السلمى: «كنا نتعلم العشر آيات من القرآن، ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل»، هكذا صار الواحد منهم فى سلوكه، وفى علاقاته قرآنًا يمشى على الأرض، ولقد جسدت السيدة عائشة رضى الله عنها هذا المعنى التربوى النبيل حين سئلت عن الرسول ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»، فكان ﷺ يعيش بقلبه ووجدانه فى جو قرآنى ويحيا فى سلوكه بقيم القرآن، فكان عقله وقلبه مع الله وبالله، حين يقرأ تتحدث عن الله، ومع الكون فى آياته الباهرة وآلائه فى تدبر وتفكر حين يكون الحديث عن آيات الله الكونية وأسرارها، ومع دروس التاريخ وعبره حين يكون الحديث عن الأمم الماضية وتاريخهم ومصائرهم، ومع الآخرة وأحوالها حين يكون الحديث عن يوم القيامة ومصائر عباد الله فيها، فكان ﷺ يعيش مقاصد الآيات وأهدافها، ولا يكتفى بمجرد تلاوة اللسان التى قد لا تتجاوز الحناجر، وعلى هذا النحو من الفقه والتدبر والمعايشة كان موقف الرسول وصحابته من القرآن الكريم تلاوة وتأملاً ذكرًا وفكرًا، حتى تشربت قلوبهم معانى القرآن الكريم فصاغت الأمة كلها صياغة قرآنية.

ومما نجده فى واقعنا المعاصر يختلف تمامًا عما كان عليه جيل الصحابة والتابعين، حيث تحول اهتمام المسلمين بالقرآن إلى ممارسات شكلية وأعمال مظهرية

ليس لها أثر فى سلوك الفرد، ولا فى تشكيل وجدان الأمة، لقد انصرف اهتمام المسلمين بقرآنهم إلى مجاهدات مضنية فى التلاوة وضبط مخارج الحروف، بين حلقى وشفوى ولهوى، ومجاهدات مضنية فى كيفية الغن والمد المتصل والمد المنفصل، وما إلى ذلك مما يتصل بالمحافظة على شكل الكلمات القرآنية متلوة على اللسان، أما محاولة الفهم والتأمل وتحويل معنى الآية إلى واقع يعيشه المسلم، فهذا قد انصرفت عنه جهود الأمة حتى حل بها ما هى فيه.

تم الكتاب والحمد لله على وافر نعمه، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يغفر لنا ما فيه من زلل غير مقصود وأن يتقبله منا قبولاً حسنًا. آمين.

٢١ رمضان سنة ١٤٢٩هـ

٢١ سبتمبر سنة ٢٠٠٨م

* * *


من قضايا الفكر الإسلامي
الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
الجزيرة للنشر والتوزيع
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف - ت : ٥١٢٠٨٤٧